آية إخلاص وولاء وإكبار من المؤلف إلى العالم الجليل، والكاتب المجيد، والأديب الأريب حضرة صاحب المعالي "محمد حسين هيكل باشا" وزير المعارف في ٨/٥/١٩٣٨

المخلص المطيع
محمد جاد المولى

محمد صلى الله عليه وسلم

المثل الكامل

تأليف

محمد أحمد جاد المولى بك

المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر

لصاحبها: مصطفى محمد

[الطبعة الثالثة]

[منقحة مطولة، مضافاً إليها فصول، ومحلاة بالصور]

مطبعة الاستقامة بالقاهرة

١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م

فهرس الكتاب

صفحة

الباب الأول

(إلى محمد صلى الله عليه وسلم ترد الفضائل جميعها) ١

١ - إجمال ١

٢ - تفصيل ٢

ا - فضائله الذاتية : ٦

١ - مولده وشرف نسبه وكرم نشأته ٦

٢ - حسن صورته وكمال خلقته ١٠

٣ - كمال منطقه ١١

٤ - كمال عقله ١٦

٥ - نجدته وشجاعته ١٨

٦ - رغبته عن الدنيا وخشيته من ربه ١٩

٧ - احترامه نفسه ٢١

ب - فضائله الاجتماعية ٢٢

١ - جوده وسخاؤه ٢٢

٢ - حسن معاشرته ٢٥

٣ - إغضاؤه عما لا يحبه وعفوه مع المقدرة ٢٩

٤ - حسن سياسته ٣٢

٥ - طريقته المثلى فى الهداية ٣٨

٦ - ثباته على مبدئه ٤٦

الباب الثانى ٥٧

(محمد صلى الله عليه وسلم بين الرسل)

صفحة

الباب الثالث ٦٣

(الأسباب الاجتماعية والاقتصادية التى اقتضت بعثة محمد صلى الله عليه وسلم)

ا - حال الفرس ٦٣

ب - الرومان ٦٤

حـ - الهند ٦٦

د - حال البلاد العربية ٦٦

هـ - حال مكة قبل البعثة المحمدية ٦٧

الباب الرابع ٨٩

(مراحل حصـــول النبوة واستقرارها)

الباب الخامس ٩٦

(الأدلة القاطعة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم)

ا - الأدلة العقلية ٩٦

١ - احتمال صنوف الأذى ٩٦

٢ - اشتهاره بمكارم الأخلاق فى نشأته ٩٧

٣ - شدة خوفه من عظمة ربه ونسبته كل شىء إليه ٩٩

٤ - انتشار الإسلام بسرعة ١٠٠

٥ - حرصه على هداية الخلق ١٠٠

	صفحة
٦ ـ إخباره بالمغيبات	١٠١
٧ ـ اهتمامه بسعادة أمته	١٠٣
٨ ـ تجرد نفسه من الحظوظ البشرية	١٠٣
٩ ـ فرط حثه على تطهير النفوس من الأرجاس الطبعية البشرية وأوحال الشهوات البهيمية	١٠٤
١٠ ـ وصفه أمراض المجتمع ودواءه	١٠٦
١١ ـ عجز العرب عن معارضة القرآن الذى أنزل عليه	١٠٦
١٢ ـ تأييد الله له وخذلان أعدائه	١٢٦
١٣ ـ تكامل الفضل فيه	١٢٩
ب ـ الأدلة الحسية	١٣٤
إلمامة بالمعجزات ووجه الحاجة إليها	١٣٤
ضرورة المعجزة للرسول	١٣٤
حقيقة المعجزة	١٣٥
كيف تقع المعجزة للرسول	١٣٥
أنواع المعجزات	١٣٧
خصائص محمد من بين الأنبياء	١٣٧
دلائل الرسول تقوم مقام المعجزات	١٣٨
معجزاته صلى الله عليه وسلم :	١٤٠
١ ـ القرآن . . .	١٤٠

	صفحة
٢ ـ انشقاق القمر	١٤١
٣ ـ تيسير الماء لقومه على يديه	١٤١
٤ ـ تكثيره للأطعمة	١٤٢
٥ ـ شفاؤه لبعض الأمراض	١٤٣
٦ ـ انقياد الشجر له	١٤٤
٧ ـ سقوط الأصنام بإشارة من قضيب كان فى يده	١٤٤
٨ استجابة الله لدعواته	١٤٤
٩ ـ الإسراء والمعراج :	١٤٥
الموضوع	١٤٦
الفريق الأول الذى يتمسك بالشبه العقلية	١٥٢
براهين عصرية على ذلك	١٥٣
الخلاصة	١٥٥
الباب السادس	١٥٨
(محمد صلى الله عليه وسلم أقوى الناس حجة وأوضحهم دليلا)	
الباب السابع	١٧٧
(محمد صلى الله عليه وسلم أكبر المصلحين نجاحا)	
ا ـ نجاحه الاجتماعى والخلقى	١٧٧
ب ـ نجاحه فى سياسته :	١٩٦
١ ـ احتماله الأذى وتألفه من حوله	١٩٦
٢ ـ حذقه فى المعاهدات واستقبال الوفود ومراسلة الملوك	٢٠٢

	صفحة
ا ـ معاهدة الحديبية	٢٠٢
ب ـ استقبال الوفود:	٢٠٨
١ ـ وفد نصارى نجران	٢٠٨
٢ ـ وفد تميم الدارى وأصحابه	٢٠٨
٣ ـ وفد عامر بن صعصعة	٢٠٩
٤ ـ وفد عبد القيس	٢١٠
٥ ـ وفد عدى بن حاتم رضى الله عنه	٢١١
٦ ـ وفد كندة	٢١٢
٧ ـ وفد تجيب	٢١٣
٨ ـ وفد بنى سعد هذيم من قضاعة	٢١٤
جـ ـ مراسلته للملوك	٢١٥
د ـ نجاحه فى حروبه :	٢١٦
مشروعية القتال	٢١٨
غزوة بدر الكبرى	٢٢٠
غزوة الفتح	٢٢٢
الباب الثامن	
(محمد صلى الله عليه وسلم أوفى الأنبياء دينا)	٢٢٥
«تمهيد»	
مقاصد الإسلام :	٢٣٠
«تمهيد»	
خصائص الإسلام	٢٣٣
من المسلم حقا؟	٢٤٠
المقصد الأول	
(إعداد الفرد فى ذاته)	٢٤١
ا ـ غرس العقيدة الصحيحة	٢٤١
وسائل تكوين العقيدة الصحيحة	٢٤٢
ب ـ تجميل ظاهره، وتهذيب طبائعه بالعبادة	٢٥٣
المقصد الثانى	
(إعداد الفرد ليكون عضوا نافعا فى المجتمع)	٢٦٤
الزكاة	٢٦٤
الحج	٢٦٦
المقصد الثالث	
(إصلاح المجتمع)	٢٧١
أولا: إنصاف المرأة ورفع شأنها:	
إجمال	٢٧١
تفصيل	٢٧٤
١ ـ المرأة فى نظر الإسلام بوصفها بنتا	٢٧٤
٢ ـ المرأة بوصفها زوجة	٢٧٦
٣ ـ المرأة بوصفها أما	٢٧٩
٤ ـ المرأة بوصفها عضوا فى المجتمع الإنسانى	٢٨١
٥ ـ موازنة بين الرجل والمرأة	٢٨٢
٦ ـ ما اختصت به المرأة دون الرجل	٢٨٣
إباحة تعدد الزوجات :	٢٨٤
٧ ـ أسباب تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم	٢٨٦
الأسباب العامة	٢٨٦
الأسباب الخاصة	٢٨٨
٨ ـ إباحة الطلاق	٢٩٥
٩ ـ الحجاب	٢٩٩

	صفحة
النساء فى الإسلام	٣٠٥
ثانيا: الإكثار من وسائل إبطال الرق	٣١٠
الاسترقاق فى الأزمنة القديمة	٣١١
الاسترقاق عند المصريين والهنود	٣١١
الاسترقاق عند الأشوريين والايرانيين	٣١٢
الاسترقاق عند الصينيين	٣١٣
الاسترقاق عند العبرانيين	٣١٤
الاسترقاق عند الإغريق	٣١٥
الرق عند الرومان	٣١٦
وجوه الاسترقاق	٣١٧
أقسام الرقيق	٣١٧
قيمة الرقيق	٣١٨
الاسترقاق فى القرون الوسطى	٣١٨
الاسترقاق فى الأزمنة الحديثة	٣٢٠
القانون الأسود	٣٢٠
الاسترقاق فى الديانة المسيحية	٣٢٢
الرق فى الإسلام	٣٢٣
سبل التحرير	٣٢٤
مميزات الرقيق	٣٢٦
مزايا الإعتاق الاجتماعية	٣٢٦
معاملة الرقيق	٣٢٧
المقصد الرابع	
مقت البطالة ووجوب العمل	٣٣٠
المقصد الخامس	
حسن المعاملة	٣٣٤
المقصد السادس	
إقامة العدل ومحق الظلم	٣٤٢

	صفحة
المقصد السابع	
تعميم الوحدة الأخوية	٣٤٥
المقصد الثامن	
وحدة الرياسة الإسلامية	٣٥٠
المقصد التاسع	
طلب الخير لجميع الناس على اختلاف أديانهم	٣٥١
المقصد العاشر	
التنويه بمكارم الأخلاق	٣٥٤
المقصد الحادى عشر	
إقرار أن الناس طبقات ومنازل	٣٥٦
المقصد الثانى عشر	
إصلاح المجتمع إصلاحا شاملا:	٣٦٤
الأول - دين متبع	٣٦٤
الثانى - حكومة رشيدة	٣٦٤
الثالث - عدل شامل	٣٦٦
ضروب العدل	٣٦٨
الرابع - الأمن العام	٣٧٠
الخامس - توفير أسباب اليسر	٣٧٠
السادس - غرس الآمال فى نفوس الناس	٣٧١
الباب التاسع	
محمد صلى الله عليه وسلم أشرف الخلق	٣٧٧
الباب العاشر	
محمد صلى الله عليه وسلم أجدر الناس بالإيمان به	٣٩٢

	صفحة
وجوب الإيمان به	٣٩٢
وجوب طاعته	٣٩٢
وجوب محبته	٣٩٣
درجات الناس فى محبته	٣٩٥
أمارات محبته	٣٩٧
الباب الحادى عشر	
محمد صلى الله عليه وسلم أوفى مظهر للقرآن الكريم	٤٠١
الضرب الأول	
فضائل ذاتية	٤٠٤
الضرب الثانى	
فضائل اجتماعية	٤١١
الضرب الثالث	
زواجر ذاتية	٤٢٥
الضرب الرابع	
زواجر اجتماعية	٤٣١
الباب الثانى عشر	
إدحاض مفتريات بعض المفترين	٤٤١
الباب الثالث عشر	
موجز السيرة النبوية	٤٥٨

فهرس الصــــور

رقم مسلسل	الصــــورة	الموضــــوع	رقم الصفحة
١	جزيرة العرب	مولده صلى الله عليه وسلم	٦
٢	مكة والمسجد الحرام	مولده صلى الله عليه وسلم	٦
٣	غار حراء	مراحل حصول النبوة	٩٠
٤	كتاب النبي إلى المقوقس	مراسلته للملوك	٢١٥
٥	مابين الحرمين الشريفين	غزوة بدر الكبرى	٢٢٠
٦	الكعبة	الحج	٢٦٦
٧	جبل عرفات		
٨	قبة النبي عليه السلام	وفاة الرسول عليه السلام	٤٧١
٩	المدينـــة المنورة		

مراجع الكتاب

(١) القرآن الكريم

(٢) كتب الأحاديث الصحيحة

(٣) خلاصة السيرة المحمدية للمغفور له السيد محمد رشيد رضا

(٤) السيرة الحلبية

(٥) مركز المرأة فى الإسلام للمغفور له السيد الأمير على الهندى

(٦) روح الإسلام ـ له أيضا

(٧) المعاهدات والمحالفات للأستاذ حسن خطاب الوكيل

(٨) الرق فى الإسلام ترجمة المغفور له أحمد زكى باشا

(٩) رسائل السلام للعالم الكبير الشيخ يوسف الدجوى

(١٠) موجز فى تاريخ الشرق للأستاذ نولديك

(١١) سيرة محمد صلى الله عليه وسلم لمولانا محمد على الهندى

تقاريظ الطبعة الأولى

١

كتب حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الله دراز :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .

حضرة الفاضل التقى الألمعى محمد بك جاد المولى

أما بعد ، فقياماً بواجب ديني ، ووفاء بوعد سابق ، وتلبية لرغبة حضرتكم ، استوعبت الكتاب قراءة . فاستفدت كثيراً ، ومتعت نفسي بنفائس جواهره ، ووجدت فيه كل ما تبتغيه لدينك القويم : هدياً للجامحين ، ورداً لكيد الملحدين ، وشفاء لصدور المستريبين ، وتفقيهاً لشباننا الجاهلين ، وتقوية ليقين المؤمنين . بارك الله فيك ! وإنى أغبطك ، فهذا أحد مواضع الغبطة اللائقة بالمؤمنين ، وأبشرك بخلعة تاج القبول ، ببركة الرسول صلى الله عليه وسلم . فهنيئاً لك !

تجدون مع هذا بعض ملاحظات ، دعا إليها دافع الإخلاص فى خدمة الدين وأهله . نسأله تعالى أن يرزقنا التوفيق فى سائر الشؤون . إنه سميع مجيب؟

٢

وكتب حضرة الأستاذ الكبير عبد الوهاب البرعى المحامى بالمنصورة

حضرة الأستاذ الجليل

إن محمداً صلى الله عليه وسلم ليطرب فى قبره الشريف ، وتحييك روحه الطاهرة عليه الصلاة والسلام ، وتشرق أنواره الباهرة ، على كل ما تقوم به من عمل ، لأنك كتبت عنه تاريخاً نقياً ، وتحليلا طاهراً ، هما حجتاك فى يوم المعاد ، وشفيعاك أمام رسول الله صاحب الشفاعة . فلقد والله بدأت كتابك ، فى صباح يوم جمعة كنت أزور فيه بعض أقاربى ، فى قرية من قرى الريف ، فلم أتركه من يدى ، ونمت وهو إلى جانبي ، أنتقل من باب إلى

باب ، وكأنما أدخل فى أبواب من جنات تجرى من تحتها الأنهار ، أكلها دائم وظلها ، ولم أستطع أن أفارق كتابك القيم ، حتى أتممت قراءته فى اليوم التالى . وكنت كلما راقنى فصل من فصوله القيمة الممتعة ، تلوته على جمهرة الحاضرين ، لأمتعهم ذلك المتاع الحسن معى ، ولأشركهم فى هذا النعيم : من ذكر أفضل الكائنات ، وسرد تاريخ حياته الشريفة ، ومناقبه العظيمة ، ومعجزاته وأخلاقه ، وكل ما يتعلق بشخصه الشريف ، فى عبارة لا أصفها إلا بأنها تسحر القارئ ، وتأخذ بلبه .

وإنى لأشهد وأشهد الله ، أنك كتبت هذا الكتاب الكريم من قلب خالص ، وجعلته زلفى تتقرب به إلى الله ورسوله . ولو أن رجلا بلغ الكفر من قلبه مبلغاً بعيداً ، وأوغل فى الشرك وعدم الإيمان برسالة نبينا عليه السلام . أقول : لو أن ذلك الرجل قرأ كتابك ، لخرج منه وهو يرفع الصوت : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله : حقا وصدقا .

فطوبى لك أيها الرجل . طوبى لك إذ وفقك الله أن تكتب هذا الكتاب عن نبيه ، وأن تسلك فيه مسلكا لم يسبقك إليه أحد ، وأن يبلغ علمك بالرسول الكريم وحياته الشريفة ، مبلغاً يجعلك من المقربين منه ، ويجعل لكتابك من المكانة أرفعها فى نظر القارئ المنصف : من أى دين وملة .

فلقد سقت الأدلة ، دليلا يرتفع من فوقه دليل ؛ حتى بنيت بكتابك صرحا للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها يفخرون به ، وحجة يقيمونها أمام كل مكابر ومنافق . إنى لن أوفيك ما يستحق كتابك من ثناء ، ولا أستطيع أن أكون نظيرك فى التدليل والتحليل . ولكنى أمام ذلك الكتاب ، لم أجد إلا أن أقول لك : طوبى لك وحسن مآب !

٣

وكتب حضرة النطاسى البارع الدكتور زكى على ، الطبيب بمستشفى قصر العينى :

حضرة العلامة الجليل ، الأستاذ محمد أحمد جاد المولى بك :

إن المؤلف العظيم (المثل الكامل) الذى أخرجتموه للناس ، لهو أثر خالد

يتحدث بما لكم من عظمة الخلق ، وشرف النفس ، وقوة الإيمان ، وشدة التقوى ؛ وصدق الجهاد فى سبيل نصرة دين الله ورسوله ، صلى الله عليه وسلم ، وأعتقد أنه يجدر بكل مسلم تقى ورع يتمسك بدينه ، أن يطالعه بتمعن . وكفاكم هذا فخراً دائماً ، وشرفاً كبيراً

أيها العلامة ، وأستاذنا التقى الجليل ، جزاكم الله عن دين الإسلام ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، خير الجزاء . وإننى الآن أشعر بالسعادة والسرور العظيم ، حين أهدى إليكم رسالتى فى الطب العربى ، راجياً أن تتقبلوها بقبول حسن . وتفضلوا بقبول أشد إعجابى وثنائى ، ومزيد تحياتى واحترامى .

٤

وجاءنا من حضرة صاحب الفضيلة العالم الفاضل الشيخ محمود شويل المدرس بالمسجد النبوى الشريف :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على نخبته من بريّته ، أفضل داع إلى توحيد ربه ، سيدنا محمد وآله وحزبه وصحبه .

إلى الأستاذ الهمام ، السيد محمد جاد المولى بك ، وفقه الله لمرضاته ، وجعله ذخراً للاسلام ينفع أبناءه ، ويربى أهله ، ويغذى رجاله آمين .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد فقد ورد علينا بالمدينة المنورة ، حاوية الجثة المطهرة ، التى أفاض صاحبها صلى الله عليه وسلم فى حياته على العالم نوراً ، وأمدهم بحياة من الوحى المنزل عليه — كتابك المسمى (محمد المثل الكامل) . فألفيناه حقيقة مثلا أعلى فى موضوعه ، لم يسبق إليه ناسج ، ولم يعرج على مثله كاتب ، فكان حقيقة كمعجزة بيانية ظهرت بقلمك أيها الفاضل ، كما أنها دلت على أن فى الأمة الإسلامية الآن رجالا أفذاذاً ، لم تلعب بعقولهم زخارف الالحاد ، ولم تستلبهم بروق المروق ، فحمداً لله سبحانه أن أوجدك فى هذا الزمن ، محيياً آثار سلفك ، مجدداً تراث أجدادك ، إذ قمت بتلك الفضيلة ،

وهاته المنقبة الفذة ، التى دلت على قوتك الدينية وعبقريتك الاسلامية ،

٥

وكتب حضرة صاحب الفضيلة ، العلامة الجليل ، الألمعى التقى الورع الشيخ يوسف الدجوى ، من هيئة كبار علماء الأزهر الشريف

حضرة صاحب الفضيلة والعزة ، الأستاذ الكبير ، والعلامة النبيل ، محمد جاد المولى بك .

أهدى إليك من التحيات أعطرها ، ومن الإكبار والإجلال المقرونين بالإعظام ، بقدر ما منحت من فضل وكمال،وتقوى وإيمان .

وبعد فقد قرأت كتابكم (محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل) فإذابك كاتب مطبوع ، موفور الحظ من الإجادة ، ممتاز بصفاء الديباجة ، وجمال البلاغة ، ووضوح المعنى مع سمو النزعة . وإذا بك قد أودعته كثيراً من طرائف الحكم التى شهدت بصفاء الروح ، وغزارة المادة ، وسعة الاطلاع ، ودقة التعبير ، وشرف الغاية ، ونبالة المقصد . قد جمع فأوعى : علماً وأدبا ، وفضلا ونبلا ، وأخلاقا ونوراً . وعلى الجملة فكله حكم شافية كافية ، تضمنتها ألفاظ بايغة سهلة التناول ، بعيدة عن كد الفكر ، شأن المطبوع . زانتها معان رفيعة ، مفعمة بقوة التحقيق ، وحسن الاختيار ، مكسوة حللا من التوفيق ، وبراهين من التأييد ، جعلت قطوفها دانية لأبسط العقول ، وإن كانت من العظمة والجلال بمكان . قد صورت هذا النبي الكريم ، ومثلته أبدع تمثيل : تمثيل جدير أن يحرك من النفوس الصافية عشقها البالغ لما انطوت عليه تلك الحياة من كمال ، وما اشتملت عليه من جليل الخصال ، وروعة الاعتبار ، فكنتم مؤمنين حقا ، من ورثة الأنبياء صدقا ، تنظرون بنور الله

فجمعتم من الآداب الدينية ، والتعاليم الاجتماعية الخلقية ، مادل على عقل ناضج ، ودين قويم ، وخلق عظيم ، ونظر متسع ، وقريحة وقادة ، وفطرة

سليمة ، ونظر ثاقب ، دل على أن العلم لا آخر له . وأن الفضل لا حد له ، وأن النبوغ لا يتناهى

تلك صفات قد أنارت لكم الطريق ، وأوضحت لكم الحقائق ، وجعلتكم من الذين اتخذوا من علمهم ودينهم ، وتقواهم ويقينهم ، أداة صالحة لإدراك المثل الأعلى من الكمال ، فأبرزتم للناس خير صورة دينية اجتماعية ، تدعو إلى الإعجاب والسرور ، كما تدعو إلى العبرة والخشوع : صورة يخر لها علماء الاجتماع إجلالا وإكبارا ، وأساتذة علم النفس دهشة وحيرة

فكنتم من رسوخ البحث وصحة التحليل فى أعلى ذروة . ومن معرفة قدر ذلك النبى الكريم ، والرسول السيد السند العظيم ، محمد صلى الله عليه وسلم فى المحل الأسنى ، والمقام الأسمى

محصتم الحقائق بأحسن أسلوب وأبدع نظام ، فملكتم المشاعر بما وفقتم إليه من جمع شتى المزايا ، وأنخر الشمائل . وهو توفيق عزيز ، يمن به الحق تعالى على من شاء من خاصة عباده :

جمعت به السعادة فى نطاق وأسباب الهداية فى قران

فكان شافيا للنفوس ، مبرئا لها من سقامها ، رادا إلى العقول الشاردة رشدها ، وإلى النفوس المجدبة صوابها . فلله كتاب حوى من اللآلىء أغلاها ، ومن التحقيقات أدقها ، ومن المباحث الأنيقة أوسعها وأعلاها ، ومن كريم الفضائل أجملها وأوفاها . ولا غرو فأنت نسيج وحدك !

وما أنس لا أنس موقفك الذى أرضيت به الله ورسوله ؛ بمؤتمر المستشرقين (بأوربة سنة ١٩٢٨) ، إذ كنت تقرر البراهين الساطعة ، من التواريخ الإسلامية والفرنجية ، والأدلة العقلية ، على صحة ما تقول ، وعلو كعب الرسول ، حتى صفق لك أعداء الدين ، وزمر المنادين ، خضوعا لمنطقك ، وتأثرا بسحر بيانك ، فعجبا لك ! عالم دينى ، وفيلسوف اجتماعى ، وشرقى

وغربى . . . أأعجمىّ ، وعربىّ !!

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالَم فى واحد

وبعد فقد بذلت لأمتك الخالص من حقائق الدين ، وصفو اليقين ، وشمائل سيد المرسلين ؛ ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حىّ عن بينة . فكان كتابك :

كالبيت أُفرِد لا إيطاء يدخله ولا سناد ولا فى اللفظ إقواء

فكان لزاما على المنصف أن يقدر لكم هذه المواقف المشهورة ، ويعرف لكم تلك المساعى المشكورة ، التى ردت كثيرا من الشبهات ، وقضت على تلك الخزعبلات التى أذاعها هؤلاء الزعانف الذين عميت بصائرهم ، فخبطوا خبط عشواء ، ورددوا مقال العابثين ، وصدى صوت الناعقين ، فكانوا أعظم الناس جهلا بمزايا هذا النبى الكريم ، وأكبرهم عداء لذوى اليقين من الراسخين ، وأشدهم طعنا على ماجاء فى الدين : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ . ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ . لقد وقفت لهم موقف المرشد الناصح الأمين ، فجزاك الله خيرا عن الإسلام والمسلمين ، وجعلكم من الذين أنعم الله عليهم : من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين

وختاما أرجو أن تتقبلو أسمى عبارات الاحترام والإعظام ، والإكبار والإجلال . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

تقاريظ الطبعة الثانية

وكتبه فقيه عصره، وآية زمنه، حضرة صاحب العزة والفضيلة الأستاذ العلامة أحمد إبراهيم بك أستاذ الشريعة الاسلامية بكلية الحقوق بالجامعة المصرية يوم الاثنين: ٧ ربيع الأنور سنة ١٣٥١ — ١١ يوليه سنة ١٩٣٢:

إلى ذى النفس الزكية القوية

صاحب العزة الأستاذ محمد جاد المولى بك (حفظه الله)

تناولت بيد الشكر هديتك القيمة، «كتاب محمد (صلى الله عليه وسلم) المثل الكامل»

فوجدت الكتاب بطبعته الثانية، قد ازداد حسنا على حسن، وجمالا على جمال، بحسن إخلاصك فى العمل لله ولرسوله

ولقد سررت جد السرور، بنفاد الطبعة الأولى، فى أقل من الزمن الذى قدرته لذلك، وتفاءلت بذلك خيرا، من إقبال الناس عليه. وعلمت أن المجهود إذا كان مبذولا لله، فهو غير ضائع، بل النفع به لاجرم حاصل بإذن الله تعالى

وحسب المخلص جزاء فى هذه الحياة الدنيا، أن يرى بعينه ثمرة عمله، فيغتبط بذلك، وتفرح نفسه، ويرتاح ضميره، والجزاء الأوفى عند الله تعالى فى العقبى

ولقد وفقت أيها الأخ، (ولازلت موفقا بنعمة الله وفضله) بما صورته للناس بقلمك البليغ، فى تلك الحياة الطاهرة التى كلها خير وبركة على العالم أجمع، حياة واسطة عقد الأنبياء، وخيرة المخلصين الأصفياء، سيدنا ومولانا محمد صفوة الخلاق، وسيد الوجود على الإطلاق، (عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم)؛ فأبرزت للناس عما ارتسم فى مرآة نفسك الصافية، تلك الصورة المشرقة بنور ربها، وذلك الجمال الباهر، فكان ماصورته الحقيقة بعينها، وإن كان التصوير بقلم ساحر. ثم تناولت كل ماجاء به سيد المصلحين، وإمام

الهادين ، من كل نواحيه : من مسائل العقائد ، والعبادات ، والأخلاق ، والاجتماع ، والتشريع ، والسياسة . . . فوفيته حقه من البيان ، بكلام موجز سهل متين فصيح ، يخرج منه القارئ ، وقد تجلت له صورة الإسلام ورسوله الأعظم كاملة ، وقد وضحت المحجة ، وقامت الحجة ، ونصع الحق ، وانقطع العذر.

ولقد أحسنت كل الإحسان ، بما أوردته من المقارنات التي يستبين بها فضل الاسلام على غيره ، «وبضدها تتميز الأشياء» . وإن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد . وكان ذلك كله مما به جاد المولى ، على عبده جاد المولى ؛ فبارك الله فيك وفي عملك ، وشكر لك حسن ماصنعت. وسلام عليك وعلى عباده الذين اصطفى ، ورحمة الله وبركاته ؟

وكتبه : أحمد إبراهيم إبراهيم

وكيل كلية الحقوق بالجامعة المصرية ، وأستاذ الشريعة الاسلامية بها.

— ٢ —

وكتب إمام اللغة والأدب ، ونابغة المنظوم والمنثور ، الأستاذ الكبير السيد حسن القاياتي :

القاهرة : في يوم الخميس ١٣ من يوليه سنة ١٩٣٢

العالم النبيل الأستاذ محمد بك جاد المولى

تحية وتكريما ، وبعد ؛ فقد جاءتني تحفتك الكريمة ، بل كتابك المبتكر «محمد» (صلوات الله عليه).

أما أنا ، فلست أدري (يشهد الله) ، بأية هاتين المنتين الكبيرتين أنا مغتبط معجب . وكلتاهما تملك النفس ، وتستبي اللب ؟ أبجميل التذكر ، وحسن التقدير ؟ أم بهذا الكتاب الذي أطلعته في سماء الأدب والعلم ، آية في طرافة التفكير ، وجدة الأسلوب ؟

أبعث إليك أيها الأستاذ النبيل ، من قلب مخلص بالتهنئة مرتين : مرة على

برّك بالأدب والعلم ، وثانية على أنك بصلاح نفسك ومبرتك ، قد أرضيت محمداً ورب محمد .

أكثر الله من أمثالك فى العلماء العاملين ، وحمدا لك وشكرا؟

حسن القاياتى

— ٣ —

وكتب نابغة شباب فلسطين الأستاذ عرفات الدويك (بكالوريوس فى العلوم والفنون) مساعد مدير مدارس قضاء الخليل ، ومربى سمو الأمين نايف ، نجل سمو الأمير عبد الله المعظم ، ومؤسس المكتبة الدويكية :

(محمد صلى الله عليه وسلم) المثل الكامل

إلى حضرة صاحب العزة محمد أحمد جاد المولى بك

مراقب بمجمع اللغة العربية الملكى

ألق نظرة عجلى ، فى لمحة خاطفة ، متفحصاً فى ومضة بارقة ، على أحوال البشرية فى هذا العصر ، تجد عالماً مضطرباً ، بشرية متعثرة فى دياجير مدلهمّة ، لا تدرى كيف تسلك السبيل إلى المثل العالى ؟ فتراها متباينة فى أخلاقها ، متصدعة فى ألفتها ، قد انفصمت عرى أخوتها ، وبترت أسباب شملها ؛ فافترقت بها السبل ، وتشاكست النفوس ، واستمرت العداوة والبغضاء بينها . فمن قوى يجنف على ضعيف فيظلمه بقسوة لم تهتد إلى الرحمة سبيلا ، إلى أمير يسير رعيته لخيره وحده .

لم تتواضع هذه البشرية المصطخبة الجياشة ، على شرعةموحدة ، أومنهاج يوضح السبل . بل ترى كل فرد قد ركب رأسه ، وولج مهيعه متعرجاً فى نزعة ثائرة صاخبة ، لم تلج باب الحكمة والأناة ، والتبصر والتدبر .

هنا أمة تتأهب لغزو أخرى ، وهناك شعب يئن من ظلم فادح ، وقسر مرهق ، قد استحكمت ربقة العبودية فى عنقه ، فطفق يتلمس سبل الخلاص فلا يجد لمعة من أمل ، أو ظهيراً يعينه على إدراك طلبته ، ونوال حريته .

ترى هذا قد كشر عن أنياب دامية محدودة ، يتوثب لينقض على أخيه ، وذاك يقلب وجوه الرأي متربصاً دائرة السوء بمناجزه .

هذه هي الإنسانية تسير على أبواب مرداة بعيدة الغور ، تتقاذفها مؤثرات نفسية ، وتقاليد مقوّضة ، ونظم وعادات فاسدة ، ووراثات جائحة جارفة .

فلو التفتّ مقلباً بصرك فيما حواليك ، لما وقع على نفوس تدرعت بالحلم ، واستنارت بنور العلم ، نفوس وشجت فيها الرحمة ، أو نَبَتَ غَرْسُ العطف .

لهذا ، حار علماء الاجتماع ، فى تعرف سر هذا الداء الذى استطار شرره ، وتعاظم ضرره . فمن قائل : إن « الرأسمالية » هى الداء الذى نغل فى جرحها وتمكن من تقويض هيكلها ، ذاهباً إلى أن خير مبضع لشطره ، ودواء لاستئصال شأفته « الاشتراكية » ، ولو أنهم اتّأدوا ، وتريثوا ونظروا بعين خالصة من كل هوى ، لعلموا أن أصل الحياة وحدة هذا الكون ، وارتباط مافيه برابطة وثيقة من أصل الوجود . ينادى على ذلك قول الله : « يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ؛ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ . » ، « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ » .

وقد ثبت فى أحدث النظريات العلمية التى تسير مع القرآن جنباً إلى جنب أن أصل الانسان واحد ، وإن ترامت به الأقطار ، واختلفت الألوان ، وتباينت اللغات ، وافترقت النظم والعادات . فلم إذاً هذا التدابر ، وذاك التناحر والتنافر ؟ ولم هذه الغواية المتأثلة فى النفوس ، وتلك الضلالة المتمكنة فى الأفئدة والقلوب ، ودواء هذا الداء دان منا قريب ؟

وإذا كان لابد لبنى الانسانية من اجتماع على خير ، فاعلم (قيض الله لك الرشد) أن هناك شرعة بينة محكمة ، ومنهاجاً مشرقاً مضيئاً ، معبداً منقاداً ،

يوحد صفوفها ، ويؤلف بين قلوبها ، كما كان فى عصر أقرب مثلا ، وأدنى مشابهة من عصرنا هذا ، حينما كانت دولتا الفرس والرومان تسومان العالم ظلماً ، وترهقانه حيفا . فمن شرائع فاسدة استغلها الأشراف لمصالحهم ، وتكميل دواعى سرفهم ، وتفنكهم ، إلى تدهور خلقى شامل ، وفساد عادات مستحكم ، وانتثار ألفة محصد ، وتصدع وحدة ترجف جوانبها ، ووهى شعبها .

لولا أن أشرقت تلك البعثة فى بطن واد غير ذى زرع ؛ فأضاءت لها أرجاء العالم ، واقتطفت من ثمار هداية تلك الروح الملهمة رشداً وعزة وسعادة ، فتوحدت جهودها ، وتضافرت على المجد أسس عزتها .

ولئن كان يقول بعض علماء النفس : إذا أردت أن تصبغ العالم بصبغة دينية أو علمية أو سياسية ، وتجعله يدين لفكرة واحدة ، ويسعى لهدف موحد ، فما عليك إلا أن تغرس تلك الفكرة فى نفوس النشء الحديث ، فلن تمضى حقبة إلا وقد نما ذلك الزرع واستحصد ، وآتى أكله ضعفين ، كل حين بإذن ربه .

وماهى تلك الفكرة النبيلة الغاية ، الشريفة المقصد ، التى تنتشر بها ألوية المحبة خفاقة ؟ وماهو ذلك الهدف السامى ، الذى إذا ولينا وجوهنا شطره ، وعملنا على تحقيقه ، بدل الضعف قوة ، والذل عزة ، والفقر غنى ، والتفرقة وحدة وألفة ، والجبن شجاعة ، والخمول ذكاء ونباهة ، والكذب صدقا ، والاستكانة إباء ، والانحطاط رفعة ، والبغض محبة ، ونكث العهد وفاء ، والأثرة تضحية لصالح المجموع ؟

تلك هى فكرة وحدة الوجود ، والرجوع إلى الجرثومة الأولى . وذلك الهدف هو المثل الأعلى ، الذى يجب أن نوغل فى الاسراع إليه ، سيرا على تلك السنة . وتخلقا بأخلاق تلك الشخصية الكاملة . المملوءة حياتها بمكارم الفعال ، وجلائل الأعمال ، والمترعة بالمثل العملية العليا ، التى أراد الأستاذ محمد جاد المولى بك تصويرها فى كتابه «محمد المثل الكامل» فجاءت قبسا من

نور تلك الشخصية ، وصورة حية ناطقة ، بما أفرغ عليها من دقة إبداع ، وجمال أسلوب ، وحسن تحليل ، وقوة ربط . وإحكام سبك ، حتى كأن الحوادث تتساوق إليك أرسالا ، فى بيان زانه شدة عارضة ، وقوة لسن وفصاحة ، مع علم زاخر ، وخبرة ثرة ، واعتماد على الثبت الصحيح فيما صححه الثقات . ينادى الاخلاص فى تصوير مايريد من هذه الحياة العبقرية ، التى كانت لأعظم مثل سام فى صفحة هـذا الوجود وسجل تاريخه : حياة جديرة بأن تكون شرعة البشر عامة ، وحقيقة بأن تصبح مثلها الأعلى ، إذ اصطفى الله محمدا من سائر خلقه ، فهو أعلى رسله درجا ، وأكملهم شريعة ، وأشرفهم عنصرا . جمله الله بحميد الشمائل ، وحلاه بأكمل الفضائل ، فرفع للفضيلة منارا . وشب لهـا فى أعلى يفاع نارا ؛ إذ جاء بالسمحة البيضاء ، التى ليلها كنهارها ، فأمحى بها الليل . ولئن أرعد المبطلون فى ذلك وأبرقوا ، فما كان إلا كما قال الله : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فإذا هو زاهق »

سمحة بيضاء ، فيها توحيـد للثقافة ، وتقريب للفـكر البشرى ، ورفع للمستوى الثقافى والاجتماعى . فإذا كان لابد لنا من لَمِّ شعث ، ورأب صدع ، وتوحيد جبهة ، وجمع كلمة ، وخلق ألفة ، وسير حثيث ، حتى نتبوأ صهوة المجد ، ونقتعد غارب السؤدد ، ونعيد مجدا دثر ، وعزا عفى وانطمس منه الأثر ، ونلحق بالأمم التى أدلجت ونمنا ، وتقدمت وتقهقرنا – فلامندحة عن ترسم سيرة هذا المصلح الأكبر ، والسير على سنته ، والتمسك بشريعته التى تتفق وكل جيل ، وتصلح لكل عصر . فإذا فعلنا ذلك أصبحنا أمة قوية عتيدة منظمة مرهوبة ، واثقة من حياة ماجدة ، ممكّنا لنا فى الأرض كما مكن الله لآبائنا من قبلنا . فنشر هـذه الفضائل أمانة فى عنق حاملها وجب أداؤها ، إذ تلك الشمائل هى الدستور الثقافى العام الشامل لجميع مناحى العمل فى الحياة . وهناك يتم الله نوره ، ولو كره الكافرون .

هذه الفضائل التى دبجت شيئا منها يراعة الأستاذ جاد المولى بك ، فكانت

رشفة من وابل مدرار ، وقطرة من زواخر البحار ؛ إذ كل إفراط فى تصوير فضائله تقصير ، وكل إكثار فى الكشف عن بدائعه (صلى الله عليه وسلم) اختصار ، فقال : «خير البرية طفلا ، وأنجبها كهلا ، أطهر المطهرين شيمة ، وأمطر المستمطرين ديمة . وهو خير أسوة للفرد فى قبيلته ، والزوج مع زوجه ، والأب مع ولده ، والمربى مع تلميذه ، والواعظ مع مستمعيه ، والجندى فى حومة الوغى ، والقائد فى تدبيره ، والمتشرع فى أحكام شريعته ، والقاضى فى قضائه ، والسياسى فى حكومته ، والملك فى رعيته ، والمسالم لأوليائه ، والمحارب لأعدائه ، والعابد فى محرابه ، والزاهد فى قناعته . كل أولئك يجدون من حياته العملية مُثلا يحتذونها ، وروحا يقوون بها على مزاولة أعمالهم ، وإماماً يسيرون عليه فى تحقيق مآربهم ، ومردا يرجعون إليه عند حيرتهم ، وإن اختلفت مشاربهم ، وتباينت ألوانهم»

وماذا عسانى أن أحبر فائقا أبكار المعانى ، واصفا هذا السفر الجليل فى مقدمة وجيزة ! فإنى إن فعلت ذلك فلا إخالنى شاقا غبار الأستاذ ، من جمال معنى يترقرق الإبداع فى جبين لفظه ، وخلابة رونق تغشى الأبصار بباهر بلاغتها . وإحكام تنسيق لحوادث محكم نسجها . ولا نستبق القارئ الكريم ببيان بعض مافيه حتى يدخل هذه الروضة الأنف ، التى لن يخرج منها حتى يتفحصها زهرة زهرة ، ملتقطا من درر مؤلف الغوالى كل واسطة عقد من هذه الحياة ، التى هى حلية جيد الدهر ؛ بأسلوب ناصع ، وبيان رائع ، وذرابة لسان متصل بجلال خالقه ، وسعة اطلاع صقلها الطبع الصافى والرغبة الصادقة فى إظهار الحقائق العلمية

فله على جهاده المتواصل ، وشدة دأبه ، ومداومة طلبه ، أجر الصابر ، وجزاء الشاكر ، والله ولى العاملين .

خلاصة مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى له المثل الأعلى . والصلاة والسلام على محمد عبده المصطفى ، ورسوله المجتبى ، وصفيه المرتضى ؛ المؤيد بالمعجزات الباقية ، والآيات الباهرة التى وصلت إلينا بالأسانيد الصحيحة والأخبار المتواترة . وعلى آله مصابيح الدجى وصحبه نجوم الهدى .

أما بعد : فإنى طالعت ما أدى اليه البحث من المثل الكاملة ، التى صورتها العقول البشرية جيلا بعد جيل ، فألفيتها مظهرا لبيئة الحكماء الذين تمثلوها وأمزجتهم وعقائدهم وطرق تفكيرهم . وأنها على الدوام فى تدرج وتحول وفقا لمقتضيات الزمان والمكان ، وتخفيفا للأمانى التى تجول فى صدور بنى الانسان ، وأن أحدا منها لا يصلح لذلك أن يكون هداية عامة لبنى الانسان جميعهم على اختلاف زمانهم ومكانهم .

لما كانت سيرة محمد صلى الله عليه وسلم من مولده إلى مماته ثابتة ثبوتا لامرية فيه : فجميع أعماله مدونة ، وأحاديثه مسطرة ، شاملة لما يحتاج إليه بنو البشر فى معاشهم ومعادهم ، وحياتهم ملأى بالمثل الصالحة الكفيلة بإنهاض بنى الإنسان ، من تثقيف عقولهم وتقويم أخلاقهم ، وإصلاح شؤونهم - كان هو المثل الكامل .

والله أسأل أن يهدى الناس إلى اتباع سنته السنية ، واقتفاء سيرته الزكية ، والاقتداء به فى أخلاقه وأفعاله ، والتأسى به فى حربه وسلمه ، والأخذ بقوله ، والرضا بحكمه ، والعمل بدينه ؛ فهو آية لمن توسم ، وجنة لمن استلأم ، وعلم لمن وعى ، وحديث لمن روى ، وحكم لمن قضى .

وقد جعلت الكلام على عشرة أبواب ليكون أنظم فى البحث ، وأقرب للوعى ، والله المستعان وبه التوفيق . سبحانه نعم المولى ونعم النصير .

خلاصة مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ذى الطول والإنعام ، والصلاة والسلام على خير الأنام ، وآله وصحبه الهداة الأعلام . وبعد : فلما طبع كتاب « محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل » طبعته الأولى ، أقبل الناس على اقتنائه ، حتى نفد ماطبع منه فى أقل مما قدر له . وقد كان من حسن التوفيق أن تناولته يد طائفة كبيرة من جلة علماء الاسلام فى سائر الأقطار . فقرءوه قراءة تمحيص ، ونظروا فى أبوابه وفصوله نظر تدقيق ، ثم كتبوا لنا بما عن لهم من آراء موفقة ومدح لانراه إلا حسن ظن منهم بنا ، وتفضلا علينا ، وتشجيعا لنا . ونحن لا يسعنا إزاء هذا كله إلا أن نقدم لهم جزيل الشكر على ماأسدوا من خير ، وقدموا من نصح ، قياما بواجب الدين ، وذيادا عنه

وإنا نعيد طبع الكتاب فى ضوء مابين أيدينا من الآراء السديدة ، ومابدا لنا حين أعدنا النظر فيه بعد الطبعة الأولى . ورجاؤنا فى الله . أن يبدو فى ثوبه الجديد أحسن وضعا وأحكم صنعا ، وأنق ديباجة ، وأسلس عبارة ، وأوفى بالغرض المقصود منه . وأن يحقق سبحانه مانصبو إليه من إحياء الفضيلة ، وبعث الهمة بالارشاد إلى المثل الكامل ، من أخلاق سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته الطاهرة ، ويهدينا إلى سبل الخير وخير السبل ، إنه سميع مجيب ، وبالإجابة جدير .

مقدّمة الطبعة الثالثة :

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحانك اللهم ، لا نحصى ثناء عليك ، وهبت الإنسان نعمة العقل ، وخصصته بهذا الفضل ، فعرفك به كل العرفان ، وآمن بك حق الإيمان ، إلا من فسدت فطرته ، وكتبت شقوته .

وحمدا لك اللهم أن هديتنا إلى توحيدك ، فكنا فى المؤمنين من عبيدك ، نرجو ثوابك ، ونخشى عقابك ، ونبتغى إليك الوسيلة ، ونسلك إلى هداك سبيله .

ثم الصلاة أزكى الصلاة ، والسلام أتم السلام ، على نبيك الأكرم ، ورسولك الأعظم ؛ مصطفاك لإبلاغ الرسالة ، وإخراج الناس من الضلالة نبراس الحق ، وإمام الخلق سيد ولد آدم ، محمد صلى الله عليه وسلم .

أما بعد : فقد نفدت نسخ الطبعتين الأولى والثانية من كتابى : «محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل» فلما طلب إلىّ أن أعدّه للطبعة الثالثة ، جردت له سن القلم ، وبعثت له الهمم ، فطوّلت فيه غير المطول ؛ وفصلت منه المجمل ، وزدت عليه فصولا أخرى ، وأضفت إليه بحوثا شتى ، حتى بلغت فيه بحمد الله غاية المراد ، وبلغ حجمه الضعف أو كاد .

وليست طريقة هذا الكتاب بسبيل مما جرى عليه من ألفوا فى السيرة ، على تباين كتبهم الكثيرة ، فهم إنما يؤرخون حياته الشريفة بحسب زمانها ، وما يتبعها من الوقائع ودورانها ؛ وإنما رأيت أن أعدل عن ذلك إلى طريقة أخرى ، يصبح النفع بها أتم ، والفائدة منها أيسر ، والجدة فيها أظهر ؛ وذلك أنى

عقدت الكتاب أبوابا ، وخصصت كل باب منها بشأن من عظام الشؤون التي تضمنتها حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أو أسفرت عنها جهوده الفذة في بث الدعوة ، وإعلاء كلمة الله . وقد جعلت من همي في هذه الأبواب أن أدير الحديث في كثير من خصائص الإسلام ، وأفصل القول في سياسة هذه الشريعة الغراء في إصلاح البشر ، ولا سيما المسائل التي تثور فيها عجاجة البحث في هذا الزمن ، والشبهات التي تتقاذفها أقلام المعاصرين من الكتاب .

وها أنذا أضع الكتاب بين يدى قارئيه فإن نفع الله به ناظرافيه ؛ كان ذلك غاية الآراب ، وأقصى ما يرتجى من الثواب .

والله المسؤول أن يوفقنا جميعا إلى القول الصالح ، والعمل الصالح ، وحسن الختام؟

الباب الأول

إلى محمد صلى الله عليه وسلم تردّ الفضائل جميعها

---

(١) إجمال

اختص الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بالمحامد الكثيرة، والمآثر الأثيرة، وأظهر على يديه الآيات، وأقام له الألوية والرايات، وفضله على خاصته وأحبابه، وأثنى عليه فى غير موضع من كتابه، ونصره بالرعب مسيرة شهر، وأبقى معجزته مابقى الدهر، وكلأه بعنايته وشمله برعايته، وأيده بالبراعة واللسَن، وركب فيه كل خلق حسن، وآتاه جوامع الكلم، وحض على الاقتداء بهديه، وأمر بامتثال أمره ونهيه، وأجرى جوارى الخير على يديه، وأوحى إليه وناجاه، وأراه من آياته الكبرى، وكرّمه فى الدنيا والأخرى، وأسبغ عليه من القبول أحسن المطارف، وأولاه كثيرا من الخصائص، وسوّاه فعدله، وأدّبه فأحسن تأديبه، وعلمه مالم يكن يعلم، وأرشده إلى حل كل مشكل ومبهم، وجبله على الصيانة والعفاف، وأقام به ميزان العدل والإنصاف، وأفرده بإيداع سره المصون، وعضَده بكتاب كريم فى كتاب مكنون، ومنح جانبه العزيز لينا، وذاته الكريمة لطفا، وفتح به أبصاراً عميا، وآذانا صما. وقلوبا غلفا. ولم يبعث نبيا إلا ذكر له نعته ومسلكه. وأخذ عليه الميثاق بالإيمان به ونصره إن هو أدركه. ولم يعط أحدا من الأنبياء فضيلة إلا أعطاه مثلها وزيادة: نزه لسانه عن النطق بهواه. وفؤاده عن الكذب فيما رآه.

وجنبه الزيغ وزكّاه . وعصمه من الأغراض ، وأناله من نيل الكرامة غاية السول ، وقرن طاعته بطاعته فى قوله تعالى : (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ). وسماه فى كتابه نورا بقوله تعالى : (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ). وشرح له بالرسالة صدرا . ورفع له بذكره معه فى الشهادتين ذكرا ، وأيده بأظهر البراهين ، وأبهر المعجزات ، ودرأ العذاب عن أهل مكة لكونه بواديهم، فقال تعالى : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) وطهره من الأقذار والأدناس ، ودل على عصمته فى قوله تعالى : (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) وأحسن مخاطبته فى سورة ن ، ووعده فيها بأجر غير ممنون ، وأثنى عليه الثناء المستطاب العظيم ، بقوله تعالى : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ).

(٢) تفصيل

إذا تصفحنا سيرة العظماء الذين شاد بذكرهم التاريخ ، وجدنا أن محمدا عليه الصلاة والسلام أرفعهم ذكرا ، وأبقاهم أثرا ، فما عهد التاريخ رجلا من عظمائه قد أهاب بأمّة كالعرب ذات بأس وصراحة وحميّة وإباء ، وذات خيال وتصور ، يدعوها أن تخلع نفسها مما هى فيه ، وأن تضع أعناقها للحق الذى لم تألفه حقا ، وأن تعطيه مع ذلك محض ضمائرها ، وهم لايرون من أمره ذلك إلا قلة وهوانا واستخفافا . وإن كانوا يعرفونه من قبل بحسن الخلق ، وصفاء الذمة ، وطهارة الضمير . ويعرفون أنه لايريد ملكا ، ولا يبغى شيئا من عرض الدنيا ، بل قالوا : (قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ) ثم مع هذا كله لايداخلهم بالنفاق ، ولا يتألفهم على باطلهم ، ولا ينزل فى العقيدة على حكمهم دهاء

ومخاتلة : كما يصنع دهاة السياسة وقادة الأمم ، وكما صنع نابليون فى مصر : إذ تظاهر بحب الإسلام ، وكما قال : « لو كنت أحكم شعبا يهوديا لأعدت هيكل سليمان عليه السلام » .

أمّا صاحب الشريعة الإسلامية صلى الله عليه وسلم فلم يفعل شيئا من ذلك : قد عرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين ، وهو فى قلة وحاجة إلى رجل واحد ، يزيد فى عدد من معه؛ فأبى وقال : لا أنتصر بمشرك . ومع هذا قد اجتمع له ماأراد ، وأعطته الأمة العربية عن يد وهى صاغرة للحق ، وبذلت له نصرها بعد التخذيل عنه ، وتعطفت عليه بقلوبها الجامحة ، وهو الراغب عن سنتهم ، والمسفه لأحلامهم ، والطاعن على شرائعهم .

إنّ نظرةً بإمعان فى التاريخ ، تدلنا على أن العظماء يظهرون بين أقوامهم مماشاة لتدرّجهم ورقيهم : فإن كان رقيهم فى باب الحقائق الفكرية ، ظهر من بينهم حكيم يضىء لهم السبيل بثاقب فكره وسديد رأيه ؛ وإن كان رقيهم فى باب الفتح وبسط الملك ، ظهر من بينهم فاتح عظيم يقودهم إلى الأقطار المتاخمة والنائية .

وكذلك القول فى العلماء والشعراء والخطباء وغيرهم ، من عظماء الرجال الذين يترجمون عن وجهة أقوامهم : فكل عظيم من هؤلاء هو روح عصره ، وظهوره جار على سنة النشوء والارتقاء — بَيْدَ أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن جاريًا على هذه السنة ، بل جاء والعرب قد نزلوا إلى هاوية الانحلال الاجتماعى ، بما لم يعهد له مثيل فى تاريخ الأمم : فكانوا فى جهل مطبق بأحكام الدين الصحيح ، ومبادئ السياسة ، والحياة الاجتماعية ، ولم يكن لهم فنّ يذكر ، أو صناعة تنشر ، ولم يكونوا يعرفون شيئا من العلاقات الدولية

وكانت كل قبيلة أمة قائمة بنفسها ، تتحفز لشن الغارة على جارتها ، فلم يكن من المألوف أو المعقول ، أن بيئة كهذه البيئة تتمخض عن هذا العظيم الذى اجتمع له مالم يجتمع لمصلح من قبله : لأنه كوّن أمة ، وأسس دولة ، وأقام دينا . أمور ثلاثة لم تجتمع لأحد من قبله ولا من بعده . ولا يعدّ ظهور بعض الأفراد النابهين ، أمثال أَكْثَم بن صيفى دليلا على صلاحية البيئة العربية لإخراج أكبر المصلحين . الحق أنّ العناية الإلهية القادرة التى تخلق الحُيَيَّات فى ظلمات البحار ، هى التى أبرزت هذا الإنسان العظيم ، وأمدّته بعنايتها ، وجعلته نوراً ينسخ الظلمات جميعها ، فيضىء أطراف الأرضين .

العظمة ليست وقفا على مايتم على يد صاحبها من المعجزات أو العجائب وليست وقفا على ماهو عليه من الفصاحة والقدرة على استنباط النظريات ، فكل هذه مظاهر لاتلبث أن تزول : إنما العظمة الحقيقية هى الشخصية القوية الثابتة ، وهى التى تأتى بالعجائب ، وتأخذ بألباب المحتفين بصاحبها ، وتملك مشاعر الذين يجيئون من بعده ، وينظرون فى سيرته .

الشخصية الكاملة هى التى تلقى فى قلوب أهل جيلها احتراما وهيبة لصاحبها ورغبة فيه ، وتحملهم على محاكاته ، وتحبب إليهم طاعته ، ثم تصبغهم بصبغته ، وتخلق فى نفوسهم أساساً جديداً لتقبل عقيدته وآرائه ، ويتصل تأثيرها هذا بقلوب الأجيال القادمة ، فتظل عظمته خالدة .

كان محمد صلى الله عليه وسلم هو صاحب هذه الشخصية الكاملة ، فلم يجئ قبله ولا بعده من يدانيه فيها : فقد بهر معاصريه ، فأقروا له بالرفعة والتفوّق ، وكان كثير منهم من أصحاب البيوت الرفيعة ، والأحلام الراجحة ، والأموال الوافرة ، وكان كثير منهم من ذوى قرباه الذين يعلمون حق العلم حياتيه العامّة

والخاصة. ولو علموا عليه من عيب لأذاعوه، أو وقفوا على نقص لأشاعوه.

احتمل أصحابه فى مدى الثلاث عشرة سنة من بدء البعثة كثيرا من الشدائد، وضروب الأذى والاضطهاد: فكانت كل قبيلة تعذب من دان منها له أنواعا من التعذيب يفزع قلب الحليم من ذكرها، وهم يحملونها بصبر عجيب، حتى نصح المصطفى صلى الله عليه وسلم لبعضهم بالهجرة إلى الحبشة كما سيأتى. ومع هذا كله كان عدد أتباعه آخذاً فى النماء.

فما سبب تهافتهم عليه، واحتمال كل أذى فى سبيله؟ إن هو إلا شخصيته الجذابة، التى ملكت عليهم قلوبهم ومشاعرهم، فانصاعوا له، حتى استطاع أن ينشئ منهم جيلا فتيّا، ولم يستطع الفلاسفة على اختلاف عصورهم، أن ينشئوا جيلا كالذى أخرجه محمد صلى الله عليه وسلم أو يدانيه — فكانوا نسلا حسنا فى علو النفس وصفاء الطبع، ورقة الجانب، وقوة اليقين، وطهارة الخلق، وعظم الأمانة، وإقامة العدل، والخضوع للحق، إلى غير ذلك من أمهات الفضائل.

من أجل ذلك وجب تفصيل طرف مما آتاه الله من الفضائل، فى نسبه ونشأته وأعماله: ليتبين للعالم أجمع أنّ محمداً صلى الله عليه وسلم، هو الأسوة الحسنة الصالحة لرياضة الأفراد وسياسة الأمم، وأنّ جميع الخلال الحميدة المثمرة مقتبسة من حاله، مأخوذة عنه.

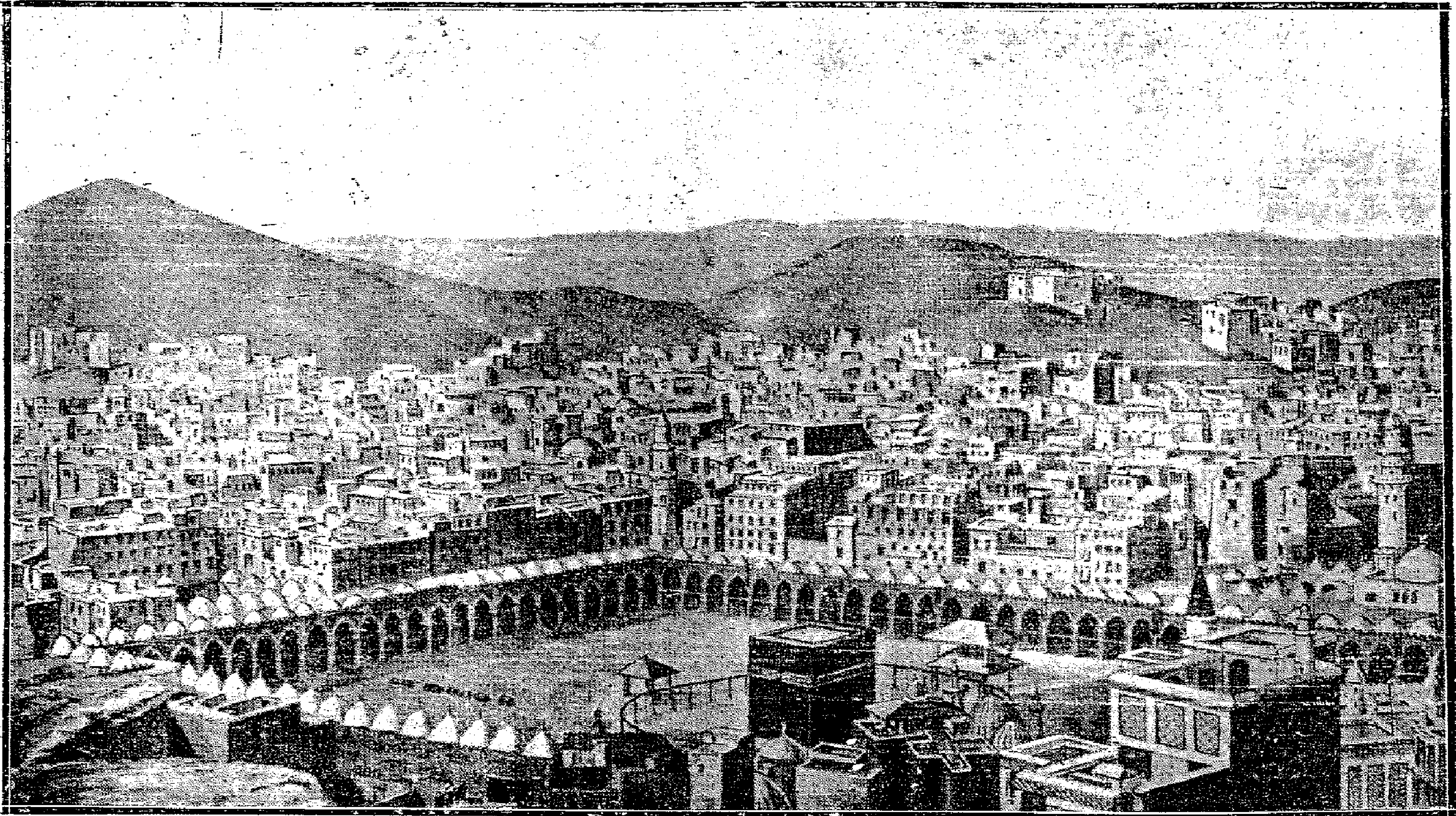
(أ) فضائله الذاتيـــة

١ ـــ مولده وشرف نسبه وكرم نشأته

ولد صلى الله عليه وسلم ، فى صباح اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول عام الفيل على المشهور ، أو صباح اليوم التاسع من هذا الشهر سنة ٥٧١ للميلاد على ماحققه المرحوم العالم الجليل محمود باشا الفلكى ، وكان مولده بمكة أشرف البلاد وأكرمها على الله سبحانه وتعالى : فهى بلد بركاتها نامية ، وموارد فضائلها طامية ، وأركان بيتها بالأمن مأهولة ، وأدعية الطائف بكعبتها مقبولة ، بلد كان من أهم أسباب نموها حاجة الحجيج : إذ كانوا يطلبون المأوى فلا يجدون سواها . وأماكن الحج مازالت من قديم الزمان محط رحال التجار : لأن الناس إذا اجتمعوا فى جهة لغرض من الأغراض ألفَوا أنفسهم مدفوعين إلى قضاء منافع لهم . ولهذا صارت مكة سوق بلاد العرب جميعها ، ومحط التجارة بين الهند والشام ومصر وغيرها . وقد بلغ سكانها فى وقت من الأوقات مائة ألف نسمة من بائع ومشتر . وكانت حكومتها ضربا من جمهورية الأشراف (الأرستقراطية) عليه صبغة دينية : ذلك بأنهم كانوا ينتخبون لها بطريقة عرفية عشرين رجلا ، من أعظم القبائل ليكونوا حكام مكة ، وحراس الكعبة . وكانوا فى عهد محمد صلى الله عليه وسلم من قريش . أما سائر الأمة العربية فكانوا متفرقين قبائل فى أنحاء الصحراء ، يفصل بعضها عن بعض البيد والقفار ، وعلى كل قبيلة أمير أو أمراء . وقل أن تخمد جذوة الحرب بين هذه القبائل ، ولم يكن يؤلف بينهم



جزيرة العرب
دولة الروم الشرقية
بحر الروم
ارمينية
جرجان
طبرستان وجبال
خراسان
نيسابور
الري
اصبهان
العراق العجمي
بلاد كاسرى الفرس
فارسستان
مكران
عمان
كندة الملوك
غني
باهلة
هذيل
ثقيف
صحراء الاحقاف
حضرموت
همدان
خليج عدن
أرض السودان



مكة والمسجد الحرام

حلف علنى ، سوى رابطة القوميـة واللغة ، وتلاقيهم عند الـكعبة ، حيث كانت بجمعهم على اختلاف وثنيتهم . وقد ظل العرب على هذه الحالة دهوراً طوالا فى قتال دائم ، ونزال مستحكم ، وسلب ونهب ، وتحاسد وتباغض ، وتقاتل وتناحر : حروبهم لاتخبو نارها ، ولا يهدأ سعيرها ، تأكل الرجال وترمل النساء ، وتيتم الأطفال ، وخطباؤهم وشـعراؤهم يستحثون العزائم ، ويستفزون العواطف ، ويشجعون الجبان ، ويحضون على الطعن والنزال . وحرب البسوس داحس والغبرا من شواهد ذلك .

من بين هؤلاء العرب نشأ محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو دعوة أبيـه إبراهيم ، وبشارة عيسى عليهما الصـلاة والتسليم ، وصفوة سـلالة قريش وصميمها ، ونخبة بنى هاشم راحلها ومقيمها ، وأشرف العرب بدواً وحضرا ، وأفضلهم بيتا ، وأعزهم نفرا .

لم يزل صـلى الله عليه وسـلم ينتقل من خير الآباء إلى خير الأبناء ، حتى انتهى إلى كبير مكة وقريش فى الجاهلية ، عبد المطلب بن هاشم ، ثم إلى أبيه عبد الله والد المصطفى أشرف الناس نسبا ، عجما وعربا ، فهو ذو نسب زكى : إبراهيم خليل الله دعامه ، وإسماعيل سنامه ، وكنانة زمامه ، وقريش نظامه ، وهاشم تمـامه . اختاره الله من أرفع البيوت والمنازل : لأنه اصطفى من ولد إبراهيم الخليـل رافع قواعد البيت إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، ومن بنى كنانة قريشا المعروف بالشرف والمكانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، ومن بنى هاشم سر السراة أبا القاسم . وإلى ذلك يشير قوله صلى الله عليه وسلم : (إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من إسماعيـل كنانة ، واصطفى من كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم

واصطفانى من بنى هاشم ، فأنا خيار من خيار من خيار) . وقول عمه أبى طالب :

إذا اجتمعت يوما قريش لمعشر * فعبد مناف سرها وصميمها
وإن حُصلَت أنساب عبد منافها * ففى هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوما فإن محمداً * هو المصطفى من سرها وكريمها

ولا غرو : فلم يكن فى آبائه مسترذل ولا مستبذل ، بل كلهم سادة قادة .

نشأته : شب رسول الله صلى الله عليه وسلم والله يحرسه ويرعاه ، ويحفظه من أدناس الجاهلية ، لما يريد من كرامته ورسالته . فجعله أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأكرمهم حسبا ، وأعظمهم جواراً ، وأرجحهم حلما ، وأصدقهم قولا ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش ، حتى عرف بين أهل مكة وهو فى ريعان شبابه بالأمين : لأنه استوفى من مكارم الأخلاق كل مكرمة لم ينلها إنسان قبله ولا بعده ، ولأنهم لم يشاهدوا نشأة كعجيب نشأته ، فقد ملك عليهم مشاعرهم بصبره وحلمه ، ووفائه وزهده ، وجوده ونجدته ، وصدق لهجته ، وكرم عشرته ، وتواضعه وعلمه ، وعفوه وثباته .

عاش بين قومه وهم فقراء . وكان حاله كحال بنى عمه وصبية قومه ، يزيد عليهم اليتم بفقد الأبوين ، ولم يكن له مؤدب ظاهر يعتنى بتثقيفه ، أو مرب معروف يتولى تهذيبه ، إلا سلامة الفطرة ، وسمو الغريزة ، وطهارة العقيدة ، والاعتصام بالفضيلة . وكل عشرائه أهل الوثنية وحراسها ، وجميع خلطائه أولياء الأصنام وخدامها ، ولا عجب : فقد حدث عن نفسه : « أَدَّبَنِى رَبِّى فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِى » .

لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم فى نشأته ، جاريا على المألوف فى الصبيان من تأثر عقولهم ونفوسهم ، بما يرون ويسمعون ويحسون فى بيئتهم . ولو جرى الأمر على ذلك لشارك ـ حاشاه ـ قومه فى تعظيم الأصنام وعبادتها

ولا ينغمس ـ عصمه الله ـ فى ضلالات الوثنية وأوهامها ، ولكن عناية الله قد تكفلت بتربيته ، فنشأ على أكمل ماتتحلى به النفوس من جميل الصفات ، وحميد الخصال : لم يسجد لصنم من الأصنام، ولم يشارك قومه فى عيد من أعيادها ، ولم يذق لحوم قرابينها .

ظل المصطفى صلى الله عليه وسلم ، يأكل من ثمرة عمله وكسب يده ، حتى استفاض بين الناس ماهو عليه من كريم الأخلاق ، وعظيم الأمانة ، وصدق الحديث . فعرضت عليه خديجة بنت خُوَيْلد أن يخرج فى مالها للشام ، ومعه مَيْسَرَة غلامها . فشاهد ميسرةُ من أمانته ، وطهارته ، وبركته ، ويسر معاملته ، ماجعله يترنم بمديحه ، والثناء عليه عند سيدته ، فما وَسِعَها إلا أن تخطب المصطفى لنفسها ، وكانت سنها إذ ذاك أربعين سنة ، وسنه خمساً وعشرين سنة ، فرضى المصطفى صلى الله عليه وسلم زواجها ، ثم عاش معها على أتم وفاق وألفة ، وصفاء وغبطة ، يُخلص لها الحب وحدها قانعاً بالعيش الهادئ ، يثنى عليه جيرانه ، ويحبه إخوانه ، ولم يفكر فى الزواج بغيرها حتى وافتها منيتها ، لأنها هى التى آزرته فى أول أمره بمالها وعقلها . ولذلك قال فى شأنها : «آمنتْ بى حين كفر بى الناس ، وصدّقتْنى حين كذبنى الناس ، وأعطتنى مالها حين حرمنى الناس» .

غير أن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، كان كلما تقدمت به السن قوى فيه حب العُزلة ، والانقطاع إلى مراقبة الله تعالى ، والتعبد بمناجاته ، فأخذ يخلو بغار حراء متعبداً فيه الليالى ذوات العدد : ليتوجه روحه الشريف إلى عالم المعانى ، ويستعد لتلقى الوحى الإلهى . وبدهى أنه لم يتلق درساً على أستاذ قط ، ولم يمارس القراءة ولا الكتابة ، ولم يعرف من العالم وعلومه ، إلا ماتيسر له

أن يبصره بنفسه فى ظلمات صحراء العرب ، أو يصل إلى سمعه من حجاب جهالتها . وليس مطعنا فيه أنه لم يتعلم علوم العالم قديمها وحديثها ، وأنه لم يغترف من مناهل غيره : لأنّ الله أغناه عن ذلك ، و « كفاك بالعلم فى الأمىّ معجزة »

٢ — حسن صورته وكمال خلقته

إذا كان فن التصوير لم يشرف بصورة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد نال القلم هذا الشرف الرفيع : (إقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) .

وحسبك ما جاء عن الحسن بن على رضى الله عنهما أنه قال : سألت هند ابن أبى هالة عن حلية رسول الله صلى الله عليه وسلم — وكان وصافا — وأنا أرجو أن يصف لى منها شيئا أتعلق به ، فقال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فخما مفخما : يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ، أطول من المربوع (١) وأقصر من المُشَذَّب(٢) ، عظيم الهامة ، رجْل(٣) الشعر ، إن انفرقت عقيقته (٤) فرق ، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره ، أزهر اللون ، واسع الجبين ، أزج (٥) الحواجب ، سوابغ من غير قرن (٦) ، بينهما عرق يدُرّه الغضب ، أقنى (٧) العرنين ، له نور يعلوه ، ويحسبه من لم يتأمله أشم ، كَثّ اللحية ، أدعج (٨) ، سهل الخدين ، ضليع الفم ، أشنب(٩) ، مفلج(١٠) الأسنان دقيق المسربة (١١) كأن عنقه جيد دمية فى صفاء الفضة ، معتدل الخَلْق ،

(١) بين الطول والقصر . (٢) البائن الطول فى نحافة . (٣) ليس بسبط ولا جعد .
(٤) شعر الرأس . (٥) الحاجب الأزج : المقوس الطويل الوافر الشعر . (٦) القرن : اتصال شعر الحاجبين . (٧) القنا : احديداب فى الأنف . (٨) شديد سواد الحدقة .
(٩) الشنب : رونق الأسنان وحسنها . (١٠) الفلج : فرق بين الثنايا . (١١) خيط الشعر الذى بين الصدر والسرة .

بادنا [١] ، متماسكا [٢] ، سواء البطن والصدر ، بعيد مابين المنكبين ، ضخم الكراديس [٣] . أنور المتجرد ، موصول مابين اللّبة والسرة بشعر يجرى كالخط عارى الثديين ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر ، طويل الزندين ، رحب الراحة ، شثن [٤] الكفين والقدمين ، سائل [٥] الأطراف ، عبل [٦] الذراعين ، خُمصان [٧] الأخمصين ؛ مسيح القدمين ، ينبو عنهما الماء .

إذا زال زال تَقَلُّعا [٨] ، ويخطو تكفؤا [٩] ، ويمشى هونا [١٠] ذريع [١١] المشية ، إذا مشى كأنما ينحط من صَبَب [١٢] ارتقاه ، وإذا التفت التفت جميعا خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة ، يسوق أصحابه ، ويبدأ من لقيه بالسلام » .

٣ — كمال منطقه صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم يعرف ألسنة العرب ، ويعلم لغة من بعد منهم واقترب ، ويخاطب كل طائفة بلسانها ، ويجرى مع كل قبيلة فى ميدان بيانها ، فصاحته إليها المنتهى ، وبلاغته أذهلت أرباب النهى ، وجوامع كلمه مأثورة ، وبدائع حكمه مشهورة ، وطلاوة قوله تجل عن الصفة ، وحلاوة منطقه لا يذوقها إلا أهل المعرفة .

أنزل القرآن الكريم بلسانه تعظيما لأمره ، ورفعة لشأنه ، نشأ فى بنى سعد ورتبته فى قريش عالية ، فجمع من الكلام رونق الحضارة ، وجزالة البداوة ،

(١) البادن . ذو اللحم . (٢) المتماسك الذى يمسك بعضه بعضا . (٣) الكراديس : رءوس العظام . (٤) شثن الكفين والقدمين : غليظهما . (٥) طويل الأصابع . (٦) عبل الذراعين غليظهما . (٧) متجافى أخمص القدم . (٨) التقلع : رفع الرجل بقوة . (٩) التكفؤ : الميل إلى سنن المشى وقصده . (١٠) الهون : الوقار . (١١) الذريع : الواسع الخطو (١٢) الصبب : العلو .

وأُيد ببراعة خصه بها من حكم بتوفير قسمه : لأن مدده الوحى الذى لا يدركه البشر ، ولا يحيطون بشىء من علمه . كان صلى الله عليه وسلم حلو المنطق ، حسن الترتيل ، كلامه فصل لا نزر ولا هذر ، بيّن ، يحفظه من جلس ، ويفهمه كل من سمع ، كأنما هو درر نظمت ، لا فضول فيه ولا تقصير .

نزه الله منطقه عن التكلف ، وتعقيد الصوت ، والتمتمة (١) والفأفأة (٢) والرُّتة (٣) والتنطع (٤) والتمطق (٥) والتفيهق (٦) ، وجعل منطقه مساوقا لطبيعة اللغة ، فتم له إحكام الضبط ، وإتقان الأداء : فجاء لفظه مشبعا ، ولسانه بليلا (٧) ، وتجويده فخما ، ومنطقه عذبا .

ومصداق ذلك قول عائشة رضى الله عنها :

ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يسرد كسردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بيّن فصْل ، يحفظه من جلس إليه ، وفى رواية أخرى : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحدث حديثا ، لو عدّه العادّ لأحصاه .

انفرد محمد صلى الله عليه وسلم ، بأنه أوتى من الفصاحة وحسن البيان ، ما استطاع به أن يخاطب - كما تقدم - جميع القبائل العربية ، كل واحدة بلحنها وعلى مذهبها ، وكان فى خطابه إياهم بلحونهم أحسنهم بيانا ، وأقومهم منطقا . ولم يعرف فى التاريخ أن إنسانا لم يمارس القراءة ولا الكتابة ، ولم يرحل فى طلب تعرف لغات القبائل ، يفوق أهلها فى وضوح الحجة ، وظهور البرهان

(١) التمتمة : رد الكلام إلى التاء والميم . (٢) الفأفأة : ترديد الفاء فى الكلام .
(٣) الرتة : العجمة ، (٤) التنطع : التعمق فى إخراج الحروف . (٥) التمطق : ضم الشفتين ورفع اللسان إلى الفك الأعلى . (٦) التفيهق : الثرثرة : ملء الفم بالألفاظ .
(٧) يقال : ما أحسن بلة لسانه ، إذا كان واقعا على مخارج الحروف

ولا غرو : فقد منحه الله سلامة الفطرة ، وصفاء الحس ، ونفاذ البصيرة : ومكنه من الإحاطة بلغات القبائل كلها على الوجه الأكمل ، فكان فى تبليغها قوى العارضة : لا تغيب عنه لغة ، ولا تضطرب له عبارة ، ولا ينقطع له نظم ، ولا يشوبه تكلف .

أوتى الحكمة البالغة وهو أمى من أمة أمية : لم يقرأ كتابا ، ولا درس علما ، ولا صحب عالما ولا معلما ما ؛ بهر العقول ، وأذهل الفطن من إتقان ما أبان ، وإحكام ما أظهر ، فلم يُعثَر فيه على زلل ، ولم يعرض له ما يعرض للخطباء من التخاذل ، وتراجع الطبع .

فمن الخطباء والفصحاء من إذا أطال استوعبت الإطالة جهده ، فيبدو عليه الضعف ، ومنهم من يواتيه الكلام فى مقام دون مقام .

أما محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان كلامه سرداً مفصلا مرتلا واضحا ، عليه مخايل النبوّة . وكل ما كان فيه من روعة الفصاحة ، وعذوبة المنطق ، وسلامة النظم ، إنما هو منحة إلٰهية لم يتكلف لها عملا ، ولا عانى من أجلها رياضة .

ولهذا عَجِب أصحابه من لسانه وبيانه : فقد قال له أبو بكر رضى الله عنه : لقد طفت فى العرب وسمعت فصحاءهم ، فما سمعت أفصح منك ، فمن أدّبك ؟ قال : « أدَّبَنِى رَبِّى فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِى » وجلى أن أبا بكر قد بلغ فى علم العرب وأنسابها وأخبارها شأوا بعيداً . حتى قيل : « أنسب من أبى بكر » وخليق بنا أن نورد هنا كلام هند بن أبى هالة ، وكلام الجاحظ فى وصف منطق المصطفى صلى الله عليه وسلم .

قال ابن أبى هالة : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان ،

دائم الفكرة ، ليست له راحة ، ولا يتكلم فى غير حاجة ، طويل السكوت (كان سكوته صلى الله عليه وسلم على أربع : على الحلم ، والحذر ، والتقدير ، والتفكر) يفتح الكلام ويختمه بأشداقه ، ويتكلم بجوامع الكلم فصلا لا فضول فيه ولا تقصير ، دمثا ليس بالجافى ولا المهين ، يعظم النعمة وإن دقت ، لا يذم شيئا ، فلم يكن يذم ذَوَاقا (١) ولا يمدحه ، ولا يقام لغضبه إذا تُعُرِّض للحق بشيء حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلّبها ، وإذا تحدث اتصل بها فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه . جل ضحكه التبسم ، ويفتر عن مثل حب الغمام » اه

وقال الجاحظ : هو الكلام الذى قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصفة ، ونزه عن التكلف . لم ينطق إلا عن ميزان حكمة ، ولم يتكلم إلا بالكلام قد حُفّ بالعصمة ، وشُدّ بالتأييد ، ويُسر بالتوفيق .

ألقى الله على كلامه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة وهو مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب . بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق . لم يسمع الناس بكلام قطُّ أعم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين عن فحواه ، من كلامه صلى الله عليه وسلم اه بتصرف

(١) مايتذوق من الطعام .

لقد بلّغ صلى الله عليه وسلم ماجاء به بأقوم دليل وبيّنه بأوضح تعليل، فلم يخرج منه مايوجبه معقول، ولا دخل فيه ماتدفعه العقول، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «أُوتيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَاخْتُصِرَتْ لِيَ الْحِكْمَةُ اخْتِصَارًا».

كان صلى الله عليه وسلم يقتصر فى كلامه على قدر الكفاية، فلا يترسل فيه هذرا، ولا يحجم عنه حصرا، وهو — فيما عدا حالى الحاجة والكفاية — أجمل الناس صمتا، وأحسنهم سمتا. حلا كلامه فاستعذبته الأفواه، حتى بقى محفوظا فى القلوب، مدونا فى الكتب، سالما من الزلل، لا تظهر فيه هجنة التكلف، ولا تتخلله فيهقة التعسف. كان إذا سئل شفى جوابه، وإذا جودل ظهر فلجه. لا يحصره عىّ، ولا يقطعه عجز، ولا يعارضه خصم فى جدال إلا كان جوابه أوضح، وحجاجه أرجح. حفظ لسانه من تحريف فى قول، أو خبر يكون إلى الكذب منسوبا، وللصدق مجانبا. فلم تحفظ عليه كذبة فى صغره، ومن لزم الصدق فى صغره كان له فى الكبر ألزم، ومن عصم به فى حق نفسه كان فى حقوق الله تعالى أعصم، وحسبك بهذا دفعا لجاحد، وردّا لمعاند.

فمن كلامه الذى لا يجارى فى إيجازه، قوله صلى الله عليه وسلم: «النَّاسُ بِزَمَانِهِمْ أَشْبَهُ. الْعَقْلُ أَلُوفٌ مَأْلُوفٌ. الْعِدَةُ عَطِيَّةٌ. الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ السُّفْلَى، الْخَيْرُ كَثِيرٌ وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ. إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا جَعَلَ لَهُ وَاعِظًا مِنْ نَفْسِهِ»

ومن قوله الذى لا يدانى فى الفصاحة:

«لَا تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مَا لَمْ تَرَ الْأَمَانَةَ مَغْنَمًا وَالصَّدَقَةَ مَغْرَمًا. ثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ وَثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: فَأَمَّا الْمُنْجِيَاتُ فَخَشْيَةُ اللهِ تَعَالَى فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ،

وَالِاقْتِصَادُ فِى الْغِنَى وَالْفَقْرِ . وَالْحُكْمُ بِالْعَدْلِ فِى الرِّضَا وَالْغَضَبِ .

وَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ فَشُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ » .

٤ — كمال عقله

وكان صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم كما أحسنت خَلْقِى فحسّن خُلُقِى .

ولما اجتمع فيه صلى الله عليه وسلم من خصال الكمال مالا يحيط به حدّ ، ولا يحصره عدّ ، أثنى الله سبحانه وتعالى عليه فى كتابه الكريم فقال : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) .

وجلى أنّ حسن الخلق ملكة نفسية ، يسهل على المتصف بها الإتيان بالأفعال الجميلة . وإنما كان خلقه صلى الله عليه وسلم عظيما لاجتماع مكارم الأخلاق فيه : فقد جاء فى الموطأ فى رواية مالك : « بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » .

وقالت عائشة رضى الله عنها : « كان خلقه صلى الله عليه وسلم القرآن » .

وكما أنّ معانى القرآن لا تتناهى ، كذلك أوصافه الجميلة الدالة على خلقه العظيم لا تتناهى : إذ فى كل حالة من أحواله صلى الله عليه وسلم يتجدّد له من مكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم ، وما يفيضه الله تعالى عليه من معارفه وعلومه مالا يعلمه إلا الله تعالى ، فالتعرّض لحصر جزئيات أخلاقه الجميلة تعرُّضٌ لما ليس من مقدور الإنسان . وقد كان صلى الله عليه وسلم مجبولا على الأخلاق الكريمة فى أصل خلقته الزكية النقية ؛ لم يحصل له ذلك برياضة نفس بل بجود إلهى ، ولهذا لم تزل تشرق أنوار المعارف فى قلبه ، حتى وصل إلى الغاية العليا ، والمقام الأسنى .

وأصل هذه الخصال الحميدة كمال العقل : لأنّ به تقتبس الفضائل ، وتجتنب

الرذائل ؛ وهو أمر روحانىّ ، به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية . وقد كان صلى الله عليه وسلم ، من كمال العقل والعلم ، فى الغاية القصوى التى لم يبلغها بشر سواه .

ومن تأمل حسن تدبيره للعرب الذين هم كالوحوش الشاردة ، فى طباعها المتنافرة المتباعدة ، وكيف ساسهم ، واحتمل جفاهم ، وصبر على أذاهم ، إلى أن انقادوا إليه ، فالتفوا حوله ، وقاتلوا دونه أهليهم ، وآباءهم ، وأبناءهم ، واختاروه على أنفسهم ، وهجروا فى رضاه أوطانهم ، وأحباءهم ؛ من غير ممارسة سبقت له ، ولا مطالعة كتب تعلم منها أخبار الماضين ـ تحقق أنه أعقل العالمين صلى الله عليه وسلم .

ومن عقله العظيم ثقوب رأيه ، وجودة فطانته ، وحسن إصابته ، وصدق ظنه ، وحسن نظره فى العواقب والمصالح ، وكمال التدبير ، واقتناء الفضائل . وحسبك جوامع كلمه ، وحكم حديثه ، وعلمه بما فى الكتب المنزلة ، وحكم الحكماء ، وسير الأمم الخالية ، وضروب الأمثال ، وسياسة الأمم . هذا إلى فنون العلوم التى اتخذ أهلها كلامه فيها قدوة ، وإشارته حجة : كالطب ، وسنن الكون

جمع الله لمحمد صلى الله عليه وسلم مالا يحدّ من المعارف الوافرة ، والعلوم التى لم تزل عن وجوه الهداية سافرة ، وخصه بالاطلاع على جميع مصالح الدنيا والدين ، وتعرّف قوانين شريعته ، وحفظ أسرار وديعته ، وسياسة عباده ؛ ونبّأه بسيرَ الأنبياء والرسل والجبابرة ، وما كانت عليه الأمم قبل بعثته الزاهرة ، وأحاديث القرون الماضية ، ومقدار مددهم وأعمارهم ، وحكم حكمائهم ، وأخبار أحبارهم ؛ ولقنه الحجة على الكفرة ، ومعارضة أهل

الكتاب بما فى كتبهم المسطرة : فأعلمهم بمخبآتها وأسرارها، والمكتوم والمغير والمبدّل من أسفارها ؛ ومنحه جل وعلا إحاطة عظيمة بلغة العرب وشوارد ألفاظها ، وضروب فصاحة خطبائها ، وبلاغة وعاظها ؛ وآتاه جوامع كلمها ، وعرفه أيامها وأمثالها ، وحكمها ومعانى أشعارها ؛ وجعل هذه اللغة لسان قواعد الشرع المطهر، المشتمل على محاسن الأخلاق ، ومحامد الآداب ، وطرائف طرائق الصواب ، وتحليل الطيبات وتحريم الخبائث ، وصون الأعراض والأموال بالحدود ؛ هذا إلى ما حواه من سائر الفنون : كالفرائض والحساب ، والتعبير ، والأنساب ، إلى غير ذلك مما اتخذه أهل هذه الفنون لهم قدوة ، وجعلوه أصلا ليفرعوا عليه ، ويحذوا حذوه ، مع أنّ صاحب هذا الشرع كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولا عُرف بصحبة من يعلم الكتابة أو يحسب ، ولا نشأ بين قوم لهم مدارسة ، ولا اختلف إلى حبر من الأحبار ، ولا اجتمع بكاهن أو صاحب أخبار :

ومعالم العلم الشريف به سمت * وطريقها وضحت بطالع فجره

٥ — نجدته وشجاعته

كان صلى الله عليه وسلم ذا شجاعة ونجدة ، وبسالة وشدّة ، وبأس وشهامة ، وحماسة وصرامة ، وصولة وإقدام ؛ يشتت شمل الكماة ، ويبطل حيلة الأبطال.

نفوذ النبال من شدّة عزماته ، ومضاء المرهفات من صدق رأيه ؛ أذهب الشك بحق اليقين ، وأرهب العدا بسيفه المتين ؛ وسفه أحلامهم ، ونكس أعلامهم ، وزيّف أقوالهم وأفعالهم ، واستباح أرضهم وديارهم وأموالهم ؛ وأباد أهل العناد بعضبه البتار ، وأظهر دين المسلمين بصحبه الأشداء على

الكفار . حضر الوقائع ، وشهد الملاحم ، وتولى الكماة عنه وهو مستقر ، وفر المسلمون من حوله يوم حنين وهو ثابت لا يبرح ؛ ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح . ما لقى كتيبة إلا كان أول ضارب ، ولا توانى القوم لحدوث صوت إلا كان أسرع واثب . لم يُرَ أثبتَ منه جأشًا فى الجهاد ، ولا أقرب لجهة المشركين وقت الجلاد .

طالما ثبت فى الشدائد وهو مطلوب ، وصبر على البأساء والضراء وهو مكروب ؛ ونفسه فى اختلاف الأحوال ساكنة : لا يتحير فى شدة ، ولا يستكين لعظيمة أو كبيرة . ولقد لقى صلى الله عليه وسلم بمكة من قريش ما تشيب له النواصى ؛ وهو مع الضعف يصابر صبر المستعلى ؛ ويثبت ثبات المستولى .

تصدى لجهاد الأعداء وقد أحاطوا بجهاته ، وأحدقوا بجنباته ؛ وهو فى قطر مهجور ، وعدد محقور . وبذلك جمع بين التصدى لشرع الدين حتى أظهره ، ومكافحة العدو حتى قهره : فلقد صابر العدو وأبلى معه بلاء حسنا ؛ فلم يشهد حربا إلا صابر حتى انجلت عن ظفر أو دفاع ؛ وهو فى موقفه لم يزل عنه هربا ، ولا حار فيه رُعبا .

ماسمعنا بشجاع إلا أحصيت له فرة ، سوى محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فقد ثبت فى جميع المواقف الصعبة . ولذلك قال علىّ رضى الله عنه : (كنا إذا حَمِىَ البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو) . ولم يكن مثله مثل قوّاد هذا الزمان : يكونون أقرب إلى المنعة والأمنة منهم إلى مرمى القنابل والمهلكات .

٦ — رغبته عن الدنيا وخشيته من ربه

كان صلى الله عليه وسلم زاهدا فى الدنيا ، متقللا منها ، معرضا عن زهرتها ،

غير ناظر إلى نضرتها ؛ متحليا بالطاعة ، مستشعرا العفاف والكفاف ، مقتصرا من نفقته وملبسه على ماتدعو إليه الضرورة ، يلبس البُرد الغليظة ، ويقسم حلل الديباج على أصحابه . عيشه ظليف ، ومأكله طفيف ، وفراشه من أدم حشوه ليف ؛ يبيت جائعا طاويا ، ويصبح صائما خاويا ؛ ما أكل قط على خوان ، ولاشبع من خبزشعير يومين متواليين ؛ ماخلف دينارا ولادرهما ، ولم يترك إلا سلاحه وبغلته ، وأرضا جعلها صدقة . على أنه قد جاءته هدايا أهل التيجان ، وحملت إليه الجزى والصدقات ، وانهالت عليه الأموال ، وسيقت إليه الدنيا بمناعمها ؛ فما استأثر منها بدرهم ولا دينار ؛ بل أنفق كل ماوصل إليه فى الخير ، ورد به فاقة من مسهم الضر ، وفرقه فى مصالح المسلمين ، وكف به أكف المشركين .

ومن أظلم ممن يفترى على محمد صلى الله عليه وسلم أنه كان رجل شهوات ولذات ؟ لقدكان متقشفا فى مسكنه ، ومأكله ، ومشربه ، وملبسه ، وسائرأموره وأحواله . وكان طعامه فى مجرى العادة الخبزوالماء ؛ وكان يرقع ثوبه ، ويحلب شاته ؛ يقوم الليل فى عبادة ربه ، ويقضى النهار فى نشر دين الله ، غير طامح إلى ماتطمح إليه النفوس ، من رتبة أو دولة أوسلطان ، ولاراغب فى ذكر أو شهرة . ومن أجل ذلك لقى من هؤلاء العرب توقيرا واحتراما وإكبارا ، على ماكانوا عليه من الجفاء والغلظة ، والتواء الشكيمة ، وماكان يستطيع أن يقودهم ويعاشرهم ويقاتل بهم ثلاثا وعشرين سنة ، لولا ماأبصروا فيه من آيات النبل والفضل . ولو جاءهم بدل محمد صلى الله عليه وسلم قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه ، ماأصاب من طاعتهم مقدار مانال محمد صلى الله عليه وسلم فى ثوبه المرقع بيده . وكذلك تكون العظمة !

وكان صلى الله عليه وسلم شديد الخوف دائم التعبد ؛ موصول الطاعة . وكانت طاعته نظير حبه ، وخوفه على قدر علمه بربه ؛ يصلى طويلا ، ويقوم الليل إلا قليلا . اليقين قوته ، والرضا مطيته ؛ والمعرفة رأس ماله ، والطاعة منتهى آماله ، والشوق مركبه ، والفكر أنيسه ، والثقة كنزه ، والتقى فخره ، والعقل مصباحه ، والجهاد خلته ، والعلم سلاحه ، وقرة عينه فى الصلاة ، وثمرة فؤاده فى ذكر من لا إله سواه .

٧ — احترامه نفسه

كان محمد صلى الله عليه وسلم بريئا من الرياء والتصنع ، مستقل الرأى ، لايدعى ماليس فيه ؛ ولم يكن متكبرا ، ولا ذليلا ضرعا ، بل كان فى ثوبه المرقع يخاطب بقوله الحق المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم ، يرشدهم إلى مايجب أن يكونوا عليه فى هذه الحياة ، وما يجب أن يعدوه للآخرة .

كان يعرف لنفسه قدرها ، ماضى العزم ، لا يؤخر عمل اليوم إلى غد ؛ ماعبث قط ، ولا ظهر شيء من اللهو واللعب فى قوله أو فعله ، بل كان الأمر عنده أمر فناء أو بقاء ، ولم يكن من شأنه التلاعب بالأقوال والقضايا الجدلية المؤدية إلى العبث بالحقائق ، بل كان يكره أن يحوط نفسه بمظاهر كاذبة .

ولم يكن - حاشاه - ممن عاشوا وأقوالهم وأعمالهم أكاذيب ، فكانوا هم أنفسهم أكذوبة شر أكذوبة ، ضعف فيهم الشرف والصدق ، وكل مافيهم أن كلامهم مصقول معسول ، وحواشى كلامهم رقيقة ، فكان مثلهم كمثل حامض (الكربون) تراه على لطفه سما ناقعا ، وموتا ذريعا .

(ب) فضائله الاجتماعية

١ — جوده وسخاؤه

كان صلى الله عليه وسلم يعجل بالإحسان والصدقة والمعروف، ولذلك كان أشرح الخلق صدرا، وأطيبهم نفسا، فإنّ للصدقة والبذل تأثيرا عجيبا فى شرح الصدر؛ وكان عالى الهمم، وافر الفضل والكرم، كريم الشمائل، جميل العواطف، جليل العوارف، مطبوعا على السخاء، سهل الإنفاق، جزل الإرفاق، مهتما بوصل الأرزاق؛ يحقق الوسائل، ولا يخيب أمل الآمل؛ يبذل الرغائب، ويعين على النوائب؛ يحمل الكَلّ، ويكسب المعدوم؛ يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة، لا يدخر شيئا من يومه لغده، أسخى من الغمائم المثقلة وأجرى بالخير من الريح المرسلة. ماسئل عن شيء فقال: لا، ولا أعرض عن طالب. وحسبك شاهدا أنه ردّ سبايا هوازن وكانوا ستة آلاف. وكان يجود بكل موجود، ولذلك لما توفى كانت درعه مرهونة عند يهودى على مقدار من شعير لطعام أهله؛ مع أنه قد ملك جزيرة العرب، وكان فيها كثير من الملوك والأقيال لهم خزائن وأموال يقتنونها، ويتباهون بها، وقد حاز صلوات الله عليه ملك جميعهم، فما اقتنى دينارا ولا درهما. وكان لا يأكل إلا النزر الهين ولا يلبس إلا الخشن، وكان مع ذلك يعطى الجزل الخطير، ثم لا يبالى أن يتجرع مرارة الإقلال، والصبر على الجوع والسغب.

وكان إذا سئل وهو معدم وعد ولم يردّ، وانتظر مايفتح الله به. وكان علىّ رضى الله عنه إذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم قال: كان أجود الناس كفا، وأوسع الناس صدرا، وأصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمّة، وألينهم

عريكة ، وأكرمهم عشرة ؛ من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه .

حُمل إليه تسعون ألف درهم ، فوضعها على حصير ، ثم قام إليها فقسمها ، فما ردّ سائلا حتى فرغ منها . وجاء رجل فسأله فقال : ماعندي شيء ، ولكن ابتع عليّ ، فإذا جاءنا شيء قضيناه . فقال عمر : يارسول الله ؛ ماكلفك الله مالا تقدر عليه . فكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، فقال رجل : أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا ، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم ، وظهر السرور فى وجهه . ولما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه ، حتى اضطروه إلى شجرة فخطفت رداءه ، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أعطونى ردائى . لو كان لى عدد هذه العضاة نَعَما لقسمتها بينكم ، ثم لاتجدونى بخيلا ولا كذابا ولا جبانا .

قال صفوان بن أمية : « لقد أعطانى رسول الله صلى الله عليه وسلم ماأعطانى ، وإنه لمن أبغض الناس إلىّ ، فما برح يعطينى حتى إنه لأحب الناس إلىّ . إنى أشهد ماطابت بهذا إلا نفس نبي » وإنما أعطاه صلى الله عليه وسلم العطاء الكثير : لأنه علم أن داءه لايبرح إلا بهذا الدواء ، فعالجه به حتى برئ من داء الكفر وأسلم . وجاء فى البخارى أنه صلى الله عليه وسلم أُتى بمال من البحرين فقال : انثروه — وكان أكثر مال أُتى به — فخرج صلى الله عليه وسلم إلى المسجد ، ولم يلتفت إليه ، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه ، فما كان يرى أحدا إلا أعطاه ، وماقام عليه الصلاة والسلام وثَمَّ منها درهم . وأتته امرأة ببردة فقالت : يارسول الله ؛ أكسوك هذه . فأخذها صلى الله عليه وسلم محتاجا إليها ، فلبسها ، فرآها عليه رجل من الصحابة، فقال : يارسول الله ؛ ماأحسن هذه ! فاكسُنيها ، فقال : نعم ، فلما قام عليه الصلاة والسلام ، لام

الصحابة هذا السائل ، قائلين له : إنك تعرف أنّ النبي محتاج إليها ، وأنه لا يُسأل عن شيء فيمنَعه . وقد شكتْ إليه ابنته فاطمة ما تلقى من خدمة البيت ، وطلبت منه خادما يكفيها مئونة بيتها ، فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد ، وقال : لا أعطيك وأَدَعُ أهل الصُّفّة تُطوَى بُطونُهم من الجوع .

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله، فقال : اجلس سيرزقك الله ، ثم جاء آخر ثم آخر ، فقال لهم : اجلسوا . فجاء رجل بأربع أوَاق فأعطاها إياه . وقال : يارسول الله ؛ إنّ هذه صدقة . فدعا الأوّل فأعطاه أوقيةً ، ثم دعا الثاني فأعطاه أوقية ، ثم دعا الثالث فأعطاه أوقية ؛ وبقيت معه صلى الله عليه وسلم أوقية واحدة ، فعرض بها للقوم ، فما قام أحد . فلما كان الليل وضعها تحت رأسه — وفراشُه عباءة — فجعل لا يأخذه النوم ، فيرجع فيصلي ، فقالت له عائشة رضوان الله عليها : يارسول الله ، هل بك شيء ؟ قال : لا . قالت : فجاءك أمر من الله ؟ قال : لا . قالت : إنك صنعت منذ الليلة شيئا لم تكن تفعله . فأخرجها وقال : هذه التي فعلت بي ماترين ، إني خشيت أن يحدث أمر من أمر الله ولم أُمْضِها .

وكان جوده صلى الله عليه وسلم كله لله ، وفي ابتغاء مرضاته تعالى : فإنه كان يبذل المال تارة لفقير أو محتاج ، وتارة ينفقه في سبيل الله سبحانه ، وتارة يتألف به على الإسلام من يقوى به الإسلام . وكان يؤثر على نفسه وأولاده : فيعطي عطاء يعجز عنه الملوك مثل كسرى وقيصر ، ويعيش في نفسه عيش الفقراء : فيأتي عليه الشهر والشهران لا يوقد في بيته نار ؛ وربما ربط الحجر على بطنه الشريف من الجوع !

ولقد روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : أنا أولى

بالمؤمنين من أنفسهم : فمن ترك دَيْناً فعليّ ، ومن ترك مالا فلورثته .

تلك بعض شذرات من فضائله ومحاسنه التى لا يحصى لها عدد ، ولا يدرك لها أمد .

ولقد جهد كل منافس ومعاند ، وكل زنديق وجاحد أن يزرى به صلى الله عليه وسلم فى قول أو فعل ، أو يظفر بهفوة فى جد أو هزل ، فلم يجد إليها سبيلا ، وقد جهد جهده ، وجمع كثيره . فأى فضل أعظم من فضل تشهد به الحسدة والأعداء ، إذْ لم يجدوا فيه مغمزا لثالب أوقادح ، ولا مطعنا لجارح أو فاضح ؟ :

شهد الأنام بفضله حتى العدا ۞ والفضل ماشهدت به الأعداء

وحقيق بمن بلغ من الفضائل غاياتها ، واستكمل لغايات الأمور أدواتها ، أن يكون لزعامة العالم مؤهَّلا ، وللقيام بمصالح الخلق مؤمَّلا — ولا غاية لبشر بعد النبوة أن يعم به صلاح ، أو ينحسم به فساد — فاقتضى أن يكون صلى الله عليه وسلم لها أهلا ، وللقيام بها مؤهلا ، ولذلك استقرت به حين بعث رسولا ، ونهض بحقوقها حين قام بها كفيلا ، فناسبها وناسبته ، والتناسب وفاق ، وهو أصل كل انتظام ، وقاعدة كل التئام .

٢ — حسن معاشرته

مانهر خادما ، وماضرب بيده شيئا قط إلا أن يكون جهادا فى سبيل الله : قال أنس رضى الله عنه : «خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى : أُفّ قطُّ ، ولا قال لشىء صنعته : لم صنعته ؟ ولا لشىء تركته : لم تركته ؟ »

وكذلك كان صلى الله عليه وسلم مع عبيده وإمائه : ماضرب منهم أحدا قط ،

وهذا أمر لا تتسع له الطباع البشرية، لولا التأييدات الربانية .

وقالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خلا في بيته ألينَ الناس ، بسّاما ضحّاكا .

وكان يركب الحمار ، ويردف خلفه : فقد أردف بعض نسائه ، وأردف معاذ بن جبل ، وأردف أسامة بن زيد .

وقد روى أنه عليه الصلاة والسلام كان في سفر وأمر أصحابه بإصلاح شاة ، فقال رجل : يارسول الله ؛ عليّ ذبحها . وقال آخر : عليّ سلخها . وقال آخر : عليّ طبخها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعليّ جمع الحطب . فقالوا : يارسول الله ؛ نكفيك العمل . فقال : علمت أنكم تكفونني ، ولكن أكره أن أتميز عليكم ، وإن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه . وقد جاء وفد النجاشي فقام صلى الله عليه وسلم يخدمهم ، فقال له أصحابه : نكفيك ، قال : إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين ، وأنا أحب أن أكافئهم .

وجاءته صلى الله عليه وسلم امرأة كان في عقلها شيء فقالت : إن لي إليك حاجة ، فقال : اجلسي في أي سكك المدينة شئت أجلسْ إليك ، حتى أقضي حاجتك . فخلا معها في بعض الطريق ، حتى فرغت من حاجتها .

وجاء في البخاري : كانت الأمة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت .

ودخل الحسن — والنبي صلى الله عليه وسلم يصلي — فركب الحسن ظهره وهو ساجد ، فأبطأ في سجوده حتى نزل الحسن ، فلما فرغ قال له بعض أصحابه : لقد أطلت سجودك ، قال : إن ابني ارتحلني فكرهت أن أُعْجِلَهُ .

وكان صلى الله عليه وسلم يباسط أصحابه ، وكان رجل يسمى زهيرا يهادي

النبي صلى الله عليه وسلم بما يستطرف من موجود البادية ، وكان صلى الله عليه وسلم يهاديه ويكافئه بموجود الحاضرة وبما يستطرف منها ، وكان المصطفى يقول : « زهير باديتنا ، ونحن حاضرته » ، ولقدجاء إلى السوق يوما فوجد زهيراً قائما ، فجاءه من قِبَل ظهره ، وضمه بيده إلى صدره ، فأحس زهير أنه الرسول ، فجعل يمسح ظَهره فى صدره رجاء بركته ، فجعل الرسول يقول : من يشترى العبد ؟ قال زهير : إذًا تجدنى كاسدا . فقال المصطفى : أنت عند الله غال .

وكان عليه الصلاة والسلام يمزح ولا يقول إلا حقا : فمن ذلك أن جاء له رجل فيه بَلَه ، فقال : يارسول الله : احملنى ، فقال : أحملك على ابن الناقة فقال : ماعسى يغنى عنى ابن الناقة ؟ فقال الرسول : ويحك ، وهل يلد الجَمَلَ إلا النـاقة ؟

وجاءت عجوز إلى المصطفى فقالت : يارسول الله ؛ ادع الله لى أن يدخلنى الجنـة ، فقال : يا أم فلان ؛ إن الجنـة لايدخلها عجوز . فولت تبكى ، فقال : أخبروها أنها لاتدخلها وهى عجوز . إن الله تعالى يقول : ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ .

ومن ذلك أن أنَسا كان له أخ يقال له أبو عمير ، وكان له نُغَرٌ (طائر صغير كالعصفور) يلعب به ، فمـات ، فدخل على النبى صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو حزين فقال : ماشأنه ؟ قيل له : مات نُغَرُه فقال : ياأبا عمير ؛ مافعل النغير؟

وصفوة القول أنه كان صلى الله عليـه وسلم أجمل الناس ودا ، وأحسنهم وفاء وعهـدا ، وأوفرهم للحقوق ذكرا ، وأكثرهم تواضعا ، وأجزلهم عفـة وصيانة ، وأنضرهم بهجـة ، وأصدقهم لهجة ، وأجملهم سراً وإعلانا ،

وأعزرهم فضلا وإحسانا ؛ ذا مروءة وافرة ، يرعى حق الصحبة القديمة ، ويتعطف على ذوى رحمه بصلاته ، ويتلطف بالصغار من أولاده حتى فى صلاته ، ويعرض عمن تكلم بغير جميل ؛ مجلسه مجلس هدى وعلم ، ومحل خير وحياء وحلم ، لاتذكر فيه العيوب ، ولا تخفر فيه الذمم ؛ إن تكلم أطرق جلساؤه ، وإن صمت زاد وقاره وبهاؤه .

لم يكن بالجافى ولا المهين . وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أباوصاروا عنده فى الحق سواء . يعطى كلًّا من جلسائه نصيبه ، ولا يحسب جليسه أنّ أحدا أكرم عليه منه . يصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسألته . من جالسه أو فاوضه فى حاجة صابره حتى يكون المُنْصَرِف منه . يؤثر أهل الفضل على قدر فضلهم فى الدين والخلق . يحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بِشْرَه . يتغافل عما لايشتهى ، ولا يكاديواجه أحدا بمـا يكره ؛ أفضل الناس عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم لديه أحسنهم مواساة ومؤازرة . كان إذا رآه الناس لايقومون له لمـا يعلمون من كراهيته لذلك ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس . كان إذا جلس مع الناس : إن تكلموا فى معنى الآخرة أخذ معهم ، وإن تحدّثوا فى طعام أو شراب تحدّث معهم ، وإن تكلموا فى الدنيا تحدّث معهم ، رفقاً بهم وتأليفا لهم .

يجيب دعوة المسكين والمسكينة ، ويعود المرضى فى أقصى المدينة . يقابل عذر المعتذر بالقبول ، ويأمر بالحسنة ويدنى أهلها ، ولا يجزى بالسيئة مثلها ، ولكن يعفو ويصفح ، ويتجاوز عن المسىء ويسمح ، ويدفع بالتى هى أحسن ، ويأتى من المعروف بمـا أمكن . يصل الرحم ، ويقرى الضيف ، ويقطع أسباب الجنف والحيف . وعده مقرون بالإنجاز ، ولفظه يشتمل على الإيجاز .

يدعو أصحابه بكُنَاهم وأحبِّ أسمائهم إليهم ، ويميل إلى محادثتهم ، ومداعبة أبنائهم ؛ ولا يجيب أحدا منهم إلا بالتلبية ، ويعم جميع جلسائه من مودّته بالتسوية .

٣ — إغضاؤه عما لا يحبه وعفوه مع المقدرة

كان صلى الله عليه وسلم وافر الحلم والاحتمال ، كثير الفضل والإفضال : يصل من قطعه ، ويعطى من منعه ، ويبذل لمن حرمه ، ويعفو عمن ظلمه ؛ ويُغضى طَرْفَه على القذى ، ويحبس نفسه عن الأذى ، ويصبر على مايشق ويكره ؛ ولا يزيد مع أذى الجاهل إلا صبرا وحلما ، وماخُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثما ، ولم يؤاخذ الذين كسروا رَبَاعِيَتَه ، بل دعا لهم ، وعفا عنهم . وكم عفا عن مثلهم ، وتجاوز عما بدا من المنافقين فى حقه قولا وفعلا ، ولم يقابل من شتمه ولا من أراده بسوء ، طَوْلاً وفضلا .

جاءه أعرابى يوما يطلب منه شيئا فأعطاه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال له : أحسنت إليك ؟ قال الأعرابى : لا ، ولا أجملت ! فغضب المسلمون ، وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كفوا ، ثم دخل منزله ، وأرسل إلى الأعرابى ، وزاده شيئا ، ثم قال : أحسنت إليك ؟ قال : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : إنك قلت ماقلت وفى نفس أصحابى شىء من ذلك ، فإذا أحببت فقل بين أيديهم ماقلت بين يدىّ ، حتى يذهب من صدورهم مافيها عليك . قال : نعم ، فلما كان الغداة جاء ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إنّ هذا الأعرابى قال ماقال ، فزدناه ، فزعم أنه رضى . أكذلك ؟

فقال الأعرابى : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا . فقال صلى الله عليه وسلم : إنّ مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه ، فتبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا نفورا ، فناداهم صاحب الناقة : خلوا بينى وبين ناقتى ، فإنى أرفق بها وأعلم . فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها ، فأخذ لها من قُمَام الأرض فردّها هَوْنًا هَوْنًا حتى جاءت واستناخت ، وشدّ عليها رحلها واستوى عليها ؛ وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار .

وكان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس ، وأرغبهم فى العفو مع القدرة : فمن ذلك أنّ رجلا من أهل البادية وقف — والمصطفى يقسم قلائد من ذهب وفضة بين أصحابه — وقال : يا محمد ؛ والله لئن أمرك الله أن تعدل ، فما أراك تعدل . فقال المصطفى : ويحك ! فمن يعدل عليك بعدى ؟ فلما ولى الأعرابى قال : ردّوه علىّ رويدا .

وحدث أنه لما كان المصطفى يقسم بعض الغنائم يوم خيبر قال له رجل : يارسول الله ؛ اعدل . فقال له المصطفى : ويحك ! فمن يعدل إذا لم أعدل ؟ فقد خِبْتُ إذًا وخسرت إن كنت لا أعدل ، فقام عمر فقال : ألا أضرب عنقه فإنه منافق ؟ فقال : معاذ الله أن يتحدّث الناس أنى أقتل أصحابى .

وكان صلى الله عليه وسلم فى حرب فرأى العدوُّ من المسلمين غِرَّةً ، فجاء رجل حتى قام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف فقال : من يمنعك منى ؟ فقال : الله ! فسقط السيف من يده ، فأخذه المصطفى وقال له : من يمنعك منى ؟ فقال الرجل : كن خير آخذ . قال المصطفى : قل أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله . فقال : لا ، غير أنى لا أُقاتلك ، ولا أكون معك ، ولا أكون مع قوم يقاتلونك . فخلى سبيله ، فجاء الرجل أصحابه فقال :

جئتكم من عند خير النـاس .

وقال علي رضي الله عنه : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد فقال : انطلقوا حتى تأتوا رَوْضَة (١) خاخٍ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها ، فانطلقنا حتى أتينا روضة خاخ فقلنا : أخرجي الكتاب ، فقالت : مامعي كتاب . فقلنا : لتخرجنّ الكتاب أو لننزعنّ الثياب ، فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به النبي صلى الله عليه وسلم فإذا فيه : من حاطب بن أبي بَلْتَعَة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم أمراً من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : ياحاطب ؛ ماهذا ؟ قال : يارسول الله ؛ لاتعجل عليّ ، إني كنت امرأ مُلْصَقًا في قومي ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهلهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب منهم أن أتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتي ؛ ولم أفعل ذلك كفرا ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، ولا ارتدادا عن ديني . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه صدقكم ، فقال عمر رضي الله عنه : دعني أضرب عنق هذا المنافق . فقال صلى الله عليه وسلم : إنه شهد بدرا ، وما يدريك لعل الله عز وجل قد اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ماشئتم ، فقد غفرت لكم ؟

وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قِسْمة ، فقال رجل : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، فَذُكِرَ ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فاحمرّ وجهه ، وقال : رحم الله أخي موسى ! قد أُوذي بأكثر من هذا ، فصبر .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول : لايُبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئا ، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر

(١) روضة خاخ بين مكة والمدينة .

٤ — حسن سياسته

من تأمل حسن تدبيره صلى الله عليه وسلم للعرب الذين كانوا كالوحش الشارد، مع الطبع المتنافر المتباعد؛ وكيف ساسهم، واحتمل جفاهم، وصبر على أذاهم، إلى أن انقادوا إليه، واجتمعوا عليه، وقاتلوا دونه أهليهم وآباءهم وأبناءهم، واختاروه على أنفسهم وهجروا فى رضاه أوطانهم وأحباءهم، من غير ممارسة سبقت له، ولا مطالعة كتب يتعلم منها سير الماضين — تحقق أنه أعقل العالمين. ولما كان عقله أوسع العقول، اتسعت أخلاق نفسه الكريمة اتساعا لا يضيق عن شىء: قد اتسع خلقه للمنافقين الذين كانوا يؤذونه إذا غاب، ويتملقونه إذا حضر، وعفا عن المقاتلين الذين كسروا رَبَاعِيَتَه، وشجوا وجهه يوم أُحُد، حتى صار الدم يسيل على وجهه الشريف؛ ولما شقَّ ذلك على أصحابه شديدا قالوا له: لو دعوت عليهم، فقال: إنى لم أبعث لعَّانا، ولكن بعثت داعيا ورحمة؛ اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون!

وكان كاملا فى قوة عقله وإدراكه، وصحة قياسه الفكرى، وصدق ظنونه، وصحة فهمه، وقوة حواسه؛ مفطورا على العلم والحلم، والصبر والسكون، والحياء والمروءة، والمودّة والرحمة، والهداية للخلق، وحب الخير لكل أحد، وإعطاء الحكمة حقها فى سائر أموره كلها.

وكان أصبر الناس على ما يكون من قبيح أفعال الناس، وسيئ قولهم، لأنه صلى الله عليه وسلم لانشراح صدره يتسع لما تضيق عنه صدور العامة؛ فكانت مساوئ أخلاقهم وأفعالهم، وسوء سيرتهم، وقبيح سريرتهم، فى جنب سعة صدره الشريف، معدومة الأثر.

نشأ عن حسن سياسته واستقامة سيرته أنه لفت أمته عن مألوفها ، وصرفها عما كانت تعرفه إلى غير ماتعرفه ، فأذعن له الكثير طوعا ، وانقاد له القليل خوفا وطمعا ، وليس من السهل انتزاع عادات متأصلة إلا لمن كان مؤيدا بالتأييد الإلهي ، مُعَاناً بحزم صائب ، ورأى ثاقب وعزم متين .

جمع بين رغبة من استمال ، ورهبة من استطال ، حتى اجتمع الفريقان على نصرته ، وقاموا بحقوق دعوته : رغَبا فى عاجل وآجل ، ودفعا لأمر نازل . وبذلك صار الدين بهما مستقرا ، والصلاح بهما مستمرا .

وقف موقف العدل فى أحكامه : فلم يَغْلُ كما فعلت النصارى ، ولم يقصر كما فعلت اليهود ، ولم يمل بأصحابه إلى الدنيا كما رغبت اليهود ، ولا إلى رفضها كما ترهبنت النصارى ، بل أمرهم بالاعتدال فيها ، وقال لهم : خيركم من لم يترك دنياه لآخرته ، ولا آخرته لدنياه ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه . وتلك هى عين الحكمة : لأن الانقطاع إلى إحداهما اختلال ، والجمع بينهما اعتدال

تمالأ عليه العِلْيَةُ والدون من قومه ، فكلما كانوا عليه ألأم وألح ، كان عنهم أعرض وأصفح . قد قهر فعفا ، وقدر فغفر .

قد رجح عقله ، وصحت همته ، وصدقت فراسته ، فما أُسْتُغْفِل أبدا فى مكيدة ، ولا أُسْتُعْجِز فى شديدة ، بل كانت تخاطبه عواقب الأمور فى أولها ، فيكشف عيوبها ، ويجلى خطوبها .

لم يهزّه طيش ، ولم يستفزه خُرْق ، بل كان أحكم فى النِّفار من كل حكيم ، وأسلم فى الخصام من كل سليم ، وقد منى بجفوة الأعراب ، فلم تقع منه نادرة ، ولم تحفظ عليه بادرة ، وما روى التاريخ زعيما غيره إلا له عثرة أو هفوة .

كان يرى الغدر من كبائر الذنوب ، والإخلاف من مساوئ الشيم ، فيلتزم

فيهما الصعب حفظا لعهده، ووفاه بوعده، حتى يبدأ معاهدوه بنقضه، فيجعل الله تعالى له مخرجا. وحسبك شاهدا صلح الحُدَيْبِيَة.

اتصف بالسكينة: فمن رآه بديهة هابه، ومن خالطه أحبه، ولقد ارتاعت رسل كسرى من هيبته حين أتوه، مع ارتياضهم بصولة الأكاسرة، ومكاثرة الملوك الجبابرة، فكان فى نفوسهم أهيب، وفى أعينهم أعظم، وإن لم يتعاظم بأهبة، ولم يتطاول بسطوة، بل كان بالتواضع موصوفا، وبالوداعة موسوما، فاستحكمت محبته فى النفوس حتى لم يَقْلِه مصاحب، ولم ينفر منه معاند، ولم يستوحش منه مباعد — إلا من ساقه الحسد إلى شقْوته — وأصبح أحب إلى أصحابه من آبائهم وأبنائهم.

ولا عجب: فقد كان يتواضع لهم وهم أتباع، ويخفض جناحه لهم وهو مطاع، يمشى فى الأسواق، ويمتزج بأصحابه وجلسائه، وهو بتواضعه متميز، وبخفض جناحه متعزز.

ولقد دخل عليه أعرابىّ، فارتاع من هيبته، فقال له صلى الله عليه وسلم: خفض عليك: فإنما أنا ابن امرأة تأكل القديد بمكة.

كان أشد الناس إكراما لأصحابه: إذا قال أنصتوا لقوله، وإن أمر تبادروا لأمره. يكرم كريم كل قوم ويوليه أمرهم، ويقبل معذرة المعتذر إليه.

وإليك قصة كعب بن زهير:

غضب كعب على بُجَيْر أخيه حين أسلم وآمن بالمصطفى صلى الله عليه وسلم، وكتب إليه يلومه، فأعلم بُجَيْر المصطفى، فقال عليه الصلاة والسلام: من لقى منكم كعب بن زهير فليقتله، فكتب بجير إليه يخبره أن المصطفى أهدر دمه،

فإن كان لك فى نفسك حاجة فصر إليه : فإنه يقبل من جاءه تائبا ، ولا يطالبه بما عمله قبل الإسلام فلما بلغ الكتاب كعبا فر إلى قبيلته لتُجيرَه ، فأبت عليه ذلك ، فأشفق على نفسه وأرجف به أعداؤه ، فقدم المدينة ونزل على سيدنا ومولانا علىّ ، كرّم الله وجهه ! فأتى به إلى المسجد وقال : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقم إليه ، واستأمنه . فسمع كلامه وقام إليه حتى جلس بين يديه ، فوضع يده فى يده قائلا : يارسول الله؛ إن كعب بن زهير قد جاء يستأمنك تائبا مسلما . فهل أنت قابل منه ذلك إن أنا جئتك به ؟ قال : نعم . قال : أنا يارسول الله ؛ كعب بن زهير ، فقال عليه السلام : آلذى يقول مايقول ؟ ووثب إليه رجل من الأنصار ، فقال : يارسول الله ؛ دعنى وعدو الله أضرب عنقه ، فقال له الرسول : دعه عنك : فإنه قد جاءنا تائبا نازعا . ثم أخذ فى إنشاد قصيدة (بانت سعاد) المشهورة يمدح فيها المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ويذكر خوفه وإرجاف الوشاة به إلى أن وصل :

إن الرسول لنور يستضاء به ۰ وصارم من سيوف الله مسلول

فرمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بردته الشريفة إليه ، وعفا عنه .

كان القوىّ والضعيف عنده فى الحق سواء .

أمر بالرفق وحث عليه ، ونهى عن العنف وبغّضه ، ولم يكن فاحشا ولا متفحشا ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، بل يعفو ويصفح .

وكان صلى الله عليه وسلم لا يواجه أحدا فى وجهه بشىء يكرهه ، لسعة صدره ، وغزارة حيائه .

وكان يزور ضعفاء المسلمين تلطفا بهم ، وإيناساً لهم ، ويعود مرضاهم ، ويشهد جنائزهم لشريف كانت أو لوضيع ، وبذلك كان خير أسوة .

وكان يردف العاجز والضعيف على ظهر الدابة، ويحث على معونتهم والرفق بهم. وفى هذا أدب لأمير الجيش بأن يرفق فى السير، بحيث يقدر عليه أضعفهم، ويحفظ قُوَاه أقواهم، وأن يحمل ضعيفهم ومنقطعهم، ويسعفهم بماله وحاله وقاله.

حقا كان ذا سياسة شريفة، ومعارف منيفة، ونظر ثاقب، ورأى صائب وظنّ صادق، وحدْس موافق، وفضائل مقصودة، وأخلاق محمودة. دينه الإيمان، وخلقه القرآن؛ يسخط لسخطه، ويرضى لرضاه، بعث ليتمم مكارم الأخلاق، محرّرا للشرائع، حافظا للودائع، مجتهدا فى المصالح، رائضا للجوامح، ناظرا فى المهمات، كاشفا للملمات.

وكان كثير الإفضال: يصل من قطعه، ويعطى من منعه، ويبذل لمن حرمه، ويعفو عمن ظلمه، ويغضى طرْفه على القذى، ويحبس نفسه عن الأذى، لا ينتقم مع القدرة، ويصبر على مايشق ويكره، ولا يزيد مع أذى الجاهل وإسرافه إلا صبرا وحلما، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثما، وكم أعرض عن جاهل ومعاند، وما ضرب بيده شيئا قط إلا أن يجاهد، وصبر على مقاساة الجاهلية وما لقى منهم من الشدّة والبلية، إلى أن سلطه الله عليهم، وحكمه فيهم، وأظفره بما لديهم.

كان أكثر الناس حياء، وأوفرهم عن العورات إغضاء، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخّاب ولا فحّاش، ولا مداح ولا عيّاب.

كان يثابر على المعونة، ويسارع إليها، ويؤثر من دخل عليه بوسادته، ولا يردّ ذا الحاجة إلا بها أو بميسور القول.

وكان صلى الله عليه وسلم يأكل مع الخادم، ويبادر إلى خدمة القادم، ويرقع

ثوبه ، ويخصف نعله ، ويقمّ بيته ، ويخدم أهله بحمل بضاعته من السوق ، ويقوم بما يتعين عليه من الحقوق . اختار أن يكون نبيا عبدا ، لا نبيا ملكا ، مع أنه سيد البشر بلا ريب ، وأكرم الخلق عند عالم الشهادة والغيب .

وكان أكثر الناس أمانة ، وأجزلهم عفة وصيانة ، وأنضرهم بهجة ، وأصدقهم لهجة ، وأجملهم سرا وإعلانا ، وأغزرهم عدلا وإحسانا ، صادقا فى الكلام ، وجاهرا بالحق فى الأحكام ، وعده مقرون بالإنجاز ، لا يأخذ أحدا بقَرَف أحد ، يحكم عدلا ، وينطق فصلا .

عرفت الجاهلية فضله قبل الإسلام ، فتحاكموا إليه فى خصوماتهم ، وشهد وليه وعدوه بعلمه وعدله . والفضل ماشهدت به الأعداء لأهله . كان يرعى حق(١) الصحبة القديمة ، ويتعطّف على ذوى رحمه بصلاته ، ويغدق عليهم جميل مآثره ويملك قلوبهم بإيثاره ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا فقد الرجلَ من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه ، فإن كان غائبا دعا له ، وإن كان شاهدا زاره ، وإن كان مريضا عاده : لأنّ الإمام عليه النظر فى حال رعيته ، وإصلاح شأنهم ، وتدبير أمرهم .

وكان إذا قدم عليه الوفد لبس أحسن ثيابه ، وأمر عِلْيَةَ أصحابه بذلك : لأن ذلك يرجحه فى عين العدو ويعظمه ، ويعلى كلمة الله ، ويرفع دينه .

وكان صلى الله عليه وسلم رحيما حتى بأعدائه : ألم تر أنه لمّا دخل يوم الفتح مكة على قريش وقد جلسوا بالمسجد الحرام — وصحبه ينتظرون أمره فيهم من قتل أو غيره — قال لقريش : ماتظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا : أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال صلى الله عليه وسلم : أقول كما قال أخى يوسف : لا تثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء . ولا بدع : فقد انفرد بالإحاطة

(١) من ذلك ذكره للسيدة خديجة والتصدق عليها بعد وفاتها

بالمحاسن والمعارف ، والتودد والرفق ، وكان بالمؤمنين رحيما ، وما أظهر فى وقت ما غلظة على أحد إلا عن أمر إلهى حين نزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

قد عُرف كما تقدم بالأمانة قبل نبوته ، ولذلك كانوا فى الجاهلية يتحاكمون إليه ، ويفصل فى خصوماتهم ، فيرضون بحكمه وعدله . وقد روى أن أبا جهل قال له : إنا لا نكذبك ، ولكن نكذب بما جئت به ، ولذلك جاء فى القرآن الكريم : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ .

وسأل هرقل أبا سفيان فقال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل نبوته ؟ قال : لا . قال هرقل : ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

وقال النضر بن الحارث لقريش محتجا عليهم ومبينا خطأهم : قد كان محمد فيكم غلاما حَدَثا ، أرضاكم فعلا ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صُدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم : ساحر ! والله ما هو بساحر

وليس بعجيب أن أعداءه صلى الله عليه وسلم ، يجدون من ماضيه وحاضره وطباعه وخصاله ما ينفى طعنهم ، ويرد كيدهم فى نحرهم . ولا ريب فى أن العرب لو حفظوا عليه كذبة نادرة فى غير الرسالة ، لجعلوها دليلا على تكذيبه فيها ، ومن لزم الصدق فى صغره كان له فى الكبر ألزم ، ومن عصم منه فى حق نفسه كان له فى حق الله تعالى أعصم ، وكان صلى الله عليه وسلم لم يزل مشهورا بالصدق فى خبره ناشئا وكبيرا . حتى صار بالصدق مرقوما ، وبالأمانة موسوما .

(٥) طريقته المثلى فى الهداية

لقد جاهد صلى الله عليه وسلم حتى زلزل العقائد الفاسدة ، وقضى على

العادات المرذولة ، وما غرس فى قومه أو القبائل الأخرى وعدا كاذبا أو ادعى الألوهية ، أو أحاط نفسه بمظاهر الأبهة من الحرس والحشم ، للتهويل فى نفوس الناس وإرهابهم ، وإنما كان يصارح قومه ، ويجاهرهم بأنه رسول رب العالمين ، جاء لهم مبشرا ونذيرا .

جاء بالمعجزات الكثيرة ، ولكنه ما ادعى أنه قادر على الإتيان بها ، بل كان يقول بلسان القرآن : ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ . ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ .

جرّد نفسه من كل ما من شأنه أن تستمال به الناس : فلم يتخذ وسائل الإغراء ، ولم يجعل همه كسب صداقة زيد أو عمرو ، بل قصد أن يبلغ ما أرسل إليه من عند الله : رحمة بالإنسانية ، وإقامة لملك الله فى أرضه ، وقصدا لتوحيد بنى الإنسان ، وجعلهم أمّة واحدة مرتبطين برابطة الإخاء .

قد تم له النجاح ، ولم يكن سبيله الفذ فيه الالتجاء إلى ما هو فوق مقدور الإنسان ، كما فعل من قبله من الأنبياء : إذا أعوزتهم الحيل جاءتهم المعجزات لإنقاذهم وإتمام مقاصدهم . ولو أنه التجأ إلى المعجزات فى كل أمر حزبه أو كربه ، لتعذر على من يجيئون بعده أن يتخذوه مثلا يحتذى ، لانقطاع صلتهم بالمعجزات ، ولكنه قد اتخذ من الوسائل أنبلها ، ومن الذرائع أشرفها وأوضحها ، وبذلك كانت حياته الشريفة درسا بينا ، وعظة بالغة ، لمن يجيئون بعده ، ممن يجب أن يدركوا مقاصدهم وغاياتهم بالكفاح .

كلنا نعلم أن قوم موسى عليه السلام قد نجوا بمعجزة ، ولذلك لم يتيحوا له

فرصة لغرس روح الرجولة والمروءة فيهم . أما محمد عليه السلام فقد جاهد بالطرق الحربية والسياسية التي يفخر بها القواد الحربيون والسياسيون ، ولذلك ربى جيلا من الصحابة كانوا أولى عقيدة نادرة ، وحب خالص له ، وكانوا ممتازين برجاحة الفكر ، ومتانة الخلق ، ولهذا لم تفزعهم تقلبات الدهر وتصاريف الحياة .

حقا أن كل خلة من الخلال الإنسانية تظهر فى وقتها الملائم : فكما أن الشدائد تسبك الإنسان ، وتكوّن أخلاقه ، كذلك النجاح يظهر مافيه من نبل وهمة إن كان فيه شيء من ذلك .

ومن المصلحين من كان طريق وصوله إلى الكمال الفقر والشدائد ، ومنهم من كان طريق وصوله الغنى والرخاء ، وقليل منهم من خبر الحالين . غير أن محمدا صلى الله عليه وسلم — وقد أراد الله به أن يكون مثلا كاملا للإنسانية — قد خبر الحالين ، فما زاده الرخاء وهناءة البال إلا كرما وصفحا ، وما زادته الشدّة إلا صبرا وجلدا ويقينا .

كان عليه الصلاة والسلام إذا سئل عن معجزة قال لسائليه : حسبكم الكون معجزة : انظروا إلى الأرض فهى من عجائب صنع الله ، وآية على وجوده وعظمته ، خلقها لكم ، وسلك لكم فيها سبلا ، تمشون فى مناكبها ، وتأكلون من رزقه ، ثم انظروا إلى السحاب المسير فى الآفاق : يسح بمائه فيحيي أرضا مواتا ، ويخرج منها زرعا ونخيلا وأعنابا ، ثم انظروا إلى الأنعام خلقها لكم تجعل المرعى لبنا سائغا للشاربين ، ثم انظروا فى أنفسكم فإنكم معجزة : لقد كنتم صغارا ، ومن قبل لم تكونوا شيئا مذكورا ، ثم وهب لكم الله العقل

والقوة ، وخلق لكم الرحمة أشرف الصفات . وما تدرى كيف يكون حال العالم لو لم يخلق الله الرحمة ؟ .

كان عليه الصلاة والسلام يوجه نظر معانديه إلى الكون وما فيه ، مما يدل على أن لله سلطانا على كل شيء ، وأن كل مكان لا يخلو من آية من آياته التى يسميها علماء العصر الحاضر بالقوة والمادة ؛ ولا يرون فيها شيئا مقدسا ، بل الكائنات عندهم تباع وتشترى ، وتستخدم فى تسيير السفن البخارية والمراكب الهوائية ، وغفلوا باشتغالهم بالكيمياء والحساب ، عما هو كامن فى الكائنات من سر الله .

ومن العجب أنهم يغفلون عن ذلك ، ولولاه ما كانت العلوم بأسرها . وفى الحق أن الإنسان لا يجد السبيل إلى العلم حتى يجده أولا فى معرفة الخالق الحكيم : فلا علم إلا لمن عرف الله ، وقرت فى نفسه قوته الباهرة . أما العلم وحده فشقشقة كاذبة ، أو كما يقول بعض العارفين من أهل الغرب : قطعة من الخشب بالية ، أو بقلة ذابلة .

كانت دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الهجرة سلمية : أساسها البرهان والإقناع والموعظة الحسنة ، فأسلم كثير ممن اقتنعوا بصدق الداعى وصحة دعواه : ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ بيد أن أعداءه من كفار قريش سكان مكة ، واليهود الذين كانوا ساكنين بالقرب من المدينة ، وغيرهم من قبائل العرب ، لم يقفوا عند إنكار رسالته ودعوته الإلهية ، بل أرادوا أن يسكتوا الداعى ، وبدءوا يضاعفون اعتداءهم عليه وعلى أصحابه ، فأذن الله الحكيم للمسلمين فى القتال دفاعا عن أنفسهم ، ووقاية للدعوة ممن يصد الناس عن الدخول فى دين الله ، أو يفتنهم أو يعذبهم إذا دخلوا فيه .

وفى ذلك يقول الله تعالى ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وقوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ وقوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ . فدافع النبي وصحبه دفاع قوم يقول لسان حالهم : أما وقد أبت قريش وغيرها إلا الحرب ، فليحتملوا عواقبها بعد أن صموا آذانهم عن كلمة الحق ، وشريعة الصدق وقد جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم من طريق الرفق والأناة ، فازدادوا عتوا وطغيانا ، وأبوا إلا تماديا فى ضلالهم : يسلبون وينهبون ، ويقتلون النفس التى حرّم الله إلا بالحق . وليكن القول الفصل للحسام المهند ، ولكل مسرودة حَصْداء ، وسابحة جَرْداء .

ليس معنى هذا أن دين الإسلام ما كان لينشر لولا السيف . كلا : فقد جاء — كما تقدّم — بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولما لم يقدروها حق قدرها وتتابع منهم العدوان ، لجأ إلى السيف دفاعا عن دعوته وحماية له ولأتباعه . والحق لابد من نشر سلطانه ، وحفظ كيانه ، إما باللسان ، وإما بالسيف ، وإما بالقلم . ولقد جرت سنة الله فى خلقه أن الحرب بين الحق والباطل ، تتمخض دائما عن بقاء الحق ناميا زاكيا : فمثله كمثل حبوب القمح ، إذا دفنت فى الأرض مخلوطة بقشر وقمامة ، وكانت الأرض خصبة قوية ، أخرجت قمحاً خالصا ، أما القمامة فإنها تهضمها فى سكون ، ثم تحيلها عناصر نافعة . تلك سنة الله فى كونه : وهى سنة حق لا باطل ، وسنة عدل ورحمة وحنان ، تتكفل بحراسة كل أمر أسس على الأخلاق ، واغتذى بروح الحق . والدينُ الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، إنما هو الحقيقة الكبرى ، لبثت تنتقل من عصر إلى آخر دهورا وأحقابا ، لم يتبدل جوهرها : (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)

والإسلام جوهر حق وروح صدق . وكل مانسبه المفترون أو الجاهلون إليه من البهتان والخزعبلات فليس منه ، ولا يضيره ، ولا يحجب نوره ، ولذلك لاعجب من سرعة اتصاله بالقلوب ، وشدّة امتزاجه بالنفوس ، واختلاطه بالدماء فى العروق ، وقضائه على الملل الكاذبة ، والنحل الباطلة : فقد كانت حطبا هشيما أكلته نار الإسلام ، فاستحال الحطب رمادا ، والنار لاتزال باقية مشتعلة .

لا يزال القرآن الكريم قاعدة التشريع والعمل ، والقانون المتبع فى شئون الحياة ومسائلها . هدى للناس وسراجا منيرا يضىء للعالم سبيل الحياة ، ويهديهم صراطا مستقيما ، وقد اقتضت حكمة الله أن يجعله قواعد كلية ، يستنبط منها ما يصلح لكل زمان ومكان .

فما برح هذا الكتاب الكريم يتردّد صوته فى آذان الألوف من خلق الله ، ويصل إلى قلوبهم أكثر من ثلاثة عشر قرنا . فهو صوت الحق . إذا تلى نفذ إلى الأفئدة ، يجرى الإخلاص فيه من أوّله إلى آخره . وهذا هو الذى جعل العرب المعاندين يخضعون لبلاغته ، ويقرّون بعجزهم عن محاكاته .

تأمّل قصة عتبة بن ربيعة العبشمى ، من بنى عبد شمس بن عبد مناف ، وكان سيداً مطاعا فى قومه إذ قال : يامعشر قريش ، ألا أقوم لمحمد فأكلمه ، وأعرض عليه أمورا ، عله يقبل بعضها ، فنعطيه إياها ، ويكف عنا ؟ فقالوا : لك ذلك . فذهب إلى رسول الله وهو يصلى فى المسجد وقال : يا ابن أخى ؛ إنك منا حيث قد علمت من خيارنا حسبا ونسبا ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم ، وسفهت أحلامهم ، وعبت آلهتهم ودينهم ، وكفرت من مضى من آبائهم . فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها . فقال عليه الصلاة والسلام : قل يا أبا الوليد ؛ فقال : ياابن أخى ؛

إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإن كان الذى يأتيك رئياً من الجن لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فقال المصطفى صلى الله عليه وسلم : لقد فرغت يا أبا الوليد ؛ قال : نعم . قال : فاسمع منى : فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أول سورة فصلت : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ، بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ . قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ . قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ . إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ

من بين أيديهم ومن خلفهم ألاّ تعبدوا إلاّ الله قالوا : لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنّا بما أرسلتم به كافرون ﴾ عند ذلك أمسك عتبة بفيه ، وناشده الرحم أن يكف عن ذلك . فلما رجع عتبة سألوه فقال : والله لقد سمعت قولا ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالكهانة ، ولا بالسحر . يامعشر قريش : أطيعوني فاجعلوها لي : خلوا بين الرجل وماهو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لكلامه الذي سمعت نبأ : فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فعزه عزكم ، فقالوا : لقد سحرك محمد . فقال : هذا رأيي .

ثم عرضوا على المصطفى صلى الله عليه وسلم أن يشاركهم في عبادتهم ويشاركوه في عبادته ، فأنزل الله في ذلك سورة : ﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ ولما أيسوا منه ، طلبوا إليه أن ينزع من القرآن مايغيظهم ، من ذم الأوثان والوعيد الشديد ، فأنزل الله تعالى لهم جوابا : ﴿ قل مايكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلاّ مايوحى إليّ ﴾ .

ولما رفض ذلك قصدوا إلى تعجيزه بطلب المعجزات ، وطلبوا منه انشقاق القمر ، فآتاه الله هذه المعجزة الباهرة : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ ولما تمت هذه المعجزة أرادوا الاستمرار في تعنتهم وعنادهم فقالوا : ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ﴾ فلم يجبهم إلا بقوله : ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلاّ بشرا رسولا ﴾ لأن الله علم ماتكنه جوانحهم من التعصب والعناد ، فلا يؤمنون مهما جاءهم من البينات : ﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت

لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وكيف يرجى الخير ممن قالوا : ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ولم يقولوا : فاهدنا إليـــه .

ولمـا رأى المشركون ضعفهم عن مقاومة الإسلام بالبرهان اختاروا سياسة القوة كما فعل قوم إبراهيم عند ماعجزوا إذ ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ .

ولمـا أشير عليه بقتل بعض المنافقين قال : لا ، لئلا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه . ولا غرو ، فإخلاص محمد عليه الصلاة والسلام لا يدانيه إخلاص وليس كإخلاص العظماء الذين لا يبرحون يباهون الناس بإخلاصهم : لأن هذا الضرب من الإخلاص حقير دال على الفتنة والغرور ، أما إخلاص محمد عليه الصلاة والسلام فغير مرتبط بإرادته : فهو مخلص بفطرته الطاهرة النقية ، لأن الله فطره على ذلك .

(٦) ثباته صلى الله عليه وسلم على مبدئه

إن الأخلاق إذا تعاورتها الشدائد والأهوال سبكتها ، وأخرجت منها خلقا قويمـا ثابتا ، وكان مثلها مثل الذهب المصفّى ، فالشدائد تظهر ماهو كامن فى الإنسان : فإما أن تجعل منه خلقا عظيما يظل مدى الدهر والأحقاب نبراسا يستضاء به ، وإما أن تقضى عليه فتجعله أثرا بعد عين ، ومن أجل ذلك وجب على من يطمحون إلى الظفر وبلوغ المقاصد العظيمة . أن يعدّوا أنفسهم لركوب متن الأهوال واحتمال الشدائد ، ويتخذوا من هذا النبي الكريم أسوة فى ثباته وسائر أخلاقه .

فقد انفرد صلى الله عليه وسلم بخلة جعلته فى أسمى درجات الكمال : تلك هى الثبات ، وتلك صفة امتازت بها مظاهر القدرة الإلهية ؛ فإنها تسير كلها على وتيرة واحدة ثابتة لا تتغير ، كما هو مشاهد لنا فى سير الأرض وانتقالها حول الشمس فى زمن مقدر لا تعدوه ، وفى سقوط الأمطار فى مساقطها ، وهبوب الرياح من مهابها إلى غير ذلك . وقد تجلى هذا الخلق فى أحوال كثيرة ، فما غيره نجاح أو هزيمة ، ولا إقبال ولا إدبار ، ولا فقر ولا غنى .

انتصر فى الوقائع الحربية فما داخله العجب ولا الزهو ، وملك أطراف بلاد العرب وخزائنها ، فما زاد فى طعامه ولباسه شيئا . وبذلك تمت له السيادة العامة : الدينية والدنيوية .

لبث المصطفى صلى الله عليه وسلم ثلاث سنين يعرض دعوته على أقوام جفاة ، لا دين لهم إلا أن يسجدوا لأصنام لا تنفع ولا تضر ، ولا حجة لهم إلا أنهم متبعون لما كان يعبد آباؤهم ، وليس عندهم من مكارم الأخلاق إلا ما كان مرتبطا بالعزة ، مما كان سببا فى الغارات والحروب وإهراق الدماء ، فلم يصادف خلال هذه السنين الثلاث إلا جمودا وسخرية ، ولم يؤمن به أكثر من ثلاثة عشر رجلا ، ومثل هذا نجاح بطىء لا يشجع فى ذاته ، بيد أن المصطفى ظل ثابتا فى دعوته ، قويا فى عزمه وإرادته .

ولما أمره الله بالجهر بالدعوة فى قوله تعالى — : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ — أعلن لقريش الدعوة إلى توحيد الله تعالى والإخلاص له ، وترك تعظيم الأصنام وعبادتها ، فكان صلى الله عليه وسلم يطوف على الناس فى منازلهم يقول : يأيها الناس ؛ إن الله يأمركم أن تعبدوه

ولا تشركوا به شيئا، وأبو لهب وراءه يقول: يأيها الناس؛ إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم. ووطئ عُقْبة بن أبي مُعَيْط عنقه الشريف وهو ساجد عند الكعبة حتى كادت عيناه تبرزان، وخنقوه خنقا شديدا، فقام أبو بكر دونه، فجذبوا رأسه ولحيته حتى سقط أكثر شعره، فقال أبو بكر: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ؟.

ولقد حدث أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي عند الكعبة — وجمعٌ من قريش في مجالسهم — إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائى، أيكم يقوم إلى جزور آل فلان فيعمد إلى فرثها ودمها وسَلَاها فيجيء به، ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه ؟ فانبعث أشقاهم، فلما سجد عليه الصلاة والسلام وضعه بين كتفيه، وثبت النبي صلى الله عليه وسلم ساجدا، فضحكوا حتى مال بعضهم على بعض من الضحك، ثم جاءت فاطمة وهي جويرية فألقته عنه وهو ساجد.

أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوة ممتثلا أمر ربه، واثقا بوعده ونصره، فصعد على الصفا ثم جعل ينادي: يابني فهر؛ يابني عَدِيّ؛ لبطون قريش. فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر الخبر، فقال لهم عليه السلام وهم مجتمعون: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقيَّ ؟» قالوا: نعم. ماجربنا عليك كذبا» قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبا لك! ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله في شأنه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ. مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ، سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ، فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾.

والمراد من حمل الحطب : المشي بالنميمة ، لأنها كانت تفترى على رسول الله صلى الله عليه وسلم الأكاذيب فى أندية النساء . ثم نزل عليه قوله تعالى : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ وهم بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وبنو نوفل ، وبنو عبد شمس ، أولاد عبد مناف . فجمعهم عليه السلام ، وقال لهم : « إنّ الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبتُ الناسَ جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ، والله لتموتُنّ كما تنامون ، ولتبعثُنّ كما تستيقظون ، ولتحاسبُنّ بما تعملون ، ولَتُجْزَوُنّ بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ؛ وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا » .

من أجل ذلك استاء قريش حرّاس الكعبة وخدّام الأصنام ، وجعلوا يقولون : من هذا الذى يزعم أنه أعقل منا جميعا ، ثم يعنّفنا ويرمينا بالجهل والحمق وعبادة الخُشُب ؟ فأجمعوا على عداوته ، وقام عمه أبو طالب دونه محاميا عنه : يحدب عليه ، ويمنع الأذى عنه ، وهو ماض على أمر الله ، لا يردّه عنه شيء . فتزايد الأمر ، وأضمرت قريش الحقد والعداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحث بعضهم بعضا على ذلك ، ثم مشى رجال من أشرافها إلى أبى طالب يقولون له : إن ابن أخيك سبّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ؛ فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ؛ فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فنكفيكه . فردّهم أبو طالب ردّا جميلا ، فانصرفوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه : مظهر لدين الله ، داع إليه . فهالهم الأمر ، حتى تباعد الرجال وتباغضوا ، ومشَوا إلى أبى طالب مرّة أخرى يقولون إنهم لا يصبرون على ابن أخيه ، فأصبح أبو طالب فى حيرة بين مفارقة قومه وعداوتهم ، وخذلان ابن

أخيه ومغاضبته . فتلطف معه ليستبقيه عليه وعلى نفسه ، ولا يحمله من الأمر مالا يطيق ؛ ولكن القوة الإلهية أيدته ، فأيأسهم من نفسه ، وقال لأبى طالب : ياعماه ؛ لا أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه . فقال له عمه : قل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبدا . فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يضربونهم، ويفتنونهم فى دينهم ، وافترق أمر قريش ، فتعاهد بنو هاشم، وبنو عبدالمطلب مع أبى طالب ، على القيام دون النبى صلى الله عليه وسلم ، واشتد العذاب على المسلمين : فمن ذلك أن أبا جهل مر بسُمَيَّة أم عمار بن ياسر وهى تعذَّب فى سبيل دينها ، فطعنها بحربة فقتلها . ومما فيه العظة والعبرة للمسلمين ، مارواه أبوذر رضى الله عنه ، من أن أول من أظهر الإسلام سبعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبوبكر ، وعمار ، وأمه سمية ، وصُهَيب ، وبلال ، والمقداد ؛ فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله بعمه أبى طالب ، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه ، وأما سائرهم فأخذهم المشركون يعذبونهم ، فألبسوهم أدرع الحديد ، وصهروهم فى الشمس . وإن بلالا هانت عليه نفسه فى الله عز وجل ، وهان على قومه ، فأسلموه إلى الولدان ، فجعلوا يطوفون به فى شعاب مكة وهو يقول : «أَحد ! أَحد ! »عندذلك أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه فى الهجرة إلى الحبشة ؛ فى رجب سنة خمس من النبوة ، فهاجر إليها أحد عشر رجلا وأربع نسوة ، وكان أول من خرج عثمان بن عفان رضى الله عنه ، مع امرأته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما رأت قريش استقرارهم فى الحبشة وأمنهم ، أرسلوا عمرو بن العاص وعبدالله بن أبى ربيعة ، بهدايا وتحف من بلادهم إلى النجاشى ، ليرد المهاجرين إلى قومهم ، فأبى ذلك ، وردهما خائبين بهديتهما . كل هذا والمصطفى صلى الله

عليه وسلم مثابر على نشر دعوته ، يعرضها على من يلتقى به بين الحجيج مدّة إقامتهم بمكة — والكفار جادّون فى منابذته ومناوأته،ومناصبته العداوة . وقد جعل الله تعالى من عمه أبى طالب حاميا يذود عنه ، ويقوم دونه فى بعض مايراد به من كيد وشر ؛ ومن زوجته السيدة العاقلة الفاضلة خديجة (رضى الله عنها) مواسيا يعطف عليه ويثبته ، ويخفف عنه وقع ما يلاقيه .

وقد أصاب أصحابه الذين آمنوا به ، كثير من أذى الأعداء واضطهادهم ، فاحتملوا وصبروا على ما أوذوا ، ابتغاء رضوان الله ومحبة فى رسوله ، صلى الله عليه وسلم . حتى كانت السنة العاشرة من رسالته ، صلى الله عليه وسلم ، فدهمه مصاب عظيم : هو موت عمه أبى طالب ، وزوجه السيدة خديجة ، رضى الله عنها ، فحزن بذلك حزنا شديدا ، حتى سمى عام وفاتهما عام الحزن . وقد اشتدّ أذى الكفار من قريش بعد ذلك عليه وعلى أصحابه ، ونالوا منهم مالم ينالوا فى حياة عمه .

أصبح المصطفى صلى الله عليه وسلم وقتئذ فى مقام ضنك : تتهدّده الحُتوف ، وتتوعده الهلَكات ، وتفغَرله أفواهها المنايا . وكان يخيل لغير أهل اليقين أنّ أمر محمد صار إلى الإخفاق ، ولكن هذا الأمر العظيم ، المؤيَّد من الإله القدير الحكيم ، ما كان لينتهى بالإخفاق .

ولما كانت السنة الثالثة عشرة من البعثة ، قدم إلى مكة من أهل المدينة عدد كثير يقصدون الحج ، فاجتمعوا بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وعاهدوه — إن هو هاجر إليهم — على أن يدافعوا عنه،وينصروه على أعدائه . ولما سمع المشركون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حالف قوما عليهم ؛ ازداد إيذاؤهم عليه وعلى أصحابه ، فأمر عليه الصلاة والسلام المسلمين بالهجرة إلى المدينة .

فصاروا يتسللون فراراً بدينهم ؛ ليتمكنوا من عبادة الله الذى امتزج حبه بلحمهم ودمهم ، حتى صاروا لايجدون غضاضة فى مفارقة أوطانهم ، والابتعاد عن آبائهم وأبنائهم . ولما طرق مسامعَ قريش تتابعُ المهاجرين ، اجتمع رؤساؤهم وقادتهم فى دار الندوة ، للتشاور فيما يصنعون فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه ؛ فقال قائل : نخرجه من أرضنا ، لنستريح منه . فرفض الباقون هذا الرأى ، لأنهم قالوا : إذا خرج اجتمعت حوله الجموع ؛ لما يرونه من حلاوة منطقه، وعذوبة لفظه .

وقال آخر : نُوثقه ونحبسه . فرفض هذا الرأى كسابقه ؛ مخافة أنّ الخبر يبلغ أنصاره ، فيعلَنون حربا على مشركى مكة . وقال لهم طاغيتهم : بل نقتله ؛ ولمنع بنى أبيه من الأخذ بثأره ، تقدم كل قبيلة شابا جَلْدا ، ويجتمع الكل أمام داره ، فإذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد : فيتفرّق دمه فى القبائل ؛ فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قريش ، بل يرضون بالدية . فارتضوا هذا الرأى ؛ ولما كان الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام ، فأمر صلى الله عليه وسلم عليا أن ينام مكانه ، حتى لايحصل الشك فى وجوده فى الليل : فإنهم كانوا يردّدون النظر من شقوق الباب ليعلموا وجوده ؛ ثم سجى عليا ببردته . فكان علىّ كرّم الله وجهه أوّل من شرَى نفسه فى الله . ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أخذ الله على أبصارهم ، فلم يره أحد منهم ، ثم تقابل مع الصِّدِّيق حيث تواعدا ، ثم سارا حتى بلغا غار ثَوْر ، فاختفيا فيه ؛ ونظر صلى الله عليه وسلم حين خروجه إلى البيت ، فقال : والله إنك لأحب أرض الله إلىّ ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أنّ أهلك أخرجونى منك ماخرجت . ولما لم تجد قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ،

طلبوهما بمكة أعلاها وأسفلها، وبعثوا القَافَةَ إثْرهما في كل وجهة، وجعلوا جائزة كبيرة لمن يأتي بهما، فجـدّوا في طلبهما حتى وصلوا إلى باب الغار، فعميت أبصارهم عن دخوله، وجعلوا يضربون حوله يمينا وشمالا. وعندذلك اشتدّ حزن أبي بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: إن قُتلتُ فإنما أنا رجل واحد، وإن قُتلتَ أنت هلكت الأمة. فما لبث أن أجابه المصطفى صلى الله عليه وسلم بذهن مجتمع، وقلب مفعم ثقة ويقينا: «لَاتَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا». وهذا ضرب من الثبات لم يروِ التاريخ مثله في أحقابه ودهوره. ومكث صلى الله عليه وسلم هو وأبو بكر رضي الله عنه في الغار ثلاث ليال؛ ثم غادراه إلى المدينة في طريق غير مألوف. وقد صادفهما في الطريق أعرابيّ، فسأل أبا بكر عمن معه، فقال: هادٍ يهدينا الطريق. أراد أبو بكر طريق الخير، وفهم الأعرابي طريق السير.

وبذلك تمت هجرته صلى الله عليه وسلم إلى دار ينشر فيها الإسلام، ويكون فيها للرسول العزة والمنعة. وهذا من الحكمة بمكان عظيم: فإنه لو انتشر الإسلام بمكة، لقال المبغضون: إن قريشا أرادوا ملك العرب، فعمدوا إلى شخص منهم، وأوعزوا إليه أن يدعي هذه الدعوى، حتى تكون وسيلة لنيل مآربهم. ولكنهم قد صاروا له أعداء ألدّاء؛ آذوه شديد الأذى، حتى اختار الله له مفارقة بلادهم، والبعد عنهم.

كل هذا قد لاقاه محمد صلى الله عليه وسلم، وهو مستمر على دعوته، يدعوهم ليلا ونهارا، سرا وإعلانا، منفذا لأمر الله، لا يخشى فيه لومة لائم؛ حتى دخل الناس في دين الله أفواجا، وخضعت له الجزيرة العربية، وانقادت لدينه. ثم اختار من أصحابه، أولي الحزم واليقين والبيان، رسلا أرسلهم إلى الملوك خارج الجزيرة

ولم تؤثر عنه صلى الله عليه وسلم زلة أو هفوة : فقد رزق الحلم والاحتمال ، والعفو عند المقدرة ، والصبر على المكاره ؛ وما كان يزيده الأذى إلا صبرا ، وإسراف الجاهل إلا حلما . قالت عائشة رضى الله عنها : ماخيِّر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمرين قطُّ ؛ إلا اختار أيسرهما . مالم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس عنه ؛ وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها . ألم تر أنه لما أصابه ماأصابه فى وقعة أُحُد ، قيل له : لو دعوت عليهم ! فقال : إنى لم أُبعث لعَّانا ، ولكنى بعثت داعيا ورحمة ؛ اللهم اهد قومى ! فإنهم لا يعلمون . فلم يقتصر على السكوت عنهم ، حتى عفا عنهم ؛ ثم أشفق عليهم ، ورحمهم ، ودعا لهم ، وشفع فيهم ، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك .

مما تقدّم يتبين أنه صلى الله عليه وسلم احتمل مالم يحتمله نبيّ قبله : فتلونت عليه الأحوال من سلم وحرب ، وغنًى وفقر ، وأمن وخوف ، وإقامة فى وطنه ، وظعن عنه ، وقتل أحبابه وأوليائه بين يديه ، وأذى الكفار له بجميع أنواع الأذى : من الكذب ، والافتراء ، والبهتان ، وإيذائه فى جسمه . وهو مع ذلك صابر على أمر الله ، يدعو إلى الله ؛ فلم يُؤذَ نبي ماأوذى ، ولم يحتمل فى الله مااحتمله ؛ ولم يُعطَ نبيٌّ ما أعطيه . فرفع الله له ذكره ، وقرن اسمه باسمه ، وجعله سيد الناس كلهم ، وأقرب الأنبياء إليه وسيلة ، وأعظمهم عنده جاها ، وأسمعهم عنده شفاعة . وكانت تلك المحن تنجلى عن كرامته . وهى مما زاده الله بها شرفا وفضلا ، وساقه بها إلى أعلى المقامات . وهذه حال ورثته من بعده ـ الأمثل فالأمثل ـ كل له نصيب من المحنة يسوقه الله بها إلى كماله بحسب متابعته ، ومن لا نصيب له من ذلك فحظه من الدنيا حظ من خلق لها وخلقت له : خلاقه ونصيبه فيها ؛ فهو يأكل منها رغدا ، ويمرح فيها مرحا ، حتى يناله نصيبه من

الكتاب . فيمتحن الله أولياءه وهو فى دعة وخفض عيش ، ويخافون وهو آمن ، ويحزنون وهو فى أهله مسرور ؛ له شأن ولهم شأن ، وهو فى واد وهم فى واد ؛ همه مايقوم به جاهه ، ويسلم به ماله ، وتُسمع به كلمته .

أما همّ أصحاب الإرادة القوية، والعزيمة الثابتة، فإقامة دين الله ، وإعلاء كلمته ، وإعزاز أوليائه ، وأن تكون الدعوة له وحده ، فيكون هو وحده المعبود لاغير ، ورسوله المطاع لاسواه . فلله سبحانه من الحِكَم فى ابتلاء أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين ، ماتتقاصر عقول العالمين عن معرفته . وهل وصل من وصل إلى المقامات المحمودة ، والغايات الفاضلة ، إلا على جسر المحنة والابتلاء ؟

كذا المعالى اذا مارمت تدركها ٭ فاعبُر إليها على جسر من التعب

من أجل ذلك كان محمد صلى الله عليه وسلم ، خير أسوة للمربين والمرشدين والقواد والقضاة والحكماء ، والأئمة والناشئة ، والمعاهدين والمحاربين ، والعابدين والزاهدين ؛ فهو مثل أعلى : للفرد فى قبيلته ، والزوج مع زوجته ، والأب مع ابنه ، والتاجر فى تجارته ، والمربى مع تلميذه ، والواعظ مع مستمعيه ، والجندى فى حومته ، والقائد فى تدبيره ، والمشترع فى أحكام شريعته ، والقاضى فى ولايته ، والسياسىّ فى حكومته ، والملك فى رعيته ، والمسالم لأوليائه ، والمحارب لأعدائه ، والعابد فى محرابه ، والزاهد فى قناعته .

كل هؤلاء يجدون من صفاته صلى الله عليه وسلم مُثُلا يحتذونها ، وروحا يقوون على مزاولة أعمالهم بها ، وإماما يسيرون عليه فى تحقيق مآربهم ، ومردّا يرجعون إليه عند حيرتهم .

ومن ثَمَّ وجب اتباعه ، وامتثال سنته السنية ، واقتفاء طريقة هديه وسيرته الزكية ، والاقتداء به فى الأخلاق والأفعال ، والانقياد لأوامره فى

جميع الأعمال، والتأسى به فى حربه وسلمه، والأخذ بقوله، والرضا بحكمه ـ فخير الهدى هداه، ومن اتبعه أحبه الله.

وقد سعدت أمّة امتثلت أوامره، واجتنبت نواهيه، وبذلت الجهد فى مناصرة دينه ومؤازرته، وتأدّبت بآدابه فى عسرها ويسرها، وآثرت ماشرعه على هواها، وثابرت على العمل بسنته، وتفقهت فى دينه وشريعته، وتخلقت بخلقه، وتطبعت بطبعه، وأحبت من أحبه، وعظمت آل بيته وصحبه، وخالفت كل أمر يخالف شرعه، وأعرضت عمن حاول إدخال محدَثة فيه أو بدعة، ونهضت للوقوف عند حدوده، ورفضت أقوال شانئيه وحسوده، وبذلت دونه النفس والمال: فليس هنالك كرم أجزل من كرمه، ولا نعم أكمل من نعمه، ولا نوال أتم من نواله.

ولا عجب: فقد جاء بالرأفة والرحمة. وعلم الكتاب والحكمة، وأنذر وبشر، ونهى عن التعسير ويسّر، وبالغ فى النصيحة، وأتى بالحجة الصحيحة، وجاء بالهداية، وأنقذ من العماية، ودعا إلى الفلاح، وبيّن سبيل النجاح.

قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ. فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

الباب الثاني

محمد صلى الله عليه وسلم بين الرسل

انفرد محمد عليه الصلاة والسلام من بين الأنبياء والرسل ، بأن معاصريه قد وقفوا على جميع خلاله وأخلاقه ، الخاصة والعامة ؛ ثم تناقلها الناس جيلا بعد جيل ، واضحة لا خفاء فيها ولا لبس ، وأودعوها بطون الكتب . فهو الرسول التاريخى بالمعنى الصحيح ؛ لأن سيرته من مولده إلى مماته ثابتة ثبوتا لامرية فيه : فجميع أعماله مدوّنة ، وأحاديثه مسطورة ، شاملة لما يحتاج إليه بنو البشر فى معاشهم ومعادهم ؛ وأعماله مصدّقة لأقواله ، لا تناقض فيها ولا تضارب ؛ وهى فوق ذلك نبراس لبنى الإنسان ، يستضيئون به على مرّ الدهور والأزمان .

وهذا هو سرّ أن محمداً أفضل المرسلين ، وأرفعهم شأنا ، وأعلاهم قدرا ـ ولولا ماجاء به من الشمائل والأعمال ، مافهم العالم قدر النبوّة والأنبياء .

لو كانت رسالة الأنبياء مقصورة على إلقاء المواعظ والنصائح ، دون أن يكافحوا فى سبيل إنهاض بنى الإنسان ، وتثقيف عقولهم ، وتقويم أخلاقهم ، وإصلاح شئونهم ، ما استطاع أحد أن يفهم وجه الحاجة إلى الرسالة والرسل : لأن المواعظ والحكم والأمثال ، قد جاءت فى الأحقاب الخالية على لسان من لم يدّعوا الرسالة : ففى كتاب كليلة ودمنة ــ وهو مما وضعه علماء الهند ــ كثير من الأمثال والأحاديث التى أُلهِمُوا أن يدخلوا فيها أبلغ ماوجدوا

من القول فى النحو الذى أرادوا . وقد ضمّنوه كثيرا من البحوث الخلقية والسياسية والاجتماعية والحربية ، على لسان البهائم والطير ، وقد قصدوا به أن يكون إرشادا وهداية لتربية الأمراء ، وأبناء الحكام ، وهو وأمثاله بلا ريب مظهر حكمة وأدب ؛ غير أن العقل — وقد بلغ من الرقى شأوا بعيدا — قد بان له أن تحقيق كثير مما اشتمل عليه عسيرٌ ؛ لأنه إلى الأمور النظرية أقرب منه إلى العملية ، وأن الانتفاع بطائفة من المواعظ والنصائح — التى لم يخرجها قائلها إلى حيز العمل — قليل .

وإن أمثل قاعدة يُسترشَد بها فى اصطفاء من يتخذه الناس زعيما وقدوة هى أعماله : فهى التى تجعله أهلا لأن يسلم إليه الناس قيادهم ، ويأتمنوه على عقولهم يثقفها ويغذيها ، وعلى أخلاقهم يقومها ويزكيها . وإن أثر الحكمة الخلقيّة تسمع من أفواه الوعاظ ، ليس بأبلغ منها وهى مكتوبة على الجدران .

ومما تقدم يتبين أن القاعدة فى اختيار الهداة هى أعمالهم لا أقوالهم . وأعظم هؤلاء الهداة هم الذين أرسلهم الله بنوره وهدايته . وما جاء على لسانهم من الأقوال الحكيمة ، والمواعظ الخلقية الاجتماعية : ولا يتحقق أثره إلا إذا كانت أعمالهم مظاهر لها . ومن أراد العمل بها ، دون أن يتواتر إليه كيف عملوا بها ، فقد يقع فى الخطأ ، ويضل سواء السبيل . أضف إلى ذلك أن الفضائل السلبية ، والفضائل القولية ، ليس لها وزن فى باب الأخلاق النافعة : فقد نقرأ لكثير من الناس كلاما حسنا فى العفو والحلم وكظم الغيظ ، ولكنا لا نستطيع الجزم بأن هذه الخلال شعارهم الذى اتخذوه .

وليس هناك من دليل مقنع على أن الانسان يَستَشعِر الفضائل من أن يكون قوله مقرونا بعمله . فأخلق بمن ينصح للناس بالصبر ومحامده ، واحتمال

الأذى والتجلّد له ، أن يكون قد ركب متن الأهوال ، ولاقى الشدائد ، وأوذى في سبيل رأيه وعقيدته ، كما فعل محمد صلى الله عليه وسلم .

إن طائفة من المواعظ والمعجزات ، ليست كل ما يأتي به الرسول من الآيات والبراهين ؛ بل آيته أن يحيي بني الانسان ، بعد أن ذاقوا الموت العقليّ والخلقي والروحي ، وآيته أن يبعث فيهم بأقواله وأفعاله : الهمة والمروءة والنجدة ؛ وما إليها من الخلال السامية . آيته أن يبعث الإنسانية من رمسها ، فتخرجَ وقد سرت فيها الحياة الصحيحة : فاستيقظ شعورها ، وتحركت عاطفتها وانتبه عقلها ، وتبينت أخلاقها ، وانتعشت روحها ؛ لأن هذه الصفات هي ملاك أمرها ، لا تعيش ولا تنمي إلا بها ، وهي بعد متساندة ، لا تستقيم واحدة منها بغير انضمامها إلى أخواتها ، ولذلك كان من الخطل تقوية بعضها وإغفال سائرها .

انفرد محمد صلى الله عليه وسلم بأن استثمر هذه الصفات ، ووجهها إلى أن يكون الإنسان ذا عقل راجح ، وشعور حيّ ، وعاطفة نبيلة ، وخلق رفيع ، وروح عالية . وقد توالت الدهور والأحقاب ، والأمم منفصل بعضها عن بعض ، زاعمة كل واحدة أن العالم كله فيها ، وأنها أفضل من سواها ؛ لأن الله خصها بالرسالة والهداية ، فنجم عن ذلك القولُ بأن الله — تعالى عما يقولون علوّا كبيرا — حابى بعض الأمم ، وخصها بمزايا لم يمنحها غيرها .

ومن أجل ذلك أرادت الحكمة الإلهية ، أن تقضي على ما خالج نفوس بعض الأمم ، من أنها أفضل من غيرها ، جنسا وخلالا ودينا ، وأن تجعل من الإنسان جسما واحدا ، فمنّ الله على الخلق جميعهم برسول عامّ ، معه رسالة عامّة ، لا يُخصّصها زمان ولا مكان : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ .

كان مثل من سبقه من النبيين صلوات الله عليهم وسلامه ؛ مثل المصابيح ، كل منها وضع فى حجرة لا يضىء سواها ، فلما ظهرت شمس الرحمة من البلاد العربية ، لم يبق هناك من حاجة إلى هذه المصابيح المحدودة المدى ، وليس فى مقدور أى نور آخر أن يقوم مقام هذه الشمس .

بعث كل رسول ممن تقدموا المصطفى صلى الله عليه وسلم لتهذيب أفراد أمته ، وجعلهم صالحين لتكوين أمة متجانسة ، ولعمرى هذا عمل جليل — غير أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، وهو خير المرسلين ، أرسل ليجمع هذه الأمم ، ويجعلها أمة واحدة متكافئة ، مرتبطة برابطة الإخاء .

جاء كل رسول وأهم مقاصده تقويم خلق معين ، فكانت حياته أسوة لما أراد تقويمه . أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد جاء لتنمية الفطرة الإنسانية جميعها ، واستخدام ملكاتها ، وتقويم غرائزها . وكانت حياته العملية صلى الله عليه وسلم ، ملأى بالمثل الصالحة ، الكفيلة بتقويم أخلاق بنى الإنسان جميعها . ولذلك كان مثلا كاملا للإنسان ، اجتمعت فيه الفضائل التى كانت فى أنبياء بنى إسرائيل وغيرهم ، تجمعت فيه : شجاعة موسى ، وشفقة هارون ، وصبر أيوب ، وإقدام داود ، وعظمة سليمان ، وبساطة يحيى ، ورحمة عيسى ، عليهم جميعا الصلاة والسلام .

كانت له شخصية قويه ، أثرت فيمن حوله أثرا بليغا ، فاقر له بالفضل العدو والصديق . أظهر من الثبات والمثابرة وحضور البديهة والسكينة ، فى أوقات المحن والشدائد ، مالم يعهد فى إنسان قبله أو بعده . أوتى من البيان ووضوح الحجة ما جعل الناس قاطبة يفهمون قوله ، ويتأثرون به

عمل بما قال ، فكان أكمل مثال يحتذى ، وحدثت أعماله عن نفسها .

قضى حياته كلها ولم يبد منه ميل إلى التفاخر والتعظيم ، وأذّن فى الناس أنه بشر لا إله ، وأنه إنما جاء برسالة لهداية العالمين ، تنزل عليه الأحكام والآداب فيبلغها ، ثم يترجم عنها بعمله .

وإذ بلغ ما أوحى به إليه ، وبيّنه بعمله ، وجعله من خلقه ، سهل على الناس أن يتبعوا شريعته وينسجوا على منواله ، وظل الكتاب الكريم سليما من النقص والزيادة ، مصونا من التبديل والتحريف ، يتناوله الخلف عن السلف كما أنزل ، وكما بينه الرسول بعمله : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

أما وقد بان أن القرآن الكريم هو مظهر الإرادة الصمدانية العالية ، وأنه باق كما أنزل ، وأنه محتو على مايحتاج إليه الإنسان فى معاشه ومعاده ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بينه كما أراد ربه ، وأن بيانه وصل إلى المسلمين فى العصور المتتالية كاملا مصونا ، فلا حاجة إلى تنزيل جديد ؛ لأن كلمة الله لم تبدل ، وإرسالها مرة أخرى محض تكرار وإعادة — والله منزه عن ذلك — ولا حاجة إلى رسول آخر ، لأن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء بآخر هداية شاملة للناس ، فهو لذلك خاتم الرسل . أضف إلى ذلك أن المفكرين أجمعوا على أن أسمى أغراض الدين ، هو السمو بالإنسان عن حظيرة الحيوانية إلى أفق التفكير ، وإعداده لأن يحيا حياة الفضيلة والاستقامة والتقوى ، ولا يتأتى هذا إلا إذا كان الدين الذى يعمل به أقرب الأديان منالا ، قيما لاعوج فيه ، صالحا لكل زمان ومكان ، وإن لم يفطن لذلك بعض أهله . والقرآن هو ضالة بنى البشر فهو : ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ فيه الآيات البينات ، والدلائل الواضحات ، والأخبار الصادقة ، والمواعظ

الرائقة ، والشرائع الراقية ، والآداب العالية ؛ ببيان ساطع . وبرهان قاطع ؛ فهو مفتاح للمنافع الدينية والدنيوية . مصدق لما بين يديه من الكتب السماوية . وهو آية الله الدائمة . وحجته القائمة . باق على وجه كل مكان وزمان . دائر من بين سائر الكتب على كل لسان فى كل مكان . وهو النور الإلهى فى أفق الدنيا حتى تزول وتفنى ، والمعنى القدسى فى دولة الكون حتى تدول ويبقى .

الباب الثالث

الأسباب الاجتماعية والاقتصادية التي اقتضت بعثة محمد صلى الله عليه وسلم

جدير بنا أن نوجز القول في حال العالم قبل البعثة المحمدية وحال البلاد العربية وبخاصة مكة المكرمة؛ لنبين الأسباب التي دعت إليها:

(ا) حال الفرس

أنبأنا التاريخ أنه في سنة عشر وستمائة للميلاد، اشتعلت الحرب بين الرومان والفرس: لأن العداوة بينهما قديمة، ترجع إلى ماقبل القرن الخامس قبل الإسلام. وأهم أسبابها تنازعهما سيادة العالم: لأنهما كانتا في تلك العصور أعظم دول الأرض شأنا، وأعزها سلطانا، فأرادت كل منهما الاستئثار بالسلطان دون الأخرى. وكان من عواقب حرب تلك السنة أن عاثت جنود الفرس في الأقطار الرومانية، والإمبراطور هرقل معتزل في قصره، منغمس في اللهو واللعب — غير أنه لما شاهد الخطر هب للدفاع عن كيان دولته. ولما لم يكن عنده مال كاف للحرب، اقترض أموال الكنائس، على أن يردها وربحها بعد أن تضع الحرب أوزارها. وما زالت الحرب قائمة حتى دارت الدائرة على الفرس، وتم النصر للرومان سنة ثنتين وعشرين وستمائة للميلاد.

وفي سنة سبع وعشرين وستمائة ميلادية تجددت الحرب بين الدولتين.

فانهزم الفرس مرة أخرى ، وبلغت جنود الرومان نِينَوَى عاصمة الآشوريين قديما ، ثم ظهرت بوادر الانحلال السياسى على دولة الفرس : فأصبحت حكومتهم فوضى ، حتى ادّعى ملْكَهَا فى خلال أربع سنين تسعةٌ من ملوكهم.

أضف إلى ذلك أن الحال الاجتماعية أخذت تضعف أيضا : فقد انشقت عصا الأمة ، بما شاع فيها من تشعب المذاهب عن مانى ومزدك ، الذى ادّعى أن الله بعثه ليأمر بإباحة النساء والأموال بين الناس ؛ لأنهم إخوة ، أولاد أب واحد . فنشأ عن ذلك كثير من فساد الأخلاق ، وانتابهم تدهور عام .

(ب) الرومان

أما الرومان فقد ضاع نفوذهم فى الأمم التى قهروها ، وقبض المتبربرون على كثير من المناصب الإدارية والجندية ، وصارت الثغور مهدّدة بالغارات عليها من كل جهة ، وأمعنت الحكومات المتعاقبة فى زيادة الضرائب ، سدّا لحاجات الطبقات العالية ، ونفقات الحكام التى لا عهد لهم بها من قبل ؛ فكان من ذلك أن الأقطار التى لهم السلطان عليها ، أخذت تشق عصا الطاعة ؛ لأنها لم تستطع احتمال مظالم الحكام ، وإرضاء جشعهم وشهواتهم .

حقا إن ملوكها من عهد دقلديانوس ، فكروا فى أن يدفعوا أسباب الانحلال بإنقاذ العالم الرومانى : فبدأ دقلديانوس بإلغاء نفوذ البطارقة ، واستبدل به نظاما آخر شبيها به ، فلم يفلح . حتى جاء قسطنطين ، فسعى فى خضد شوكة طبقة الأشراف من الجنود ، واستعاض بوظائفهم وظائف مدنية ؛ فنجح إلى درجة محدودة . ولما بان له أن الإقامة فى رومة ليست بعد ممكنة للملوك ؛ نقل مقرّ الدولة إلى القسطنطينية ، ليقطع كل صلة بينه وبين العادات القديمة ، ويترك الرومانيين ومعبوداتهم الكاذبة — : بيد أنه وَهِمَ أن اتخاذ النصرانية

أقوى سبب لنجاحه ، فبان له غير ذلك ؛ إذ تشعبت الاختلافات الدينية إلى شعاب لاعداد لها : وكل شعبة أخذت تدافع عن معتقداتها دفاع المستميت ، حتى عمت الفوضى الأمور الدينية ، كما استولت على المناصب الحكومية . أضف إلى ذلك أن الأشراف والبطارقة وجماعات المصارعين ، وغيرهم من أولى اللهو واللعب ، الذين اعتادوا سخاء الملوك وتبذيرهم فى رومة ، رحلوا إلى القسطنطينية ؛ ليستمتعوا بما اعتادوه من قبل . وما لبثت هذه الطبقات أن انحطت درجاتها عما كانت عليه فى الغرب ، وبقدر انحطاط درجاتهم الخلقية ازدادت قوتهم ووقاحتهم ، حتى إن السوقة استطاعوا إعطاء الملك لمن يزيد لهم فى العطاء .

ثم تلا ذلك النزاع بين الباباوات وبطارقة القسطنطينية الذين كانوا يحرم بعضهم بعضا ، فتضاعفت بذلك أسباب الانحلال فى هذه الأمة المتداعية ، وانصرفوا عن مدافعة الأمم المتبربرة التى كانت تنقص الدولة من أطرافها . فمن ذلك أن الحكام كانوا يُعْنَوْن بتقريب أتباع رؤساء الكنائس ، أكثر مما كانوا يُعْنَوْن بمنازلة الفرس والبلغار فى ميدان القتال .

ويضاف إلى ماتقدم : ما كان بين الرومان واليهود من التضاغُن ، فقد بلغ غاية عظيمة فى أيام هرقل : إذ ثار اليهود فى أنطاكية فقتلوا بطريركها ، ومثّلوا به شر تمثيل . وتآمر يهود صور ويهود فينيقية وفلَسْطين ، على أن يدخلوا مدينة صور ليلا ويقتلوا النصارى . ومما فعله اليهود من الفظائع نكاية فى الروم ، أنهم اشتروا من الفرس ثمانين ألفا من أسرى النصارى ، ثم ذبحوهم . وكانت حكومة النصارى إذا سنت قانونا خصصت بعض أحكامه باليهود لمعاملتهم بالاحتقار . وقررت المجالس الملية إلغاء الديانة اليهودية . وأمرت

الحكومة بمنع اليهود من الاحتفال بأعيادهم ، وأجبرتهم على النصرانية ، وضيقت عليهم شر تضييق ، حتى اضطروا إلى التظاهر بالنصرانية .

أعرض الناس عن الفضائل الاجتماعية والخلقية ، وارتفع شأن الذين يعملون السيئات ، فتبوءوا عرش القياصرة ، وقاسموا البَرَاطِرَة فخار الملك والحكم . وكان من ذلك أن ثيودرة التي أصبح اسمها مضغة في الأفواه ، صارت ملكة يجثو لها القضاء والكهنة والقوّاد ، على الرغم مما أتته من الأعمال المنافية للدين والأخلاق . وكان من ذلك أن إساد القلق ، وانتشرت الفوضى ، وديست القوانين السماوية والوضعية ، وانتهكت حرمات الأماكن المقدّسة .

(ج) الهنـــد

وأما في الهند فقد انتشر مذهب إباحة النساء بوساطة دعاة أقوياء . وقد بلغ من الفحش أنّ الكاهن الهندي كان يحظى بالعروس في جَلْوَتها الأولى : لينشر عليها وعلى زوجها البركة والنعمة ، وكانت الأناشيد التي تنوّه بالمنكرات والقبائح تلقى في الاحتفالات العامّة ، فتمدّ مستمعيها من الغواية بأسباب ، وتفتح لهم من الآثام كل باب .

(د) حال البـــلاد العربية

كان العرب قبل البعثة المحمدية قد وقعت بينهم الفرقة ، وانتزعت الألفة ، واختلفت كلمتهم ، وذهبت وحدتهم ، واضطربت أحوالهم ؛ فكانوا إخوان دَبَرٍ وَوَبَرٍ ، أذل الأمم دارا ، وأجدبها قرارا ، لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بها ، ولا إلى ظل ألفة يضويهم لواؤها ، فأحوالهم مضطربة ، وأيديهم متفرقة . وكانوا من جراء ذلك في بلاء عظيم ، من جهالات مُطْبِقة ،

وشرور موبقة ، وبنات موءودة ، وأصنام معبودة ، وأرحام مقطوعة ، وغارات مشنونة .

فقد تردَّوا قبل البعثة المحمدية فى هاوية الانحلال الاجتماعى ، بما لم يعهد له مثيل فى تاريخ الأمم ؛ فكانوا فى جهل بأحكام الدين الصحيح ، ومبادئ السياسة والحياة الاجتماعية ، ولم يكن لهم فن يذكر ، أو صناعة تنشر ، ولم يكونوا يعرفون شيئا من العلاقات الدولية ؛ بل كانت كل قبيلة أمّة قائمة بنفسها ، تتحفز لشن الغارة على جارتها .

تفشى العربَ كثيرٌ من العادات المنكرة : كشرب الخمور ، والميسر ، ووأد البنات ، والسلب والنهب . وكثيرا ما كانت الكلمة الواحدة تفضى إلى القتل ، حتى بلغت روح الانتقام درجة مروعة ، كان من مظاهرها أنّ النساء لم يرضهنّ سوى صبغ ملابسهنّ بدم القتيل ، وأكل قلبه وكبده

هذا إلى أنّ منهم من تأوّل الإله ببعض الحيوان لكثرة نفعه ، أو شدّة ضرره ، ومنهم من تمثله فى الكواكب لظهور أثرها ، ومنهم من حسبه فى الأشجار والأحجار لاعتبارات لهم فيها .

وجملة القول أنهم وصلوا إلى حال لا يستحقون فيها اسم الجماعة : فقد أمعنوا فى القسوة والمنكرات ، ولم يتذرعوا بعلم ، أو يعتصموا بقانون . وانحط الضمير الإنسانى فيهم إلى أسفل درجاته ، حتى بدلوا بالفضيلة الرذيلة ، ونوهوا بأصحابها .

(هـ) حال مكة قبل البعثة المحمدية

وكانت مكة قبل القرن الخامس للميلاد محطا صغيرا ، تمرّ به القوافل فى

طريقها من جنوب الجزيرة : تحمل بضائع الهند إلى سورية وفلسطين ومصر ، ثم أصبحت فى أواخر القرن السادس مدينة كثيرة التجارة ، بفضل الأسواق التى أقيمت فيها . وكان العرب يقصدونها من أطراف الجزيرة وسورية والعراق وغيرها للتجارة ، ولزيارة الكعبة وإقامة شعائر الحج . وكان فى مكة فئة منها سَدَنة الكعبة ، وأهل الندوة ، يستفيدون مالا من ورود الحجاج ، وإقامة الأسواق ، ويستمدّون نفوذا فى نفوس العرب ، وقوة فى سيادتهم المعنوية .

ضرى أهل مكة بجمع المال وتثميره بضروب الوسائل المشروعة وغير المشروعة ، وظل فيهم حب جمع المال متزايدا حتى حين الإسلام : ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ .

ولا عجب أن أولع أهل مكة بالتجارة وتثمير أموالهم بشتى الطرق : لأن مكة كانت — كما وصفها القرآن الكريم — : ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ — غير صالحة للزراعة والصناعة ، فأكبّ أهلها على كسب عيشهم من المضاربة بالأموال ، والتهالك على إنمائها .

وقد بلغ من حرصهم على راحة الحجاج ، وروّاد الأسواق ، أنهم كانوا يحتاطون لأمرهم ، فيعدّون بضائعهم قبل حلول أشهر الحج ، وافتتاح سوق عُكاظ ، ويقومون برحلتين : رحلة الصيف ورحلة الشتاء ، إلى سورية وفلسطين وجنوبى بلاد العرب ، ليبتاعوا من هذه البلاد ماتدعو إليه الحاجة من البضائع ، وليبيعوا ثمار بلادهم فيها .

كانت رءوس أموالهم مجموعة من أكثر سكان مكة والطائف ، على شروط معينة تكفل الربح لأصحابها ولأصحاب القوافل ، ولذلك كانوا جميعا يعنون بالقوافل السنوية ، ويسألون عنها الرائح والغادى ، لأنهم كانوا يخشون سطو

شُذَّاذ الطرق وقُطَّاعها ، الذين ظلوا أزمانا يعيثون فى الصحراء فسادا ، ولا يألون الحياة فيها إفسادا ، ويعيشون من السلب والنهب . فما كل قافلة كانت تبلغ قصدها ، ولا كل مكى كان يقدم على جمعها وقيادتها ، بل كانت القيادة محصورة فى أناس عرفوا بثبات الجأش ، ومضاء العزيمة ، وحسن السياسة ، والتوفيق بين مصالح أغنياء مكة ، وجشع رؤساء القبائل ، الذين كانت تجتاز القوافل أرضهم ؛ فكانوا يستميلونهم طورا بالمال ، وطورا بالمصاهرة ، وطورا بالإرهاب .

ومن أجل ذلك ظل أصحاب القوافل وأغنياء مكة ، يزيدون حراسها سنة فسنة ، حتى ألفوا منهم جيشا منظما ، يقوم بنفقاته تجار مكة من ربحهم الوفير

ويستفاد مما تقدم أن المال كان موفورا فى مكة والطائف ، وكان أصحابه كثيرين ، فصحب ذلك وجود فئة الْمُرْبِين من اليهود وغيرهم الذين انصرفوا إلى الربا ، حتى أصبح مصدرا آخر لثروتهم ، وإعلاء كلمتهم . وكان ذلك أحد أسباب سخط الناس عليهم : فقد بلغ فى مكة درجة مروعة ، إذ انتقل من أربعين فى المائة إلى مائة فى المائة .

وبلغ عدد المربين مبلغا عظيما ، واستفحل ضررهم على المجتمع ، والويل لمن سقط فى شباكهم ، واضطرته الظروف إلى الالتجاء إليهم : لأنهم على كثرتهم لم يكونوا يفقهون للرحمة معنى ، ولا يرون فرقا بين التجارة والربا ، بل : ﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ وبلغ من نهمهم وتهافتهم على جمع المال بأى وسيلة ، أنهم كانوا كما وصفهم القرآن : ﴿إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ .

كانوا يضاربون بالدراهم والدنانير : فتارة يزيدون فى وزنها أو قيمتها ، وطورا ينقصون ؛ تبعا لمصالحهم الشخصية ، وجريا وراء جشعهم الممقوت .

وكانوا يتلاعبون بالديون: بأن يؤخروا آجالها، أو يقدموها، أو يضيفوا إليها، إلى غير ذلك من الأعمال التى كانت تفضى إلى خراب المدين واستعباده، ولذلك قال لهم القرآن الكريم: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

وبلغ من قسوة هذه الطائفة الطاغية، أنهم حملوا المدينين على إكراه بناتهم ونسائهم على البغاء: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾: للوفاء بما على آبائهن أو بعولتهن من الدين الذى كان يتعذر أداؤه لزيادته يوما فيوما، بما يضاف إليه من الربا الفاحش، بما

دعا كثيراً من المدينين إلى الفرار فى الصحراء ، واللحاق بطبقة الشُّرَّد وقطاع الطريق ، أو الدخول فى حظيرة الأرقّاء .

أصبح المُرْبون لاهمّ لهم إلا تكثير أموالهم . فنمت فى قلوبهم الأثرة والاختصاص بما فى يد المعوزين ، وحبب إليهم أن يجوع الناس ليشبعوا ، وأن يشقى غيرهم ليسعدوا ، ويتعب ليرتاحوا .

اعتمد هؤلاء القساة على الربا ، فاقتنصوا به أموال الفقراء الذين يسعون ويكدون ، وهم قاعدون ، فضعفت فيهم ملكة النشاط وحب العمل ، وأصبحوا فى جسم المجتمع العربى كالنبات أو الحيوان الطفيلى يتغذى من دم غيره . وبذلك امتلأت صدور الفقراء عليهم حقدا وضغينة ، لأنهم أصبحوا فى أيديهم عبيدا أذلاء . فقد ضاع هؤلاء الفقراء ، حتى لا يعرف أحد منهم له محلا ، ولا يرى لشخصه ظلا .

كان من ذلك أن نضبت الخيرات ، ومُنعت الصدقات ، وهُضمت حقوق الفقراء ، وأكلت أموال الناس بالباطل ، وفشا الظلم ، واختفت المحاسنة ، وغاض معين الشفقة والرحمة ، وأغفلت حقوق الجوار ، وفصمت رابطة الإخاء الإنسانى ، حتى لا يقبل المقبل منهم إلا على مدبر ، ولا يدبر إلا عن مقبل

وكان اليهود أيضا — وقد نُهوا عن الربا — لا يألون جهدا فى الكسب بوساطته ، عامدين إلى ضروب الحيل الشيطانية ، يعملونها للخروج عن الوقوع فى الظاهر تحت أحكام التوراة ، كأن يقولوا : — كما حكى القرآن الكريم — ليس علينا فى الأميين سبيل ، وكما قالوا : لا تقرض أخاك بربا ، أما الأجنبى فأقرضه بربا . وبذلك أكلوا السحت المنهى عنه تحت ستار الحيلة : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

ومن بعد اليهود ظلت النصرانية مقاومة للربا مدة طويلة ، بوساطة القسيسين وحفظة الدين ، يوم كان الربا عندهم يجعل المدين عبدا مملوكا للدائن ، يستخدمه في مزرعتـه ، ويستعمله كما يستعمل الحيوان لمنفعته ، دون أن يعطيه حقا من الحقوق .

وقصارى القول أنّ المعاملات فى البلاد العربية وغيرها ، قد أصبحت قبل البعثة المحمدية مَقْتَلة للفقراء ، مَزْرَعَة للأحقاد ، داعية إلى انتشار أنواع الفساد ، مؤدّية إلى حصر الثروة فى طبقة من الناس ، ترى نفسها القابضـة على زمام العالم ، المحرّكة لفلكه ، وترى لنفسها الرياسة التامّة ، والسيادة العامّة ، وإن لم يكن لأفرادها حظ من العلم ، والعمل ، والحكمة ، وبعد النظر .

بلى ، قد داخلهم الغرور : فتخلوا عن الزراعة والصناعة وأنواع التجارة ؛ اتكالا على ربح أموالهم ، وربا ديونهم

استأثروا بالتشريع على حسب هواهم : فما فرضوا للمعوزين قانونا يحميهم ، ولا سنوا شريعة تعطف عليهم ، وتنشلهم من هاوية الموت الاجتماعى ، والرق الأبدى ؛ بل ظل هؤلاء الفقراء يعملون ليلَ نهارَ ، مسئولين أمام هؤلاء القساة أن يحملوا ما لا طاقة لهم بحمله . وبذلك انحطت نفوسهم ، ونزعوا إلى منازع الفوضى وضروب الفساد ، وأحسوا شديد الحاجة إلى من يُصلح حالهم المـادّية والأدبية ؛ فأخذ شعراؤهم — وهم لسانهم الناطق — يشـيرون إلى ما فيه هذه الفئة من البؤس والشقاء ، ويُنحون باللائمة على أصحاب الثروة ، ويدعون إلى الرفق بالمعوزين ، ويذكرون بالواجب نحو الأرقاء والمظلومين .

قال بشر ابن المغيرة يستحث الأغنياء :

وكلهمُ قـــد نال شِبْعا لبطنه ٭ وشِبْعُ الفتى لؤم إذا جاع صاحبه

وقال الأعشى :

تبيتون فى المشْتَى ملاءً بطونُكم * وجاراتكم غَرْثَى يبتْن خمائصا

بيد أن هذه الصرخات القليلة ، كانت ذات أثر ضعيف فى نفوسهم القاسية : لأنها لم تستطع استئصال المرض الذى كان ينخر عظام المجتمع فى مكة والبلاد العربية وغيرها .

من أجل ذلك أصبح حتما من الحتم مقاومة هذه الأمراض العامة بدواء أنجع ، ووسائل أقوى ، على يد من هو أشد ثباتا ، وأمضى عزيمة من شعراء البادية .

فإن كان هناك زمن اسْتَدْعَى بَعْثَ رسول فقد كان ذلك الوقت . ولا غرابة ، فقد جرت سنة الله فى الكائنات أن يأتى بالنور بعد الظلمة ، وبالمطر بعد المحل ؛ وجرت سنة الله أيضا أن يبعث رسولا متى وصل الانحطاط البشرى إلى غايته ، رحمة بعباده ، ورأفة بخلقه .

وقد امتازت الفترة السابقة لظهور محمد صلى الله عليه وسلم ، بأن العالم جميعه قد غشيته سحابة كثيفة ، من الشرك ، والجهل ، والرذيلة ، والظلم ؛ فحل المنكر محل المعروف ، وقبض أهل السوء على ناصية الأمم . وبهذا تجلت الضرورة القاهرة إلى ظهور محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى قام بأعظم إصلاح للمجتمع اضطلع به إنسان قبله أو بعده : مما دل على أنه أوتى من بعد النظر ، ونفاذ الرأى ، وحسن السياسة ، والعلم بطبائع الخلق ، مالم يؤتَه مصلح آخر . هذا إلى استعداده لبذل مصالحه الشخصية ، ونفسه العزيزة ، فى سبيل تحقيق الأغراض السامية ، التى لم يرض التخلى عنها بوعد أو وعيد .

ندبه الله لحمل هذا العبء الجسيم، عبء هداية الإنسانية ،فلبى راضيا مغتبطا ،

عارفا بالبيئة التى ولد وعاش فيها : فقد أنشأه الله يتيما فقيرا ، يكسب قوته بكد يمينه ، وعرق جبينه . واشتغل بالتجارة ، وسافر غير مرة ، وخالط الناس ، ووقف على أعمالهم : يفكر فى أسباب شتاء المعوزين منهم ، والطرق التى تخفف من نكبات الفقر ، وأثقال الظلم : فكانت هذه الأسفار ، وهذا الاختلاط بالناس ، والإصغاء إلى أحاديثهم ، إعدادا لتلقى الأمر الإلٰهى .

قضى زمنا فى التحنث والتفكير ، ثم أطلعه الله على أسرار الكون : فأدرك معنى الحياة ، وأسباب السعادة والشقاء ، فما وسعه إلا أن يؤذن فى قومه ، ولا سلاح له إلا الإخلاص فى النية ، والاعتماد المطلق على الله الذى وجده يتيما فآواه ، وضالا فهداه ، وعائلا فأغناه . وقد أصبح بجده وأمانته وحسن سيرته ، محبوبا محترما ، ملما بشؤن الدنيا ، مدركا أسباب أمراض المجتمع . رزقه الله الإخلاص الطاهر ، فاستمد منه قوى متجددة استعان بها على مكافحة خصومه ، والتغلب على تلك العراقيل التى كانت تعوقه . وقد ضاعف الله منته على رسوله بشرح صدره : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ .

لا جرم أنه شاهد بنفسه — أيام اشتغاله بالتجارة — ما كان يقع أمامه من الكذب ، والغش فى التجارة ، والإفلاس الكاذب ، وأكل أموال الناس ، والتطفيف فى الكيل والوزن ، وترف المثرين وسرفهم . وبهذا وأمثاله أعده الله لمحاربة أمراض المجتمع واستئصالها . وما رمى إلى أغراض اشتراكية أو شيوعية ، بل وقف فى جانب الفقراء والمظلومين وقفة مغامر فى الحياة ، ودافع جهارا عن مصالحهم الحيوية ، غير مبال عواقب عمله .

كان سلاحه صلى الله عليه وسلم كلمة الإخلاص يدعو بها ويحذر ، ويستعطف ثم يوعد ويهدد ، لا يخاف فى الحق لومة لائم . فهذا عمه أبو لهب الذى برز لمناوأته ،

وراح يفسد عليه عمله، ويؤلب الناس عليه، فإنه بلسان القرآن لعنه، ولعن امرأته: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ. مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ. سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ. فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾. لم يخش سادة مكة وأغنياءها، بل قذفهم فى وجوههم بالجشع والتهافت على حطام الدنيا، والتكالب على جمع المال بمختلف الوسائل.

لما شاهد الناس كيف يصول على أغنياء مكة وسَرَاتها، ويحدب على الفقراء، ويقرر لهم حقوقا لاتضير غيرهم؛ امتلأت القلوب حباً لهذا النبي الكريم، وإخلاصا له، ورضا عن دعوته؛ فأخذوا يدخلون فى دين الله أفواجا.

كان من حكمة الله ورحمته بالعالمين، أن حمل على الربا حملة شعواء، فقال فى كتابه الكريم: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا، وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا، وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ، وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ. وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ

وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

جعل الله سبحانه وتعالى عقوبة الربا فى هذه الآيات خمساً: التخبط، والمحق، والحرب، والكفر، والخلود فى النار. وقضى بها على ماجره الربا من التقاطع والتدابر، وأحل محله الزكاة، وأمر بالصدقة، وأوجب على الأغنياء حقا معلوما فى أموالهم للفقراء، وأمر الدائن بإنظار مدينه المعسر إلى ميسرة، وحثه على التصدق عليه بترك ماتسمح به نفسه من دينه.

وكان من حكمة الله أن رغّب فى الصدقات والإحسان إلى الفقراء: فأنزل فى ذلك أربع عشرة آية، كلها حكمة وهداية وإرشاد؛ إذ يقول جلت حكمته:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ. وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَىْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ. وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ

أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ
الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا
مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ
تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ .
الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ، وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً
وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا
كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الأَلْبَابِ . وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ
فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ
تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا
مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ
إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا
فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ
إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

مما تقدم يتبين معنى قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ

أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا﴾ . فقد عم الفساد أقطار الأرض ، كما أفادنا التاريخ فيما تقدم قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، وسرى الموت بجميع ضروبه ، من عقلى وخلقى وروحى فيها ، وأسدلت الظلمات أستارها ؛ فعميت البصائر ، وضلت الأعمال . وقد قال الأستاذ موير فى كتابه «ترجمة محمد» عليه الصلاة والسلام : «إن النصرانية فى القرن السابع للميلاد ، قد أصبحت فاسدة مشوهة» وقال جيبون : «إن النصرانية فى القرن السابع للميلاد ، قد استحالت وثنية» فقد أصبحت الوجوه تولى شطر الأصنام والأنصاب التى حلت محل الهياكل والمعابد ، وأخذ مكان عرش الله وعظمته الشهداء والقديسون ، ونسب الضالون المضلون صفات الله إلى السيد المسيح عليه السلام ، وأمه البتول ، وحارت الأفهام فى معنى التثليث ، والاتحاد ، والحلول ، وعموا عن التوحيد .

اضطربت الأحوال الاجتماعية والخلقية فى العالم اضطرابا لم يعهد له مثيل ، إذ أن أهل الأديان لم يقتصروا على مجانبتهم الفضيلة ، بل انقلبت الرذيلة فضيلة أقبل عليها الناس تقربا إلى الله . تنزه سبحانه عما كانوا يفعلون .

انحطت جميع الأمم إلى مهاوى الرذيلة ، وأتى أهل الأديان فيها من أنواع المنكرات ما يندى له الجبين . حقا إن الله قد أرسل كثيرا من الرسل قبل محمد عليه الصلاة والسلام ، وإن ظهورهم كان حاجة ماسة — غير أن العصور التى بعثوا فيها واحدا بعد الآخر ، لم تبلغ من الظلمة ما بلغه العصر الذى أرسل فيه النبي العربى . وكلهم قد لاقى شدائد وأهوالا — بيد أن محمدا قد لقى من صنوف الإيذاء والشدائد ما لم يلقه أحد من إخوانه ، واضطلع بأعظم الأعباء ، واحتمل أكبر التبعات : ذلك بأن موسى عليه السلام ، قد أرسل لتحرير

بنى إسرائيل . وجلى أن المصريين فى عهده كانوا أولى ثقافة وحضارة : لهم فى العلوم والفنون قدم راسخة ، ولهم من الأخلاق نصيب كبير ؛ ومنهم طائفة تلمسوا الوقوف على أسرار الكائنات ، واشتغلوا بضروب السحر والغيبيات وبرزوا فيها . وكذلك لما ظهر المسيح عليه السلام ، كانت الحضارة الرومانية بين الأمم كالحضارة الغربية الآن ، وكانوا على جانب عظيم من التقدم فى صناعة الطب . نعم كان الرومان وثنيين ، وقوم عيسى موحدين فشا فيهم النفاق والانغماس فى الرذائل ، ووقفوا عند صور العبادات : فكانت رسالة المسيح عليه السلام ، لإصلاح ما تأصل فى النفوس من ضروب الرذائل . واتباع ما جاء به الرسل من قبله.

فإذا كانت هذه الأسباب اقتضت ظهور موسى وعيسى عليهما السلام ؛ فحال القرن السادس للميلاد ، كانت توجب ظهور كثير من الأنبياء فى الأقطار المختلفة ؛ أو ظهور رسول واحد تنتظم عزمته عزماتهم ، وتجمع معجزته أكثر من معجزاتهم ، ليقيم دين الله فى الأرض ، ويثبت دعائمه ؛ لأن الشرائع الإلهية فى أطراف الأرض قد أغفلت ؛ وحدودها قد خولفت ، وانحدر المستوى الخلقى للعالم فى ذلك العصر إلى حال تنذر بشر مستطير ؛ كما ألمعنا إلى ذلك . وكانت الحال الروحية والدينية مخبوءة فى أطمار الظلمات . فقد جاءت النصرانية — كما تقدم — لهدم الوثنية ومحوها ، فما لبثت أن ذهبت فريسة لها ، فكثر فى أيامها ألوان من الآراء الفلسفية الفاسدة ؛ طمت على الكتب المنزلة فى الشرق ؛ ونشأ عن ذلك أن الشعوب التى كانت تقطن البقاع الوسطى والشرقية من آسيا ؛ والقبائل التى كانت تسكن المكشوف من شمال أوربة ؛ قد تمسكت بأهداب ضروب من الوثنية المرذولة ، وكذلك — كما دل الكشف الجغرافى فيما بعد — البلاد التى لم تكن معروفة وقتئذ . هذا إلى أن كثيراً من

القبائل اليهودية ، لم تنج من عدوى الوثنية .

أما وقد أصاب الكتب السماوية ما أصابها من التحريف والتبديل ؛ وحجبت كلمات الله عن العقول البشرية ، فمن رحمة الله بعباده ألا يدعهم يخبطون فى ديجور الضلالة ، ويتيهون فى بيداء الرذيلة والجهالة ، وأن يجدّد لهم وحيه ، ويعيد لكلماته صفاءها وجمالها . وإلى ذلك يشير القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾.

المنطق السليم ظاهر فى هذه الآية ؛ لأنها تقص علينا أن السنة الإلهية العادلة ، قضت بأن الله يوالى على خلقه - زمنا بعد آخر - نوره وهدايته : ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ .ولذلك أنزل كتبه على أمم مختلفة ، فاتبعوا الهداية زمنا ثم فسقوا عنها . فدبّ بينهم دبيب الخلاف فى العقائد ، والأحكام ، وصور العبادات . فكان لا بدّ أن يرسل إلى كل أمة رسولا ؛ ليفصل فيما بينها من الخلاف ، أو يرسل رسولا واحدا لجميع الأمم يتولى الفصل بينهم ؛ لأنهم ضلوا عن الحق ، وحادوا عن الصراط السوىّ .

وجاء فى القرآن الكريم أيضا : ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

والآية الكريمة ناطقة بأمرين : الأول أن الشيطان زين لهم أعمالهم . والثانى أن ما جاء به الرسل السابقون قد تفرق كل التفرق، واختلف فيه كبير اختلاف. ولا أدل على أن الشيطان هو الذى زين لهم أعمالهم ، مما كان مستفيضا عندهم من

قولهم : جدير بنا أن نفعل الشر لنصل إلى الخير .

ولقد دلّ تاريخ الأديان على أن الله بعث فى كل زمن رسولا ، حتى إذا عبثت يد الإنسان بما جاء به قفى عليه برسول آخر ، لأن الدين الذى دخل فيه التحريف بالزيادة أو النقص ، غير صالح لسدّ حاجات البشر على اختلاف الأزمان ، بل الذى يصلح لهم — وإن توالت الأجيال — هو الدين السماوى المحض : ذلك بأن الدين من صنع الله ، وكل شىء من صنع الله فى هذا الكون — على تقادم عهده — جديد طريف . فهذه البحار ، وهذه الشمس ، وهذا القمر وهذه النجوم ، والرياح ، كل أولئك قد تقادم عهده ، ولا تزال وافية بحاجات الإنسان والحيوان والنبات . وعلى هذا القياس الدين ، فإنه لما كان من عند الله كان شاملا لما يحتاج إليه الخلق على اختلاف الدهور والأمكنة ، ولا يقبل تبديلا ولا تنقيحا ، ولا يستطيع إنسان مهما يبلغ من الفكر والعلم أن يعيده سيرته الأولى ، إن مسّه التحريف ، وإليك البرهان :

لا يستطيع البنّاء إنشاء منزل يُركَن إليه من أنقاض منزل تهدّم . وإن فعل فبناؤه واه لا يلبث أن يتداعى . فإذا تعذر على الإنسان أن يعيد بناء إنسان آخر إلى ما كان عليه من المتانة والجمال ؛ فأحرِ به أن يعجز عن بناء للإله قد تداعى وتهدم .

ترى الفاكهة تنضَج ، ثم تعفَن فتتفرق أجزاؤها ، ثم تعود إلى حالها قبل التكوين ، ثم يحيلها الله مادة أخرى ، أو يعيدها سيرتها الأولى : ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وليس فى مقدور الإنسان أن يعيد ثمرة من ثمار الفاكهة ، إلى ما كانت عليه قبل تفرق أجزائها . فإذا كان الإنسان يعجز عن أن يعيد كائنا بعد تفرّقه وتشتته ؛ فهو أعجز عن إعادة وحى الله إلى ما كان عليه ،

إذا طرأ عليه الفساد والتغيير .

أما وقد بان أن الإنسان لايستطيع أن يعيد بناء منزل تهدم بأنقاضه ، ولا يستطيع أن يعيد ثمرة من الفاكهة بعد تفرق أجزائها ؛ فهو لايستطيع أن يعيد دينا قد وهت قواعده ، وتمزقت أوصاله ، وتفرقت كلمة أهله ، وطغى عليهم سيل الوثنية ، وانحطت درجتهم الخلقية والعقلية ، فأقبلوا على عبادة الأحجار والأشجار ، والرياح والأنهار ، والسحاب والشمس والقمر : ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ولم يقفوا عند ذلك ، بل عبدوا شهواتهم وأهواءهم بأسماء مختلفة ، وارتكبوا فى بيوت العبادة ألوان الفحش والمنكر .

بلغ من الفساد فى القرن السادس للميلاد ، أن أصبح لرؤساء الدين على الناس سلطان فى عقائدهم ، وما تكنه ضمائرهم : فلو قال الرئيس الكهنوتى لشخص : إنه ليس بمسيحى ، صار كذلك ، ولو قال له : إنه مسيحى ، فاز بها . فلم يكن أحد حرًا فى معتقده ، يتصرف فى معارفه كما يرشده العقل السليم ، بل عين قلبه مشدودة بشفتى رئيسه

حببوا إلى الناس التجرد من الدنيا ، والابتعاد عن كسبها ؛ فقد جاء فى إنجيل متا : (لا تقدرون أن تخدموا الله والمال ، لذلك أقول لكم : لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون . الحق أقول لكم إنه يعسر أن يدخل غنى ملكوت السموات) .

أفهموهم أن من الدين مايجب الإيمان به ولو ناقض العقل . قال القديس أنسيلم : يجب أن تعتقد أولا مايعرض على قلبك بدون نظر ؛ ثم اجتهد فى فهم مااعتقدت

صرفوا الناس عن الاشتغال بالشئون الكونية . فإذا نزعت العقول إلى علم شيء من العالم ، حال بينها رؤساء الدين ؛ خوفا من الزيغ عن الإيمان السليم فى رأيهم ؛ حتى وقر فى نفوس الناس أن السلامة فى ترك الفكر والأخذ بالتسليم ؛ وتقررت عندهم قاعدة : « إن الجهالة أم التقوى » .

حورب العلم : فأحرقت كتب البطالسة والمصريين بالإسكندرية على عهد جول قيصر ؛ وانتحل تيوفيل بطريرك الإسكندرية أوهى الأسباب لإحداث ثورة فى المدينة ، تذرع بها إلى إتلاف مابقى فى مكتبة البطالسة ؛ بعضه بالإحراق ، وبعضه بالتبديد .

وجعل بعض رؤساء الدين فى القرن السادس لأنفسهم سلطانا إلهيا «تيوكراتيت» ، وأفهموا العامة أن الواحد منهم يتلقى الشريعة عن الله ، وله حق الأثرة بالتشريع ، وله فى رقاب الناس حق الطاعة — لا بالبينة وما تقتضيه من العدل وحماية البيضة — بل بمقتضى الإيمان . فليس للمؤمن مادام مؤمنا أن يخالفه ، وإن اعتقد أنه عدو لله ، وشهدت عيناه من أعماله مالا ينطبق على مايعرفه من شرائع ، لأن عمل صاحب السلطان الديني وقوله — فى أى مظهر ظهرا — هما دين وشرع .

مما تقدم يتبين أن حال العالم أجمع شملها الفساد :

(١) لأن الفرس والروم كانوا فى حروب مستمرة ، ذهبت بقوة الغالب منهما والمغلوب

(٢) والناس قد فسدت عقائدهم ، وجهلوا أمور دنياهم

(٣) ورؤساء الأديان أطلقوا أيديهم فيها ، بما يوافق أهواءهم من المحو والإثبات .

(٤) والشقاق حل بين الأفراد والجماعات محل الألفة والوئام

(٥) والعقول وقفت عن التفكير، فانصرف الناس عن النظر فيما خلق الله، والانتفاع بما بين أيديهم، لأن القائمين بأمر الدين لم يحلوا لهم ذلك.

(٦) وأصحاب الأموال من اليهود وغيرهم، استعبدوا الفقراء بالربا الفاحش وبما استحلوه لأنفسهم، من تطفيف الكيل والميزان.

وتلك حال:

(١) كانت تستدعي صيحة من الحق فى منتهى القوة لإزعاج الغافلين، وتنبيه الرؤساء الظالمين، إلى ماهم عليه من العسف والجور: فقد ظهر أن دولة الفرس فى الشرق، ودولة الرومان فى الغرب، قبيل ظهور الإسلام، كانتا فى تنازع وتجالد مستمر: دماء بين العالمين مسفوكة، وقوى منهوكة. وحُرَم مهتوكة. وبلغ السلاطين والأمراء والقواد ورؤساء الأديان فى الترف والإسراف والعُجْب حدّا لامزيد عليه؛ فوق ماأثقلوا به كواهل الرعية من الضرائب والإتاوات؛ وغيرها من المطالب المتجددة المتعددة، وسلطوا بذلك الأقوياء على الضعفاء، فاختطفوا مافى أيديهم، وسخروهم فى أغراضهم؛ فاستولت عليهم ضروب من المحن والفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب؛ لفقد الأمن على الأرواح والأموال.

(٢) من أجل ذلك كان من الرحمة بالإنسانية أن بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم، فأقام التوحيد فى الأرض، وأسسه على أسس متينة، بعثه لإصلاح العقائد التى فسدت، فبين أن المسيح روح الله وكلمته ورسوله إلى بنى إسرائيل، بُعِثَ مصدّقا لما بين يديه من التوراة، وجاءهم من الدين بما فيه هدى لهم ورشاد فى شئون معاشهم ومعادهم؛ ولم يطالبهم بتعطيل قوة من قواهم التى

منحهم الله تعالى إياها ، بل أطلق عقولهم من عقالها ، وحرر أيديهم وأعناقهم من أغلالها ، وطالبهم بشكر الله تعالى عليها ، ولا يُشكَرُ حقَّ الشكر إلا باستعمالها جميعا فيما أعدها الله له ، وأن العقل من أجلّ القوى ، بل هو قوة القوى الإنسانية وعمادها ، والكون صحيفته التى ينظر فيها ، وكتابه الذى يتلوه . وكل مايقرأ فيه فهو هدايته إلى الله ، وسبيل الوصول إليه .

جاء محمد عليه الصلاة والسلام ليعلن أن الدين دين الله ، وهو دين واحد فى الأولين والآخرين ، لاتختلف إلا صوره ومظاهره ، وأما روحه وحقيقته مما طولب به العالمون على ألسن الأنبياء والمرسلين ؛ فهو لا يتغير : إيمان بالله وحده ، وإخلاصٌ له فى العبادة ، ومعاونةُ الناس بعضهم بعضا فى الخير، وكفٌّ أذاهم بعضهم عن بعض ماقدروا .

جاء ليطلق العقل البشرى من أغلاله ، فيجرى فى سبيله التى سنَّها له الفطرة بدون تقييد ، فنبهه إلى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، وما كان عليه الأمر فى أول خلق السموات والأرض ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ . ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ . ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ، وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات البينات .

جاء محمد صلى الله عليه وسلم بصفة بشرية ؛ يطالب الناس بالإيمان بالله وحده ، غير معتمد على شىء سوى الدليل العقلى ، والفكر الإنسانى ، فلم يدهش

قومه بخوارق العادات ، ولا غشّى أبصارهم بأطوار غير مألوفة ، ولا أخرس ألسنتهم بقارعة سماوية . حقا جاءهم بالقرآن ، وهو معجزة عظمى تدل على أن موحيه هو الله وحده ؛ وليس من اختراع البشر ، وكان الدليل على ذلك أنه جاء على لسان أمىّ لم يتعلم الكتابة ، ولم يمارس العلوم ، وهو على ذلك كافل بنظام عام لحياة من يهتدى به من الأمم ؛ منقذٌ لها من خسران كانوا فيه وهلاك أشرفوا عليه . دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم ، وطالبهم بأن يأتوا فى نظرهم على آخر ماتنتهى إليه قوتهم : فإن وجدوا طريقا لإبطال إعجازه ، أو كونه لا يصلح دليلا على النبوة والرسالة ، فعليهم الإتيان بمثله : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ . ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ فهو معجزة عرضت على العقل ، وأطلقت له حق النظر فى أحنائها ، ونشر ماانطوى فى أثنائها ، وهو معجزة أعجزت كل طوق أن يأتى بمثلها ، ودعت كل قدرة أن تتناول ماتشاء منها .

جاء محمد صلى الله عليه وسلم لتوجيه الأنظار إلى العبرة بسنة الله ، فيمن غبر ومن حضر من البشر ، وفى آثار سيرهم فيهم : ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ . ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ . ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ .

(٣) جاء محمد عليه الصلاة والسلام لهدم سلطان الرؤساء الذين خنقوا الحرية والفكر: فلم يدَعْ لأحد بعد الله ورسوله سلطانا على عقيدة أحد، ولا سيطرة على إيمانه، ولم يجعل لأحد من أهل الدين أن يحُل ولا أن يربط لا في الأرض ولا في السماء، ورفع كل رق إلا العبودية لله وحده، ولم يجعل لمسلم على آخر مهما انحطت منزلته إلا حق النصيحة والإرشاد: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾. ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾. وقرر أيضا أن ليس هناك سلطان ديني سوى سلطان الموعظة الحسنة؛ والدعوة إلى الخير، والتنفير من الشر؛ وهو سلطان خوّله الله أدنى المسلمين، يقرع به أنف أعلاهم، كما خوّله أعلاهم يتناول به أدناهم. وقرر أيضا أن الناس إنما يتفاضلون بصفاء العقل، وقوة الإصابة في الحكم. وأن الرئيس مطاع مادام على المحجة، ونهج الكتاب والسنة، والمسلمون له بالمرصاد. فإذا انحرف عن النهج أقاموه عليه، وإذا اعوجّ قوّموه بالنصيحة والإعذار إليه. وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وأنه متى خالف الكتاب والسنة في عمله، وجب استبدال غيره به، مالم يكن في استبداله مفسدة تفوق المصلحة فيه.

(٤) بين محمد صلى الله عليه وسلم للأمم ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم وتنازعت فيه مصالحهم ولذّاتهم، وكشف لهم سر المحبة، واسترعى نظرهم إلى ما فيها من انتظام شمل الجماعة، وأوضح لهم مزايا أن قويهم يعين ضعيفهم، وغنيهم يمدّ فقيرهم، وراشدهم يهدى ضالهم، وعالمهم يعلّم جاهلهم.

اطمأنت النفوس بما جاء به، وثلجت الصدور، واعتصم المرزوء بالصبر

انتظارا لجزيل الأجر ، أو إرضاء لمن بيده الأمر . فحلَّ بهذا أعظم مشكل في المجتمع الإنساني ، لايزال المفكرون يجهدون أنفسهم في حله إلى اليوم .

(٥) وجاء بدين أزال الحواجز التي أقامها رؤساء الأديان السابقون ؛ ليحولوا بين الناس وما ميزها الله به ، من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة ؛ ثم حثها على طلب العرفان ، وطالبها باحترام البرهان ، وفرض عليها أن تضاعف الجهد في استكناه مافي العوالم من سنن وأسرار .

(٦) وأوضح للناس سبيل المعاملة الحسنة ، وأبان لهم طرق الخير ، بصرف همتهم إلى العمل النافع ، وحال بينهم وبين ما كانوا يفعلون : من تطفيف الكيل والميزان ، وابتزاز الأموال بالربا الفاحش . وبين لهم أمثل طرق التداين ، وحبب إليهم البر والصدقات ، وكشف لهم عن جليل نفعها ، وعظيم أثرها . وحسبك ماتقدم من الآيات الكريمة في ذلك .

لاجرم أن حضارة هذا العصر ، صائرة إلى ماصارت إليه الحضارات الغابرة ، وحينئذ يتلمس أهلها نورا يخرجون به من حيرتهم وظلمتهم ، فلا يجدون سوى دين محمد صلى الله عليه وسلم . ومن أجل ذلك وجب على المسلمين أن يوالوا خدمة هذا الدين : بتجريده مما دخل فيه باسم الدين وهو براء منه ؛ وبالعكوف على دراسة العلوم الكونية دراسة تعلي دين الإسلام وأهله ، وتجعل فيهم الإمامة والوراثة جيلا بعد جيل ، وعصرا بعد عصر ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

الباب الرابع

مراحل حصول النبوّة واستقرارها

أما مراحل حصولها فهى مايلى :

(١) قضت سنة الله فى خلقه أن يجعل لكل مقدور من عظائم الأمور إذا قرب نذيرا وبشيرا : إيقاظا للعقول ، وازدجارا للجهول ؛ وإعداد النفوس لأمور إن فوجئت بها لم تستطع دفع خطبها ، ولم تقدر على تذليل صعبها ، من أجل ذلك لما دنت بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انتشر فى الأمم أنّ الله تعالى سيبعث نبيا فى هذا الزمان ، وأنّ ظهوره قد قرب وآن . فكانت كل أمّة لها كتاب تعرف ذلك من كتابها ، والتى لا كتاب لها ترى من الآيات المنذرة ماتستدل عليه بعقليتها ، وتتنبه إليه بمنبه قوىّ من إلهام فطرتها.

كل ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم غير عالم أنه مراد بها ؛ حتى نودى ، ثم نوجى . فكان بهذا أبعد من الشُّبْهَة ، وأسلم من الظِّنة ، وأنأى عن التُّهَمَة ، وكان برهانه أظهر ، وحججه أقهر . وكان صلى الله عليه وسلم — وهذه حاله — متميزا عن قومه وعشرائه : بشرف أخلاقه ، وكرم طباعه ، لم يعبد معهم صنما ، ولا عظم وثنا ، وكان متدينا بفرائض العقول : من توحيد الله ، والعلم بقدمه وبقائه ، وحدوث العالم وفنائه ، وشكر المنعم ، وتحريم الظلم ، ووجوب الإنصاف ، وأداء الأمانة على الوجه الأكمل .

(٢) ولما دنا وقت النبوة حبب إليه الخلاء ليكون متهيئا لما قدر له، ومتأهباً لما أريد به. فكان يتخلى فى غار حراء شهرا فى السنة متحنثا مرتاضا، وكان يؤتى بطعامه وشرابه فيأكل منه، ويطعم المساكين، وهو غير شاعر بالنبوة، وإن علمها أهل الكتاب حقا. وبذلك حفظه الله من تصنعها أو اختراعها. ولو تصنع أو اخترع لظهرت أسبابهما، ونمت شواهدهما، ولم يخف على من عاداه أن يتداوله، وعلى من والاه أن يتأوله.

ولم يزل صلى الله عليه وسلم على خلوته، إلى أن أظهر الله له أمارات نبوته. فبشره بها بعد أن تأهب لها، واستعد لتحمل أثقالها والاستقلال بحقوقها؛ لطفا من الله به، وإنعاما عليه.

(٣) ثم تتابعت الرؤى الصادقة فى منامه صلى الله عليه وسلم بما سيئول إليه أمره. حتى إذا حلّ وقت قيامه بالدعوة قام بها، وهو عليها قوىّ، وبها ملىّ. روى الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: أول ما ابتدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة، كانت تجىء مثل فلق الصبح، حتى فجأه الحق.

(٤) ثم تلا هذا أنه لبث ثلاث سنين يسمع حس الملك ولا يرى شخصه؛ ويعلمه الشىء بعد الشىء، ولا ينزل عليه بالقرآن، فكان فى هذه المدة مبشرا بالنبوة، غير مبعوث إلى الأمة. وحكمة ذلك إمداد الرسول بالمعونة الإلهية؛ ليتحمل الوحى وأعباءه، فيكون فيما بعد على البلوى أصبر، وللنعمة أشكر.

(٥) ثم نزل عليه جبريل عليه السلام بوحى ربه، حتى رأى شخصه، وسمع مناجاته: فأخبره أنه نبى الله ورسوله. واقتصر به بادئا على الإخبار، ولم يأمره بالإنذار؛ لتكون نفسه بنبوته أوثق، وعلمه برسالته أصدق. فلا



غار حراء

يعترضه وهم ، ولا يخالجه ريب : تأمل ما رواه عروة عن عائشة رضى الله عنها ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فجأه الحق ؛ أتاه جبريل عليه السلام فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارئ . فأخذنى فغطنى ، حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى . فقال : اقرأ . قال : قلت : ما أنا بقارئ . قال : فأخذنى فغطنى الثانية ، حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارئ . قال : فأخذنى فغطنى الثالثة ، حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ . فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره . حتى دخل على خديجة فقال : زملونى ! زملونى ! فزملوه ، حتى ذهب عنه الروع . ثم قال لخديجة : أى خديجة ، مالى ؟ وأخبرها الخبر . قال : لقد خشيت على نفسى. قالت له خديجة : كلا ! أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدا : إنك تصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة ، وتحمل الكلّ ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . ثم انطلقت بى إلى ورقة بن نوفل ، وكان ابن عمها وقالت : اسمع من ابن أخيك . فسألنى ، فأخبرته خبرى . فقال : هذا الناموس الذى نزل على موسى عليه السلام : يعنى جبريل عليه السلام . ليتنى أكون حيا حين يخرجك قومك . قلت : أوَ مخرجىّ هم ؟ قال : نعم ! إنه لم يجئ رجل قط بما جئت به إلا عودى ، ولئن يدركنى يومك لأنصرنك نصراً مؤزرا . ثم كان أول مانزل عليه من القرآن بعد ﴿اقْرَأْ﴾ : ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ . وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ . ونزل عليه ذلك ؛ ليزداد صلى الله عليه وسلم

ثباتا، وبنفسه استبصارا، ولنعمة ربه شكرا؛ وليعلم أن الله تعالى قد اصطفاه بالنبوة، فينقطع إليه، ويقف نفسه على مايؤمر به. فيكون لأوامر الله متبعا ولما يراد به متوقعا. واقتصر الإذن له على الإخبار، ولم يؤذن له فى الإنذار وفى ذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾. فكان النبى صلى الله عليه وسلم يذكر النبوة مستسرا.

(٦) ثم أمر — بعد إذنه بالإخبار — بالإنذار، فصار به رسولا. ونزل عليه القرآن بالأمر والنهى فأصبح بذلك مبعوثا، ولم يؤمر بالجهر وعموم الإنذار ليختص بمن آمنه، ويتقوى بمن أجابه. وفى ذلك نزل قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ. وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ. وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ وبذلك تمت نبوته بالوحى والإنذار، وإن كان على استسرار. ثم تتابع الناس فى الإسلام، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على استسراره بالدعاء، وإن انتشرت دعوته فى قريش.

(٧) ثم أمر صلى الله عليه وسلم بأن يعم بالإنذار بعد خصوصه، ويجهر بالدعاء إلى الإسلام بعد استسراره. فأنزل الله تعالى عليه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾. فجهر بالدعاء، وذلك بعد ثلاث سنين من مبعثه وقد اقتضت حكمة الله أن يأمره بالبدء بعشيرته الأقربين، فقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ. وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولذلك لما نزلت صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفا فهتف: يابنى عبد المطلب، يابنى عبد مناف، حتى ذكر الأقرب فالأقرب من قبائل قريش، فاجتمعوا إليه وقالوا: مالك؟ قال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج من

سفح هذا الجبل، أما كنتم تصدقونى؟ قالوا: بلى! ماجربنا عليك كذبا. قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد. فقال أبو لهب: تباً لك. ألهذا جمعتنا؟ ثم قام، فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ إلى آخر السورة.

لم يكن من قريش فى دعائه لهم مباعدة له، ولكن ردوا عليه بعض الرد، حتى ذكر آلهتهم وعابها، وسفه أحلامهم فى عبادتها. فلما فعل ذلك أجمعوا على خلافه، وتظاهروا بعدوانه، إلا من عصمه الله تعالى منهم بالإسلام، وهم قليل مضطهدون. فصار بعموم الإنذار، والجهر بالدعاء إلى التوحيد والإسلام، عام النبوة مبعوثا إلى الأمة جميعها. فكمّل الله بذلك نبوته، وتمّم به رسالته. فصدع بأمره، وقام بحقه، وجاهر بإنذاره، وعم بدعائه، وجاهد فى الله حق جهاده، حتى خصم قريش حين جادلوه، وصابرهم حين عاندوه — وجمهم غفير، وجمعهم كثير — إلى أن علت كلمته. وظهرت دعوته، ولاقى من الشدائد مالا يثبت عليه إلا معصوم، ولا يسلم منه إلا منصور.

كل هذه آيات تنذر بالحق، وتلائم الصدق؛ لأن الله لايهدى كيد الخائنين، ولا يصلح عمل المفسدين.

(٨) ثم شُرِع مدة إقامته بمكة الطهارةُ والصلاة، حين علّمه جبريل الوضوء والصلاة، وكانت فرضا عليه، وسنة لأمته، إلى أن فرضت الصلوات الخمس، بعد إسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. وذلك فى السنة التاسعة من نبوته. فصارت الصلوات الخمس فرضا عليه وعلى أمته. ولم يفرض ما سواها من العبادات، حتى هاجر إلى المدينة، وصارت له بالإسلام دارا، وصار أهلها له أنصارا. أما فى المدينة، فقد فرض صوم شهر رمضان فى السنة الثانية من الهجرة فى شعبان، وفيها حولت القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة

وفرضت فيها زكاة الفطر، وشرعت فيها صلاة العيد، ثم فرضت زكاة الأموال بعد ظهور القوة وسد الخلة، ثم الحج والعمرة.

وأما الأحكام فأصولها الكلية التي جاءت الشريعة بحفظها، وهي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال — فقد نزلت بمكة. فما نزل في مكة في حفظ النفس قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾.

ويندمج في أصل المحافظة على النفس الأصل الثاني. وهو المحافظة على العقل؛ لأن العقل بمثابة أحد أعضاء البدن التي تجب المحافظة عليها وعلى منافعها صيانة للنفس؛ فالمحافظة على العقل تعتبر محافظة على النفس.

وأما النسل فقد جاء في المكي تحريم الزنا، وحفظ الفروج إلا على الأزواج. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾.

وأما المال فقد نزل بمكة ما يفيد النهي عن تطفيف الكيل والميزان. قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ. الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

وأما الدين فهو أصل ما دعا إليه القرآن والسنة، وهو أول ما نزل بمكة. ويلحق بهذه الأصول الخمسة العرض، وهو داخل تحت النهي عما يؤذي النفس.

ثم فصلت تلك الأصول بالمدينة تفصيلا تاما، وفرعت فروعها، واجتمع الناس على العمل بها؛ لأنه عليه الصلاة والسلام. كان بمكة مغلوبا باستيلاء

قريش عليها، وكانت دار شرك لا تنفذ فيها أحكامه، حتى صار بالمدينة فى دار إسلام تنفذ فيها أحكامه، فبين تلك الأصول بيانا تاما، ولذلك كان بمكة مسالما، وبالمدينة محاربا، فكانت الحكمة موافقة لأفعاله، والتوفيق معاضدا لأقواله. ولا غرابة فقد قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾. لكن لحسن قيامه بها، وموافقة الصواب فى مواضعها، تظهر آثار حكمته، فى صحة حزمه، وصدق عزمه، صلى الله عليه وسلم.

الباب الخامس

الأدلة القاطعة على صدق نبوّته صلى الله عليه وسلم

نشأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أوحد الناس عفة ، وأشرفهم قصدا ، وأحكمهم كلاما ، وأصدقهم حديثا ، وأسماهم أمانة وسيرة . قد جمعت فى نفسه كل خلال الخير: من الحلم ، والصبر ، والمروءة ، والشكر ، والعدل ، والنزاهة ، والتواضع ، والشجاعة ، والحياء ، والجود ، والرحمة . حتى كان له من كل هذا قوة تخرّ أمامها شمّ الرواسى ، ونور ساطع سار فى ضوئه الدانى والقاصى ، ودليل قاطع على صدق نبوّته ، وحجة دامغة على صحة رسالته ، وأنه خاتم النبيين ، وإمام المؤمنين ، أرسله الله للناس جميعا ، بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا .

وإليك الأدلة القاطعة ، والبراهين الساطعة ، على صدق نبوّته ، وإثبات رسالته ، قد استخلصتها من صحيح سيرته صلى الله عليه وسلم . وهى نوعان :

عقليّة : يدركها ذوو البصائر ، ويقرّها أولو الألباب .

وحسية : أجراها الحكيم العليم على يد مجتباه تحديا لمعارضيه ، وتأييدا لما جاء به .

(ا) الأدلة العقلية

١ — احتماله صنوف الأذى

من تمثل فى ذهنه ثبات المصطفى صلى الله عليه وسلم ؛ واحتماله صنوف

الأذى من كفار قريش وغيرهم ، لايداخله الريب فى أنه صادق فى أمره ، مستيقن من نفسه ، مبرأ من سمات المرتابين ومخايل المفترين قبل بعثته .

٣ — اشتهاره بمكارم الأخلاق فى نشأته

عُرف صلى الله عليه وسلم بين قومه قبل رسالته بجميع الخصال السنية ، والصفات الكريمة ، حتى سمى بالأمين . ولم يجرب عليه قومه كَذْبة ، ولا عرفوا عنه زلة أوهفوة . ولوعرفوا شيئا من ذلك ماوسعه أن يسفه أحلامهم ويسب آلهتهم ، غيرخائف مما يخجله : فإنّ الكذب يحط من قدر الإنسان فى نفسه وعند غيره . على أنّ الكذاب لايمكن أن يكون مصدرا للكمال ، مرشدا إلى سنىّ الخصال .

أضف إلى ذلك أنه أنذر ـ بلسان القرآن الكريم ـ الكاذبين بالوعيد الشديد ، ولا يقع ذلك إلا من صادق امتلأ قلبه ، وفاضت نفسه بما يخبر به ، إلى حدّ يفوق الوصف ، ويخرج عن نطاق البيان .

على أن الذين عاشروه قد شاهدوا فى كلامه وحركاته وأفعاله ؛ ماملأ قلوبهم يقينا بأنه صادق جاء يخبرعن ربه بوحيه . ومن ذلك أنّ بعض الأعراب أسلم حين رآه ، وقال : « والله ما هذا الوجه بوجه كذّاب » .

ولم يعرف فى السنن الإلهية أن الله يؤيد فى دعوى النبوة كاذبا ، أو ينصر مبطلا : ففى ذلك الضرر العظيم . وقد قال المسيح عليه السلام : « سيظهر بعدى أنبياء كَذَبة » . فقيل : ماعلامتهم ؟ فقال : « علامتهم أن الله لايؤيدهم » .

وقد شهد الأعداء أن محمدا عليه الصلاة والسلام ، أوتى من النصر مالم يؤته أحد من قبله ولا من بعده . فمن ظنّ أن الله نصره وأيده مع كونه مبطلا ،

فقد جهل ما يليق بصفات الله تعالى وسنته فى خلقه ، وأساء الظن بعدالته وحكمته إساءة كبرى ، هل يستطيع الكاذب أن يخفى حاله طيلة حياته على الناس عامتهم وخاصتهم ؟ كلا : فإن الرياء طلاء كاذب ، لا يلبث أن تقضى عليه حوادث الأيام ، وبخاصة إذا كان لصاحبه أعداء يحصون هفواته ، ويتتبعون حياته ، ويتقصون أسراره ، ويتدارسون سيرته وأخباره .

لا يستطيع كاذب أن يخاطب اليهود — والتوراةُ بين أيديهم — بقوله على لسان القرآن : ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ . ثم يوبخهم ويقرعهم بأنه يجدونه فيها ، وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . وليس من المتصوَّر أن يجترئ على ذلك وهو يعلم كذب نفسه . والكاذب ضعيف حتى عند نفسه ..

جلىّ أن الصدق يصاحب الخير والبرّ ، والكذب يساير الفجور والشر .. ولهذا لما كانت خديجة رضى الله عنها ، تعلم من النبى صلى الله عليه وسلم أنه الصادق البارّ ، قالت له — حين جاءه الوحى وقال لها : إنى خشيت على نفسى — : والله لا يخزيك الله أبدا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكَلّ ، وتَقْرِى الضيف ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق .

ومعنى هذا ، أن من تجمّعت فيه هذه الخلال المحمودة ، فالله لا يخزيه أبدا ، وهو نبىّ حقا . ألم تر إلى ماقاله هرقل لأبى سفيان وصحبه وكان كافرا إذذاك : هل كنتم تتهمون محمدا بالكذب قبل أن يقول ماقال ؟ فقالوا : لا . ماجربنا عليه كذبا . فقال لهم هرقل : إنه لم يكن ليدَعَ الكذب على الناس ثم يكذب على الله . وغرض هرقل أنه إذا لم يكن من خلقه الكذب ، ولم يعرف عنه إلا الصدق ، وهو يتورّع أن يكذب على الناس ، فإن تورّعه عن أن يكذب على الله أولى وأحق .

من تأمل ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وضح له أن مثل هذا لا يصدر إلا من أعلم الناس وأصدقهم وأبرهم ؛ وأنه يستحيل صدوره عن متعمد للكذب، مفتر على الله ، أوخاطئ جاهل يظن أن الله أرسله ولم يرسله . ذلك بأنه جاء بإصلاح وهدًى ورحمة وإرشادٍ للخلق إلى ماينفعهم ليتبعوه ، وما يضرهم ليجتنبوه . فكانت حاله فى بث رسالته ناطقة بأنّه رحيم بارّ .

هذا إلى أن ماوصفه بأنه حق أو باطل ، ومعروف أومنكر ، مسلَّم به عند أهل الفطرة السليمة ، والعقل الصحيح : وقد وضح لمن عاشروه ولمن بلغتهم دعوته ، أنه أعلم منهم بحقيقة المعروف والمنكر ، وأنه أنصح الخلق للخلق ، وأبر الناس بالناس ، وأرحم البشر للبشر ، وأصدقهم فيما يقول ، وأقومهم فيما يفعل .

٣ — شدّة خوفه من عظمة ربه ونسبته كل شيء إليه

ذلك بأن المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ظل طول حياته يراقب الله ويخشاه فى جميع الأمور ، فإذا جاءه أمر يحبه قال : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . وإذا أتاه أمر يكرهه قال : الحمد لله على كل حال . وإن قصد فعل شيء قال : اللهم خِرْ لى واختر لى . وإن أراد سفرا قال : اللهم بك أصول ، وبك أجول . وإن أراد نوما قال : اللهم باسمك وضعت جنبى ، وباسمك أرفعه . وإن استيقظ قال : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور . وإن لبس ثوبا جديدا قال : الحمد لله الذى رزقنى ما أتجمل به فى حياتى . وإن أكل قال : الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا من المسلمين . وإن شرب قال : الحمد لله الذى جعل الماء عذبا فراتا برحمته ، ولم يجعله ملحا أجاجا

بذنوبنا . وإذا أفطر قال : الحمد لله الذى أعانى فصمت ، ورزقنى فأفطرت . وإذا انقلب من الليل إلى فراشه قال : لا إله إلا الله الواحد القهار ، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار . وإذا هب من نومه ليلا قال : رب اغفر وارحم ، واهد للسبيل الأقوم . وإذا خاف قوما قال : اللهم إنا نجعلك فى نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم . وإذا رفع بصره إلى السماء قال : يامصرف القلوب ، ثبت قلبي على طاعتك . وإذا حلف قال : والذى نفس محمد بيده . وإذا أصابه هم قال : حسبي الخالق من المخلوقين ، حسبي الرازق من المرزوقين ، حسبي الذى هو حسبي ، حسبي الله ونعم الوكيل .

من ذلك يتبين أنه صلى الله عليه وسلم ، كان فى جميع شئونه لا ينظر إلا إلى الله ، ولا يستمد المعونة إلا من الله ، ولا يرى لنفسه ولا لغيره حولا ولا قوة . ولا غرو : فمحمد صلى الله عليه وسلم خير أسوة . وأعلى قدوة .

٤ ـ انتشار الإسلام بسرعة

انتشار الإسلام ـ بما لم يسبق له مثيل ـ فى أقل من قرن آية كبرى على صدق نبوته وصحتها : فقد رحبت به القلوب ، وتسابقت إليه النفوس ، وعم نوره الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب ، والشرق بالغرب . فأصبح لدولة الغرب قدم فى الهند ، وأخرى فى الأندلس ، وانتفع العالم دهورا كثيرة بما فى الإسلام ، من النبل ، والبأس ، والنجدة ، والحق ، والهدى ، والمدنية الصحيحة ، حتى نعته الغربيون بأنه أستاذ المدنية فى أوروبة .

٥ ـ حرصه على هداية الخلق ومغامرته بنفسه وأهله

حسبك شاهدا على ذلك مالاقاه من كفار قريش بمكة ، وما كان يلاقيه

عند عرضه نفسه على القبائل ، وما أوذى به حينما ذهب إلى أهل الطائف يدعوهم إلى الله : فقد خضبوا نعليه بالدماء ، وأغروا به سفهاءهم . وما زاد على أن قال : اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، إلى أن قال : إن لم تكن غضبان علىّ فلا أبالى .

لا ريب فى أن هذا دليل واضح على أنّ الدعوة ملكت عليه حواسه وقلبه؛ فهان معها ما لقيه من التأنيب والتكذيب ، والإيذاء والإرهاب . ومحال عقلا أن يصبر داع على مثل هذه الأهوال إن كان شاكّا فى أمره ، أو مرتابا فى صدق دعوته .

٦ — إخباره بالمغيَّبات

أخبر صلى الله عليه وسلم بالأمور الغيبية على لسان القرآن ؛ وهو المعجزة العظمى : فمن ذلك قوله : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ﴾ . وقد تحقق هذا الوعد ، وقوله : ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ . وقوله : ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ . وقوله : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ . فكان كل ما أخبر به على أتمّ وجوهه ، وأبلغ معانيه .

ومن هذا الباب إخباره عن مكنون الضمائر ومخبوء النفوس، بلسان القرآن أيضا ، مثل قوله : ﴿وَيَقُولُونَ فِى أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ ؛

وقوله : ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ وقد وضح لمعاشريه أنه كلما زادت أخباره ظهرت صحتها ، وكلما قويت مكاشفته وامتحانه تجلى صدقه . واتضح حقه .

أضف إلى ذلك أنّ الأمة التى نشأ بينها ، كانت وقت بعثته من أبعد الأمم عن توحيد الله سبحانه وتعالى ، ومن أعظمها إشراكا به ، وأنّ من تدبر القرآن والتوراة وجدهما متفقين فى المقاصد الكلية : من التوحيد والنبوّات وغيرهما مما يؤيد ماقاله النجاشى : « إنّ هذا والذى جاء به موسى ليخرجان من مشكاة واحدة » . وما قاله ورقة بن نوفل : « إنّ هذا هو الناموس الذى كان ينزل على موسى عليه السلام » وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ .

أليس من البراهين القويّة على صدق نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أنه كان أمّيًّا نشأ بين قوم أمّيين ، ثم أخبر بمثل ما أخبرت به الأنبياء من الشئون الغيبية ، دون أن يتعلم من بشر ؟ وفى هذا يقول القرآن الكريم : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ . ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ .

ومن أجل ذلك أقرّله علماء أهل الكتاب بصدق ماجاء به ؛ كما قال القرآن الحكيم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا .

وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ . ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ .

٧ — اهتمامه بسعادة أمته

اهتمّ بدعوة الناس إلى ما يسعدهم فى دينهم ودنياهم ، حتى قال الله تعالى له : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ . واشتد حرصه على هدايتهم إلى مكارم الأخلاق وتعليمهم القوانين العادلة ، والشريعة الفاضلة ، التى رفعت أهلها إلى أوْج العزة والرفعة أيام كانوا متمسكين بها . ولا يسوغ فى نظر العلم والعقل ، أن النفس التى تكاد تهلك حرصاً على إسعاد غيرها تكون نفسا كاذبة ، بل لابدّ أن تكون متعلقة بالملأ الأعلى ، راسخة فى صفات الكمال ، ونعوت الرفعة والجلال .

٨ — تجرّد نفسه من الحظوظ البشرية

ألا ترى أنه لما شُجّ وجهه فى يوم أحد وكسرت رَبَاعيتُه ، وحل به مايذهب بلب الحليم ، ورشد الحكيم ، لم يزد على أن اعتذر لهم مما فعلوا ، فقال : اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون ؟ وبهذا استحق أن يقول الله فى حقه ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

٩ — فرط حثه على تطهير النفوس من الأرجاس الطبعية البشرية وأوحال الشهوات البهمية واتخاذه أنجع الوسائل لتحقيق غرضه الأسمى

جدير بنا أن نقدم بين يدى هذا المبحث ، طائفة من آى الذكر الحكيم ، وجملة من الأحاديث النبوية الشريفة ، فى الحض على تطهير النفس وتجميلها بصفات الكمال ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ . ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ . ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ . ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ . ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ألا أخبركم بشر عباد الله ؟ الفظّ المستكبر . ألا أخبركم بخير عباد الله ؟ الضعيف المستضعَف ، ذوالطِّمرين لا يُؤْبَهُ له ، لو أقسم على الله لأبرّه » . « قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان ، وجعل قلبَه سليما ولسانَه صادقا ، ونفسَه مطمئنةً ، وخليقتَه مستقيمةً » . « لا يجتمع فى جوف عبد غبارٌ فى سبيل الله وفَيْحُ جهنّم . ولا يجتمع فى جوف عبد الإيمانُ والحسدُ » . « لا يدخل الجنة خَبٌّ ولا منّان ولا بخيل » . « شرُّ ما فى الرجل شحٌّ هَالِعٌ وجبن خَالِع » . « ثلاث من كنّ فيه استوجب الثوابَ واستكمل الإيمانَ : خلقٌ يعيش به فى الناس ، وورَعٌ يحجزه عن محارم الله . وحلمٌ يرد به جهلَ الجاهل » . « أربع من كنّ فيه كان منافقا خالصا . ومن كانت فيه خَصْلَةٌ منهن ، كانت فيه خَصلةٌ من النِّفاق حتى يدَعها : إذا اؤتُمن خان . وإذ حدّث كذب . وإذا عاهد غدَر . وإذا خاصم فَجَر » . « أهلُ الجَنة ثلاثةٌ : ذو سلطان مُقْسِطٌ موفَّق ، ورجلٌ رحيم رقيقُ القلب لكل ذى قُرْبَى مسلم ، وعفيفٌ متعففٌ ذو عيال » . « ثلاث من كنّ فيه : آواه الله فى كَنَفه ، وستر عليه برحمته ، وأدخله فى محبته : مَنْ إذا أُعطى شكر . وإذا قدرغفر . وإذا غضب فَتَرَ » . « إنّ هذه الأخلاقَ من الله ، فمن أراد الله به خيرا : منحه خلُقا حسنا . ومن أراد به سوءا ، منحه خُلُقا سيئاً » .

ومثل هذا لا يصدر إلا عن نفس قدسيّة ، وروح ملكوتيّة ، قد تخلصت من قيود الأهواء ، وتحرّرت من عبودية الشهرة الشخصية ، واستمدّت من النور الإلهى والهداية الصمدانيّة . ولقد اجتمع كل ذلك فى محمد صلى الله عليه وسلم ؛ إذ ظل طول حياته راسخ المبدأ ، صادق العزم ، بعيد الهمة ، كريما برّاً ، رءوفا تقيا ، فاضلا مخلصا ، شديد الجدّ ، سهل الجانب ، جمّ البشر والطلاقة

حميد العشرة ، حلو الإيناس ، رحيم القلب ، وقد يمازح ويداعب ولا يقول إلا حقا ، شهم الفؤاد ، يفيض النور من جوانبه ، لم تثقفه مدرسة ، ولم يتخرج فى جامعة ، ولم يهذبه أستاذ ، وكفى بالله معلما ومرشدا .

١٠ — وصفه أمراض المجتمع ودواءه

أعطى محمد صلى الله عليه وسلم من العلم بأحوال الإنسان وشئونه مالا يحده العلم : فرسم لكلٍّ طريقا تناسبه ، وعلّمه كيف يعامل الله معاملة يرقى بها إحساسه ، ويصفو بها قلبه ، وهداه إلى معاملته لأسرته معاملة تستقيم بها حاله ؛ وينعَم بها عيشه ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك فى الباب الثالث . ودلّه على معاملة الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ومعتقداتهم معاملة يعيش بها هادئا مطمئنا فيما بينهم .

١١ — عجز العرب عن معارضة القرآن الذى أنزل عليه

كان العرب أمراء الفصاحة والبلاغة ، وما كان أحرصهم على تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وإخفاء أمره : لأنه سفّه أحلامهم، ونكّس أصنامهم، وشدّد فى توبيخهم وتأنيبهم : إذ قال لهم بلسان القرآن : ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ . وإذ قال لليهود : ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يريد الموت . فلم يستطيعوا أن يتمنوه حتى بألسنتهم ، مع شدّة حرصهم على تكذيبه .

وإذ عجز العرب عن معارضته وقامت عليهم الحجة ، فهى قائمة على غيرهم . كما قامت حجة عيسى عليه السلام بإبراء الأكمه والأبرص على الأطباء وغيرهم

وكما قامت حجة موسى عليه السلام بقلب العصا حية على السحرة وغيرهم ؛ لأن عجز الجماعات الإنسانية وهم متعاونون أفرادا ومجتمعين، عن معارضة أعمال جاءت على أيدى بشر مثلهم وهم أفراد لامعين لهم — دليل على أن ماجاء به هؤلاء الأفراد من عندالله، ليس فى طوق البشر الإتيان بمثله. ولا عجب؛ فقد وجد المنصفون من العرب وغيرهم أن القرآن الكريم صادر من مشكاة سماوية، وعين قدسية، وأنه كتاب يدعو لعبادة الله وتقديسه، وينوه بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، ويدل على طرقها، ويرقى الإحساس، ويرفع النفوس، ويأمرنا ألا نخاف إلا الله، ولا نرجو إلا الرحمن منقذا لنا من رق الشهوات واستعباد الأوهام. وليس أدل على صدق من نزل عليه وعظم يقينه من قوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

لما سمع العرب القرآن الكريم اختلفوا فى أمره: فمنهم من ظهر له أن هذا القرآن بلغ مرتبة فى الفصاحة والبلاغة لاتدركها القوى البشرية. وأن فيه خواص كاملة، لايمكن عند العقل اجتماعها فى مجموع كلام مهما تأنق فيه واضعه؛ واتسع اطلاعه على الماضى والحاضر والمستقبل، وعلى أحوال الأمم فى مختلف شئونها، وإن أحاط بجميع الفنون والآداب والحكم والسياسات، وتحرى فيه عدم التضارب والتناقض. كل ذلك مع الانفراد عن الأساليب المعهودة عند العرب. ولا غرابة؛ فقد رأوا اتساع مجاله فى كل فن: من أخبار وحكم، ومواعظ وأمثال، وأخلاق وآداب، وترغيب وترهيب، ومدح الأخيار وذم الفجار، والتحذير من قبائح السجايا ومواقع

الدنايا ، وتدبير السياسات ومدافعة الأعداء ، ومجادلة الخصوم ، وإقامة البراهين على وجود الله تعالى ووحدانيته ، وعلى الحشر والنشر ، ووصف عالم السموات وما فيها من الكواكب والأمطار والسحائب ، ووصف الأرض وجبالها وسهولها وبحارها وينابيعها وأنهارها ، وما اشتملت عليه من حيوان ونبات ومعادن .

وجملة القول أنهم شاهدوا أنّ القرآن الكريم لم يدع علما من علوم الأوّلين والآخرين إلا صرح به ، أو أشار إليه ، بأساليب منوّعة وطرائق مبدعة ، لم يقع فيه تناقض ، ولم يتخلله تضارب ، مع انفراده بأسلوب ليس له مثال يحتذَى ، ولا إمام يقتدَى به : فلا هو من ضرب القصائد العربية ، ولا من الأراجيز البدوية ، ولا من الخطب القسّية . ومع هذا فقد وجدوه فى عقولهم مستحسَنا ، وفى نفوسهم مستملحا ، وفى أذواقهم مستعذَبا ، ولأسماعهم مألوفا ، كلما تكرر حلا ، وكلما استُعيد ازداد جدّةً ورَوْنقا .

ومن أجل ذلك أوضح لهم العقلُ السليم أنّ تلك الصفات الباهرة لا تجتمع فى كلام اتفاقا ومصادفة . فإتيان محمد عليه الصلاة والسلام به وهو أمىّ ، أكبر دليل على أنه من عند الله تعالى ؛ أرسله به ليكون معجزة له .

ومن العرب طائفة لم يكونوا من أصحاب الفصاحة والبلاغة ؛ ولم تكن عندهم قوة النظر والإحاطة بالصفات التى اشتمل عليها القرآن ؛ ودل اجتماعها فيه على أنه ليس من مصنوعات البشر — غير أنهم لما رأوا النبى صلى الله عليه وسلم ادّعى الرسالة من عند الله ، وأنّ هذا القرآن كلامه ، وأنه تحدّى أهل الفصاحة والبلاغة بأقصر سورة منه ، وقرّر عجزهم بلسان القرآن : إذ يقول الله تعالى — كما تقدم — : ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ . وأنه يقرّعهم بقصورهم

بمرأى منهم وبمسمع ، وأن الفصحاء والبلغاء أهل النقد والبصر، أقروا بالعجز عن المعارضة من غير مداهنة ولا مخاتلة . وانقادوا إلى التصديق والاعتراف بأن القرآن فى الدرجة التى لا تنال ؛ وأن محمدا صادق فى دعواه — لما شاهدوا ذلك كله آمنوا به وأيدوه .

جاء القرآن والعرب قد وقعت بينهم الفرقة ؛ وتشتتت الألفة ، واختلفت كلمتهم ، وانشقت عصاهم . واضطربت أحوالهم ، فهم جماعات متناكرة ، وهى على تناكرها متدابرة ، فكانوا إخوان دبر ووبر ، أذل الأمم دارا ، وأجدبهم قرارا ، لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بها ، ولا إلى ظل ألفة يعتمدون على عزها ؛ فأحوالهم مضطربة ، وأيديهم مختلفة . وكانوا فى بلاء عظيم ، من جهل مطبق ، وبنات موءودة ، وأصنام معبودة ، وأرحام مقطوعة . وغارات مشنونة . فلما استضاءوا بنور القرآن الكريم اجتمعت آراؤهم ، واتفقت أهواؤهم ، واعتدلت طباعهم ، وترادفت أيديهم ، وتناصرت سيوفهم ، وعقد بملته طاعتهم ، وجمع على دعوته ألفتهم ، وأصبحوا ينعمون فى ظل سلطان قاهر ثابت ، وصاروا حكاما على العالمين ، وملوكا فى أطراف الأرضين . قد ملكوا الأمور على من كان يملكها عليهم ، وأمضوا الأحكام فيمن كان يمضيها فيهم .

جاء القرآن وقد تمكنت من العرب عصبية الجاهلية ، فما عدا أن سفه أحلامهم . ونكس أصنامهم ، وذهب كل ما ألفوه ، حتى كأنما خلقهم خلقا جديدا ، وكأنهم على آدابه نشئوا وهم أغفال وأحداث ، بل كأنهم كانوا سلالة أجيال كان القرآن فى أوليتهم المتقادمة ، وكانوا هم الوارثين لا الموروثين ، مصداقا للحديث الشريف : «خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» .

كان من أثره فيهم أن أذهب عنهم العصبيّة الممقوتة ، وأحلّ محلها التعصب لمكارم الخصال ، ومحامد الأفعال ، ومحاسن الأمور ، وخلال الحمد : من الحفظ للجوار ، والوفاء بالذمار ، والطاعة للبرّ ، والمعصية للكبر ، والأخذ بالفضل والكفّ عن البغي ، والإنكار للعدوان ، والإنصاف للخلق ، والكظم للغيظ ، واجتناب الفساد فى الأرض ؛ لهذا كلّه انعقدت عليه قلوبهم وهم يجهدون فى نقضها ؛ واستقاموا لدعوته وهم يبالغون فى رفضها ؛ فكانوا يفرّون منه فى كل وجه ثم لا ينتهون إلا إليه : ذلك بأنه قد جاءهم بما لاقبَل لهم به ، وبما يسمّى فى علم النفس الاستهواء ؛ فغلب على طباعهم ، وسلخهم من قديمهم سلخا .

ولَعمرى لو كانت بلاغة القرآن غير معجزة فى أساليبها التى ألقيت إليهم ؛ لخلا منه موضعه الذى هو فيه ، وكان سبيله بينهم سبيل القصائد والخطب والأقاصيص ، ولنقضوه : كلمة كلمة ، وآية آية ، دون أن تتخاذل أرواحهم ، أو تتراجع طباعهم .

بين لهم أن الطبيعة مسخرة لهم ، فعليهم كشف مافيها واستخراج أسرارها : ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ . ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ . ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ . ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ .

نادى فيهم القرآن الكريم : أن النبى صلى الله عليه وسلم ابن يومه وابن عمله وعقله ، فلا هو مفاخر ولا واهم ولا شاعر . وخاطبهم بالآية الكريمة التى

هى روح الثبات فى أمم العلم والعمل : ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِىءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .

بيّنا فيما سبق أنّ العرب كانوا قبل نزول القرآن الكريم ؛ قد انحدروا إلى هاوية الانحلال الاجتماعى ، بما لم يعهد له مثيل فى تاريخ الأمم : فكانوا فى جهل مُطبق بأحكام الدين الصحيح ، ومبادئ السياسة والحياة الاجتماعية ، ولم يكن لهم فنّ يذكر ، أو صناعة تُنشَر ، ولم يكونوا يعرفون شيئا من العلاقات الدولية ، وكانت كل قبيلة أمّة قائمة بنفسها ، تتحفز لشنّ الغارات على جارتها . فما لبثوا بعد أن جاءهم الكتاب الكريم أن خالطت أحكامه قلوبهم ، وأيقظت أرواحهم ، وجعلتهم يتلمسون الحق ، ونصبوا نفوسهم لرفع مناره ونشره فى أطراف الأرضين . قد بلغوا فى العبادة مبلغا بزّوا به أهل الرهبنة والتنسّك ، وصاروا أولى قوّة فى دين ، وحزم فى لين ، وإيمان فى يقين ، وحرص فى علم ، وعلم فى حلم ، وقصد فى غنى ، وخشوع فى عبادة ، وتجمل فى فاقة ، وصبر فى شدّة ، وطلب فى حلال ، ونشاط فى هدًى ، وتحرّج عن طمع . ومع بلوغهم هذه الدرجة الروحيّة العالية ، لم يهجروا الدنيا وشئونها ، بل عملوا لها بصدق وإخلاص ، فأبدلهم الله العز مكان الذل ، والأمن مكان الخوف ؛ فصاروا ملوكا حكاما ، وأئمة أعلاما .

وإن تعجب فعجب أن يتم ذلك المجد العظيم للعرب فى أقل من مائة سنة . وفى هذا برهان قاطع على أنّ أحكام القرآن خير طريق إلى تنمية الملكات الإنسانية ، وإعدادها لكسب الحياتين الدنيويّة والأخروية : فقد جعل الأمّة العربية تضع أعناقها للحق الذى لم تألفه حقا ، وأن تعطيه مع ذلك محض ضمائرها ، وتسلم له فى تاريخها وعاداتها .

إن نظرة بإنعام فيما جاء به القرآن الكريم من الآيات البينات ؛ تدل على أنه ليس هناك فى الإنسان من نقص إلا والقرآن كفيل بإصلاحه : فهو طبيب الإنسانية . وأحذق الأطباء من يتبين الداء ويعطى ناجع الدواء . وكذلك فعل القرآن ؛ فقد بلغ من أثره فى العرب أنه حوّل طبائعهم ، وغير أخلاقهم فلم يشهد التاريخ عصراً اجتماعياً مثل العصر الأوّل فى صدر الإسلام ؛ حين كان القرآن هو المنار الذى يهتدى به ، ولم تستطع الفلسفة على اختلاف ضروبها فى أى عصر من العصور ، أن تنشئ قبيلاً من الناس كالذى أخرجه القرآن الكريم : فكانوا مثلاً حسناً فى علو النفس ، وصفاء الطبع ، ورقة الجانب ، ورجاحة اليقين ، وطهارة الخلق ، وشدّة الأمانة ، وإقامة العدل ، والخضوع للحق ، وما إلى ذلك من أمّهات الفضائل .

رأى الدكتور هنرى استَبْ (١) فى إعجاز القرآن (Dr. Henry Stuble)

لغة القرآن وأسلوبه فى درجة معدومة النظير ، حتى إن محمداً صلى الله عليه وسلم اتخذه أكبر شاهد على صدق رسالته لأنه خارج عن طوق البشر . وتحدّى العرب بأن يأتوا بعشر آيات من مثله مفتريات ، فعجزوا . والمسلمون يعتبرون كل آية من آياته معجزة كبرى ، ويقولون إذا كانت المعجزات براهين على صدق الأنبياء وصحة رسالتهم فإن فى القرآن الكريم ثلاثة آلاف من الآيات البينات كل منها معجزة قائمة بنفسها شاهدة لمحمد صلى الله عليه وسلم بالنبوّة والرسالة ، وله فوق ذلك معجزات أخرى تجل عن الحصر ؛ غير أنها فى باب الإقناع دون القرآن الكريم ، لأنها لم تقع إلا مرة واحدة ولم يشهدها

---

(١) هو طبيب مشهور عاش فى القرن السابع عشر للميلاد وطبع كتابه فى ١٩١١ على نفقة الجمعية الاسلامية

إلا قليل من السلف تقبلها الخلف عنهم تعويلا على نزاهتهم ، ورجاحة عقلهم

من أجل ذلك كان حقا ما يقال من أن الله سبحانه وتعالى قد ميز محمدا فأرسله للناس بمعجزة خالدة لتكون حجة قائمة فى جميع العصور تتداولها العصور . ولم يبق من معجزات النبي إلا تلك المعجزة التى تحدى بها العرب أجمعين، وقد كانوا أرباب الفصاحة وفرسان البلاغة ، وفيهم الشعراء المفلقون . ودعاهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، فوضح بذلك لأشد الناس كفرا صدق نبوته ورسالته ، وكان خليقا أن يتحدى الإنس والجن على لسان القرآن الكريم إذ يقول : ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾

لا جرم أنه لا يليق بأهل الفطنة والذكاء والبيان أن يماروا فى طلاوة القرآن، فهو مقياس للغة العرب وبلاغتهم، وليس بمنصف من ينسب إليه التنافر والاختلاط والإخطاء فى إيراد الحوادث التاريخية

وقال المستر جريجورى فى مقدمة كتابه هذه العبارة : (لقد سألنى مرة رجل من ذوى الحصافة والرأى : أهذا القرآن يهدى إلى عقيدة سليمة مقبولة؟ فأجبته بالإيجاب) ومستر جريجورى من الكتاب الذين خففوا كثيرا من وطأة تحامل بعض المسيحيين على هذا الدين وصاحبه، فأخذوا يحسنون بهما الظن، لا كالذين أبقاهم جهلهم على تعصبهم وحقدهم

ولو تركنا التحيز جانبا ونظرنا إلى القرآن بالعين التى ننظر بها إلى غيره من الكتب ، لوجدناه يمتاز عن الإنجيل بحسن التشبيه والكناية والمجاز، على الرغم من أنه لا يستطيع أحدفهم هذا القرآن حق الفهم من ترجمة كالتراجم التى بين أيدينا ، فإن الترجمة الانجليزية للقرآن مأخوذة عن الترجمة الفرنسية ، وهذه

فاسدة جداً لاحتوائها على كثير من الحذف والتحريف والمسخ ، أضف إلى هذا أن الأسلوب العربي تستحيل ترجمته من غير رجوع إلى التفاسير العربية أو الفارسية أو التركية التي يجهلها مترجمونا أو يتعمدون إغفالها ، وبذا يدخلون على الناس كثيراً من الاختلاقات التي لم تصدر عن هذا النبي الكريم . لقد نظرت كثيراً فيما وجهه المسيحيون من الاعتراضات على القرآن ، فلم أجدها تختلف في شيء عما وُجه إلى الإنجيل . وما دفع به المسيحيون عن أنفسهم يؤيد القرآن تأييداً تاماً . وإن حال محمد صلى الله عليه وسلم وسيرته لتدل على أنه كان بعيداً كل البعد عن تلفيق المعجزات ، بل كان يعمل دائماً على ألا يعتمد على قوتها ويعدها قليلة الأهمية لا حاجة له بها ، بل ترفع عن ادعائها لنفسه . وكان من رأيه أن البشر ليس في مكنتهم تمييز المعجزات الصحيحة من الباطلة ، وأن الأشرار من الناس قد يأتون بخوارق عن طريق السحر وغيره

هذه قريش كانت تعزو ما يأتي به محمد من المعجزات إلى السحر ، ولذلك طلبوا منه أن يزحزح الجبال ، ويحيي الموتى ، وينزل عليهم من السماء ملكاً يرونه بأعينهم ؛ فكان جوابه على ذلك أن القرآن هو أعظم المعجزات ، فأصروا على عنادهم ، واستكبروا استكباراً

كان عليه الصلاة والسلام يقول لهم إن المعجزات من عند الله ، وليست من عمل البشر ، وإنها لا تأتي بمحض إرادة الأنبياء ، بل إن الله يجريها متى شاء وكيف شاء ، لا ليؤيد بها الحق فحسب ، بل ليبلو بها عبيده أحياناً

وقد التمس البروتستانت في مبدإ الإصلاح الديني لأنفسهم عذراً في التحلل من تصديق المعجزات ، قائلين إن يوحنا المعمدان لم يأت بمعجزة . ونسوا أن بعض الرسل لم يأت بمعجزات ، وأن المسيخ الدجال سيظهر من العلامات

ويأتى من العجائب مايخدع أرجح الناس عقلا

ومما يرويه المنصفون من غير المسلمين أن الأناجيل - قبل أن يفسدها المسيحيون - كان بها كثير من الآيات التى تشير إشارة صريحة إلى محمد ، وأنها لهذا السبب حذفها المسيحيون . وأن قسيسا مسيحيا عظيما أخبر بعضهم أنه لا توجد من الإنجيل نسخ غير مغلوطة إلا نسخة عنده وأخرى محفوظة فى باريس، وفى كل منهما آيات دالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ولا شك أن هذه الآيات تشير إلى محمد وتنطبق عليه كما تنطبق الآيات التى جمعها المسيحيون أنفسهم من كتب اليهود ، وقالوا إن فيها أنباء عن المسيح، بالرغم من مخالفة اليهود لهم فى تفسيرها مخالفة تامة . وربما كان الحق فى جانب اليهود فى كثير من المواضع كما يتجلى ذلك لكل من يعنى بقراءة تلك الكتب

على أن المعجزات ليس من شأنها تأييد المنكرات والضلالات ، فقد يأتى الأشرار بالخدع كأنها معجزات ، ويخدعون بها الناس بالتدجيل والاحتيال ، ويتعاهدون على إذاعتها وترويجها بينهم ، وربما انتزعوا من الكتاب المقدس آيات تؤيدهم وتزكيهم وتثبت معتقداتهم . فلو أن دين محمد كان كما يصفه المتعصبون دينا باطلا ، والوسائل التى قام بها محمد ضالة ، لانهارت قوة المعجزات والأنباء الغيبية من أساسها ، لأنه ما من أحد يتصور أن الله يصنع المعجزة ليؤيد بها دينا باطلا ، أو يذكر صاحب هذا الدين دون إذاعة ما يهتك ستره .

فلننظر إذن فى الدين الإسلامى الذى يتلخص فى القواعد الخمس الآتية : وهى : الشهادة بأنه لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسوله . وإقامة الصلاة فى أوقاتها . وإيتاء الزكاة . وأداء فريضة الحج إلى مكة . وصوم رمضان .

فالركن الأول من هذه الأركان خاص بالعقيدة . والأركان الأخرى فروض دينية يجب على كل مسلم تأديتها . أما الطهارة وصلاة الجمعة . وتحريم أكل لحم الخنزير والدم . فتعتبر كلها نتائج للقواعد الخمس يقصد بها التدليل على أن طهارة المظهر شاهد على طهارة القلب والعقيدة ؛ والركن الأول - ويسميه المسلمون الشهادتين - أهم محك وعلامة لدينهم ، فالشهادة الأولى يميزون بها أنفسهم عن عبدة الأوثان الذين يعبدون آلهة متعددة ، وعن المسيحيين الذين يعتبرون الثالوث إلهاً واحداً ، وأما الشهادة الثانية فهي في الأصل موجهة ضد اليهود الذين يرقبون نبيا فيهم ، في حين أن القرآن يؤكد أن محمدا آخر الأنبياء وسيدهم أجمعين .

أما اعتقاد المسلمين في الله ، فهو أنه لا إله إلا هو ، ليس له كفء ولا ولد ولا شريك ، وأنه أول بلا ابتداء وآخر بلا انتهاء . تحار الأفهام في فهم صفاته ويعجز عن قدرته الوصف ، وأن العقول لا تدرك ذاته ، ولو أن المفكرين والمتأملين في الخلق يرون على الأرض من آثار صنعته ما يعرفونه بها . لأن الإنسان لا يعرف عن الله سبحانه وتعالى إلا بمقدار ما يريد أن يحيطه به . وأن في السموات عرشه ، وفي الأرض موطئ قدمه ، لا يعجزه حكمهما ولا يتعبه ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ وهو قادر على كل شيء ، عليم بكل شيء ، موجود في كل مكان . وأنه مستو على العرش ، وعلمه محيط بكل شيء ، ولا تخفى عليه خافية . وأنه يصرف الأمور بتقديره ، فلا يجري شيء ولا ينمو حب ولا يذبل كلأ إلا بما قدر الله له في الأزل . وأنه مهما ينسب له الإنسان من صفات فإنه قديم باق ، وما كان لهذه الصفات أن تدل على شيء من حقيقة ذاته ، وأن الخير والشر يصيبنا في هذه الدنيا وفق

إرادته . وأن الطوارئ تبدو وتتقدم وتنتهى بمحض مشيئته . وأنه قدر فى الأزل ما كان وما يكون ، وعلمه محيط بأدق الأسرار ، فلا يجرى شىء إلا بعلمه ، وأن التفكير فى كل الأمور أو القيام بها أو النزوع إليها : بمحض إرادته وقدرته . وأنه السيد المتصرف فى خلقه ، المهيمن على أعمالهم ، بيده حركتهم وسكونهم

ويعتقد المسلمون خلود الروح ، وبعث الجسم ، والحساب . وأن الذين يؤمنون بالله وبعصمة أنبيائه موسى وعيسى ومحمد عن الخطأ يظلون فى سعادة بعد موتهم حتى يوم البعث والنشور ، ويعتقدون أنه لابد من الثواب والعقاب على الخير والشر مهما قلّ شأنهما ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾

هذه خلاصة الديانة المحمدية ، فهى من جهة لا تلزم الناس تصديق الأوهام الغامضة التى لا يفقهون لها معنى ، ولا تتمشى فى أغلب الأحيان مع قواعد العقل والتمييز . وهى من الجهة الأخرى لا تحمل الناس على القيام بكثير من الشعائر المجهدة الكثيرة النفقة المملوءة بالخرافات والخزعبلات . ومع ذلك فهى تلزم المؤمنين بالقيام بعبادة دينية فى أوقات معلومة ، حتى تكون وسيلة ناجعة فى ألا يتعدى الناس حدود واجباتهم لخالقهم وللعباد

وأهمّ ما يأخذه المسيحيون على القرآن وصفه للجنة والنار الواردتين به ، ولا أعده إلا اعتراضا جائرا ، لأن محمدا جاء فى هذا بما يؤيد ما ورد فى التوراة والإنجيل ، والمسيحيون واليهود يسلمون بما جاء فيهما ، فلم يعترضون على القرآن ؟

قد جاء في التوراة والإنجيل مايدل على عذاب القبر، والتطهير من الذنوب، والجنة ونعيمها؛ وماجاء بالقرآن فى وصف أنهار الجنة من احتواء بعضها على لبن لم يتغير طعمه، وبعضها على عسل مصفى: فشبيه بما جاء فى التوراة. غير أنه قد جاء فى التوراة والإنجيل وصف نهر من الزيت والبلسم، وطعام من فاكهة وخبز وزبد، وست وثلاثين مائدة من اللؤلؤ — أو لم يتحدث المسيح نفسه عن الأكل والشرب على مائدته فى ملكوته (الإصحاح ٢٢ لوقا، الآية ٣٠) وكذا عن شرب الخمر عليها (الإصحاح ١٤ مرقص. الآية ٢٥)؟؟

إن وصف بيت المقدس الجديد الوارد فى الفصلين الأخيرين من سفر الرؤيا يشبه فى كثير من الوجوه وصف الجنة فى القرآن، ولذلك فمن الحماقة أن نسخر بما يجىء به محمد ونبجل مايقصه الإنجيل، إذ أن المعانى والأوصاف متشابهة، فلا أرى معنى لعدم مساواتها فى مدلولاتها ومبناها، إلا أن يكون منشأ ذلك التحامل: الغرض.

أما أنا فلا أستطيع التفريق بين جنة اليهود والمسيحيين والجنة التى وعد بها محمد أتباعه، حقا إنهم يقولون إن مثل هذه الأوصاف وماشاكلها فى كتابنا المقدس - مثل الآية التاسعة من الإصحاح السادس والثلاثين من المزامير وكثير من الآيات الواردة فيه وفى غيره من الكتب - لا تؤخذ بحرفيتها، بل تكون على سبيل التشبيه

ولعمرى لماذا لايدافع المسلمون بهذه الحجة نفسها عما جاء فى القرآن من الآيات المماثلة لها؟ فالمعانى التى تستعمل فى وصف الأجسام العظيمة وكنهها كلها معان مجملة تحتمل التأويل، وعلى مثال مانعهده فى دنيانا، وقد جاء وصف المولى عز وجل فى الكتاب المقدس معبرا عنه بأجزاء

الإنسان وأعماله وإحساسه ليقرّبه الأنبياء إلى مدارك الخلق وعقولهم. فليت شعرى أين الخطأ والجهل فى إيراد وصف كهذا للجنة والحياة الآخرة يناسب عقولنا، ويتمشى مع مداركنا؟

على أننا لو فرضنا أننا نفسر وصف محمد للجنة تفسيرا على ظاهره، فما بالنا نلوم محمدا على إظهاره هذا النعيم بمظهر الملاذ الجسمانية، مع أننا لا نستطيع أن نتهمه بأنه أراد أن يجذب إليه أتباعه بهذه الملاذ، وأن يسهل عليهم الدخول فى دينه بأشباع شهواتهم البهيمية، فإن فى تحريمه للخمر تحريما شديدا ما يكفى لإبطال هذا الرأى إبطالا تاما

فلندع إذن تحاملنا وافتئاتنا جانبا، ونبحث الدين الإسلامى فى ذاته، لنرى أى خطأ فيه.

إن قواعد دين المسلمين قليلة سهلة الأداء، تعصمهم من الخروج على الدين ومن الضلال فيه. فإنهم مع اختلافهم فى تفسير شريعتهم متفقون على الأسس الجوهرية فيها، وإن اختلافهم لا يصل إلى حدّ التنابذ والانشقاق المتفشيين بين المسيحيين، مما جعلهم أحدوثة عند جميع ديانات العالم. ومعرفة المسلمين لله سبحانه وتعالى تنطوى على العظمة والجلال، ورأيهم فى الآخرة مطابق كما بينا لرأى اليهود والنصارى. أما الجانب الخلقى فى دينهم فإننا لو أخذنا عن (هو تنجز) الذى عنى بنقل كثير من الآراء من كتب المسلمين لوجدناها سامية نبيلة، ولوجدنا أن واجباتهم مفصلة تفصيلا تاما، وهى فى نفسها معقولة جدا.

تأمل ركنى الحج وصوم رمضان، تجد عظيم فائدتهما الإمبراطورية حربية تحتاج إلى معونة الجند الأشداء الشجعان، وما من شىء يؤدى إلى توالى زيادتها وترقيتها كهذين الأمرين. فالرجال والنساء عليهم أن يتحملوا سواء بسواء

مشقة الحج وألم الصيام . ويروضوا أنفسهم ليكونوا أهل نشاط وجلد، وصبر وعفة . أما الصوم فموعده غير ثابت وهو يأتى متأخرا شهرا فى كل سنة عن سابقتها ، فيقع بذلك تارة فى الصيف وتارة أخرى فى الشتاء ، أى فى أشد الفصول بردا أو أشدها حرا، وفى أطول الأيام وأقصرها . وهم يؤدونه بكل دقة ، فيحرم على المرء الأكل والشرب من الفجر إلى غروب الشمس ـ إلا إن كان مريضا أو على سفر ـ وإن أكثر الناس فسقا وأشدهم فجورا من المدمنين على تعاطى الخمر فى غير أوقات الصيام : لا يقربونها مطلقا فى شهر الصوم؛ ولعمرى أن ذلك أقوى وسيلة لتقوية الإرادة الصادقة

وأعتقد كذلك أن الركن الثالث وهو الزكاة ضرورى لحفظ قوة المسلمين والدفاع عن سلامتهم فى ربوعهم، والزكاة معناها الزيادة ، ولذا كان إعطاء الزكاة للمعوزين من أهم الوسائل لزيادة المال ، ففيه إرضاء لقلوب الفقراء ، وأمان للأغنياء .

أما الصلاة فلا تقل حكمة عن غيرها من الفروض ، لأن إقامة المسلمين الصلاة خمس مرات فى اليوم قد أكسبهم نشاطا وخفة لا يكسبهم إياها أى تدبير آخر ، وأحيا فى نفوسهم شعورا بدينهم لا يمحوه شيء إلا الارتداد عن الدين . هذا إلى أن هذا الدين الحكيم أوجب عليهم ألا يذكروا نبيا إلا بالثناء عليه بقولهم «عليه السلام» وألا يذكروا عدوا من أعداء دينهم إلا بقولهم «كفانا الله شره» ومثل هذه الأقوال تزيدهم ارتباطا بدينهم ، وتبعدهم عن أعدائهم ومخالفيهم

وصفوة القول أن الشعائر التى يقوم بها المسلمون كالصلاة والحج وغيرهما تعودهم الطاعة ، والدول العظيمة فى حاجة ماسة إلى هذه الفضيلة

حقا إن العقل الذى يسبح فى بحار الأسرار الإسلامية يجد فى الإسلام علما جما .

وتشريعا حكيما، وسياسة قويمة، وحضارة مكينة. انظر إلى الإسلام كيف لم يشرع ترجمة القرآن إلى اللغات الأخرى، لأنه أراد بذلك أن يرغم أتباعه على وحدة لغوية. وبدهي أن وحدة اللغة والدين والعادات تؤدي إلى منعة الدولة وعظمتها

ولا يسعني في هذا المقام إغفال ذكر طرف من النظم السياسية التي جاء بها نبي الإسلام الدالة على خطر قدره، وسمو شرعه

ومن هذه النظم السماح بتعدد الزوجات، فإن القرآن يبيح للمسلم أن يتزوج بواحدة واثنتين وثلاث وأربع إذا شاء، إلا إذا خشي ألا يعدل بينهن - ونظام المسلمين في هذا يطابق سنة الطبيعة، غير أن محمدا عليه الصلاة والسلام يقيد في شريعته عدد الزوجات، كما قدرها جروتياس وسان أوستين وجميع اليهود الربانيون، حتى مايمونيدس، كما ترى ذلك في كتاب سلدن، ولكن ما أجازته الطبيعة على الإطلاق قد عدلته شريعة موسى تعديلا يسيرا، فإن ملوك اليهود ممنوعون من تعدد الزوجات (الاصحاح ٢٧ الآية ١٧). ومع ذلك فإن المعروف أن داود عليه السلام كانت له أزواج عدة، ويقول اليهود إنه بالرغم من هذا المنع فللملك أن تكون له ثماني عشرة زوجة، وواضح أن داود عليه السلام لم يرتكب في ذلك إثما، لأن الله خصه بأزواج عدة

لا يمكننا إذن أن نقول إن تعدد الزوجات محرم عند اليهود، وإذا رجعنا إلى الديانة المسيحية وتساءلنا: أكان تعدد الزوجات محرما على الجميع أم مقصورا على الأساقفة الذين يجب ألا تكون لهم إلا زوجة واحدة؟ وجدنا أن المسألة فيها نظر.

على أن الامبراطور فالنتين سن قانونا أباح فيه للرجل أن يتزوج زوجتين، ومعنى هذا أن تعدد الزوجات لم يكن جزءا من الواجبات الشرعية، وأنه ليس

مقصورا على اليهود بل هو جزء من قانون الطبيعة . فمن أين إذن جاء منعه ؟

وفضلا عن ذلك فإنه كان شائعا بين المسيحيين المتهودين ، ولا يزال موجودا إلى وقتنا هذا عند اليهود فى الشرق

ويقول (سلدن) إنه جائز أيضا عند اليهود فى الغرب فى حالة عقم الزوجة ، فللرجل أن يتزوج بأخرى متى كانت زوجه عقيما ، فيحق لنا القول إذن أن المسيحيين والمتهودين قد جروا على ماجاء فى إنجيلهم من أن تعدد الزوجات غير محرم، وأن ماورد عكس ذلك فى الإنجيل الشائع بين الناس تحريف وبهتان ، وإنما أخذ ذلك عن العقائد الوثنية المأخوذة من القوانين الرومانية . وقد عمل بها المسيحيون الضالون .

ومن المعروف أن المسلمين يجيزون الزواج من أربع فقط . وبما أن ذلك موافق لعقائد اليهود ، فلماذا لا نظن أنه مطابق لعقائد المسيحيين المتهودين ؟

أما التسرى، فالظاهر أنه غير مناف لسنة الطبيعة ، ولم يكن مخالفا للشريعة اليهودية ولا الشريعة المسيحية ، وكتب الدين عندهما مؤيدة لذلك

على أنى وجدت بعد البحث والتحرى أن تعدد الزوجات من العادات القديمة المتأصلة فى العالم منذ القدم . وعلى ذلك فقد أقرها الإسلام لأنها وسيلة إلى إكثار عدد الرعايا، وهم عصب الدولة ، فضلا عن أن عدد النساء فى الشرق والجنوب أكبر بكثير من عدد الرجال ، وأن أتباع إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم يجدون من قانون الطبيعة مايسوغ لهم هذه الإباحة . ولا أرى أن تعدد الزوجات فى الإسلام كان لغرض المتعة والشهوة ، ولم أجد ما يقوم دليلا على ذلك ، فلم أر عبارة واحدة – سواء أكانت فى القرآن أم فى الأحاديث – تشير إلى هذا المعنى . وكذلك لم أجد شيئا يفيد منعه فى العهد القديم والعهد

الجديد . وقد تتهم قانون لكرغوس بالترف والتنعم إذا اتهمت نظام نبيّ المسلمين . ولو أردت أن أتلمس سببا لهذه السياسة الإسلامية الحكيمة لوجدت الأمر كما فى الديانتين اليهودية والمسيحية، وهو أنّ جميع الرجال أرغموا بذلك على التكاثر والتزايد، ولا سيما فى حال العقم، أو الذين لم يتركوا من بعدهم خلفا . وبما أن زواج المسلمين يرمى إلى التناسل فليس فيه أو فى الطلاق مالا يقره اليهود وغيرهم من أمم الشرق ، كما ترى ذلك فى رسالة سلدن عن (مزوجة يهودية)

ومن القوانين الحكيمة التى سنها الإسلام القانون الذى حرم فيه الربا على المسلمين ، فقد كان من نظم العرب القديمة أن الواجب على كل شخص أن يحسن حالته ، ويزيد فى ثروته ، ومن يفعل ذلك يكرم ويعظم ، ومن لم يفعله يعاقب . فهذا الشرع الحكيم قد فطن إلى أنه من الأهمية بمكان عظيم لدولته التى عمل على عظتها وخلودها: ألا يكون لأهلها من الفاقة والحاجة مايدفعهم إلى القيام على حاكمهم ، أو التناحر فيما بينهم ، لارتفاع بعضهم، بسلب أموال الغير وظلمه . فلم يعمل بهذا النظام السابق ، ولما حرم جميع صنوف الربا حث الناس على الإحسان ليمكنهم من إسعاف المحتاج ، إما بالإحسان إليه ، أو بإقراضه دون فائدة ، وكذلك حثهم على أن يشتغل كل منهم بحرفة أو تجارة دفعا للبطالة . فاستفاد بذلك فائدة أخرى ، وهى عمل جميع الناس جسما وعقلا (وهذا من أهم الأسرار فى الحكومات وربما كان السبب الذى من أجله أقام الرومان وغيرهم المعارض العامة) وكان أصحاب الحرف الصغيرة أكثر اغتباطا ، يقومون بعملهم مسرورين ، إذ يرون أن الذين أسعدهم الحظ بتجارة أو مال لا يعفون من دفع زكاتها ، وأنّ حرفهم لا تعتبر وضيعة ، وأن أميرهم وصانع السلال يحترفان حرفة واحدة، وليس بعد هذه الحكمة فى السياسة زيادة لمستزيد . ولكيلا يذهب

بعض المسلمين فى فهم الربا مذهبا خاطئا ، ويقولون إن الربا كان مشروعا كالتجارة ، وأن تبادل التجارة نوع من الربا ، فيحجمون بذلك عن التجارة ويهملون شأنها تفاديا من مضارها - أنزل الله لهم فى كتابه الكريم ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ وبهذا القانون يحرم على المسلم التعامل بالربا مطلقا ، سواء أكان مع مسلم آخر ، أم مع مسيحى من الخاضعين لحكومة بلاده ، أم مع أجنبي يعيش بين ظهرانيهم . ومن ينعم النظر فى نظم محمد المدنية ، ير من الأسباب القوية ما يحمله على الإعجاب بسداد شريعته ، وحكمة أحكامها . وإليك البيان :

كان من الأحكام الموسوية ألا يتعامل إسرائيلي مع آخر بالربا لأن موسى عليه السلام لم يقصد توسيع دولته ، بل كان همه الإبقاء على رعيته متحابين غير متنازعين فى رقعتهم الضيقة ، لكن محمدا عليه السلام - وهو صاحب الرسالة العامة - أراد دولة واسعة الأطراف ، فحرم التعامل بالربا مع جميع الأجانب الساكنين بلاد المسلمين ، لأنه لو أباحه - وكان بينهم كثير من المسيحيين وغيرهم - لكانت هذه الآفة ، وهى جنى الثروة بسهولة عن طريق الربا ، قد أضعفت المسلمين ، وهددت دولتهم بالمشاحنات والخلافات التى تنشأ عادة عن الربا ، وجعلت الحكومة ظالمة مكروهة فى نظر الأجانب ، فينزحون عن بلادها

وهذا يذكرنى بقانون آخر من القوانين الإسلامية ، وهو تحريم القمار وجمع الثروة بأى نوع من أنواع المقامرة ، وهو يحرم ذلك لنفس الأسباب التى حرم من أجلها الخمر ، لأنها مجلبة للخلافات والفقر ، وتؤدى إلى إهمال واجبات الناس نحو الله . فيتضح من هذا القانون كيف قدرت الشريعة الإسلامية العواقب القريبة والبعيدة لهذه الأشياء ، ولم تجز الأمور التى يربى ضررها على نفعها ، أو تسمح بتلك السفسطة التى تمادى فيها المسيحيون ، وآلت إلى تدمير ثروتهم

وضياعها، ولقد عرف الدين الإسلامى أهمية عبادة المسلم لله، وجعله دائما نصب عينيه، وعرف أن من يقامر ويشغل نفسه بأمل الكسب أو خوف الخسارة لا بدّ أن يكون عرضة لترك الصلاة، وبذلك يتردى فى هوّة عدم التدين. ورأى أن الميسر بما يدره من كسب قد يغرى الناس بالغش، والغش معناه عدم الخوف من الله ومن الناس، وهو طريق محرم لجمع الثروة. وكذلك بين هذا الدين أن النفس التى يستهويها المال والمتاع الزائل ويأخذ عليها مشاعرها تكون مهيأة لارتكاب كل أنواع الشرور والآثام. وأوضح أن المشاحنات والاختلافات الخاصة التى تقع بين الناس تؤدى إلى خسائر المجموع، وتودى بالأسر والمدن والممالك. وأن الآلام والمتاعب التى تعقب خسران الأفراد لا تؤدى إلى هلاك القليل من الناس، بل تعمّ الجميع، وتحمل اليائس والمعدم على ارتكاب أخطر الاعتداءات وأشدها ضررا، فيعود ضرر ذلك على المجموع. وكذلك أذّن أن العدوى قد تنتقل من المقامرين إلى غيرهم، وأن الناس مفطورون بطبعهم على الأمل أكثر من الخوف، وأنهم يميلون إلى الكسل أكثر من العمل، وأنهم يهملون واجبات الله بدلا من القيام بها، وأنهم يحاولون إسعاد أنفسهم طفرة بدلا من سلوك السبيل السوى الذى يؤدى إليه العمل والعقل. فلهذا سن هذا القانون الصارم الذى تظهر شدّته فى كونه حرم على المسلم جميع ضروب المقامرة، فهل من مذّكر؟

ولا يمكننى أن أحصى مافى أحكام الإسلام من ضروب الإصلاح والإرشاد، ولكن من الثابت أن عنايته بالتشريع قد تناولت حتى الطيرة والعرافة، للأقدام على عمل أو الامتناع عنه، باستفتاح القرآن، أو بإطلاق سهم فى السماء، أو بسحب سهم – من عدّة أسهم – مكتوب عليه: إن الله لا يريد، ولم

يقبل هذا النبي العظيم أن يستخدم المسلمون فى مباحثاتهم ويحكموا فى مناقشاتهم سوى العقل ، وقد ثبت فى عقولهم أنه لا يوجد شيء اسمه المصادفة أو الخطأ فى المقادير ، بحيث يصيب المرء ماقدر لغيره ، وأنه من السخف أن يتصوروا أن الله يدلهم على مافى علمه بطير طائر أو بصياحه ، أو بالطرق بالحصى ، أو فى مغابن اليد ومطاويها .

ولا تتسع هذه العجالة لبيان الأسباب القوية والحكم البالغة التى انطوت فى الأحكام الإسلامية ، وبخاصة مزج السلطة المدنية بالسلطة الدينية

ولو رجعنا إلى عقيدة القضاء والقدر لبهرنا مقدار النجاح الذى أحرزه المسلمون فى فتوحاتهم ، لاعتصامهم بها ، فى حين أن التاريخ ينبئنا بما أصاب المسيحيين فى فرارهم من ساحة الوغى ، وهجرهم ديارهم وأرضهم ، لتخليهم عن هذه العقيدة .

على أنني أقرر - وأنا واثق مما أقول - أنها كانت عقيدة اليهود والمسيحيين الأول ، وقد أيدتها الآيات الواردة فيها فى كل من العهد القديم والعهد الجديد

وفى الحق لا يستوى جندى لا يخاطر بنفسه فى المعارك وجندى يعتقد أنه لا يموت إلا ميتة واحدة ، وأنه لا يأتيه الموت قبل أجله ، وأن كل تدبير للخلق يتوقف على مشيئة الله ، وأنه لا مصادفة ، وأنه لا يخطئ إنسان إلا وقد قدر له ذلك .

١٢ — تأييد الله لمحمد صلى الله عليه وسلم وخذلان أعدائه

أيد الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، وعصمه من أعدائه ، وهم الجم الغفير ، والعدد الكثير ، وهم أحنق ما كانوا عليه ، وأشد طلبا لنفسه ، وهو بينهم

مسترسل قاهر، ولهم مخالط ومكاثر. ترمقه أبصارهم شزرا، وترتد عنه أيديهم ذعرا

فمن ذلك أنه جلس فى بعض منازله تحت شجرة، فاخترط أعرابى سيفه عليه. فأرعدت يده، وسقط منها السيف. ومع ذلك عفا عنه المصطفى عليه الصلاة والسلام، فرجع إلى قومه قائلا: جئتكم من عند خير الناس!

وانفرد يوم بدر لأمر ما، فتبعه رجل من المنافقين مصلتا سيفه من قرابه، فعصمه الله من شره، ورد كيده فى نحره.

وقصده دعثور بن الحرث، وفى يده عضب مرهف الحد، فى غزوة غطفان، فوقع لظهره، ثم هدى بعدها للإيمان.

وتواعده المشركون مرات عدة، وأتوا للفتك به بكل حيلة ومكيدة: فمنهم من هرب وفر، ومنهم من وقع مغشيا عليه، ومنهم من ضرب الله على عينيه، ومنهم من سقط بين يديه.

ومن ذلك أن قريشا اجتمعت على قتله، فخرج عليهم من بيته، وحثا التراب على رءوسهم، وخلص منهم وهم له منتظرون: صم بكم عمى فهم لا يبصرون.

وتبعه سراقة حين الهجرة يريد قتله — وقد جعلت قريش فيه وفى أبى بكر الجعائل — فلما قرب منهما خر عن فرسه بعد أن ساخت قوائمها مرتين. فناداه بالأمان، وقابله بالإحسان.

وجاء أبو جهل بصخرة ليطرحها عليه — وكان إذ ذاك ساجدا، وقريش تنظر إليه — فيبست يداه إلى عنقه، ولم ينفعه « هبل ».

وجاءه مرة أخرى — وهو يصلى عليه الصلاة والسلام — فلما قرب منه،

ولى نا كصا على عقبيه .

ومن ذلك أنّ كلدة بن أسد أبا الأشد — وكان من القوة بمكان — خاطر قريشا يوما على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأعظموا له الخطر إن هو كفاهم . فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الطريق يريد المسجد ، فجاء كلدة ومعه المزراق ، فرجع المزراق فى صدره ، فعاد فزعا ، فقالت له قريش : مالك ياأبا الأشد ؟ فقال : ويحكم ، أما ترون الفحل خلفى ؟ قالوا : مانرى شيئا . قال : ويحكم ، فإنى أراه .

ومن ذلك أن كثيرا من اليهود والكهان أنذروا به صلى الله عليه وسلم، وعينوه لأصحاب الأوثان ، وأخبروهم بأمره ، وحضوهم على قتله ، فعصمه الله تعالى منهم بنصره ، وحرسه بعينه التى لاتنام ، وكلأه بعنايته فى الرحلة والمقام ، وجعل فى أعناقهم أغلالا ، وألبسهم من الذل والهوان سربالا ، وكف أيديهم عنه إذ هموا ببسطها ، وحمى رسوله عليه الصلاة والسلام وكفاه : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ .

أتم الله التأييد لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : فمكنه من توحيد أمة منقسمة إلى قبائل متعادية ، وجاءها بقانون كفل لها السلطان على جميع الأمم ، بعد أن كانت فى حيز العدم . ومحا العقائد الباطلة ، وأبدل بها دينا بلغ من سمو مبادئه أنه لايزال يزيد وينمو فى كل يوم بنفسه .

تمت له هذه الأمور كلها ، ولم يفقد من طهارة نفسه ولا سمو روحه مثقال ذرة ، ولم تفتن نفسه الطاهرة بنجاحه الباهر ، مع أن عشر معشار هذا النجاح العظيم قد فتن كثيرا من الملوك والمشترعين والفلاسفة والقواد .

١٣ — تكامل الفضل فيه

كمّله الله بالفضائل . وحسبك دليلا ما يلى :

(ا) كمله بالسكينة الباعثة على الهيبة والتعظيم ؛ فكان صلى الله عليه وسلم أعظم مَهيب فى النفوس ، حتى ارتاعت رسل كسرى من هيبته حين أتوه ، مع ارتياضهم بصولة الأكاسرة ، وعظمة الملوك الجبابرة .

(ب) استحكمت محبة طلاقته فى النفوس حتى لم يقلّه مصاحب ، ولا تباعد عنه مقارب ، فكان أحبَّ إلى أصحابه من الآباء والأبناء .

(ج) مالت النفوس إلى متابعته ، وانقادت لموافقته ، وثبتت على شدائده ومصابرته ، ولم ينفر منه معاند ، ولا استوحش منه مباعد — إلا من ساقه الحسد إلى شقوته ، وقاده الحرمان إلى مخالفته .

(د) أوتى رجاحة فى العقل ، وعلوا فى الهمّة ، وصدقا فى الفراسة ، فكان دائما صحيح الرأى ، جيد التدبير . مااستُغفل فى مكيدة ، ولا استُعجز فى شدّة ، بل كان يلحظ عواقب الأمور فى المبادئ ، فيكشف عيوبها ، وينُجى من خطوبها .

(ه) كانت حياته صلى الله عليه وسلم حياة ثبات فى الشدائد . ونفسه فى اختلاف الأحوال ساكنة : لا يتحيّر فى شدّة ، ولا يستكين لعظيمة أو كبيرة ، وكان مع قلة أعوانه يصابر صبر المستعلى ، ويثبت ثبات المستولى :

روى حمّاد بن سلمة عن ثابت عن أنس رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أُخِفْتُ فى الله وما يُخاف أحد ، ولقد

أوذيت فى الله وما يؤذى أحد ، ولقد أتت علىّ ثلاثون ما بين يوم وليلة وما لى ولبلال طعام يأكله ذو كبد ، إلا شىء يواريه إبط بلال .

(و) إعراضه صلى الله عليه وسلم عن زخرف الدنيا والاكتفاء بالكافى منها :
فلم يمل إلى غضارتها ، ولم يستمتع بحلاوتها ، وقد ملك من أقصى الحجاز إلى عذار الفرات ، ومن أقصى اليمن إلى شحر عمان ، وهو صلى الله عليه وسلم أزهد الناس فيما يقتنى ويدخر ، وأعرضهم عما يستفاد ويحتكر به لم يخلف عينا ، ولم يورث أهله وولده متاعا ولا مالا ، ليصرفهم عن الرغبة فى الدنيا كما صرف نفسه عنها . ولقد جاءت فاطمة رضى الله عنها إلى أبى بكر رضى الله عنه ، تريد الميراث ، فقال لها : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنا لا نورث : ما تركناه فهو صدقة . ثم قال لها : من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوله فأنا أعوله ، ومن كان ينفق عليه فأنا أنفق عليه .

(ز) خفض جناحه للناس وهم له أتباع ، فكان يمتزج بأصحابه وجلسائه ، فلا يتميز عنهم إلا بإطراقه وحيائه ، وجليل سمته ورُوائه . ولقد دخل عليه صلى الله عليه وسلم بعض الأعراب ، فارتاع من هيبته . فقال : خفّض عليك ؛ فانما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة . ولعمرى أن هذا من شرف أخلاقه وكريم شيمه . فهى غريزة فطر عليها ، وجبلة طبع بها ، لم تندر فتعد ، ولم تحصر فتحد .

(ح) رزقه الله الحلم والوقار . ولقد منى بجفوة الأعراب ، وهم فى الجفوة من هم ، فلم تحفظ عليه بادرة ، ولم يعرف حليم غيره إلا ذو عثرة ، ولا وقور سواه إلا له هفوة . أما هو فقد عصمه الله تعالى من نزغ الهوى ، وطيش

القدرة ؛ ليكون بأمته رءوفا، وعلى الخلق عطوفا. قد تناولته قريش بكل كبيرة، وقصدته بكل جريرة، وهو صبور عليهم، معرض عنهم. ولما ظفر بهم عام الفتح — وقد اجتمعوا إليه — قال لهم : ماظنكم بي ؟ قالوا : ابن عم كريم. فان تعف فذاك الظن بك، وإن تنتقم فقد أسأنا. فقال صلى الله عليه وسلم : بل أقول كما قال يوسف لإخوته : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين. وقال صلى الله عليه وسلم : اللهم قد أذقت أول قريش نكالا. فأذق آخرهم نوالا.

(ط) حفظ صلى الله عليه وسلم العهد، ووفى بالوعد، فما نقض لمحافظ عهدا، ولا أخلف لمراقب وعدا، بل كان يرى الغدر من كبائر الذنوب، والإخلاف من مساوئ الشيم.

(ى) أوتى من الحكمة البالغة والعلوم الجمة الباهرة ما بهر العقول، وأذهل الفطن : من إتقان ما أبان، وإحكام ما أظهر، فلم يعثر فيه بزلل وهو مع ذلك أمى من أمة أمية : لم يقرأ كتابا، ولا درس علما، ولا صحب عالما ولا معلما. تأمل أنه أوجز المراد من شريعته في أحاديث أربعة :

الأول : «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّات، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى».

والثاني : «الْحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ، وَمَنْ يَحُمْ حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ».

والثالث : «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ».

والرابع : «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ».

وحسبك هذا دليلا على صفاء جوهره، وخلوص مخبره.

(ك) لم يعزب عنه من قصص الأنبياء مع الأمم، وأخبار العالم في الأحقاب

الخالية - صغير ولا كبير ، مع أنه لم يضبطها بكتاب درسه ، ولم يتلقَّها عن معلم لقَّنه ؛ بل علمه الله وآتاه ذهنا صحيحا ، وصدرا فسيحاً ، وقلبا شريحا . وتلك أداة الرسالة ، وميزة النبوة

(ل) أيد شريعته بأظهر دليل ، وأبانها بأوضح تعليل ، فما خرج منها مايوجبه معقول ، ولا دخل فيها ماتدفعه العقول ، وإلى ذلك أشار صلى الله عليه وسلم بقوله : « أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَاخْتُصِرَتْ لِيَ الْحِكْمَةُ اخْتِصَارًا »

(م) أمر بمحاسن الأخلاق ، ودعا إلى مستحسن الآداب ، وحث على صلة الأرحام ، وندب إلى التعطف على الضعفاء والأيتام ، ونهى عن التباغض والتحاسد ، وكف عن التقاطع والتباعد ، فقال : ﴿لَا تَقَاطَعُوا ، وَلَا تَدَابَرُوا ، وَلَا تَبَاغَضُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا﴾ ؛ لتكون الفضائل فيهم أكثر ، ومحاسن الأخلاق بينهم أظهر ، وإلى الخير أسرع ، ومن الشر أمنع ؛ وليتحقق فيهم قول الله تعالى : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ . فيتكامل لهم صلاح دينهم ودنياهم ، ويصبحوا أئمة أبرارا ، وورثة أطهارا ، وقادة أخيارا .

(ن) كان واضحَ الإجابة ، ظاهرَ الحجة ، فلا يحصره عيٌّ ، ولا يقطعه عجز ، ولا يعارضه خصم فى جدال إلا كان جوابه أوضح ، وحجاجه أرجح : جاءه أُبَيّ بن خلف الجُمَحِيّ بعظم نخر من المقابر قد صار رميما ، ففركه حتى صار رمادا ، ثم قال : يامحمد ، أنت تزعم أنا وآباءنا نعود إذا صرنا هكذا . لقد قلت قولا عظيما ماسمعناه من غيرك : من يحيي العظام وهي

رميم ؟ فأنطق الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ببرهان نبوته فقال : ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ . فانصرف مبهوتا ، ولم يُحِرْ جوابا .

(س) حفظ الله لسانه من تحريف فى قول ، أو إيراد خبر يجانب الصدق . ولم يزل صلى الله عليه وسلم مشهورا بالصدق فى خبره ناشئا وكبيرا ، حتى صار بالصدق مرقوما ، وبالأمانة موسوما . ومن لزم الصدق فى صغره كان له فى الكبر ألزم ، ومن عصم منه فى حق نفسه كان فى حقوق الله تعالى أعصم .

(ع) نقل أمته بما جاء به من الدين عن مألوفها ، فأذعنت له النفوس طوعا ، وانقادت خوفا وطمعا ، واجتمع الراغبون والراهبون على نصرته ، وقاموا بحقوق دعوته ، رَغَبا فى عاجل وآجل ، ورَهَبا من زائل ونازل . وبالرغبة والرهبة صار الدين مستقرا ، والصلاح بهما مستمرا .

(ف) أمر أمتــه بالاعتدال : فلم يمل بهم إلى الدنيا كما رغبت اليهود ، ولا إلى رفضها كما ترهبت النصارى ، بل قال لأصحابه : « خَيْرُكُمْ مَنْ لَمْ يَتْرُكْ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ ، وَلَا آخِرَتَهُ لِدُنْيَاهُ » ؛ لأن الانقطاع إلى أحدهما اختلال ، والجمع بينهما اعتدال . ولم يأمر أبدا برفض الدنيا كما يتقول المتخرصون ؛ لأن منها يتزود المؤمن لآخرته ، ويستكثر فيها من طاعته ؛ ولأنه لا يخلو تاركها من أن يكون محروما مضاعا ، أو مرحوما مُرَاعًى . وهو فى الأول كَلّ ، وفى الثانى مستذل . تأمل هذه القصة : أثنى على رجل بخير فى حضرة الرسول ، فقيل : كنا إذا ركبنا لا يزال يذكر الله تعالى حتى

تنزل ، وإذا نزلنا لايزال يصلى حتى نرفع . فقال الرسول : فمن كان يكفيه علف بعيره وإصلاح طعامه ؟ قالوا : كلنا . فقال : كلكم خير منه (ص) اتسع زمنه القصير لنشر الدعوة أولا سرا ثم جهرا ، وللحروب التى تطلبتها الدعوة بعد الهجرة ، ولتوضيح أحكام الدين ، فبين العبادات ، وأوضح الحلال والمباح والمحظور ، وفصل مايجوز وما يمنع من عقود ومعاملات ، حتى احتاج اليهود والنصارى فى كثير من معاملاتهم ومواريثهم إلى شرعه ؛ ولم يحتج شرعه إلى شرع غيره ، ثم مهد لشرعه أصولا تدخل فيها أحكام الحوادث المتجددة فى الأزمنة والأمكنة المتعددة ؛ حتى صار لما تحمله من الشرع مؤديا ، ولما تقلده من حقوق الأمة موفيا ؛ حتى لايكون فى حقوق الله زلل ، ولا فى مصالح الأمة خلل . كل ذلك فى زمن موجز ، تم فيه هذا الأمر الخارق المعجز

(ب) الأدلة الحسية

إلمامة بالمعجزات ، ووجه الحاجة اليها

ضرورة المعجزة للرسول :

يأتى الرسل دائما بعبادة تخالف عبادة أقوامهم ، ويصدعون بأمور لاتجرى على سنتهم أو مألوف عاداتهم ، وما بعث رسول فى قوم إلا كان الجهل ناشرا أعلامه ، والشر ملقيا بجرانه ؛ ولهذا كانت رسالته شاقة مضنية ، وجهاده عنيفا طويلا . ولكى تكون هذه الرسالة مضمونة النجاح ، وذلك الجهاد مكللا بالفلاح ، كان لابد له من سلاح من الإقناع يشهره فى وجه مكابريه ،

ومصباح من البرهان يبدد به شبهات جاحدي رسالته ومعانديه ، لكي تكون رسالته ثابتة قائمة ، ومناط الثواب والعقاب بعدها صحيحا ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وللإقناع إحدى سبيلين : إما العقل والبرهان ، وإما المعجزة المبنية على خرق العادات ؛ وإذا كان البرهان العقلى لا يخضع له إلا ذوو العقول المستنيرة ، والأذهان الصافية ، والقلوب المستشرفة للعرفان ، والنفوس المستعدة للإيمان ، فإن فى البشر من ران الله على قلبه ، وطمس على بصيرته ، أو من أخذ الجهل بضبعيه ، ووضعت حجب التقاليد غشاوة على عينيه ، فهؤلاء لا يصلح لدعوتهم إلا أن يروا أمرا خارقا ، ويلمسوا بأيديهم شيئا متصورا بالعقل ، معجزا للبشر ، فيتأكد المطمئن ، ويطمئن المتردد ، وتقوم الحجة على الجاحد المعاند

حقيقة المعجزة :

والمعجزة فى تعريفها وحدها . هى أمر خارق لنواميس الكون ، خارج عن سنن الوجود التى عرفها الناس ، واصطلح عليها الخلق ، يجريها الله على يد رسوله ، تصديقا لدعوته ، وإقناعا للمرتابين فى رسالته . . . والأساس فيها أن تكون غير خاضعة لناموس معروف ، أو مقيدة بنظام مألوف ، ومخطئ من يحاول أن يقربها للأذهان ، بأن يدخلها تحت قانون ، أو يخضعها لسنن الوجود ، لأنه بذلك يبطل حقيقتها ، ويسقط حجة حاملها ، ويردها إلى الظواهر العلمية ، أو يلحقها بأعمال السحرة ، أو حيل المشعوذين .

كيف تقع المعجزة للرسول :

والرسول لا يستطيع أن يأتى بالمعجزة من نفسه ، أو اقتراحا من عنده ،

إذ الأمور التي تقع بها إنما هي مما تفرد به جل شأنه ، واختص بها تعالى وحده ، فهو قد تفرد بالعلم ﴿ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ واختص بالغيب ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ وتوحد بالقدرة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وأمر رسوله أن يبرأ من دعوى العلم أو القدرة أو الغنى ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ وأن يرد علم الساعة إليه جل شأنه ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ وتحدى كفار قريش محمدا بالمعجزات فما استطاع إلا أن يعلن بشريته ، ويرد صفات الكمال إليه سبحانه ، ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾

ولكن الرسول قد يمنحه الله من صفاته مايريد ، ويجرى على يديه من المعجزات مايشاء ، فى ملابسات خاصة ، وأحوال مقصودة . فأحيانا يسمعه مالا يسمع غيره كما وقع لموسى ، ومرة يقدره على مالم يقدر عليه سواه كما حدث من إبراء الأكمه لعيسى ، وآونة يطلعه من غيبه على مالم يطلع عليه غيره ، كما أخبر محمدا صلى الله عليه وسلم بكثير من الغيوب

أنواع المعجزات :

ومعجزات الرسل صلوات الله عليهم فى عمومها تنقسم أقساما ، كل تقسيم باعتبار خاص : فهى تارة تنقسم إلى عقلية معنوية كالقرآن ، أو حسية كفلق البحر ، وإخراج الناقة من الصخر . وتارة تنقسم إلى مايكون من نوع قدرة البشر ، وفى نطاق شأو الخلق ، ولكن الله يصرفهم ، ويوقف قدرتهم ، كصرف المشركين عن تمنى الموت ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ وإلى مايكون خارجا عن قدرة البشر ، كوقوع النار بردا وسلاما على إبراهيم ، وكانقلاب العصا حية لموسى .

ومرة تنقسم إلى مايكون فى الجهات العلوية كما حصل من انشقاق القمر لمحمد ، ورد الشمس ليوشع ؛ وإلى مايكون فى الجهات الأرضية كنبع الماء من بين أصابع محمد ، وكتكليم الشجر له ، وتسبيح الحصى بين يديه .

خصائص محمد من بين الأنبياء :

والأنبياء يختلفون كثرة وقلة فى ظهور هذه المعجزات ، وخوارق العادات بحسب أحوالهم ، وطبيعة أزمانهم ، وأحوال أممهم وشعوبهم ، فبعضهم لانعلم له إلا معجزة واحدة كصالح وهود ، وبعضهم كان له أكثر من معجزة كعيسى وموسى ، ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم كان أكثر الأنبياء معجزات ، وأظهرهم آيات ، وأوضحهم خوارق عادات . اشتملت معجزاته على المعقول والمحسوس ، والعلوى والسفلى ، والناطق والصامت ، والمتحرك والساكن ، فمنها معجزات ذهبت بذهاب زمانها ، ومنها معجزات ظلت على وجه الدهر

ساطعة بنورها وبرهانها ؛ ذلك لأنه صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء ، ورسالته هي خاتمة الرسالات ، وهي الباقية على وجه الأرض ، حتى تبدل الأرض غير الأرض والسماوات

ومعجزاته صلى الله عليه وسلم لا يحيط بها ضبط ، ولا يحدها إحصاء ، بعضها نقل إلينا متواترا ، وعلم لنا قطعا كالقرآن ؛ فقد وصل إلينا بطرق لا يستطيع الشك أن يدخلها ، ولا يمكن للريب أن يأخذ سبيله إليها . وبعضها رواه العدد ، وشاع به الخبر ، وتناقله المحدثون والرواة ، وحمله نقلة السير والأخبار ، ولا سبيل إلى الشك في هذه الآيات ، أو الطعن في صحة تلك المعجزات البينات ، إذ كان وقوعها على ملإ من الناس في الغزوات والمجالس ، وفي مجامع العساكر والمحافل ، رواها الرواة ، وعلم بها صحابة رسول الله ، ولم يؤثر عن واحد منهم أنه خالف الراوي فيما رواه ، أو أنكر عليه ما حكاه ، وهم المنزهون بالسكوت على الباطل ، أو الإغضاء على الكذب ، ولا سيما في كل ما يمس رسول الله ، أو يلامس أحواله ، أو يلابس أعماله وأقواله ، فسكوت الساكت منهم كنطق الصامت ؛ فلا وزن لمن يداخله الريب في معجزاته ، ولا قدر لمن يحاول أن يطمس شيئا من آياته

ما ضر شمس الضحى في الأفق طالعة ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

دلائل للرسول تقوم مقام المعجزات :

وعلى أنه صلى الله عليه وسلم قد انفرد من بين الرسل بدلائل على نبوته كانت تقوم مقام المعجزات ، كتبشير الأنبياء به قبل بعثه في كتب الله المنزله وعلى ألسنة رسله البررة ، وإن أنكره الأحبار ، وحرفه الرهبان ﴿ الذين

يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ وكما كان يلوح من سماحة وجهه ، وكمال خلقه ، ما يدنيه من الصدق ، وينئيه عن الافتراء قال عبد الله بن سلام : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جئته لأنظر إليه ، فلما رأيت وجهه عرفت أنه ليس وجه كذاب . وكما ظهر من حسن سيرته ، وكمال نحيزته ، وانسجام طبعه ، ورجاحة عقله ما يدفع إلى الإيمان به ، ويرغب فى تصديق ما يدعو إليه . جاء فى خبر الجلندى ملك عمان لما بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام ، قال الجلندى : والله لقد دلنى على هذا النبي الأمى أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له ، وأنه يَغلب فلا يبطر ، ويُغلب فلا يضجر ، ويفى بالعهد ، وينجز الموعود ، وأشهد أنه نبى ، فإنه قد تفرد أيضا فى رسالاته بمعجزات ، وتميز عنهم بعلامات .

وإنا لنورد عليك غيضا من فيض وقلا من كثر ، على مقدار ما تستضىء به جوانب نفسك ، وندخل به بشاشة الإيمان واليقين على قلبك ، وحسبك من الزاد ما بلغك المحل .

معجزاته صلى الله عليه وسلم

القرآن :

ارتفع مقامه صلى الله عليه وسلم بهذه المعجزة ، واختص بهذه الآية ؛ الجديدة على وجه الزمان ، الباقية على كر الأيام ، اختارها له جل شأنه ليظل بها الدليل قائما ، والإعجاز مستمرا ، إذ كانت رسالة محمد هى الباقية وشريعته هى الخالدة . فعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مامن الأنبياء نبي إلا وقد أعطى من الآيات مامثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » وتوضيحه أن الأنبياء عليهم السلام كل منهم قد أوتى من الحجج والدلائل على صدقه ، وصحة ماجاء به عن ربه ، مافيه كفاية وحجة لقومه الذين بعث إليهم ، سواء الذين آمنوا به ففازوا بثوابهم ، أو جحدوا فاستحقوا عقوبة كفرانهم ، وإنما كان كل الذى أوتيت أى جله وأعظمه الوحي الذى أوحاه الله إليه ؛ وهو القرآن الحجة المستمرة القائمة فى زمانه وبعده ، فإن البراهين التى كانت للأنبياء قد انقرض زمانها ، وفات أوانها ، ولم تبق إلا أخبارها والحكايات عنها .

وقد أسلفنا من الكلام فى وجوه إعجاز القرآن مافيه مقنع .

وقد كانت هذه المعجزة الخالدة العجيبة ، كافية للدلالة على صدقه ، وشاهدة على صحة رسالته . ولكن الله عززها بمعجزات غيرها حسية ، ليزيد فى إيمان المؤمن ، ويدحض من حجة الجاحد ، ويفل من غرب المعاند .

انشقاق القمر :

طلب الوليد بن المغيرة ، وأبو جهل والعاص بن وائل ، والعاص بن هاشم ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن عبد المطلب ؛ من المصطفى «صلى الله عليه وسلم» آية . فانشق القمر فرقتين ، فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم : « اشهدوا » قال بعضهم : رأيت الجبل بين فرجتى القمر . قال كفار قريش حين رأوا هذه الآية : سحركم ابن أبى كبشة ، فقال رجل منهم : إن كان محمد سحر القمر فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحر الأرض كلها فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر ، هل رأوا هذا ؟ فأتوا فسألوهم ، فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك ، فقالوا هـذا سحر مستمر ، فأوحى الله إلى محمد ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ، وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ .

تيسير المـاء لقومه على يديه :

ا ـــ عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه ركوة ، فتوضأ منها وأقبل الناس نحوه ، وقالوا ليس عندنا ماء إلا ما فى ركوتك فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده فى الركوة فجعل المـاء يفور من بين أصابعه ، كأمثال العيون ، فشرب القوم ، وتوضئوا ، وكانوا ألفا وخمسمائة .

ب ـــ أصاب الناس شدة من العطش فى جيش العسرة ، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيشرب عصير فرثه من فرط العطش ، فرغب أبو بكر فى الدعاء إليه ، فرفع يديه بالدعاء ، فلم ترجعا حتى أتت السماء من أديمها بمـا لا يحصر ، فشربوا وارتووا ، وملئوا ما معهم من الآنية .

ج — أصابت الناس مخمصة فى بعض مغازيه ، فجمع من الأزواد ماربضة العنز توازيه ، ثم دعا الناس بأوعيتهم الخلية ، فلم يبق فى الجيش وعاء إلا ملىء وبقيت بقيته .

تكثيره للأطعمة :

ا — قال أبو هريرة : والله إن كنت لأعتمد بكبدى على الأرض من الجوع ، وإن كنت لأشد الحجر على بطنى من الجوع ، ولقد قعدت يوما على طريقهم الذى يخرجون منه ، فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله عز وجل ، ماسألته إلا ليستتبعنى فلم يفعل ، فمر عمر رضى الله عنه فسألته عن آية من كتاب الله ماسألته إلا ليستتبعنى فلم يفعل ، فمر أبو القاسم صلى الله عليه وسلم فعرف مافى وجهى ومافى نفسى ، فقال : أباهريرة ، قلت له : لبيك يارسول الله ، فقال : الحق . فأستاذنت ، فأذن لى ، فوجدت لبنا فى قدح ، قال : من أين لكم هذا اللبن ؟ فقالوا : أهداه لنا فلان أو آل فلان ، قال : أباهريرة ، قلت : لبيك يارسول الله ، قال : انطلق إلى أهل الصفة فادعهم لى ، قال : وأهل الصفة أضياف الإسلام لم يأووا إلى أهل ولا مال . إذا جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم هدية أصاب منها وبعث إليهم منها . وإذا جاءته الصدقة أرسل بها إليهم ، ولم يصب منها شيئا ، قال : وأحزننى ذلك ، وكنت أرجو أن أصيب من اللبن شربة أتغذى بها بقية يومى وليلتى ، وقلت : أنا الرسول ، فإذا جاء القوم كنت أنا الذى أعطيهم ، وقلت مايبقى لى من هذا اللبن ، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد ، فانطلقت فدعوتهم ، فأقبلوا ، فاستأذنوا فأذن لهم ، وأخذوا مجالسهم من البيت . ثم قال : أباهريرة ، خذ فأعطهم ، فأخذت القدح فجعلت أعطيهم ، فيأخذ الرجل

القدح فيشرب حتى يروى ، ثم يرد القدح ، حتى أتيت على آخرهم ، ودفعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ القدح فوضعه فى يده ، وبقى فيه فضله ، ثم رفع رأسه ونظر إلى وتبسم ، وقال: أباهريرة، فقلت: لبيك يارسول الله ، قال : بقيت أنا وأنت ، فقلت : صدقت يارسول الله ، قال: فاقعد فاشرب ، قال فقعدت فشربت ، ثم قال لى: اشرب ، فشربت ، فما زال يقول لى: اشرب ، فأشرب حتى قلت : لا والذى بعثك بالحق ، ما أجد له فى مسلكا ، قال : ناولنى القدح ، فرددت إليه القدح ، فشرب من الفضلة

ب — أتى أبو طلحة رضى الله عنه بمدين من شعير ، فأمر به فصنع طعاما ، ثم قال لأنس بن مالك : يا أنس ، انطلق فائت رسول الله صلى الله عليه وسلم فادعه ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عنده ، فقال : إن أبا طلحة يدعوك إلى طعامه ، فقام ، وقال للناس قوموا ، فقاموا وأنس يمشى بين أيديهم حتى دخلوا على أبى طلحة ، فلما رآهم قال لأنس : فضحتنا ! قال : إنى لم أستطع أن أرد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره ، فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : اقعدوا ، ودخل عاشر عشرة ، فلما دخل وأتى بالطعام أكل وأكل معه القوم حتى شبعوا ، ثم قال لهم : قوموا ، وليدخل عشرة مكانكم ، حتى دخل القوم كلهم وأكلوا ، وفضل لأهل البيت ما أشبعهم ، وكانوا نيفا وثمانين

شفاؤه لبعض الأمراض

ا — أصيبت عين قتادة يوم أحد ، حتى وقعت على وجنته ، فردها صلى الله عليه وسلم

ب — رمدت عينا على يوم خيبر ، فنفث فيهما فأصبح رمده كأن لم يكن شيئا يذكر .

ج — انكسرت ساق ابن الحكم يوم بدر ، فنفث عليها ، فبرأ لوقته ، ولم يحصل له ألم .

انقياد الشجر له :

ا — دنا أعرابيّ من النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال ياأعرابي : أين تريد ؟ فقال : إلى أهلي ، قال : هل لك إلى خير ؟ قال : وماهو ؟ قال : تشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، قال : من يشهد لك على ماتقول ؟ قال : هذه الشجرة ، وهي بشاطئ الوادي ، فأقبلت تخد الأرض حتى قامت بين يديه ، فاستشهدها ثلاثا ، فشهدت أنه كما قال ، ثم رجعت إلى مكانها .

ب — كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقوم على جذع ، فلما صنع له المنبر ، وقام عليه ، سمع لذلك الجذع صوت كصوت العشار ، حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم ، فوضع يده عليه فسكت .

سقوط الأصنام بإشارة من قضيب كان في يده :

كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما ، أرجلها مثبتة بالرصاص في الحجارة تثبيتاً محكما ؛ فلما دخل عام الفتح إلى المسجد الحرام ، جعل يشير بقضيب في يده إلى تلك الأصنام ، فوقعت لوجوهها وظهورها حسب إشارته .

استجابة الله لدعواته :

ا — دعا لأنس بالبركة ، وتكثير الولد والمال ، فلم يعلم أحد نال من كثرة الولد ورخاء العيش مانال .

ب — قال للنابغة الجعدي : لا يفضض الله فاك ، فأدرك بدعائه غاية تعلو على الأفلاك ، وعُمِّر وكان أحسن الناس ثغرا ، كلما سقطت له سن نبتت له أخرى .

جـ ـ دعا لابن عباس بالتفقه فى الدين وعظم التأويل ، فكان بعد يسمى حبر الأمة

د ـ ودعا على كسرى بتمزيق ملكه ، فتمزق . وتشتت شمل ذريته وتفرق

الإسراء والمعراج

خليق بنا أن نختتم بحث المعجزات بكلمة [1] فى الإسراء والمعراج :

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله . وعلى آله وأصحابه .

إن الناس اليوم يقدسون عقولهم ، ويسيرون وراء مايمليه عليهم علمهم القاصر ، ونظرهم الضعيف . وكل من سار وراء عقله ، ووزن كل ماجاء عن الرسول بميزان فكره ، قلما يؤمن إيمانا صحيحا . فإذا راقك من العقل مايشقشق به فى بعض الأحيان ، لم يلبث أن يسوءك منه مايهذى به فى وقت آخر . ولا غرو فالجهل حليف الإنسان ، والضعف لازم من لوازم البشرية ، وقصور العلم من صفاتها الذاتية ، وأعراضها اللازمة . وكل من لم يصدق إلا بما وصل إليه عقله ، وبلغته حدود علمه ، ليس مؤمنا بالرسول على الحقيقة ، وإنما هو مؤمن بعقله .

وما جاءت الرسل إلا لتخبرنا بما وراء الطبيعة ، مما لم تصل إليه العقول التى لا تستمد معلوماتها إلا من المحسوسات ، وماتنتزعه منها من المعقولات الثانية ، مما هو راجع إليها ومتوقف عليها . ومقدورات الله لانهاية لها ، وعوالمه لاحد لها ، ولكل عالم قانون يخصه .

فمن الخطأ البين الحكم على عالم من العوالم بأحكام عالم آخر . وإذا كنا نرى

(١) هذه الكلمة القيمة لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ يوسف الدجوى

من بعض أنواع الحيوان مالا يعيش إلا فى الماء، ومن بعضها مالو مكث فى البحر لمات، ومن بعضها مايقتله «ثانى أوكسيد الكربون» كالإنسان، ومنها مايقتله «الأوكسيچين» ككثير من الحيوانات الدنيا — ولعلنا كنا لانصدق ذلك قياسا على أنفسنا، لولا مشاهدتنا إياه — فكيف بما لم نقف له على عين ولا أثر من العوالم الأخرى التى تحس والتى لاتحس!

وإنى لأعجب لهم كيف يتبجحون، ويحكمون فى كل الأشياء بالأحكام الجازمة. اعتمادا على بضع قوانين وصلوا إلى ظواهرها من قوانين هذا الكون التى لايحصيها إلا الله، ولايدرى كنهها غير مبدعها الذى لاحدّ لقدرته، ولانهاية لعلمه!

وليت شعرى بعد ذلك كله، أى عقل نحكمه فيما ورد عن الشارع؟ أهو عقل الأفراد أم عقل الجماعات؟ وماهو الضابط إذا اختلفت العقول، وليس هناك نوع من الأنواع وقع التفاوت بين أفراده مثل نوع الإنسان، الذى هو مظهر المتناقضات، ومجمع العجائب والغرائب، وقد خاطب الله الخلق جميعا بقوله «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» ويقول فى حق الإنسان: «إنه كان ظلوما جهولا»؟

وإننا لنرى فى تخبطه وتناقضه، وارتباكه فى أحواله، واضطرابه فى أعماله، الدليل الساطع على أنه مخلوق من الطيش والجهالة، والعجز والقصور. فعلام تلك الكبرياء؛ وهو من الضعف بحيث يرثى له، ويشفق عليه!

الموضـــــوع

لايستند هؤلاء المنكرون إلا إلى الاستبعاد العقلى، وقياس الغائب على الشاهد، وإرجاع مالم يعلموا إلى ماعلموا. والجاهل لايعرف قدر نفسه،

ولا قدر العلم ، ويعتقد أن كل ماخرج عن دائرة علمه فى دائرة العدم . «بل كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ولمَّا يأتهم تأويله » ومن الغريب الذى يؤسف له ، أنهم إذا سمعوا أن بعض الأوربيين يريد الوصول إلى القمر ، ويفكر فى إعداد العدة لذلك ، لم يتحرك منهم ساكن ، بل ربما انتصروا لما سمعوا وقالوا : إن العلم يلد العجائب ، والاكتشاف يأتى بالغرائب . ولكنهم إذا سمعوا أن الرسول عرج به إلى السماء ، قامت قيامتهم ، وهدرت شقاشقهم ، وظهر كل مافى نفوسهم الضعيفة من خبث وإلحاد .

وسنتكلم معهم بما يخضعون له إذا سمعوه عن سادتهم الأوربيين ، الذين لم يعلموا علمهم ، ولا أحسنوا محاكاتهم

أما الكلام من الجهة النقلية ، فأظنه لايعنيهم كثيرا ، ولا يقنعهم كثيرا أو قليلا . ومع هذا فسنقول فيه كلمة موجزة ، من أجل الفريق الثانى الذى ينتسب إلى العلم ، ولا يمكنه الخروج عن الكتاب والسنة ، ولكنه يؤوّل ويحرّف اغترارا ببعض الروايات ، وإجابة لنزعة عنده ، وعقيدة لديه لا تبعد كثيرا عن عقيدة المادّيين ؛ وإن كان مذبذبا بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . فنقول :

إن من قال : إن الإسراء بالروح ، تمسك ببعض روايات مطعون فيها ، كرواية عائشة (رضى الله عنها) التى ردّها الحفاظ ، وقالوا : إنها غير صحيحة من وجوه عدة ، لا نطيل بها الكلام . وكرواية شريك بن أبى نمر ، التى طعن فيها الحفاظ بما يطول شرحه ، وليس غرضنا إلا أن نشير إلى ذلك إشارة خفيفة ، يعرفها ذلك الفريق من الشيوخ المتفيهقين . والعالم كل العالم من لا يتأثر بكل ما رآه ، أو يهوّش بكل ما رُوى . بل العالم كل العالم من

من لا يتأثر بكل ما رآه، أو يهوش بكل ما روى . بل العالم كل العالم من يعرف المقبول والمردود ، والصحيح والضعيف ، ويجمع بين الروايات المختلفة إذا أمكن الجمع ، ويرجح الراجح ويسقط المرجوح إذا تعذر التوفيق .

وما أدرى كيف يقبل الذوق السليم أن الإسراء كان بالروح ، بعد قول الله (تعالى) : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ، لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ !

فها أنت ذا ، ترى الآية الكريمة قد افتتحت بسبحان المشعر باستعظام ما كان من الأمر ، والتعجيب منه لجلاله . وذلك اللفظ لا يصح موقعه ، ولا يتناسب وبلاغة القرآن الحكيم ، إلا إذا كان الأمر غير معهود ، ولا مقدور لأحد من البشر

ولو كان الإسراء بالروح فقط ، لم يكن ثمة ما يقتضى هذا الاستعظام وذلك التعجيب ، إذ لا خطورة فى إراءة النبى (صلى الله عليه وسلم) آيات ربه فى نومه ، فإن هذا أمر يقع لكل أحد ، بل قد يرى الإنسان فى نومه رب العزة الذى هو أكبر من كل شىء . وإنما يظهر وجه الاستعظام والتعجيب لو قلنا : إن ذلك الإسراء كان بالجسد والروح ، كما هو ظاهر لكل ذى فطرة طاهرة وعقل سليم .

ثم تراه يقول : أسرى ، وهو لا يقال فى النوم كما قال القاضى عياض ، لأن ما يقع فى النوم ، إنما هو تخييل وضرب مثل لا غير . ولا يحسن أن يعبر عن ذلك بأنه أسرى به ، وإنما يحسن ذلك إذا أسرى به ليلا إسراء حسيا على ما هو معهود ومعروف .

ثم يقول : بعبده ، وهو نص قاطع فى الموضوع ؛ لأن العبد لا يطلق فيما

تعرفه العرب، إلا على الشخص المكون من الروح والجسد. ولم يعهد فى لغة العرب إطلاقه على الروح فقط، فهم لا يعرفون من العبد إلا الشخص المحسوس المنظور. كما فى قوله (تعالى) ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾؟ وقوله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾، إلى غير ذلك،

ثم يقول: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ ويقول فى سورة النجم ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى، إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى، مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى. لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾.

ولا شك عند من له ذوق سليم، أن هذه الآيات الكريمة تدل على أن النبى (صلى الله عليه وسلم) أسرى به إلى بيت المقدس، وأنه عرج به إلى السموات العلى بجسمه وروحه، وأنه رأى جبريل عند سدرة المنتهى، وأنه رأى من آيات ربه الكبرى.

وإنى أستحلفك بعلمك وذوقك وإنصافك، أن تنظر معى إلى قوله: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى!﴾ ثم قل لى بعد ذلك ماذا ترى. أفيسهل عليك أن تسلم أن المراء والجدال كانا فى رؤيا منامية؟ وهل يكون فى رؤيا الروح وحدها فى النوم جحود ومجادلة؟ وهل لذلك وقع عند القائل والسامع، حتى تذكر فيه تلك الآيات، وتحصل به تلك المجادلات، وينوه بشأنه فى القرآن هذا التنويه العظيم؟ وهل عهد مثل ذلك فى الرؤى المنامية؟ وهل

ينكرون على أنفسهم ذلك ، حتى ينكروه عليه (صلى الله عليه وسلم) ؟

لاشك أن مناكرتهم ومجادلتهم ، ما كانت إلا لعلمهم أنه يدعى أن ذلك كان يقظة لانوما ؛ فهذا محل الاستبعاد والاستنكار ، لأنه غير معهود لديهم ، ولا هو فى متناول قدرتهم .

أما أحلام الأرواح ، فيجوز أن تقع لكل امرئ حتى المشركين أنفسهم وهل ينكر الله عليهم إنكارهم بقوله : ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ !﴾ ويقرعهم على مجادلتهم بالباطل ، ويقسم أن صاحبهم ما ضل وما غوى ، ويقول : إنه رأى ، ولا يليق أن تماروه فيما رآه ـ هل يكون كل ذلك لرؤيا منامية ؟ وهل يقول المنكر : إن رؤيا جبريل فى المرة الأولى التى جاءت فى الحديث الصحيح — حين رآه (صلى الله عليه وسلم) بحراء على صورته التى خلقه الله عليها قد سد الأفق — كانت حلما أيضا ؟ أم يفرق بينهما ، والقرآن لم يفرق ، وجعل الرؤية فى المرة الأخرى عند سدرة المنتهى ، كالرؤية الأولى فى الأرض ؟

وهل يقال ذلك إذا كانت إحدى الرؤيتين يقظة والأخرى حلما ؟ وهل يحسن أن تجعل الضمير فى قوله (تعالى) : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ لروح النبى دون جسده ، وتغاير بينه وبين ما قبله وما بعده من الضمائر العائدة على شخصه (صلى الله عليه وسلم) لا على روحه فقط ؟ وهل يسهل عليك أن تقول : إنها رؤيا منامية ، مع قوله تعالى : ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ ؟ وهل يقال ذلك فى أحلام النائمين ؟ اللهم إن ذلك لا يقوله إلا الواهمون وهل يقال فى الرؤيا المنامية : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾

ومتى كانت رؤيا المنام فتنة لأحد ، فإن كل إنسان يرى بروحه ماشاء الله أن يرى من الكون . فما وجه الافتتان وما معناه ؟

وأما التشبث بلفظ الرؤيا دون الرؤية ، فقد رده أهل اللغة ، واستشهدوا عليه بقول الشاعر : « ورؤياك أحلى فى المنام من الغمض »

على أنه جاء فى القصة ماهو قاطع فى الموضوع ، فإن النبى (صلى الله عليه وسلم) لما أخبرهم بذلك هاج هائجهم ، وقامت قيامتهم ، فمنهم الواضع يده على رأسه تعجبا ، ومنهم المصفق ، ومنهم القائل له : لقد كان أمرك أمماً (أى قريبا) قبل هذا . حتى ورد أنه ارتد بعض من كان قد دخل فى الإسلام . فهل ترى (أيدك الله) أن ذلك كله كان من أجل رؤيا منامية ؟

بل فى القصة ماهو أكثر من هذا . وهو أنهم سألوا النبى (صلى الله عليه وسلم) عن عيرهم التى كانت فيها تجارتهم ، فأجابهم (صلى الله عليه وسلم) بأنه مر بها وقد ند منها بعير فانكسر ، وأنه مر بعير أخرى قد ضلوا ناقة لهم ، وكان معهم قدح من الماء ، فشربه (صلى الله عليه وسلم) . وقد سألوهم عندما قدموا مكة ، فصدقوا ذلك كله ، وفى القصة أكثر من هذا .

فهل ترى أن الروح شربت الماء من القدح ؟ وهل يمكننا أن نقبل أنهم يسألونه عن عيرهم ، وعن بيت المقدس وأبوابه وكل مايتعلق به ، إذا كانت الرؤيا منامية ؟ وأى علاقة بين رؤيا المنام وبين عيرهم التى تجىء من الشام ؟

ولا نزال نقول : أى معنى لقصة قدح الماء ، إذا كانت الرؤيا منامية ؟ وأظن أن هذا القدر كاف للمنصف . ولو شئنا لأطلنا .

الفريق الأول الذى يتمسك بالشبه العقلية

يقول هذا الفريق : إنه يستحيل العروج إلى السماء ، لأن بيننا وبينها كرة نارية ، كما قرره الفلاسفة الأقدمون . ونقول لهم : إن ذلك خيال لم يقم عليه برهان . وفلاسفة العصر الحاضر ينفون ذلك نفيا باتا . فهذا كاف فى إسقاط ذلك الزعم . وستسمع عنه جوابا آخر مشتركا دافعا للشبه كلها .

ويقول الفلاسفة المحدثون فى استحالة ذلك : إن الهواء يرتفع عن الأرض بضعة آلاف من الأمتار ، فإذا وصل الإنسان إلى ذلك الحد لا يمكنه أن يبقى ، لأنه لا يجد من الهواء ما يتنفس به ، فلابد أن يموت : وقد وصلوا بطائراتهم إلى ما يقرب من هذا الحد فخرج الدم منهم بهيئة منكرة ، لنقص الضغط الجوى هناك .

ونقول فى دفع هذه الشبهة إن ذلك مسلَّم لانمارى فيه ؛ ولكن هناك قوانين أخر لايعرفها الماديون ، ومحال أن يصل اليها الطبيعيون . ذلك أن الأرواح الإنسانية : من عالم آخر ، لاتسرى عليه قوانين هذا العالم . فإذا غلبت على الإنسان روحانيته ، كان الحكم للروح لا للجسد ؛ وكانت القوانين السائدة عليه هي القوانين الروحانية لا الجسمية . ومتى ساد سلطانُ الروح سلطان البدن ، كان الحكم للروح لا للبدن ؛ فيمكنه أن يطوى المسافات البعيدة فى لحظة قصيرة ، وأن يرى المغيبات على حد محدود ، وأن يخترق الجدران ويقتحم المهالك من غير أن يحصل له ضرر أو يلحقه ألم . ومن هنا جاءت كرامات الأولياء

وإذا كنا نصدق ذلك فى الجن . وأرواح النوع الإنسانى ألطف وأقوى

نفوذا وأشدّ قربا من الملأ الأعلى؛ فلماذا نستبعد ذلك على خواص البشر الذين غُلبت عليهم الروحانية، حتى صاروا كأنهم من الملأ الأعلى، وبذلك تنخرق لهم العادات، ولا تحكم عليهم قوانين المادة!

براهين عصرية على ذلك

وما لنا نذكر كرامات الأولياء، أو معجزات الأنبياء، وبعض المحدثين لا يقنعون بذلك، ولعلهم يعدّونه من الخرافات والترهات. فلنسق لك ما هو أقرب إلى إقناعهم، وأليق باستعدادهم، فنقول:

قد ثبت ثبوتا لا شك فيه، أن المنوَّم تنويما مغناطيسيا يسأل عما فى البلاد البعيدة، فيجيب إجابات صحيحة. فهل يمكن تعليل ذلك تعليلا ماديا؟

وقالوا: إن المنوَّم إذا أمر المنوِّم أن يخوض النار، وأفهمه أنها ليست نارا خاضها ولم تؤثر فيه؛ لأنه تحت سلطان الروح فله حكمها، والأرواح لا تؤثر فيها النيران، ولا تحكم عليها هذه القوانين؛ فإن سلطان الروح فوق سلطان المادة

وقد قالوا: إنهم جاءوا للمنوَّم بالنوشادر المركز، الذى إذا شمه أحد مات لوقته، فلم يؤثر فيه أدنى تأثير. فقام بعض الأطباء وقال: إن ذلك غشّ وخداع، وأخذ النوشادر وشمه فخر ميتا وأعاجيب التنويم المغناطيسى أصبحت لمس اليد ورأى العين، وسرها ما ذكرنا من أن سلطان الروح فوق سلطان المادة

وإذا ثبت هذا، فلتعلم أن النبي (صلى الله عليه وسلم) عند العروج كان على غاية ما يكون من الروحانية، بل كانت روحانيته إذ ذاك فوق روحانية جبريل (عليه السلام) وقد ورد أن جبريل تأخر عنه بعد سدرة المنتهى، وقال له لو تقدمت أنملة لاحترقت.

فإذا وصل النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى ذلك الحد الذى يتخلخل فيه الهواء أو ينقطع كل الانقطاع ، وقد غلبت عليه الروحانية من كل جهاته ، لم يكن لذلك تأثير فيه ولاضرر عليه لما قررناه .

ويمكننا أن نستشهد على ذلك بما أصبح معروفا لا ينكر ، وهو أن بعض الهنود يوضع فى صندوق باختياره ، أو يدفن فى موضع من الأرض عشرين يوما وثلاثين وأكثر من ذلك ، ثم يُخرج ويُعمل له مايرجعه إلى حسه ، ولا تفارقه الحياة ، مع أنه لم يتنفس ألبتة طول تلك المدة . فكيف ينكر مثل ذلك على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو سيد الروحانيين ؛ وأفضل الخلق أجمعين !

وهذا تنزل يقتضيه الحال ، وقوانين الجدال . وإلا فلست أدرى كيف يقيسون عالم الملكوت على عالم الملك ، وأحكام الأرواح على أحكام الأشباح ! مع أنهم لم يتقنوا علومهم المادّية ، وكثيرا ماتخبطوا فيها فنقضوا ماأبرموا ، وهو شأن هذا النوع الضعيف ، منذ خلقه الله إلى أن تقوم الساعة

ولقد أقام العالم ثمانية عشر قرنا يدين بنظرية بطليموس صاحب كتاب الماجسطى فى الأرض والشمس ودورتيهما ، وغير ذلك من النظريات الفلكية ؛ حتى جاء دور الانقلاب العلمى فى القرن السادس عشر ، ونادى العلامتان كوبرنيق وكيلر الألمانيان ، والبحاثة غاليليو الإيطالى بعكس نظرية السابقين ، وأثبتوا فرضا مخالفا لفروضهم . ثم جاء إينشتين فى عصرنا هذا ، فرد عليهم ، وقلب نظرياتهم رأسا على عقب ، ولاندرى ، ماذا يجيء به الغد . وقد بين ذلك رئيس وزراء انجلترا المسيو بلفوره ، منذ زمان بعيد ، حين رأس مجمع ترقى العلوم البريطانية ، بمدرسة كمبردج فى شهر أغسطس سنة ١٩٠٤ وأطال فى ذلك حتى قضى به على معرفة كنه المادة ، وأن منتهى علمها

مبتدأ جهلها ، كما يقول الشاعر العربى :

كأن الحب دائرة بقلبي فحيث الإبتداء الإنتهاء

الخلاصة

والخلاصة أن الإسراء لو كان حُلُما ما كانت فيه آية ولا معجزة ، ولا استبعده الكفار ، ولا كذبوه فيه ، ولا ارتد به ضعفاء الإيمان ؛ إذ مثل هذا من الأحلام لا ينكر : ويؤكد ذلك مجيء جبريل له بالبراق . وخبر المعراج واستفتاح السماء فيقال : ومن معك ؟ فيقول : محمد ، ولقاؤه الأنبياء فيها وترحيبهم به ، وخطبهم فى بيت المقدس ورده عليهم ، وصلاتهم وراءه ، وتعيين محل كل واحد منهم والإخبار عنه بخبر خاص ، وحديث فرض الصلاة ومراجعة موسى فى ذلك ، وقوله : ثم عرج بى حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام . وأنه وصل إلى سدرة المنتهى ، إلى غير ذلك مما جاء فى القصة

وهل عهد مثل ذلك فى رؤيا المنام وهل يقال فى رؤيا المنام : ﴿مَازَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ ؟ أو ينوه بشأنها هذا التنويه كله ؟ وهل يحسن أن يكون فرض الصلاة وهى عماد الإسلام فى النوم ، مع أن غيرها فرض فى اليقظة ؟

ولست أفهم إلا أن هذا إنكار لقدرة الله ؛ وإذا فتش عن إيمان ذلك المنكر ، وجد ضعيفا به خلل ، وفيه دخل

وما أدرى ماذا يصنع فى مثل قوله (تعالى) ﴿قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ وقوله ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ، كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى ، وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ، لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وقوله ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً

مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا . ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ إلى غير ذلك من الآيات والمعجزات

وإن الإيمان بذلك كله ، سهل لدى من يعتقد أن الله على كل شيء قدير ، وأننا ماأوتينا من العلم إلا قليلا.

ولنرجع إلى الموضوع ، فنقول بالاختصار :

لو كان حلما لم يكن فيه آية ، مع أن الله يقول : ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ ولو كان فى النوم عند عائشة (رضى الله عنها) ، كما يزعمه بعضهم ، لما أنكرت رؤيته (صلى الله عليه وسلم) ربه ؛ فهى لم تنكرها إلا لفهمها أن ذلك كان يقظة لا نوما ، لأن رؤيا المنام لا تنكر من عائشة ولا من غيرها .

وبعد ، فقد عرج به (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ليستبين بذلك العروج ، أن مقامه فوق مقامات الأنبياء ، إذ ارتفع عليهم جميعا ، حتى سمع صريف الأقلام ، وكانت مناجاته فوق السموات العلا ، على غير ميعاد ولا رياضة سابقة ؛ لكمال استعداده (صلى الله عليه وسلم) ليعلم مابينه وبين غيره من الفرق فى التقريب والاصطفاء .

وكأن العلو الحسى مستتبع للعلو المعنوى ، فكلما ارتقى فى درجات السموات ومافوقها ، كان يرتقى فى درجات الروحانية والاستغراق فى جلال الله وعظمته . ولا غرو ، فالأماكن لها خصائص ومميزات . انظر إلى الكعبة وما اختصت به من الرفعة والتعظيم ونزول الرحمات والبركات ، حتى استحقت أن تسمى ببيت الله ، وحرم الله .

ولتعلم أن قصة الإسراء والمعراج ، قد وردت عن كثير من الصحابة ، عند

منهم فى المواهب اللدنية ستة وعشرون .

ولنقهر القلم على الوقوف عند هذا الحدّ ، ففيه مقنع وكفاية لمن أراد الله هدايته . أسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم ، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا ، بمنه وكرمه ؟

يوسف الدجوى

الباب السادس

محمد صلى الله عليه وسلم

أقوى الناس حجة وأوضحهم دليلا

اتفقت الأديان المنزلة على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وقد نقلها أهل الأديان التى سبقت الإسلام بما ظهر على أيدى الرسل السابقين من المعجزات التى استولت على أفئدة الناس وملكت عليهم مشاعرهم ، وكانت كلها معجزات تناسب أوقاتها ثم انقضت آثارها بانقضاء أزمانها ، ولما جاء الإسلام نوه بالعقل وأحله مكانة علية ، وبين أنه نعمة كبرى ، وأنه لابد من استخدامه ، وندب إلى تحكيمه فيما يفرض على الإنسان من المعتقدات والعبادات والمعاملات ، وأنزل فى محكم كتابه : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ﴾ ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وواضح أن الكون هو موضع النظر والاعتبار ، إذ يقول الله جلت حكمته فى كتابه الكريم :

إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يعْقِلُونَ

إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتفَكَّرُونَ

إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يعلَمُونَ

إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتقُونَ

إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ

إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ

ومن هذه الآيات يتجلى أن القرآن استصرخ العقل والفهم والتفكر والتدبر والعلم والاعتبار والتقوى والصبر، ولم يفرض على الناس معتقدات من غير دليل، ولم يستعن على تقبلهم أحكامه بخوارق العادات

حقا إن جميع الأديان قررت وجوب الإيمان بالجنة والنار، ولا يتصور دين صحيح دون الاعتقاد بهما، وقد تَقَبَّل الإنسان فى العصور الخالية قبل تقدم العلم ما وصفت به الجنة والنار، فلما برز العلم أخذ يطالب بالدليل للاطمئنان، فأحس أهل الدين بشىء من القلق، ثم أخذوا يضطهدون أهل العلم، فنشأ بينهم الصراع والكفاح، وظلوا قرونا كذلك وأهل الدين يقولون إن العلم والدين أمران مختلفان، وإن اجتمعا فى قلب إنسان فبينهما برزخ لا يبغيان، غير أن هذا القول لم يقو على صد تقدم العقل والعلم، وكان من ذلك أن الكنيسة فى الغرب اضطرت للبحث عن طريق للتوفيق بين العلم والدين، واستعانت على ذلك بالقضايا الكلامية؛ بيد أن العلم أظهر ضعفها وتزييفها، أضف إلى ذلك أن روح التسامح التى جاءت بعد هذا فَتّحت عقول الناس، وأطلقت ألسنتهم بالجهر بالحق الذى كان مطمورا فى صدورهم، والزراية بالباطل الذى لبث أزمانا يسيطر على ضمائر الناس باسم الدين؛ لذلك كان من حكمة الله ورحمته أن أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم بدين الحق لينقذ النفوس من سلطان الباطل ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾

جاء الإسلام فأحدث انقلابا فى العلوم والمعارف، فالمسلمون بشهادة التاريخ طلائع الرقى العلمى الحديث، لأن القرآن الكريم سلك فى التدليل على صلاحية ما جاء فيه لكل زمان ومكان وانطباقه على ما يرتضيه العقل السليم مَسْلَكًا جعل المشتغلين بالعلوم الطبيعية والفلكية يقتنعون بوجود الموجد

الأول القديم الباقى، وبأن البعث واقع لا محالة .

انظر كيف يتحدث القرآن عن البعث والنشور، تجد أنه وجه النظر إلى السنن الكونية التى منها استمرار الحياة والموت دون انقطاع، مقررا أن وقف الحياة طور فى مراحل التدرج حيث تختفى علائم الحياة لأجل محدود وهو مايسمى عالم البرزخ، أو مايسميه علماء الطبيعة : عدم الحركة أو السكون . والكائنات على هذا الاعتبار تختفى ثم تظهر، كما نرى فى مملكة النبات فى الفصول المتعاقبة .

يقول القرآن فى مخاطبة منكرى البعث : فى سورة قٓ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * قٓ * وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ * بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ * أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ *

(قٓ) : أمثل الأقوال فيما بدئ به بعض السور من مثل (قٓ . صٓ . نٓ) أنها حروف تنبيهات قدمت فى أول السور ليبقى السامع مقبلا على استماع مايرد عليه بعدها، فلا يفوته شىء من الكلام الرائق، والمعنى الفائق .

وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ :

هذا قسم جوابه (إنك تنذر) ووصف القرآن بالمجيد أى العظيم لأنه عظيم الفائدة أو لأنه آية العظمة والقدرة البالغة ، لأنه لم يقدر أحد على محاكاته فى شىء منه مع التحدى والتقريع ، وأقسم جل شأنه بالقرآن لأنه المعجزة الخالدة التى قام على أساسها الدين .

بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ :

أى لم يكفهم الشك فى صدق إنذاره بل جزموا بخلافه حتى جعلوه من الأمور المتعجب منها . وفى قوله تعالى « منهم » تقرير لتعجبهم حيث كانوا يقولون (أبشرا منا واحدا نتبعه) .

فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ

لما أظهروا العجب من رسالته وأنه منذر ، أتبعوا ذلك بالعجب من حصول البعث ، وقالوا (ماهذا إلا إفك مفترى)

أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ :

أى أنرجع إذا متنا وصرنا ترابا . ذلك رجوع بعيد عن الوهم أو العادة أو السلطان .

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ :

فى هذا إشارة إلى جواز البعث وأنه تعالى قادر عليه لأنه جل شانه عالم بجميع أجزاء كل واحد من الموتى لا يشتبه عليه شىء فيها ، وعالم بما تفرق منها وانحل بالتأثيرات الجوية والتفاعل الكيميائى . وقادر على جمعها وتأليفها

وإعطائها ما كان لها من الصفات والخصائص القائمة بها . يؤيد هذا قوله تعالى « وعندنا كتاب حفيظ » أي علم بتفاصيل الأشياء . والمراد تمثيل علمه تعالى بتفاصيل الأشياء ، بعلم من عنده كتاب محفوظ يطالعه .

بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ :

لما كذبوا الرسول فيما ادعاه من إمكان البعث رد عليهم بأنه صادق في دعواه وأنهم مكذبون بالحق وهو القرآن الكريم أو النبوة الثابتة بالمعجزات الصادقة .

لَمَّا جَاءَهُمْ :

أي كذبوا بالقرآن من غير تدبر له ولا تفكر فيه .

فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ :

أي مختلف مختلط ، لأنهم تارة يقولون ساحر ، وأخرى شاعر ، وطوراً كاهن

أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ

هذا دليل على إبطال قولهم « ذلك رجع بعيد » وقد طلب منهم النظر إلى السماء وهي فوق رءوسهم غير غائبة عنهم ، لأن مجرد النظر إليها كاف في إحباط دعواهم لأنه لا يحتاج إلى تدبر ولا إعمال روية . ووجه دلالة السماء على إمكان البعث وعلى إبطال دعواهم أن بناء السماء ورفعها وتزيينها بالكواكب من غير أن يكون لها فروج — أي فتوق — أكمل وأتم من بناء الإنسان وتزيينه بما منح من صفات .

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ :

هذا دليل آخر على إمكان حصول البعث وذلك أنهم كانو يقولون إنه

الإنسان إذا فارقته الحياة وفقد خاصة النمو وعاد جمادا، لا تعود إليه تلك الخاصة ثانية. فرد عليهم بأن الأرض أشد جمودا وأكثر خمودا ومع ذلك فالله تعالى ينبت فيها أنواع النبات فينمي ويزيد بقدرته: فكذلك الإنسان تعود إليه الحياة. وقد ذكر جل شأنه فيما يتعلق بالأرض ثلاثة أمور: هي المد أي البسط، وإلقاء الرواسي أي الجبال الثوابت، وإنبات الحسن الناضر من النبات. فبسط الأرض وإلقاء الرواسي وإنبات النبات فيها على ما بها من جمود وخمود أيسر منه إعادة الإنسان لأنه قابل بأصله للحياة والنمو.

تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ:

فالسماء تبصرة لأن آياتها مستمرة منصوبة فى مقابلة البصائر. والأرض تذكرة لأن آياتها متجددة فإنها تأخذ فى كل فصل من فصول السنة حالا غير حالها الأولى فآياتها متجددة مذكرة عند التناسي. والتذكرة والتبصرة إنما يكونان من العبد المنيب الراجع إلى التفكر والنظر فى الدلائل.

وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ

وهذا دليل ثالث على إمكان حصول البعث وهو النظر فيما بين السماء والأرض. وبهذا يتم الاستدلال عليه بالسماء وبالأرض وبما بينهما وهو إنزال الماء المبارك أى الكثير المنافع من السماء من فوق، وإخراج النبات من الأرض من تحت.

وهنا فى هذه الآية استدل على إمكان النشور بالنبات والأشجار التى تنمي وتزيد كنمو بدن الإنسان بعد الموت حيث يرجع الله إليه قوة النماء كما يحصل فى النبات والأشجار حين ينزل المطر فيبلل الأرض فتتغذى بما يذيبه

الماء من جسم الأرض فتنمى وتكبر .

وقد أشارت الآية الكريمة إلى ثلاثة أنواع من النبات : مايكون ثمره فاكهة فقط كبعض الأشجار ، وما يكون ثمره قوتا فقط كأكثر الزروع ؛ ومايكون ثمره قوتا وفاكهة كالنخل . ومعنى باسقات : حوامل . وقد أفرد النخل بالذكر لكثرة فوائدها .

لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ

أى منضود ومتراكم بعضه فوق بعض فى أكمامها كالزرع فى سنبله ، أى أنبتنا ذلك لرزق العباد

وأحيينا بذلك الماء النافع أرضا جدبة لا نماء فيها ولا حياة . وكما حييت هذه البلدة الميتة يكون بعثكم وخروجكم أحياء بعد موتكم .

ويقول جل وعلا فى سورة الحج :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِى الْقُبُورِ

لما حكى جل شأنه عنهم الجدل بغير علم فى إثبات الحشر والنشر فى قوله تعالى «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ» أورد الدلالة على صحة البعث من وجهين ، أولهما : الاستدلال بخلقة الحيوان ليذكرهم بأن الذى فطرهم أول مرة قادر على أن يعيدهم مرة ثانية . وقد ذكر جل شأنه من مراتب خلقة الإنسان سبعة أمور : الأولى : قوله تعالى —

فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ

والمراد خلقنا أصلكم وهو آدم أو خلقناكم من شىء يحصل من الأغذية التى تنبتها الأرض فيكون الخلق حينئذ كأنه حاصل من التراب . فيصح قوله خلقناكم من تراب . الثانية : قوله : —

ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ

والنطفة اسم لما قل من الماء ، والمراد بها ماء مخصوص ، فالله سبحانه وتعالى قد حول الأغذية الناشئة من التراب إلى ماء لطيف مع أنه لا مناسبة بينهما . الثالثة : قوله : —

ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ

والعلقة قطعة الدم الجامدة وبين الماء وبين الدم تباين شديد واختلاف الرابعة : قوله : —

ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى

والمضغة قطعة من اللحم صغيرة قدر ما يمضغ . والمراد بالمخلقة : السالمة من النقصان والعيب . وبغير المخلقة : الناقصة الخلقة ، ويتبع هذا تفاوت الناس فى

صورهم وأشكالهم وطولهم وقصرهم ، وتمامهم ونقصانهم . وبتفاوتهم فى الخلقة يتفاوتون فى المواهب والملكات أيضا ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أى أنكم إذا كنتم فى ريب من البعث فإنا أخبرناكم أنا خلقناكم من أشياء يباين حال كل منها حال سابقه لنبين لكم مايزيل عنكم الشك فى أمر بعثكم فان القادر على تحويل تلك الأشياء المتباينة من حال إلى حال لا يعجز عن إعادتكم بعد العدم ﴿وَنُقِرُّ فِى الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ المراد بهذا من يبلغه الله حد الولادة .

الخامسة : قوله : —

ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا

أى نخرج كل واحد منكم طفلا . السادسة : قوله —

ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ

الأشدّ : كمال القوة والعقل والتمييز . والمراد سهل لكم من الأمور والأسباب ماتبلغون به تمام نموكم فى الجسم والعقل ، إذ بين ولادة الطفل وبين بلوغه أشدّه حالات مختلفة . السابعة : قوله —

وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا

المعنى منكم من يتوفى وهو فى كمال قوته وتمام نموه ، ومنكم من يبلغ أرذل العمر وهو الهرم والخرف ، فيعود كما كان فى مبدإ خلقه ضعيف الجسم ناقص العقل كليل الفهم

ثانيهما : — الاستدلال بحال خلقه النبات على حصول البعث والنشور وهو قوله تعالى :

وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً

وهمودها يبسها وخلوها من النبات

فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ

أى تحركت بالنبات تحرك سرور لأن الاهتزاز لا يكون إلا حيث يكون السرور من قولهم (فلان يهتز للندى) أى يتحرك تحرك فرح وغبطة وسرور و ﴿ربت﴾ أى نمت وزادت وانتفخت

وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ

أى من كل نوع من أنواع النبات فيه نضارة وحسن وبهجة، ورتب جل شأنه على هذا خمسة أمور. أولها:

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ

أى أن حال الإنسان فى خلقته وحال النبات فى تطوره يدل على أن الله هو الحق أى الصانع. ثانيها:

وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ

فى هذا تنبيه على أنه إذا لم يكن بعيدا على الله إيجاد تلك الأشياء فى صورها المختلفة، فكيف يستبعد منه إعادة الأموات؟ ثالثها:

وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

أى أنه قادر على كل الممكنات وفى جملتها البعث والنشور. رابعها وخامسها:

وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ

لما قامت الأدلة على أن البعث ممكن وجب القطع بحصوله، لأن الله قادر

على كل الممكنات . ووجه إمكانه أن الأجسام بعد تفرقها وانحلالها قابلة للصفات التى كانت قائمة بها فى حال حياتها ، والله سبحانه وتعالى عالم بكل شىء لا يخفى عليه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ؛ وقادر على كل شىء ، فعلمه بكل شىء ، وقدرته على كل شىء يوجب القطع بحصول البعث .

ويؤيد قدرته تعالى على كل الممكنات وعلمه بكل شىء ذكر مراتب خلقه الإنسان وخلقه الحيوان فى الآية الكريمة . إذ لو انتفت عنه إحدى هاتين الصفتين لكان البعث غير ممكن وهما ثابتتان له تعالى قطعا بالحجة البينة والبرهان القاطع

وعلى هذا النحو من التدليل أشار القرآن الكريم إلى سنة الله فى إخراج النار من الخشب ليبرهن على استمرار الأشياء وبقائها فى انتقالها من طور إلى آخر أوحينما تعود سيرتها الأولى إذ يقول (فى سورة يس) : ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ . أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾

وقد أثبت العلم أن الشجر الأخضر مكون من أشعة الشمس وبعض الغازات ، ولذلك سميت الأشجار مخازن أشعة الشمس ، فاتقادها هو انفصال هذه الأشعة من الغازات التى اتحدت معها وتكونت منها الشجرة ، وهذا معناه كما قرر العلم أنك إذا أحرقت قطعة من الخشب فقد فصلت أشعة الشمس من الغازات ، ولا يضيع الإحراق شيئا من العناصر التى تكونت

منها الشجرة لا فى كمها ولا فى كيفها ، تأييدا لما هو مقرر من أن العناصر تظل سالمة فى جوهرها وإن كانت الأشكال التى تحولت إليها قد أصابها التغير والتحلل .

ولقد جرى القرآن على طريقة أنه يؤيد كل دعوى ترد فيه بالإحالة على السنن الكونية ، لأن سنة الله فيها واحدة ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

أثبت العلم أن القوى التى أودعت هذا الكون متساندة متضافرة لتحقيق مقصد واحد ، وبذلك قرر أن لهذا الكون مبدعا واحدا محجوبا عن الأبصار والعقول ، فانظر كيف سبق القرآن الكريم إلى التدليل على هذه الدعوى بطريق تطمئن إليها نفس المتعلم وغيره إذ يقول :

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلٰهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ . أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلٰهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلٰهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ . أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ أَإِلٰهٌ مَعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلٰهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللّٰهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ . بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ .

إذا كانت وظيفة الدين هى إعلام الإنسان بإلٰهه وهدايته إلى تفهم السنن الكونية والتمشى معها فأسمى وظيفة لمن نزل عليه الدين أن يشرح الحقائق التى تضمنها ذلك الدين بطريق يفقهها الناس على اختلاف ضروبهم واستعدادهم وإلا تخبطوا وضلوا وفشا فيهم الإلحاد والمروق ، ومن أجل ذلك فإن المادية فى الغرب حكمت على الدين بخلوه من كل فائدة لأن ماجاءهم لم يك مشفوعا بالدليل المنطق ، بل أوامر تعبدية لا قبل لهم بفهمها

بيد أن العناية الإلٰهية شاءت أن يكون العلم كامنا فى طيات الزمن لينقص من أطراف الإلحاد الذى طغى على العالم الغربى ، وفى الحق أن العلم ما زاد على أن تمثّل منهج القرآن الكريم فالعلم كشف فى كتاب الكون البرهانَ على وجود الإلٰه ووحدانيته ، وكتاب الله قد سبق إلى الأدلة التى جاء بها العلم ، فاتحد البرهانان على وجود الإلٰه ووحدانيته : برهان كتاب الخليقة ، وبرهان الكتاب المنزل

يقول علماء الكلام : الدليل على وجود الله أمور ثلاثة : الأول : أن كل شىء فى الكائنات بتدبير ، الثانى : أن كل شىء خلق لغرض معين ، الثالث : أن الموجودات متساندة يتمم بعضها بعضا لتحقيق السنة الإلٰهية الشاملة التى تدخل كل شىء فى الخليقة تحت قاعدة واحدة وضابط معين ، ويقرّر أهل العلم أن هذا الدليل صحيح .

وأما القرآن الكريم ، فقد أجمل هذه الأمور الثلاثة فى الآية الآتية :

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

وإذا أنعمت النظر فى هذه الآية وجدتها تشير إلى أن كل شىء بتدبير وأنه مقصود لأن تعاقب الليل والنهار يحدث التغيرات الجوية ويحدث الرياح وينشأ عن ذلك مواسم المطر والجفاف على نظام مستقر ، ومعنى هذا أن حياة الكائنات وموتها مرتبطان بسير الأرض فى مدارها ، فهل هذا كله مصادفات بحتة ؟ أليست كل هذه الأمور مرتبطة بعضها ببعض ؟ هذه كائنات كثيرة يعمل كل منها فى دائرته وفى الوقت نفسه يعاون غيره من الكائنات لتحقيق غرض واحد ، وهى مجتمعة تحي الأرض بعد موتها . هذا هو مايقوله العلم الحديث المؤيد بالتجارب فى المعامل والمراصد .

من أجل ذلك وجب على أهل الإنصاف أن يقرروا أن القرآن من عند الله ، فقد كشف هذه الأسرار الطبعية فى وقت عمت فيه الجهالة ، وطمت الخرافات ، واستولت على العقول الخزعبلات .

على أننا إذا ألقينا نظرة شاملة على مافى الكائنات ألفينا أن كل كائن مرتبط بحياتنا ، وأنها جميعها صادرة عن تدبير واحد لها غرض واحد وموجدها واحد وإلى ذلك يشير قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ . رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾

فالآية تقرر أن السموات والأرض خلقت لغرض معين

حقا إن هناك أمورا فى الكائنات لم تعرف مقاصدها بعد .

غير أن ما كشفه العقل إلى الآن قد صح البرهان على أنه ذو مقصد واضح ولنضرب مثلا : أما وقد عرفنا من طريق القرآن ومن طريق العلم أن النظام الشمسى من حيث ارتباطه بالكرة الأرضية له مقصد فى وجوده وحركته وأن كل ذرة فى عالم المادة ضرورية لبقاء هذا النظام - أمكننا من طريق القياس أن نقول : إن كل موجود فى الخليقة مسخر لمنفعتنا بأمر القوة القاهرة التى هى « الله » ؛ وانظر أيضا قوله تعالى :

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾

تصور مبلغ التقدم الذى نجنيه من إمدادنا بجميع ما نحتاج إليه وما فيه راحة لنا ؛ هل تجد سبيلا إلى إحصاء ما احتوته الخليقة من وسائل الراحة والمساعدة ؟ كلا . فليس هناك سبيل فى ذلك . إذن كيف يقال إن هذا العالم باطل لا قصد فيه ؟

وانظر إلى ما يقول القرآن الكريم فى شأن النظام الشامل فى الكون الذى يدل على أن المادة طوع إرادة القدير القاهر

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ .

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ . وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ

لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

فى هذه الآيات يتجلى أن النظام الشمسى سائر على قانون إلهى لا يتخلف وأن البرهان على ذلك هو النظام الذى تسير عليه الكواكب بحساب دقيق لا يأذن باصطدامها ، مع أن بعض هذه الكواكب غير منتظم فى سيره .

تأمل هذه الأرض فقد حدثنا العلم أنها انفصلت من المجموعة الشمسية ثم تعاقبت عليها أطوار كثيرة حتى وصلت إلى شكلها الحالى ، ثم كان من قانون الجاذبية أنها أصبحت تسير فى مدارها حول الشمس ومحورها مائل على مدارها ، فهل كان فى استطاعتها أن تسير حول الشمس على مدار تام الاستدارة؟ ولماذا كان محورها مائلا بزاوية قدرها ٢٣½ درجة ولم يكن بزاوية ٦٧½ مثلا عند التماس ؟

ولماذا لم يكن هذا المحور موازيا للمدار ؟

فإذا لم يكن وضعها الحالى مقصودا لغرض معين ، فقد كان من الممكن أن تتخذ الارض شكلا آخر .

فإذا كان قانون الجاذبية قصرها على أن تدور حول الشمس فى فلك غير تام الاستدارة ، فما هذا الذى يسمونه (نتيجة المصادفة؟) التى جعلت الأرض تدور فى مدارها ، ومحورها مائل كما وصفنا؟ أليس هذا تناقضا ؟ قانون ومصادفة ؛ ومن العجب أن قوما يلغون عقولهم ويقولون بالمصادفة ليفروا من الإيمان بالنظام الإلهى الشامل .

وصفوة القول أنه مامن مفكر ينظر فيما ذكر الله فى كتابه مما بين السماء والأرض ، إلا رأى من اتصال بعض ذلك ببعض مثل مارأى فى تدبيره نفسه ، وعرف من اتصال خلقه ؛ فيما بين ذوائب رأسه إلى أنامل قدمه . وفى ذلك أوضح آية وأبين دلالة ، على أن الذى خلقه وصنعه إله واحد لاإله معه ، ولا من شىء ابتدعه ؛ ولاعلى مثال صنعه ، فقد نرى بعيوننا ونعلم بعقولنا ، أن الله عز وجل خلق للأنام الأرض ؛ وجعلها موصولة بالخلق ، فليس يدحوها إلا لهم ، ولا يديمها إلا معهم ، وجعل ذلك الخلق متصلا بالنبت ، لايقوم إلا به ، ولا يصلح إلا عليه . وجعل ذلك النبت الذى جعله متاعا للناس ومعاشا لأنعامهم ، متصلا بالماء الذى ينزل من السماء بقدر معلوم ، لمعاش مقسوم ، فليس ينجم النبت إلا به ؛ ولا يحيا إلا عنه ، وجعل السحاب الذى يبسطه كيف يشاء متصلا بالريح المسخرة فى جو السماء تثيره من حيث لاتعلم ، وتسوقه ونحن ننظر ، كما قال عز وجل (وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ) ووصل الرياح التى يصرفها فى جو السماء بما يؤثر فى خلق الهواء من الأزمنة التى لاتثبت الهواجر إلا بثباتها ، ولا يزول عنه برد إلا بزوالها ، ولولا ذلك لظل راكدا بالحر المميت ، أو ماثلا بالبرد القاتل

ووصل الأزمنة التى جعلها متصرفة متلونة بمسير الشمس والقمر الدائبين للناس المختلفين بالليل والنهار عليهم ، وجعل مسيرهما الذى لانعرف عدد السنين إلا به ، ولامواقع الحساب إلا من قبله ، متصلا بدوران الفلك الذى فيه يسبحان ، وبه يأفلان ، ووصل سير الفلك بالسماء ، فهما للناظرين سواء ، فهذا

خلق الله عز وجل ؛ مافيه تباين ، ولا تزايل ولا تفاوت ، كما قال سبحانه وتعالى ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ ولو كان لله شريك أو معه ظهير عليه ؛ يمسك منه ما يرسل ، ويرسل منه ما يمسك ، أو يؤخر شيئا من ذلك عن وقت زمانه ، أو يعجله قبل مجيء إبانه ، لتفاوت الخلق ولتباين الصنع ، ولفسدت السموات والأرض ، ولذهب كل إله بما خلق كما قال عز وجل ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾

والعجب : كيف يصف مخلوق ربه أو يجعل معه إلها غيره ، وهو يرى فيما ذكر الله من هذه الأشياء صنعة ظاهرة وحكمة بالغة وتأليفا متفقا وتدبيرا متصلا من السماء والأرض ، لا يقوم بعضه إلا ببعض ، متجليا بين يديه ، ماثلا نصب عينيه ، يناديه إلى صانعه ، ويدله على خالقه ، ويشهد له على وحدانيته ويهديه إلى ربوبيته ، فتعالى الله عما يشركون ، أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ، حقا ما كرر هؤلاء الجاهلون بربهم الضالون عن أنفسهم في خلق الله النظر ، ولا رجعوا كما قال الله عز وجل الفكر ، ولو أعملوا فكرهم وأجادوا نظرهم ، فيما تسمع آذانهم ، وترى أبصارهم من حوادث حالات الخلق ، وعجائب طبقات الصنع ، لوجدوا في أقرب ما يرون بأعينهم من التأليف لتركيب خلقهم ، والأثر في التدبير بصنعهم ، ما يدلهم على توحيد ربهم ، ويقف بهم على انفراده بخلقهم ، فإنهم يرون في أنفسهم بأعينهم ، ويجدون بقلوبهم ، أنها مخلوقة صنعة بعد صنعة ، ومحولة طبقة عن طبقة ،

ومنقولة حالا بعد حال : سلالة من طين ، ثم نطفة من ماء مهين ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظاما كساها الله عز وجل لحما ، ونفخ فيه روحا ؛ فإذا هو خلق آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، الذى خلق فى قرار مكين — من ماء قليل ضعيف ذليل — خلقا صوره بتخطيط ، وقدره بتركيب ، وألفه بأجزاء متفقة وأعضاء متصلة ، من قدم إلى ساق إلى فخذ إلى مافوق ذلك من آيات مايعلن ، أو عجائب مايبطن ، ليعلم الجاهلون ويوقن الجاحدون أن الذى صنع ذلك وخلقه ودبره وقدره وهيأ ظاهره وباطنه إله واحد لا شريك معه ، فما أجدرنا بالنظر فى آيات الرسل وبينات النذر ، فإن فى ذلك هداية للبصرين ، وعبرة للمعتبرين ، وذكرى للعابدين (والحمد لله رب العالمين)

الباب السابع

محمد صلى الله عليه وسلم أكبر المصلحين نجاحا

أشرق نور المصطفى صلى الله عليه وسلم حين استحكمت الضلالة في النفوس وتغلغلت الغواية في الرءوس، وتناهت الفتنة، وتفاقمت المحنة — وكذلك الرسل يولدون عند عموم الجهالة، ويبعثون عند طموم الضلالة — فبعثه الله للناس جميعا، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم صراطا مستقيما، فجاهد في الله حق جهاده، مقتحما الشدائد، محتملا الصعاب، سائرا سير الحكيم، آخذا قومه بالموعظة الحسنة والمجادلة الرشيدة، حتى اجتاح الضلالة وأظهر الحق بأقوى دليل، وأرشد الخلق إلى أقوم سبيل، وتم له ما أراد من نجاح اجتماعي وخلقي، ونفوذ سياسي، وفوز حربي، صلى الله عليه وعلى آله الأكرمين، وأصحابه الغر الميامين. وإليك البيان :

(ا) نجاحه الاجتماعي والخلقي

لا جرم أن تغيير حال أمة كالأمة العربية، وإحياءها وإحياء أمم الأرض بها، وقلب نظمها، وإصلاح جميع أحوالها وأمورها، وإخراجها من الفساد والاختلال والفوضى، برجل كمحمد صلى الله عليه وآله وسلم في حاله ونشأته وفقره ويتمه وأميته، وبتلك السرعة العجيبة في ذلك الزمن القصير — أمر لم يعهد له مثيل في تاريخ الإنسانية : فهو من أعجب العجائب، وأغرب الغرائب، بل هو معجزة التاريخ التي عقم بعدها، وبقيت وحدها

رجل فقير يتيم أمي، بعيد عن العلم والعلماء، في ناحية من الأرض بعيدة عن كل نظام ومدنية؛ ناشئ في الهمجية؛ وبين أهل وأقارب عريقين في

الجهل والكفر والوثنية ، فأبدل وحده من الجهل علما ، ومن الفساد نظاما ، ومن الكفر إيمانا ، ومن الشرك توحيدا ، ومن التشبيه تنزيها ، ومن التفرق اتحادا ، ومن التخاذل ائتلافا ، ومن الضعف قوة ، ومن الهمجية مدنية ، وهو في كل ذلك الليث الهصور ، والقائد المحنّك ، والخطيب المصقع ، والبليغ المعجز ، والسياسي الحاذق ، والنبيّ الصادق ، والشارع الحكيم ، والمعلم الماهر ، المخبر قومه بما لم يعلموه ومالم يلتفتوا إليه ، والتقى الورع ، والزاهد الناسك العابد ، والمتمتّع بالحلال ، والمتلذّذ بالطيبات ، والرءوف الرحيم ، والقاسي على الظالمين ، ومثال الأدب والتهذيب ، والرقة والجمال ، والأعمال الصالحة ، والإيمان الصادق الصحيح ؛ والإخلاص الأكبر لأمته ولسائر العالم . كل ذلك أنصع دليل على أنه الإنسان الكامل ، الجامع لما تجد فيه الأمم مايضيء لها السبيل ، والقدوة الحسنة في كل شيء ، والمثال الصالح الوحيد في كل صفة وخلق وعمل : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ :

فلا عجب أن أحيا أمة حملت لواء العلم والعز والمجد والمدنية الصحيحة ، والحرّية والإخاء والمساواة إلى أمم الأرض قاطبة ، مع شدّة الحاجة إلى بعثته في ذلك الزمن الذى ساد فيه الاختلال والفساد ، واستشرى فيه الكفر والظلم والاستبداد ، وسوء الحال والجهل : فغيرت رسالته وجه الأرض ، وقلبت نظم الأمم ؛ وصبغتها بصبغتها في اللغة والدين والأخلاق ، في سنين قليلة ، وبسرعة خارقة للعادة ؛ مع أن دول ذلك العصر على عظمتها وقوتها ، وأموالها واقتدارها ، عجزت عن صبغ محكوميها بصبغتها في الدين واللغة والجنس والأخلاق ، مع بذل كل مجهودها وعلمها وأموالها واقتدارها في

ذلك ، فلم يزدد الناس منها إلا نفورا وسخطا وبغضا ، مع مضى المدد الطويلة عليها ، وتسلطها على جميع مصادر حياة تلك الأمم ، ولم تنل منها مع قوتها فى السنين الكثيرة ، ما ناله العرب مع ضعفهم فى السنين القليلة .

فمحمد صلى الله عليه وسلم الذى أحيا تلك الأمة ، وجاء بذلك الدين ، واستوجب محبة الأمم الآخذة بتعاليمه ، المتأثرة بأقواله وأعماله إلى اليوم ، والذى له أكبر سلطان على نفوس (الملايين) من البشر . لم يتم له هذا النجاح بدون عون إلهى ، ومدد ربانى .

لم يرو التاريخ أن مصلحا غيره قام بين البشر وكان مثله فى حاله ونشأته ، وكانت أمته كأمته العربية البدوية الأمية — كان منه ما كان من محمد صلى الله عليه وسلم فى أثره العالمى العظيم ، وبسرعة عجيبة كهذه ، أو دام عمله فى الأرض إلى اليوم .

حقا لقد خاب كل مدع للنبوة من بعد بعثته ، وظل محمد صلى الله عليه وسلم فذا فى جميع أعماله دون سائر البشر ، لما آتاه الله من القدرة العجيبة والسلطان السريع ، والتأثير المدهش فى أمم الأرض قاطبة إلى قيام الساعة .

كان عمله فى قلب الأمة العربية وبعثها من الموت إلى الحياة بهذه السرعة ، أبلغ من قلب العصا حية ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى ، لأن إخراج الأمم من الظلمات إلى النور ، وإماتة الجهل ، وإحياء العرفان ، ونبذ الهوى ، ومخاطبة العقل السليم : كل ذلك أليق بمقام النبوة ، وأقوى فى إثبات الدعوى :

قال (سير وليم موير) فى كتابه « سيرة محمد صلى الله عليه وسلم » : « امتاز محمد صلى الله عليه وسلم بوضوح كلامه ، ويسر دينه ، وأنه أتم من الأعمال ما يدهش

الألباب : فلم يشهد التاريخ مصلحا أيقظ النفوس ، وأحيا الأخلاق ، ورفع شأن الفضيلة فى زمن قصير — كما فعل محمد صلى الله عليه وسلم .

لبثت مكة خاصة والبلاد العربية عامة دهورا وأحقابا ، غارقة فى الجهالة ، معنة فى الضلالة ، فلم يكن لليهودية والمسيحية من الأثر فى العرب وأحوالهم الاجتماعية والخلقية ، إلا بمقدار ما يؤثر حجر يلقى فى ماء كدر ، لا يعدو أثره وجه الماء ، ولا يبلغ أعماقه .

كان العرب سابحين فى دَيْجور من الرذيلة وضروب القسوة ؛ إذ كان الولد الأكبر يرث أباه فى زوجته ؛ وبلغت الأنفة والغيرة عندهم حدّا جعلتهم يئدون البنات ، وعكفوا على الأصنام ، وعبدوا الأوثان ؛ ولم يفقهوا معنى للحياة الأخرى ، وما فيها من ثواب وعقاب ؛ فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم ، أمكنه فى خلال ثلاث وعشرين سنة ، أن يطهر مكة وغيرها من البلاد العربية مما كان فيها من الأرجاس والمقابح ، ثم اتبعته طائفة قد هجروا عبادة الأصنام ودانوا لله بالطاعة ، وصدّقوا الرسول ، وآمنوا بما أنزل إليه فاستقرت فى قلوبهم خشية الله ، وتطلعوا إلى عفوه وفضله ، وتسابقوا فى عمل البر ، وتنافسوا فى نصر الفضيلة ونشر لواء العدل ، وبان لهم أنّ الله على كل شىء قدير ، وأنّ العناية الصمدانية تحوطهم وترعاهم ما داموا على ثباتهم ، وأنّ الله مطلع على أحوالهم وشئونهم ، وسرهم وعلانيتهم ، وأنّ ما فى الكون من نعمة أو آية مصدرها الخلاق الوهاب ، وأن الأمور صغيرها وكبيرها بيده يصرفها كيف يشاء ، وأنّ ما جاءهم من الدين الجديد فضل أفاض الله به عليهم ، وقد وجب عليهم أن يدفعوا عن بيضته . ويحرسوا حماه . وظهر لهم أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم هو بشير السعادة ، وأنه معقد آمالهم ، ومنقذهم من أحوالهم

وأوحالهم فلذلك انقادوا له بالطاعة .

لا جرم أن مكة فى زمن قصير قد انشطرت شطرين : الكفار ، والمؤمنين .

فأما الكفار فقد ظل معظمهم على عناده ، حتى تم للنبي الكريم النصر والفتح المبين .

وأما المؤمنون — على قلتهم — فقد احتملوا صنوف الأذى ، وعانوا آلام التعذيب ، ولم يزدهم ذلك إلا حبا لمحمد ودينه ، وقد بلغ من أمر حبهم إياه ، أنهم جحدوا معتقداتهم التى ورثوها عن آبائهم — وكانت أنفس الأشياء لديهم — ثم هجروا أوطانهم إلى بلاد الحبشة — كما سيأتى — ثم إلى المدينة . ومنهم من هاجر من مكة إلى المدينة بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ لما اشتد عليهم أذى قريش ، حيث لحق بهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، تاركين مدينتهم المحبوبة ، وفيها البيت المحرم وهو أحب أرض الله إليهم . ولما استقر بهم المقام فى المدينة ، عقد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بينهم رابطة الإخاء ، وبذلك استعدت نفوسهم للدفاع عن محمد ودينه ، ووهبوا دماءهم لإعلاء كلمة الله .

كان من أثر محمد أن العرب الذين كانوا بالأمس عاكفين على شن الغارات ، وسفك الدماء لأوهى الأسباب ، أصبحوا وقد توثقت بينهم أواصر الأخوة ، وأشربوا فى قلوبهم أن يعمل كلٌّ لخير أخيه ، ولا يستأثر بشىء دونه ، بل طلب الأنصار من المهاجرين أن يشركوهم فى أموالهم ، والمال أحب شىء إلى الإنسان ، بعد النفس والولد .

هذب الأمة العربية التى ضرب بها المثل فى الجهل قبل الإسلام . حتى أصبحت منار العلم والعرفان للعالم . وفى ذلك يقول (كارليل) : « قوم يضربون

فى الصحراء لا يؤبه لهم عدّة قرون . فلما جاءهم النبي العربى ، أصبحوا قبلة الأنظار فى العلوم والعرفان ، وكثروا بعد القلة ، وعزوا بعد الذِّلة ، ولم يمض قرن حتى استضاءت أطراف الأرَضين بعقولهم وعلومهم » .

هؤلاء العرب الذين غَمطوا المرأة جميع حقوقها ، وأنزلوها عن مرتبتها الطبعية - أصبحوا بعد الإسلام هداة الأمم فى تقدير حقها ، وصاروا مثلا صالحا للاستقامة والتقوى، محافظين على حدود الله وأحكامه ، مؤتمرين بأوامره مجتنبين نواهيه ، قوم كانت بواعثهم للعمل صغيرة مرذولة . فلما أتاهم الإسلام عظمت بواعثهم ، وشرفت مقاصدهم ، وحبّب إليهم عمل البر ، ومناصرة العدل ، ونشر لواء المحبة .

حقا إنه لعجيب أن يتم هذا التحوّل فى سنين قليلة : كأنّ ملائكة السماء هبطوا إلى الأرض ، فنفثوا فى نفوس العرب روح الصفاء والوئام ، وأماتوا فيهم دواعى الانتقام ، واستأصلوا عبادة الأصنام ؛ والشغفَ بالقمار والخُمار ، وما إلى ذلك من القبائح والمناكير .

دع عنك أن تعدد الزواج قد نُظِّم ، والربا أخذ يختفى ، وحل العمل محل البطالة ، وتحققت أمنية عيسى عليه السلام : من استمرار ملكوت السماء فى الأرض »

كان مثل محمد مثل الرعد القاصف : قضى على الشرور التى رسخت فى العصور السابقة ، فأيقظ الناس من سباتهم العميق ، ثم رفعهم إلى ذروة الحضارة . لم تر أن الأمة التى كانت تعبد الأحجار والحيوان والنبات أصبحت أمة موحِّدة لها يقين ثابت ، وعقل راجح ؟ فأنجبت مثل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، الذى عبد الوثن والصنم فى جاهليته ، والذى قال بعد إسلامه عند استلامه

الحجر الأسود : « إنك لحجر ، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ماقبلتك » .

حقا إن الأمم كالأطفال : ولذلك جاءهم الأنبياء بما يناسب عقولهم ودرجة سذاجتهم ، وكان البشر على الجملة فى عهد البعثة المحمدية ، قد خرجوا من طور الطفولة إلى سنّ الرشد ، فأصبحوا لايناسبهم من الدلائل والبراهين ما كان يناسبهم فى القرون الأولى ، وقلّ فيهم تأثير المحتالين والدجالين والسحرة والمشعوذين ، وصاروا يرجون الهداية من طريقها . فساعدهم الإسلام على ذلك ، ونهج بهم منهجا لم يسبقه به دين من قبل : فجعل الحجج العلمية والدلائل العقلية رائده فى جميع دعاويه ، وعليها معتمده فى كل مبانيه وقلل من شأن المعجزات الحسية بقدر الإمكان ، حتى لاتكون عقبة فى سبيل رقى عقل الإنسان فى مستقبل الزمان : ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ . يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ .

فإن البشر فى عهد النبوة المحمدية ، أخذوا يدركون قيمة المعجزات الحسية ، وأنها لاعلاقة بينها وبين دعوى النبوة ، وأنها لايسهل تمييزها من غيرها من أعمال السحرة والمشعوذين ، والصناع الماهرين ، وعجائب أهل الرياضات والمجاهدات ، من المتصوفين وغيرهم ، على مايقول بعض الناس ، وأنها إن أقنعت تلك العقول القديمة ، وأرهبت تلك النفوس وهى صغيرة ، وحملتها على الإيمان : فإنها أصبحت لاتغنى العقل فتيلا ، ولا تزيد الأمور إلا تعقيدا . وإن الدليل إن لم يكن له من العقل أكبر نصيب ، فهو أضعف ضعيف .

وأما من كان يطلب من النبى صلى الله عليه وآله وسلم تلك المعجزات ؛

فما كان يريد إلا الإعنات والتعجيز والسخرية والاستهزاء والعناد ، وإلا فلديه من البراهين والآيات ما يشفي علة النفوس ، ويروي غلة العقول : ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

وأما ما أظهره الله تعالى على يديه من المعجزات الحسية ، فلم يكن يراد به إلا إفحام المعاندين المستهزئين ، والزيادة فى تثبيت ضعفاء المهتدين ، وقد كان جل اعتماد النبي صلى الله عليه وسلم فى إثبات دعواه على القرآن وحده ؛ كما يتضح ذلك لمن تدبر آياته : فإنه هو المعجزة التى تلتئم مع الدعوى ، وتعلو بالعقل إلى مستوى العلم والفهم ، وتناسب حال الأجيال من بعده : فلا تقف عقبة فى سبيل نظرياتهم وتفكيرهم ، ومعلوماتهم واختراعاتهم ، ولا تلتبس عليهم بحيل الدجالين وتدليس المحتالين ، ولا بكذب القصاصين وإفك الراوين ، وتخيل الواهمين ، بل تساعدهم على البحث ، وتحضهم على البحث والتفكير ، والتقصى والتمحيص ، والاستدلال والاستنباط .

فبعثة محمد صلى الله عليه وسلم انقضى عصر العجائب والغرائب ، وبدأ عصر العلم والعقل . فهو الحد الفاصل بين العصرين . فلذا كانت معجزاته تشمل هذا وذاك ، وكان أجلها وأكبرها والباقى منها — وهو القرآن — مناسباً لزمنه عليه السلام ، ولكل ما يأتى بعده من الأزمان ، فلا يناسبها غيره .

وكما ختم عصر المعجزات ، وتمت النبوات ، كذلك أغلق باب الكهانة . فكان الله تعالى : فى العصور الأُول — والبشر فى طور الطفولة — يخاطب حواسهم . وفى العصور التالية — وهم فى طور الرجولة — يخاطب بصائرهم أكثر مما يخاطب أبصارهم : فإن بصائرهم فى العصور الأُول كانت ضعيفة

غلفا، لا تقوى ولا تنفتح للمعنويات، فوالى عليهم أنبياءه ورسله الكثيرين، وآياته ومعجزاته بما ناسب استعدادهم: وذلك لأن الأب مع أطفاله يكثر التكلم معهم، وتأديبهم وتهذيبهم، وترغيبهم وترهيبهم. ومكافأتهم بالماديات: كالحلوى والنقود والألاعيب، أو معاقبتهم بالزجر والضرب ونحوه، على حسب مايبدو منهم. فإذا صاروا رجالا كف عن ذلك، واكتفى ببث نصائحه العامة، وإرشاداته المكتسبة من طول التجربة والاختبار، وتركهم يستعملون عقولهم فيما يرونه صالحا لهم، وقل أن يضربهم أو يهينهم.

كذلك فعل الله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾

بعد أن بلغ الإنسان رشده: أعطاه الشريعة العامة، والقواعد الثابتة، وأباح له التصرف فى الأمور، بحسب ما يرشده إليه عقله فى حدود شرعه: فبعد أن كان يوحى إلى الأمم السابقة كبنى إسرائيل مثلا فى كل جزئية من جزئيات الأمور؛ اكتفى الآن بما فى القرآن الشريف، من القواعد العامة، والأصول الثابتة: فإنها مع مايوحيه إلينا العقل كافية لهدايتنا فى جميع الأمور، بعد أن بلغنا رشدنا.

لذلك أغلق الله تعالى باب الوحى والمعجزات، وأخبرنا بذلك كله صريحا فى الكتاب العزيز، فلم يبق لمحتال ولا لمشعوذ ولا لدجال أدنى وسيلة إلى التأثير فى العقل، وبذلك خلص العقل البشرى من الأوهام والخرافات والترهات، وأصبح طريق العلم أمامه واضحا، ومهيع الحياة صالحا، ولكى لا يبقى هناك ثلمة فى نفس أحد من المؤمنين يقتحم عليه منها شيطان من الشياطين؛ نص الكتاب العزيز نصا صريحا لا يقبل التأويل، على أن الغيب علمه عند الله لا يعلمه إلا هو، وأن الأمور كلها بيد الله يصرفها كما يشاء، لا يراعى فيها

مجاملة أحد من عباده . فقال مخاطبا رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ . ومثل ذلك فى القرآن كثير يعرفه من وُفّق إلى تلاوته بتمعن وتدبر .

إن نظرة فيما كانت عليه طوائف المسيحيين فى القرون الأولى ، تدل بأجلى بيان وأنصع دليل ، على مقدار نجاح محمد صلى الله عليه وسلم الاجتماعى :

ذلك بأن الناس وقتئذ تضاربت عقائدهم وأفكارهم ، فى أصول الدين الأساسية كافة ، وكثرت مذاهبهم فيها ، ولم يرق للناس فى تلك الأزمان — لقصر عقولهم — إلا الشرك والتجسيم ، وعبادة الصور والتماثيل . وكلما قام فيهم موحد أو مصلح حكموا بكفره ومروقه ، حتى أريقت دماء بسبب ذلك ظلما وعدوانا ، وانقلب دين المحبة والوفاق ، إلى بغض وشقاق ، وانصدع بنيان الكنيسة المسيحية من قديم الأزمان انصداعا نفذت منه المحن والفتن ضروبا وأشكالا .

قام أريوس بالتوحيد ، وأقره على ذلك بعض الأساقفة والإمبراطور قسطنطين نفسه ، ثم وجد له من أمم الجرمانيين أتباعا كثيرين ، ولكن ميل جمهور الناس فى ذلك الزمن إلى الشرك والوثنية ، حمل أكثر أعضاء مجمع (نيقية) سنة ٣٢٥ م على الحكم عليه بالزندقة والمروق ؛ وتأصلت العداوة بين أتباعه وبين سائر المسيحيين منذ ذلك الحين .

ولما فشت فى الناس عبادة الصور والتماثيل ، واشتدت حتى صارت جزءا من الدين ، قام بعض الناس — ومنهم القياصرة كـ « ليون الثالث » — لمحتها .

وسموا إذ ذاك (كاسرى التماثيل) . وكان ذلك فى القرن الثامن والتاسع . فحكم البابا جريجورى الثانى ثم الثالث بحرمانهم ومروقهم . ولما اجتمع مجمع القسطنطينية سنة ٨٤٢ م كان أيضا مضادا لهم ، وفاز فيه العابدون لها ، مع نهى كتبهم عن عمل الصور ونحت التماثيل وعبادتها والإشراك بالله تعالى؛ نهيا صريحا لا يقبل التأويل . فكان ذلك سببا آخر من أسباب الشقاق بين طوائف المسيحيين .

ولما قام لوثر بالإصلاح البروتستنتى فى القرن السادس عشر ؛ اشتعلت نار الحروب بين المسيحيين ، وخضبت الأرض بدماء الألوف من الأبرياء المصلحين ، فى مثل مذبحة اليهود بفرنسة سنة ١٥٧٢ م . ومن فرقهم القديمة من عبد مريم العذراء . وكان فريق من نصارى العرب يسجدون لها من دون الله ، ويطلبون منها مايشتهون ، ويفزعون إليها فيما يتقون ، ويرجونها لما يخافون ، فنهى القرآن الشريف عن اتخاذها إلهاً مع الله « تَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ »

من ذلك تتبين حكمة تشديد الشريعة الإسلامية فى النهى عن التصوير واتخاذ التماثيل ، وتتبين حاجة العالم فى ذلك الوقت إلى الإصلاح العظيم الذى جاء به الإسلام ، والذى هو سابق لكل إصلاح عملى ناجح . فأنّى لمحمد ذلك لولا وحى الله ؟ ولماذا انفرد عن العالم كله ، فى ذلك الوقت الذى كانت فيه الأمم غارقة فى عبادة الصور والتماثيل ؟ ولماذا لم يتأثر عقله بما يراه عنده قومه وأهله وأهل الكتاب ، ولا سيما الذين يزعم المبشرون أنهم معلموه ، مع أنه هو الذى جاءهم بالإصلاح قبل أن يعرفوه ، ونهاهم عن عبادة الأشخاص والصور ونعى عليهم تلك العبادة ؟ فكيف اقتنع بصحة عقيدته فى التوحيد

والتنزيه ، وهى مخالفة لما كان عليه جماهير الناس فى العالم كله إلا أفرادا قليلين ؟ وكيف عرف أن الحق مع هؤلاء دون أهله والأكثرين من قومه ، وذلك منذ طفولته قبل أن يكون للعقل مجال فى البحث والتفكير ؟ ولماذا كان محمد هو السابق للعالم فى إصلاح كل فساد فى أمور الناس الاجتماعية ، دينية كانت أو دنيوية ، إصلاحا عمليا ناجحا ؟ فمن تعلم هذه الطرق العملية الناجعة فى سياسة الناس والتأثير فيهم والاستيلاء على قلوبهم وعقولهم ، حتى صاروا فى كل شىء دَرَج مشيئته ، ورهن إشارته ، فملك نواصى العالمين ، وفاز فى ذلك فوزاً مبينا لم يسبقه إلى بعضه أحد من المصلحين والنبيين ؟ فإذا كان لوثر أو غيره يعدّ الآن من كبار المصلحين ، فأولى ثم أولى ، أن يعدّ (محمد) الذى ظهر قبله فى وسط الوثنية المحضة ، محاطا بها من جميع الجهات ، وأصلح جميع أمور الناس وأحوالهم ، وأتى بدين الحق والتوحيد الخالص — أكبر نبى مصلح ظهر على ظهر الأرض . لذلك قال الله تعالى : ﴿هُوَ الذى بعث فى الاميين رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وقال : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ .

ما كان لحكومة أن تستطيع الهيمنة على بلادها دون الاستعانة بالشُّرَط — بيد أن الحكومة التى أنشأها محمد صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة إلى المدينة ؛ لم تستعن فى المحافظة على الأمن وحمل الناس على إطاعة الأوامر ، بشىء مما تستعين به حكومات الأمم الأخرى ، ومع ذلك فالجرائم كادت

تختفى ، ومن ارتكب إثما فى سره أوعلانيته سارع إلى الاعتراف للمصطفى بما اقترفت يداه ، لأن الإسلام قد جعل على كل نفس منها رقيبا .

وسر ذلك أن خشية الله تمكنت من قلوب المسلمين ، فأصبح سرهم كعلانيتهم وأصبح الجانى شُرْطىّ نفسه ، ومن أجل ذلك صار واجب الحاكم سهلا ليّنا : فلا المتهم فى حاجة إلى مدرَه ، ولا القاضى فى حاجة إلى طول البحث والفحص

لا جرم أن الذى أنشأ أمة كهذه من الناس عجز عنها من تقدمه من الفلاسفة والحكماء والأنبياء — لهو جدير بأن يقال : إنه أحرز أعظم نجاح عرف ، ولا شك فى أن هذه الأمة قد بلغ من التقدم الخلقى والاجتماعى والسياسى مالم يشهد التاريخ من قبل مثله .

قرر علماء الاجتماع أنه لا يتم إصلاح لأمة من الأمم ، أو لشعب من الشعوب ، إلا إذا أفعمت القلوب حبا للمصلح وطاعة لأوامره ، وبدَهىّ أن المال أو القوة بل المعجزات — كل أولئك لا يكفى لحمل القلوب على ما يجب للمصلح من المحبة والاحترام ، والطاعة . وهى أمور ثلاثة ، تأتى تبعا لما تناله الأمم من التقدم الخلقى والروحى — غير أن محمدا صلى الله عليه وسلم ، لم يستعن بالمال ولا بالقوة ولا بغيرهما ، بل كان ينحّى عن نفسه جميع ما من شأنه الإغراء والاستمالة . ألم تر أنه يقول بلسان القرآن : ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ ومع هذا كان أمره مطاعا ، وهو محبب إلى أصحابه ، إلى حد التفدية له بأنفسهم وأموالهم وأولادهم : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ

اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾ .

أما وقد بان أن محمدا صلى الله عليه وسلم أحبه أصحابه ، وبذلوا كل نفس ونفيس فى نصرته وتأييده دون أن يستهويهم بشىء من عرض الدنيا ، فليس بعجيب أن يكون أكثر الأنبياء والمصلحين نجاحا ، كما أقر ذلك بعض كتاب الغرب ، ولا يمكن أن يبلغ هذا النجاح النادر إلا من وصل إلى أعلى مقام روحى .

كان شعار أصحاب محمد عليه السلام قولهم : لن نقول كما قال قوم موسى عليه السلام : ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾ . ولم يكن قولهم مجاملة أو مصانعة ، بل كانوا يفعلون ما يقولون . انظر إلى ما حصل فى موقعة أحد : إذ رمى المصطفى فكسرت سفلى رباعيته اليمنى ، وجرحت شفته السفلى ، وشجت جبهته ، وجرحت وجنته ، وهشموا البيضة على رأسه ، ودخلت حلقتان من المغفر فى وجنته ، ولشدة غوصهما ، لم يقدر أبو عبيدة على نزعهما إلا مع نزع سنيه اللتين كانتا ينزع بهما ، ورموه بالحجارة حتى سقط لشقه فى حفرة ، فهجم عليه العدو ، فهرع إليه أصحابه الأوفياء وجعلوا من جسومهم حصونا حوله ، فأحاطوا بالحفرة ، ثم نصبوا صدورهم لنبال العدو فأخذت تخترق أجسامهم وهم لا يبالون ، وأخذوا يصرعون واحدا بعد واحد ، وكلما خلا مكان واحد منهم سارع غيره إلى احتلاله ، ولم ينفرد

الرجال بهذه الروح الفدائية ، بل أخذت النساء منها أوفر النصيب . فقد تقدمت عائشة وأم سلمة وغيرهما بالسيوف ، وهجمن على العدو . وبذلك نجا النبي الكريم في أشد الأوقات محنة وحرجا ، وكان أصحاب محمد ممن يفخرون بأنهم عاهدوه على أن يموتوا في سبيل دينه . وبذلك تم لهم النصر المبين .

إن الروح التي نفثها محمد صلى الله عليه وسلم في قومه ، لم يقتصر ظهورها على مواقع القتال ، بل مكنتهم من محاربة ألد الأعداء وأقواها : وهي طبائعهم الفاسدة ، وعاداتهم المرذولة ، وعقائدهم السخيفة .

وسر ذلك أن محمدا صلى الله عليه وسلم ـ مع كثرة واجباته التي أداها على أكمل وجه ـ لم يُشغَل عن عبادة ربه . فقد كان يقضي نهاره في عمل متواصل وليله في تهجد طويل : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ، قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ، نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ، إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ، إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ، إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾

عكف على العبادة حتى في أيام المدينة التي كثر فيها العمل وتنوع ، وظلت حاله كذلك حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى ، ولم تمض السنة العاشرة من الهجرة حتى انهالت القبائل العربية من جميع الأطراف على المصطفى صلى الله عليه وسلم للدخول في دينه ، وجاءت الوفود تلو الوفود إلى مكة ثم المدينة ، للإبانة عن معاضدتهم للإسلام ، فنزل قوله تعالى : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ وقد كان نزولها إيذانا بكمال الوحي . وقد نزلت عليه وهو في مكة عند زيارته البيت الحرام ، ومعه ألوف من أصحابه .

وقد رأى ابن عباس رضى الله عنهما، أن نزول هذه السورة يشعر بقرب انتقال المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى. وقد صدق حدسه، فلم يعش المصطفى بعدها سوى ثمانين يوما.

وفى اليوم التاسع من ذى الحجة فى السنة العاشرة للهجرة، الموافق ٨ من مارس سنة ٦٢٢ م. كان المصطفى فى منى، وحوله جمع عظيم لا يقلون عن مائة وأربعين ألفا من الرجال والنساء والأطفال. وفى ذلك اليوم نزل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

وقد اغتنم المصطفى صلوات الله عليه هذه الفرصة، فخطب خطبته المشهورة — وحوله ممثلو جميع القبائل — وهى:

(إن الحمد لله، نحمده ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأن محمداً عبده ورسوله:

أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذى هو خير. أما بعد، أيها الناس: اسمعوا منى أبين لكم، فإنى لاأدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا. أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا. ألا هل بلّغت؟ اللهم اشهد! فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذى ائتمنه عليها. وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول رباً أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب. وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية.

والعمد قَوَد ، وشبه العمد ماقتل بالعصا والحجر . ففيه مائة بعير . فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يُعبَد فى أرضكم هذه ، ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم .

أيها الناس : ﴿إِنَّمَا النَّسِىءُ زِيَادَةٌ فِى الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ . وإن الزمان قد استدار ، كهيئة يومَ خلق الله السموات والأرضَ . منها أربعةٌ حرمٌ : ثلاثة متواليات ، وواحد فرْد : ذو القَعْدة ، وذو الحجّة ، والمحرّم ، ورجبُ الذى بين جُمَادَى وشعبان . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس : إن لنسائكم عليكم حقا ، ولكم عليهن حق ، ألا يُوطئن فرشكم غيركم ، ولا يُدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة . فإن فعلن ، فإن الله قد أذن لكم أن تعضُلوهنّ وتهجروهنّ فى المضاجع ؛ وتضربوهنّ ضرباغير مبرِّح . فإن انتهين وأطعنكم ، فعليكم رزقُهن وكُسوتُهن بالمعروف . وإنما النساء عندكم عَوان لا يملكن لأنفسهن شيئا : أخذتموهنّ بأمانة الله ، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله . فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بهن خيرا .

أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة : فلا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفسه . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فلاترجعوا بعدى كفارا ، يضرب بعضكم أعناق بعض : فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله وأهل بيتى . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد : كلكم لآدم . وآدم من تراب . أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى . ألا هل بلغت ؟

قالوا : نعم. قال . فليبلغ الشاهد منكم الغائب :

أيها الناس : إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث . ولا يجوز لوارث وصيةٌ فى أكثرَ من الثلث . والولد للفراش ، وللعاهر الحجر : من ادّعى إلى غير أبيه ، أو تولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عَدْلا . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته) .

حقا قد ظهر بين الفرنجة الآن كثيرون ممن اهتدى إلى صواب جميع ما أتى به عليه السلام ، ومنهم من أسلم ظاهرا وباطنا ، بعد أن كانوا يعدّونه من أكبر الكذّابين والدجّالين ؛ لكثرة ما افتراه عليه قسيسوهم فى تلك العصور المظلمة ، حتى إنهم ادّعوا أن لمحمد صنما من ذهب ، يعبده المسلمون الذين لا يعبدون إلا الله وحده ، ويصلون له خمس مرات فى كل يوم . ويصيحون باسمه تعالى فى كل واد وفى كل مرتفَع ، ويصومون له شهر رمضان فى كل سنة .

لا ريب فى أن أدعياء النبوة الكَذَبَة يعرفون بأعمالهم كما قال المسيح عليه السلام : (متا ٧ : ١٦ — ٢٠) ، ولا يأتى الشرّير بالخير والإصلاح للناس أجمعين. والله تعالى لا يؤيد الكذّابين الدجّالين المضلّين للناس : (راجع مزمور ١ : ٦ ، ٥ : ٦ ، ١٦ ص ٣٧٠) وقد أيد الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، حتى نجح فى عمله هذا النجاح الباهر العجيب السريع ، الذى لم يعهد له مثيل فى التاريخ .

رجل قام باسم الله ، ودعا الناس باسم الله ، وقال وعمل كل شىء باسم الله ، ونسب إليه تعالى كل عمل من أعماله ، ولم يكذبه الله تعالى ، ولم يخذله ، أو يقتله كما فعل بالكذّابين — بل ثبّتـه وأيده ، وقواه ونصره ، وكتب له النجاح

فى جميع مساعيه ومقاصده ، وصدقه فى كل ما أخبر به عنه ، ورفع ذكره ، وأعلى شأنه ، حتى صار اسمه يذكر بجانب اسم الله على ألسنة عدد عظيم من البشر ، فى كل بقعة من الأرض ، فلا يعقل أن يكون هذا من الكذّابين .

إذا أحصينا الملوك العظماء ، والساسة الماهرين ، والقواد المحنّكين ، والخطباء ، والبلغاء ، والمنشئين المجيدين ، والكتاب المتفننين ، والحكماء الشارعين وغير الشارعين ، والوعاظ المؤثّرين ، والأنبياء والمصلحين ، ومؤسسى الممالك والدول العظام — وجدناه أكبرَ ملك ، وأعقلَ سياسىّ ، وأبلغَ منشئ وواعظ ، وأحكم شارع ، وأشجع قائد ، وأعظم غازٍ وفاتح ، وأورع متديّن ، وأخلص ناصح ، وأكبر مرشد للناس فى جميع شئونهم الدينيّة والدنيوية ، وأعظم مصلح للأفكار والأخلاق والعقائد والعبادات والمعاملات ، وأوسع مؤسس ، وأدوم منشئ للدول والممالك ، وهو فى كل ذلك لم يتعلم من مخلوق شيئا يكفى لإزالة جزء مما حوله من الأوهام والخرافات ، ولم يتدرّب ، أو يتدرّج ، أو يتمرّن قبل النبوة على أى عمل مما أتى به بعد نبوّته ؛ بل نبغ فى كل ذلك دفعة واحدة حينما ظهرت النبوّة . وكلما لزمه شئ من أعبائها وجد نفسه أكبر نابغ فيه . فما هذا العلم مع تلك الأميّة ؟ وما هذا الإصلاح ممن نشأ فى بلاد الوثنية بعيداً عن كل نظام ومدنية ؟

كفاك بالعلم فى الأمىّ معجزةً ٭ فى الجاهلية والتأديب فى اليُتُمِ

تباركت اللهم ، إن هو إلا وحيك إليه ، وعونك وتأييدك له .

ولولاك ـ سبحانك ـ ما قدر على فتح مدينة واحدة ، ولا تهذيب رجل واحد : فإننا نرى الدول الأوربية بخيلها ورجلها ، وعلمها وفنونها ، ومخترعاتها

وأساطيلها ، ومدرّعاتها وطائراتها ، وأموالها وزخرفها ، ومدارسها ومستشفياتها ، وجميع تدبيراتها وخُدعها - عاجزة كل العجز عن مناوأة دينك أو صدّ تياره الجارف ، أو الحيلولة بينه وبين قلوب البشر المترامين فى أحضانه من جميع الملل والنحل ، فى سائر بقاع الأرض ، حتى ضج دعاة الأديان الأخرى وهم دهشون ، وهبوا لمناوأته ، ليطفئوا نور الله بأفواههم . والله متمّ نوره ولو كره الكافرون : ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ .

(ب) نجاحه فى سياسته

(١) احتماله الأذى وتألفه مَن حوله

حُبِّب إليه صلى الله عليه وسلم فى نشأته الانقطاع عن الناس ، والتفرّغ لعبادة ربه ، والتفكير فى صنع الواحد الديان ، إلى أن بلغ من العمر أربعين سنة ، فانفتق له الحجاب ، وتجلى عليه النور القدسىّ ، وهبط عليه الوحى من المقام العلىّ ، وتحقق له ما كان يحسه من الإلهام الإلهىّ ، واختاره الله ، وعلمه كيف يهدى قومه والناس أجمعين ، فصدع بما امر ، وبلغ ما أنزل إليه من المولى ، ودعا لعبادته تعالى سرا ، حذراً من مفاجأة الناس بأمر غريب ، فأسلم كثير من الرجال والنساء والصبيان والأشراف والموالى . كل ذلك ولم يكن معه سيف يضرب به أعناقهم ، وليس عنده مايرغبهم حتى يترك العظماء آباؤهم ، ويطيعوه صاغرين ، ويتحملوا إهانة أهليهم ، مع أن الكثير منهم كان واسع الثروة أكثر منه عليه السلام ؛ ولكن الدين الحق ماحلّ فى قلب

ولا سطع فى عقل ، إلا فضله على ما سواه .

ولما ألف الناس هذه الدعوة ، وجاء أمر الله بالجهر بها بقوله تعالى : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ . وقوله : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ . لبى داعى الله ، وخاض الغمرات ، وسلك مفاوز النصيحة ، واقتحم ميدان الإرشاد

صعد ذات يوم فى الصفا ، وقال : « ياصباحاه » ! فاجتمعت إليه قريش ، فقالوا : مالك ؟ فقال « أرأيتم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقونى ؟ » . قالوا : بلى . قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » . فقال أبو لهب : « تباً لك . ألهذا دعوتنا ؟ » . فنزل قوله تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . .﴾ . وظل يطلب من الناس عبادة الله وحده واجتناب عبادة الأوثان وتجافى المنكرات ، وهجر المحرمات ، بقلب ثابت ، ويقين راسخ ، وسياسة حكيمة : فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة ، ولاقى عليه السلام فى سبيل ذلك من صنوف الأذى ما يعجز عنه الوصف وبخاصة عند ذهابه إلى البيت للصلاة . روى أن أبا جهل (عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى القرشى) قال يوما : « يامعشر قريش ، إن محمداً قد أبى ما ترون من عيب آلهتكم ، وتسفيه أحلامكم ، وسب آبائكم . إنى أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر لا أطيق حمله . فإذا سجد فى صلاته رضخت به رأسه . فأسلمونى عند ذلك ، أو امنعونى . فليصنع بى بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم » . فلما أصبح أخذ حجرا كما وصف ، ثم جلس لرسول الله ينتظره . وغدا عليه السلام كما كان يغدو إلى صلاته — وقريش فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل

فاعل — فلما سجد عليه الصلاة والسلام ، احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه ، حتى إذا مادنا منه رجع منهزما ممتقعا لونه من الفزع ، ورمى حجره من يده ، فقام إليه رجال من قريش ، فقالوا : مالك ياأبا الحكم ؟ قال : «قمت إليه لأفعل ماقلت لكم ، فلما دنوت منه عرض لى فحل من الإبل . والله مارأيت مثله قط . همّ بى أن يأكلنى » فلما ذُكر ذلك لرسول الله قال : ذاك جبريل . ولودنا لأخذه . ولأبى جهل عمل كثير فى إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو سائر فى دعوته ، عامل على نشر رسالته ، إلى أن صرع الحقُّ الباطل : إن الباطل كان زهوقا .

كل ذلك فى مدى أربع سنين . فلما جاءت السنة الخامسة ، أمر الرسول أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، فرارا من الذى كان يلحقهم لاتباعهم إياه ، خصوصا من ليس له عشيرة تحميه ، أو قبيلة تردّ عنه كيد أعدائه ، فهاجروا فرارا بدينهم . وهى أول هجرة من مكة ، وعدّة أصحابها عشرة رجال وخمس نسوة . وكان عدد المسلمين فى ذلك الوقت لا يتجاوز الخمسين . فلما رأت قريش أن أمره فى الازدياد ، وأن الإسلام انتشر فى القبائل ، همُّوا بقتله : « قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ » فدخل مع عمه أبى طالب وبنى هاشم الشِّعب . فغضبت قريش ، وقطعوا عنهم الأسواق ، ومنعوهم الرزق ، وأبوا الصلح إلا أن يسلموا محمدا صلى الله عليه وسلم للقتل ؛ وكتبوا بذلك صحيفة ، وعلقوها فى جوف الكعبة . وعند دخول الشِّعب ، أمر أصحابه بهجرة ثانية إلى الحبشة . وعدّتها ثلاثة وثمانون رجلا وثمانى عشرة امرأة . وانضم إليهم الذين أسلموا فى اليمن مع أبى موسى الأشعرى . فلما رأت قريش أن المهاجرين استقرّوا فى الحبشة ؛ التمسوا من ملكها أن يرد من هاجر إلى بلاده من المسلمين ، فردّ

وفد قريش خائبا ، ثم أسلم النجاشيّ نفسه لما كتب إليه النبي صلى الله عليه وسلم كتابا بعث به إليه ، على يد عمرو بن أميّة الضمْري ، يدعوه إلى الإسلام ويطلب منه أن يردّ إليه من بقي عنده من مهاجري الحبشة . فردّهم إليه ، ورحل معهم اثنان وستون من الحبشة ، وثمانية من أهل الشام . فقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة ﴿يس﴾ إلى آخرها . فبكوا حين سمعوا القرآن ، وآمنوا وقالوا : ماأشبه هذا بما كان ينزل على عيسى ! وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ .

ولا تنس مالاقاه الرسول ومن معه في الشعب من الجهد والشدة والجوع : فكان لا يصل إليهم شيء إلا سرا ، حتى إنهم أكلوا أوراق الشجر . واستمروا على ذلك ثلاث سنين ، ثم خرج الرسول بعد أن نقض جماعة من قريش الصحيفة . وقد أخبر صلى الله عليه وسلم أن الأرَضَة أكلت مافيها من الكتابة إلا أسماء الله . فلما أنزلوها ليمزقوها ، وجدوها كما أخبر صلى الله عليه وسلم ، ولم يزدهم ذلك إلا بغيا وعتوّا .

وفي السنة العاشرة ، وفد على النبي وفد من نصارى نجران فأسلموا . وقد حضرت المنية عمه أبو طالب ، فجمع وجوه قريش وأشرافهم وأوصاهم بالنبي خيرا ، وطلب منهم أن يكونوا من أنصاره وأعوانه ، وقال : « قد جاءكم بأمر قَبِله الجَنَان ، وأنكره اللسان ، مخافة الشَّنَآن » . وبعد موته اشتد أذى قريش للرسول وتعصبهم عليه . فلما رأى ذلك هاجر إلى الطائف ،

ومكث شهرا كاملا . فلما لم ينل منهم خيرا رجع إلى مكة ، ودخلها فى جوار المُطْعِم بن عدىّ ، ثم أكرمه الله بالإسراء فى السنة الحادية عشرة ، وكذا بالمِعراج الذى فرضت فيه الصلاة ، ومافتئت قريش تضع العراقيل فى طريق دعوته ، مما أدى إلى خروج المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى مواسم العرب ؛ ليعرض نفسه على القبائل ، فعرفه نفر من الأوس الذين سمعوا وصفه صلى الله عليه وسلم من اليهود ؛ فقالوا فيما بينهم : والله إنه النبىّ الذى أنبأتنا به اليهود ، فلا تسبقنا إليه ، وآمن به منهم ستة من الخزرج كانوا سبب انتشار الإسلام فى المدينة ، ثم لقيه منهم فى العام الثانى اثنا عشر رجلا من الخزرج ، واثنان من الأوس ، وكانت مبايعتهم للمصطفى عند العقبة ؛ بايعوه على ما أحب — وتسمى العقبة الأولى — قائلين : « على ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ولا نزنى ، ولا نقتلَ أولادنا ، ولا نأتىَ ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيَه فى معروف ، وأن نقول الحق حيث كان ، لا نخاف فى الله لومة لائم » فقال عليه الصلاة والسلام : « فإن وفيتم فلكم الجنة »

ثم انصرفوا إلى المدينة ، فأظهر الله فيها الإسلام ، ولم تبق دار من دور المدينة وإلا وفيها ذكر الرسول .

ولما جاءت سنة ثلاثَ عشرةَ للنبوة ، وفد عليه من المدينة للحج كثيرون ، ومعهم ثُلّة من مشركيهم ، وحين قابله وفدهم واعدوه المقابلة ليلا عند العقبة ، فأمرهم ألا ينبهوا نائما وقتئذ ، ولا ينتظروا غائبا : لأن كل هذا التدبير كان خفية من قريش حتى لا يطلعوا على الأمر ؛ فيسعوا فى نقض ما أبرم . وتلك سياسة حكيمة ، ومنهج قويم .

ولما فرغ الأنصار من الحج توجهوا إلى موعدهم ، كاتمين أمرهم عمن

معهم من المشركين — وكان ذلك بعد أن انصرم من الليل ثلثه الأول — وقد تسللوا فُرَادَى ومَثْنَى حتى تم عددهم سبعين رجلا وامرأتين ، فبايعوه وأسلموا عند العقبة — وتسمى العقبة الثانية — ثم نقَّب عليهم اثنى عشر نقيبا منهم — لكل عشيرة نقيب — وقال لهم : « أنتم كُفَلَاءُ على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم عليه السلام ، وإنى كفيل على قومى » . ثم انصرفوا إلى المدينة . وانتشر الإسلام على إثر ذلك بين أهلها ، تمهيدا له عليه الصلاة والسلام ، ليسلك مع العرب المسلك الأعلى ، وينتصر عليهم انتصارا حربيا ، بعد نجاحه نجاحا سياسيا باهرا لاقى الأذى والشدائد من أجله ؛ فقد استمر صلى الله عليه وسلم كما قدمنا ، ثلاث عشرة سنة يبلغ الرسالة إلى كل من أصغى إليه ، وينشر دينه بين الحجيج مدة إقامتهم بمكة ، ويستميل الأتباع هنا وهنالك وهو يلقى فى سبيل ذلك منابذة ومناوأة ومناصبة بالعداوة ، ومجاهرة وشرا باديا وكامنا . وكانت قرابته تحميه وتدافع عنه . وقد بلغ من الشدة والبلاء حالا لم يرها إنسان قط : فقد كان يختبئ فى الكهوف ، ويفر متنكرا إلى هذا المكان وإلى ذلك الجناب ، لا مأوى ولا مجير ولا ناصر ، تهدده الحتوف وتتوعده الهلكات ، وتفغر له أفواهها المنايا ؛ والله كالئه وراعيه .

ولما أيقن أن أعداءه متألبون عليه جميعا ، وأن أربعين رجلا يمثلون أربعين قبيلة ائتمروا به ليقتلوه ، وألفى المقام بمكة مستحيلا ، وأن القوم الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته وعدم الإصغاء إليها ، بل أبوا إلا تماديا فى ضلالهم : يسلبون وينهبون ، ويقتلون النفس التى حرم الله قتلها ، ويأتون كل إثم ومنكر ، وقد جاءهم من طريق الرفق والأناة فأبوا إلا عتوا وطغيانا — لما أيقن ذلك كله ، أرشده الله جلت قدرته إلى الهجرة ؛ ليتم انتصاره ، وينتشر دين الله

فى الآفاق ، ويصبحَ المسلمون إخوانا متحابين .

٢ — حذقه فى المعاهدات واستقبال الوفود ومراسلة الملوك

بلغ صلى الله عليه وسلم من البراعة فى السياسة ، والبصر فى الأمور ، والنظر فى حسن العواقب ، مايجب أن يحتذيه الزعماء والساسة على اختلاف زمانهم ومكانهم . فمن ذلك ما يأتى :

(ا) معاهدة الحديبية

الحديبية (بئر قرب مكة سميت الأرض باسمها) : ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم ، أراد فى السنة السادسة للهجرة زيارة مكة ، فأخبر المسلمين أنه يريد العمرة ، واستنفر الأعراب الذين حول المدينة ليكونوا معه ، خوفا من أن تردهم قريش عن عمرتهم ، ولكن هؤلاء الأعراب أبطئوا عليه ، لأنهم ظنوا أنْ لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ، وتخلصوا بقولهم : شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا . فخرج عليه الصلاة والسلام بمن معه من المهاجرين والأنصار ، تبلغ عدتهم ألفا وخمسمائة ، وأخرج الهَدْى ، ليعلم الناس أنه لم يأت محاربا . ولم يكن مع أصحابه شىء من السلاح إلا السيوف فى أغمادها ، لا يقصدون شرا ، ولا يبطنون غدرا .

ولما وصل أصحابه إلى عُسْفَان (موضع على مرحلتين من مكة) بلغه أن قريشا هاجها خبر مقدمه ، وثارت ثائرتها ، وأجمعت رأيها على أن يصدوا المسلمين عن مكة ، وتجهزوا للحرب ، وأعدوا خالد بن الوليد فى مائتى فارس طليعة لهم ، ليصدوا المسلمين عن التقدم . وأبى عليه السلام إلا أن يزور الحرم

رغم كل مقاومة ، ثم أمر أصحابه بالنزول أقصى الحديبية ، حيث جاء بُدَيل بن ورقاء سيدُ خزاعة ، موفدا من قبل قريش ، يسأل الرسول عن سبب مجيء المسلمين . فأخبره عليه السلام : بأننا لم نقدم لقتال أحد ، ولكنا جئنا معتمرين ، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب ، فإن شاءوا ماددتُهم مدّة تترك الحرب فيها ، ويخلّون بيني وبين الناس . فعاد بُدَيل وقصّ على قريش ماسمعه من محمد صلى الله عليه وسلم ، فلم يثقوا بخبره ، لأنه من خزاعة التي كانت حليفة بني هاشم في الجاهلية ، قائلين له : «أيريد محمد أن يدخل علينا في جنوده معتمرا ، تسمع العرب أنه قد دخل علينا عنوة وبيننا وبينه من الحرب مابيننا ؟ والله ما كان هذا أبدا ومنا عين تطرف »

ثم انتدبوا سفيرا آخر ، وهو عروة بن مسعود سيد ثقيف . فتوجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأخذ يثبط همته بتعظيم أمر قريش . وكان مما جاء في كلامه قوله : إن المسلمين ليسوا من قبيلة واحدة ، فلا رابطة تربطهم ، ولذلك لا يؤمن قرارهم . فأجابه أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه على الفور : إنّ مودّة الإسلام أعظم من مودّة القرابة .

ثم رجع عروة إلى قريش فقال لهم : «والله لقد وفدت على الملوك ووفدتُ على قيصر وكسرى والنجاشي . والله مارأيت ملكا قط يعظمه أصحابه مايعظم أصحابُ محمد محمدا : إذا أمرهم ابتدروا أمره يقتتلون ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده إجلالا وتوقيرا ، وما يُحدّون النظر اليه تعظيما له . وإنه قد عرض عليكم خُطّة رشد فاقبلوها . ولقد رأيت معه قوما لا يسلّمون لشيء أبدا ، فانظروا رأيكم »

ومع هذا فلم يجد هذا النصح من قريش أذنا واعية ، ولا نفوسا قابلة ، فأرسلوا

سفيرا ثالثا : فكان من حاله ما كان من أمر سابقيه

ولما رأى المصطفى صلى الله عليه وسلم إخفاق سفراء قريش فى وساطتهم أرسل لهم من قبله خراشة بن أمية ، إيثاراً للمسالمة والمودة ، فعقروا ناقته وهموا بقتله لولا أن تداركه بعضهم فأنقذوه وردوه إلى قومه . فأراد النبي أن يرسل لهم عمر بن الخطاب ، ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له ، فقال له : يا رسول الله ، إنى أخاف قريشا على نفسي . وما بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى ، وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظى عليها . ولكن أدلك على رجل له بنو عم يمنعونه : وهو عثمان بن عفّان . فأرسله المصطفى ومعه كتاب إلى أشراف قريش يخبرهم : أنه لم يأت إلا زائراً لهذا البيت ومعظما لحرمته ، فلما جاءهم عثمان أصروا على منعهم الرسول وأصحابه من الطواف ، مهما تكن النتيجة ، وأذنوا لعثمان وحده أن يطوف بالبيت ، فأبى عثمان ذلك ، فأمروا بسجنه ثلاثة أيام ، وأشاع الناس أنه قتل مع العشرة الذين معه ، فوقف النبي خطيبا بين قومه قائلا : « إن كان حقا ما سمعنا فلن نبرح الأرض حتى نناجز القوم . البيعةَ البيعةَ أيها الناس » . فتوافد الناس يبايعون الرسول صلى الله عليه وسلم ، فنزل قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

فلما سمعت قريش بأمر البيعة ، وبثبات النبي صلى الله عليه وسلم على عزمه خلعت ثوب خُيَلائها ، وأطلقت سراح عثمان ومن معه ، ثم أرسلت من قبلها سُهيلَ بن عمرو العامرى وحُوَيْطِبَ بنَ عبد العُزّى — وكانا من عظماء قريش وكبار وجهائها — لعقد معاهدة مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فاستبشر بذلك

النبي . وكان من حديثه مع سهيل أن قال له : لم لا تمكنوننا من البيت نطوف به ؟ فأجابه سهيل : والله لا يتحدث العرب أننا أُخذنا ضُغطَة ، (أي بالشدة والإكراه) ولكن لك ما تريده في العام القابل ، ثم تم الأمر على الصلح على ترك القتال ، وأن تُوضَع الحرب بينهم عشر سنين ، وأن يأمن بعضهم بعضا ، وأن يرجع المصطفى عنهم عامهم هذا ويأتي في العام القابل ، ويخلوا له مكة ثلاثة أيام ، وألا يدخلوا إلا بالسيوف في قرابها ، وعلى أنه لا يأتيه منهم رجل وإن كان على دين الإسلام إلا رده إليهم ، وألا يردوا إليه من جاءهم من عنده . ومن أراد أن يدخل في عهد محمد من غير قريش دخل ، ومن أراد الدخول في عهد قريش دخل فيه .

ولما تم الأمر ولم يبق إلا كتابة المعاهدة ، وثب عمر بن الخطاب ، فجاء إلى أبي بكر وقال له : أليس هو برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : بلى قال : أولسنا بمسلمين ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطى الدنيَّة في ديننا ؟ فقال أبو بكر : ياعمر ، إنه رسول الله . وليس يعصى ربه وهو ناصره . فاستمسك بغرزه (ركابه) حتى تموت : فإني أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وما كادت المعاهدة تكتب ، حتى حدثت أحداث استوجبت الخلاف في تنفيذها : فمن ذلك أن أحد المستضعفين بمكة — واسمه أبو بصير — جاء إلى المدينة هاربا ، فكتبت قريش إلى النبي تطلبه قائلة : لقد عرفت ماعاهدناك عليه من رد من قدم عليك من أصحابنا . فابعث إلينا بصاحبنا . فقال المصطفى لأبي بصير : إنا قد أعطينا هؤلاء القوم عهداً . ولا يصلح الغدر في ديننا ؛ فانطلق مع رسولهم : فقال أبو بصير : أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني؟

فقال له المصطفى . انطلق إلى قومك ، فإننا لا نغدُر ، وإن الله جاعل لك من الضيق فرجا .

ومن ذلك أن قريشا لما شعرت بما حلّ بتجارتها من التعطيل والكساد بسبب تعرّض أبى بصير وشيعته ، فزعت إلى النبي مستصرخة به ، فارسلت أباسفيان طالبة إليه إيواء الذين فرّوا عنها ، ولا حاجة لها بردّهم ، وأن تُسقط هذا الشرط من المعاهدة . فقبل المصطفى ذلك ، وأمر أبا بصير ومن معه أن لا يتعرّضوا لعير قريش أو رجالها .

ومن ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أمر أصحابه فى مُسْتَهَل ذى القَعْدة من السنة السابعة أن يشدّوا رحالهم إلى مكة ، قضاء للعمرة التى لم يؤدّوها بسبب المعاهدة التى عقدت مع قريش فى العام الفائت . فلما عرفت ذلك قريش بثت روّادها فى جميع السُّبُل ، تترقب قدوم عسكر المسلمين . ولما ظهر لهم أن قوم محمد مسلَّحون ، أرسلوا إليه وفدا برياسة مُكْرَز بن حفْص . فقالوا له : يا محمد ، والله ما عُرفت بالغدر صغيرا ولا كبيرا . أتدخل بالسلاح فى الحرم على قومك ، وقد أَمنتهم وأمنوك ؟ فقال لهم المصطفى : إنا لن ندخل بالسلاح ما داموا على الوفاء ، وهذا السلاح الذى ترونه سنتركه فى الخارج ؛ لنأتى به إذا حدث ما يدعو إليه .

ولما انقضت الأيام الثلاثة ، أرسلت قريش إلى النبي تطلب إليه الخروج لانتهاء المدّة المضروبة . فقال لرسولهم : ماذا عليكم لو تركتمونا بينكم أياما ؟ فقال رسولهم : ناشدتك الله أن تخرج ، قد مضت الأيام الثلاثة . فأجابه النبي : إنا فاعلون فى المساء إن شاء الله . وأمر من يؤذن فى الناس بالرحيل . ولما رأت قبائل العرب ما أظهره الرسول من الوفاء بالعهد ، والمحافظة على الوعد

رغبت فى محالفته ، وأقبلت على معاهدته ، فتوثقت عرا المودّة بينه وبين تلك القبائل ، وتم بينه وبينهم التناصر .

تأمل أنّ المصطفى كان معه جيش عظيم يمكّنه من دخول مكة فاتحا ، ولكنه اجتنب القتال . وقبل شروطا رآها عمر رضى الله عنه غير لائقة بالإسلام وكرامته . ليكون عليه السلامُ قدوة صالحة لأهل الزعامة فى سَعة الحيلة ، وبعد النظر ، وسداد الرأى ، ونيل المطالب من أنبل سُبُلها . ولذلك قال أبو بكر رضى الله عنه : ما كان فتح الإسلام أعظم من فتح الحديبية ، ولكنّ الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه ، والعباد يعجَلون ، والله لا يعجَل لعجلة العباد ، حتى تبلغ الأمور ما أراد .

تأمّل صلح الحديبية وماظهر فيه من البراعة السياسية ، تر أن المصطفى صلى الله عليه وسلم آثر السلم على الحرب ؛ مع ماصار إليه المسلمون وقتئذ ، من المَنَعة والقوّة ، والقدرة على الفتك بأعدائهم ، لأن هذا الصلح أدّى إلى اختلاط المسلمين بالمشركين ، وإسماعهم القرآن ، وتبليغهم حقيقة الدين ، وإرسال الرسل لتبليغ ملوك جزيرة العرب ، وما اتصل بها من الشام ومصر وفارس . فصار الناس يدخلون فيه آمنين مقتنعين ، وأظهر الإسلام فى هذه الهدنة من كان يخفيه بين المشركين خوف الفتنة .

وناهيك برهانا على عظم شأن هذه المعاهدة ، أن الله تعالى أنزل سورة الفتح فى تعظيم شانها ، مبيِّنةً مافيها من الحكم والمصالح ، ومشتملة على أخبار الغيب والوعد بالنصر والمغانم ، فسماها الله فتحا مبينا ، وأعقبها نصرا عزيزا ؛ لأنها كانت تمهيداً لفتح مكة الذى أتم الله به النعمة على الأمة العربية والعالم أجمع .

(ب) استقبال الوفود

ومما هو أدل على براعته السياسية، وسديد تصرفه، حسن استقباله الوفود وإجابته مطالبهم بما تتسع له شريعته. وإليك الأمثلة:

(١) وفد نصارى نجران

وفد على المصطفى صلى الله عليه وسلم وفد نصارى نجران بالمدينة بعد الهجرة وكانوا ستين راكبا، جاءوا يجادلونه في شأن عيسى عليه السلام. وكان وصولهم إلى المدينة ودخولهم المسجد النبوي، بعد دخول وقت العصر، فقاموا يصلون فيه، فأراد الناس منعهم لما فيه من إظهار دينهم، فقال صلى الله عليه وسلم: « دعوهم »، تألفا لهم، ورجاء لإسلامهم. فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم. ولما فرغوا منها عرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فامتنعوا.

ثم قال لهم: إن الله أمرني إن لم تنقادوا للإسلام أُباهلكم. فقالوا: يا أبا القاسم، نرجع فننظر في أمرنا. فخلا بعضهم ببعض، ثم قال بعضهم: والله قد علمتم أن الرجل نبيّ مرسل، وما لاعَنَ قوم قطُّ نبيا إلا استؤصلوا، وإن أنتم أبيتم إلا دينكم فوادعوه وصالحوه، وارجعوا إلى بلادكم. ثم استقر رأيهم على ألا يباهلوه، واكتفوا بأن صالحوه على الجزية، ثم كتب لهم كتابا، فطلبوا إليه أن يرسل معهم أمينا، فأرسل أبا عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه، وقال لهم: هذا أمين هذه الأمة.

(٢) وفد تميم الداري وأصحابه

وفد عليه صلى الله عليه وسلم أبو تميم الداريّ، وأخوه، وأربعة آخرون، وكانوا على دين النصرانية، فأسلموا وحسن إسلامهم: وفدوا على الرسول

بمكة قبل الهجرة ، وسألوه أن يعطيهم أرضا من الشام ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم : سلوا حيث شئتم ، وبعد أن تشاوروا سألوه بيت جَيْرُون وكُورتها فدعا صلى الله عليه وسلم بقطعة من أدم ، وكتب لهم كتابا نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب ذُكر فيه ماوهب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم للداريين : أعطاه الله الأرضَ ، فوهب لهم بيت عينون وجيرون والمرطوم وبيت إبراهيم إلى الأبد . شهد عباس بن عبد المطلب ، وخزيمة بن قيس . وشرحبيل . ثم أعطى رسول الوفد كتابا ، وقال : انصرفوا .

٣ — وفد عامر بن صعصعة

قدم هذا الوفد على النبي وفيهم عامر بن الطُّفيل عدو الله ، وهو سيد القوم ، وكان ينادى مناديه بسوق عكاظ : هل من راحل فنحملَه ؟ أو جائع فنطعمَه ؟ أو خائف فنؤمنَه ؟ وكان مضمرَ الغدر بالنبي ، فقال : لأرْبَد بن ربيعة وهو من رؤساء قومه : إذا قدمنا على محمد فإنى شاغل عنك وجهَه ، فإذا فعلتُ ذلك ، فاعْلُه بالسيف .

فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال عامر : يامحمد ، اتخذنى خليلا . قال صلى الله عليه وسلم : لا ، والله حتى تؤمن بالله وحده لاشريك له . فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم وهو ينتظر من أربد ما كان أمَرَه به . وأربد لا يأتى بشيء ، ويبسط يده على السيف ؛ فلم يستطع سله . وقيل : إنه لما جاء عامر إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم وضع له وسادة ليجلس عليها ، ثم قال له : أَسلم ياعامر ، فقال عامر : لى إليك حاجة ، أتجعل لى الأمر

بعدك إن أسلمت ؟ فقال الرسول : ليس لك ولا لقومك ، إنما ذلك إلى الله يجعله حيث شاء ، ولكن لك أعنة الخيل . قال : أنا الآن فى أعنة خيل نجد . أتجعل لى الوبر ، ولك المدر ؟ قال الرسول : لا .

وقيل : قال له : يامحمد ، مالى إن أسلمت ؟ فقال : لك ماللمسلمين وعليك ماعليهم . فقال : أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا ، ولأربطنّ بكل نخلة فرسا . فقال صلى الله عليه وسلم : يمنعك الله عز وجل .

ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال : اللهم ، اهد بنى عامر ، واشغل عنى عامر بن الطفيل ، كيف شئت وأنى شئت .

وقد مات عامر شر ميتة . وأحرقت الصاعقة أربَد . وأسلمت بنو عامر .

٤ — وفد عبد القيس

كانت منازلهم بالبحرين ، وكان ممن وفد فيهم الجارُود ، وكان نصرانيا قد قرأ الكتب ، فقال أبياتا يخاطب بها النبى صلى الله عليه وسلم . منها قوله :

ياني الهُـــدَى أتاك رجال قطعت فدفدا [1] وآلا فآلا [2]
تتـــقى وقع يوم عبوسٍ أَوْجَل القلبَ ذكرُه ثم هالا

فعرض صلى الله عليه وسلم الإسلام على الجارُود ، فقال : يامحمد ، إنى كنت على دين ، وإنى تارك دينى لدينك ، فتضمن لى ذنبى ؟ فقال : نعم . أنا ضامن أن قد هداك إلى ماهو خير منه . فأسلم وأسلم أصحابه .

وقيل : لما قدم الجارود على الرسول قال : بم بعثك ربك يامحمد ؟ . قال : بشهادة أن لا إله إلا الله وأنى عبد الله ورسوله ، والبراءة من كل ندّ يُعبَد من دون الله ، وبإقام الصلاة لوقتها ، وإيتاء الزكاة لحقها ، وصوم رمضان ،

(١) المفازة (٢) السراب .

وحجّ البيت بغير إلحاد . من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد . قال الجارود : إن كنت نبيا فأخبرني عما أضمرتُ . فخفَق الرسول خفقة كأنها سنَة ، ثم رفع رأسه والعرق يتحدّر عنه ، فقال له : إنك أضمرت أن تسألني عن دماء الجاهلية ، وعن حلْف الجاهلية ، وعن المَنِيحة . ألا وإن دم الجاهلية موضوع ، وحلفها مردود ، ولا حلْف في الإسلام ، ألاَ وإن أفضل الصدقة أن تمنح أخاك ظهر دابة أو لبنَ شاة .

٥ — وفد عدى بن حاتم رضى الله عنه

قال عدى بن حاتم : كنت امرؤا شريفا في قومي . فلما سمعت برسول الله كرهته ، ما رجل من العرب كان أشدّ كراهية له حين سمع به مني . ولما علمت أن جيش محمد قد وطئ البلاد ، احتملت أهلي وولدي ، والتحقت بأهل ديني من النصارى بالشام ، وخلفت بنتا لحاتم ، فسُبيتْ فيمن سُبي . فلما قدمت السبايا على رسول الله ، وبلغه هربي إلى الشام ، منّ عليها وكساها وحملها وأعطاها نفقة ، وأقبلت إلى الشام ، ثم أقامت عندي ، فقلت لها ـ وكانت امرأة حازمة ـ ماذا تَرَين في أمر هذا الرجل ؟ قالت : أرى والله أن تلحَق به سريعا ، فإن يكن نبيا فللسابق إليه فضيلة ، وإن يكن ملكا فأنت أنت . فقلت : والله إن هذا للرَّأيُ .

ولما ذهبت إليه قال : من الرجل ؟ فقلت : عديّ بن حاتم ، فانطلق بي إلى بيته ، وإنه لقائدني إليه ، إذ لقيته امرأة كبيرة ضعيفة ، فاستوقفته ، فوقف لها طويلا تكلمه في حاجتها . فقلت : ما هذا بملك . ولما دخل بيته تناول وسادة بيده من أدَم حشوها ليف ، وقال : اجلس على هذه . فقلت : بل أنت

فاجلس عليها . قال : بل أنت ، فجلست عليها ، وجلس الرسول على الأرض فقلت : والله ماهذا بأمر ملك . ثم قال لى : ياعدى بن حاتم ، ألست من القوم الذين لهم دين ؟ فقلت : بلى . فقال : ألم تأخذ ربع الغنيمة ؟ (كما هو شأن الأشراف من أخذهم فى الجاهلية ربع الغنيمة) . قلت : بلى . قال : فإن ذلك لم يكن يحلّ لك فى دينك . قلت أجل والله . وعرفت أنه نبى مرسل يعلم ما يُجهَل .

ثم قال : لعلك ياعدى ؛ إنما يمنعك من الدخول فى هذا الدين ماترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكَنّ المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من ذلك ما ترى من كثرة عدوّهم ، وقلة عددهم . فوالله لَيُوشكَنّ أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسيّة على بعيرها ، حتى تزور البيت (الكعبة) لا تخاف .

ولعلك إنما يمنعك من ذلك ، أنك ترى أن المُلْك والسلطان فى غيرهم . وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بَابِل قد فُتحت عليهم ، قال عدىّ : وقد رأيت المرأة تخرج من القادسيةَ على بعـيَرها تحُجّ البيت .

وقد أسلم عدى رضى الله عنه ، وحسن إسلامه .

٦ — وفد كِنْدَة

وفد عليه صلى الله عليه وسلم ثمانون من كندة (قبيلة اليمن) فيهم الأشعث ابن قيس ، وكان وجيها مطاعا فى قومه وهو أصغرهم ، فلما أرادوا الدخول على الرسول سرحوا شعورهم وتكحلوا ، ولبسوا جبب الحبرة قد سجفوها

بالحرير ، ولما دخلوا عليه قالوا : « أبيت اللعن » فقال لهم : لست ملكا : أنا محمد بن عبد الله . قالوا : لا نسميك باسمك . قال : أنا أبو القاسم . قالوا : يا أبا القاسم ، إنا خبأنا لك خَبْئاً ، فما هو ؟ وكانوا خبئوا له عين جرادة فى ظرف سمن . فقال لهم : سبحان الله ! إنما يفعل ذلك الكاهن . وإن الكاهن والكهانة والتكهن فى النار . فقالوا : كيف نعلم أنك رسول الله ؟ فأخذ كفاً من حصباء ، فقال : هذا يشهد أنى رسول الله . فسبح الحصى فى يده ، فقالوا : نشهد أنك رسول الله . قال : إن الله بعثنى بالحق ، وأنزل علىّ كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فقالوا : أسمعنا منه . فتلا الرسول : ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ حتى بلغ : ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ ثم سكت وسكن بحيث لا يتحرك منه شىء ، ودموعه تجرى على لحيته . فقالوا : إنا نراك تبكى . أمِنْ مخافة مَنْ أرسلك ؟ قال : خشيتى منه أبكتنى . بعثنى على صراط مستقيم فى مثل حدّ السيف ، إن زغت عنه هلكت . ثم تلا : ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الآية ، ثم قال لهم : ألم تسلموا ؟ قالوا : بلى . قال : فما بال هذا الحرير ؟ فعند ذلك شقوه وألقوه .

٧ — وفد تُجِيب

هى قبيلة من كندة ، وفد على رسول الله منها ثلاثة عشر رجلا ، وقد ساقوا معهم صدقات أموالهم التى فرض الله عليهم ، فسر رسول الله بهم ، وأكرم مثواهم ، ثم قالوا : يارسول الله ، إنا سقنا إليك حق الله فى أموالنا . فقال لهم : ردّوها ، فاقسموها على فقرائكم . قالوا : ما قدمنا عليك إلا بما فضل من

قرائنا. فقال أبو بكر: يارسول الله، ما قدم علينا وفد من العرب مثل هذا الوفد، فقال الرسول: إن الهدى بيد الله عز وجل، فمن أراد به خيرا شرح صدره للدين.

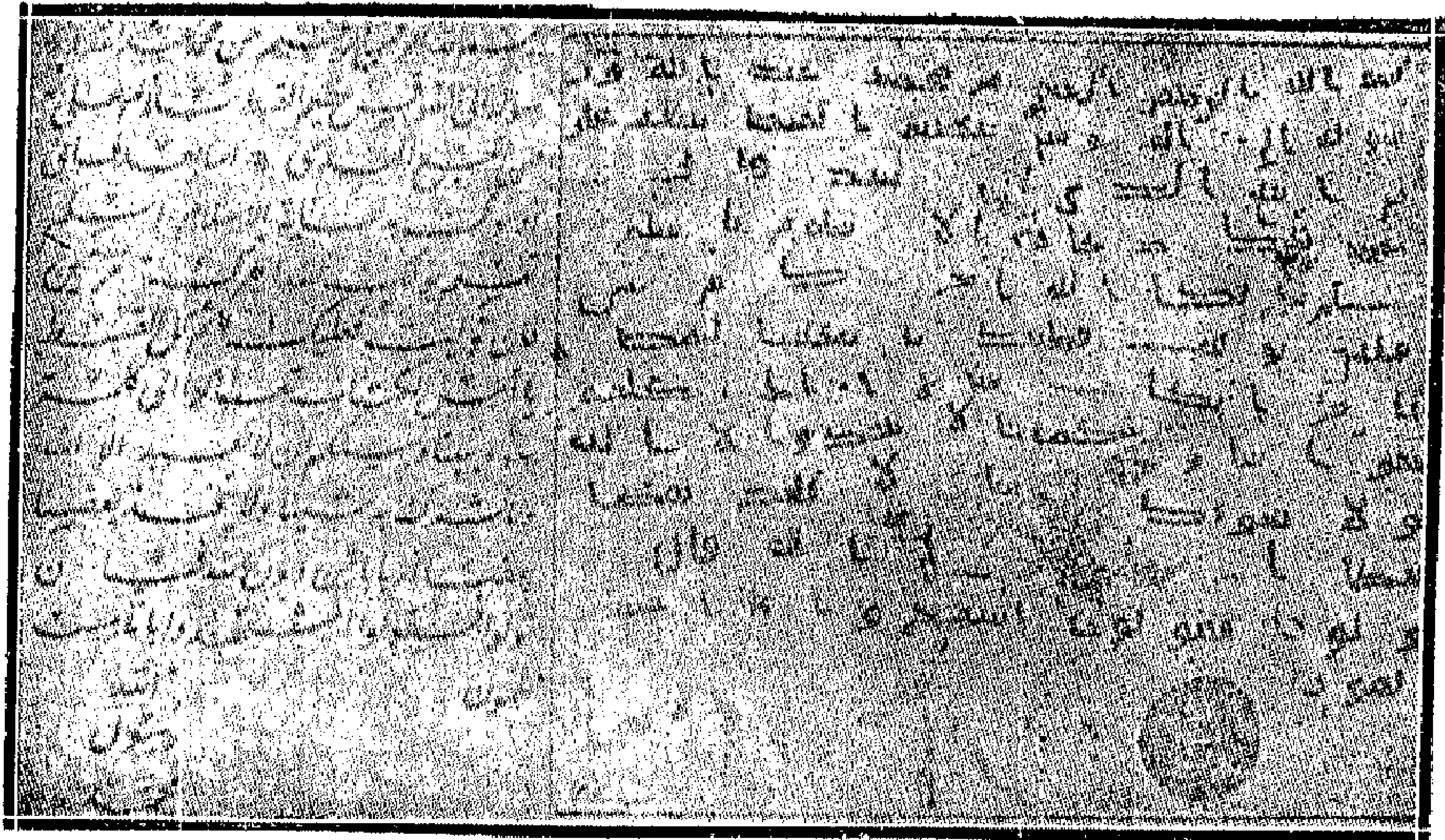
ثم جعلوا يسألونه عن القرآن والسنن، فازداد رسول الله رغبة فيهم. ولما أرادوا الرجوع جاءوا إليه فودّعوه، فأرسل إليهم بلالا، فأجازهم بأرفع ما كان يجيز به الوفود.

ثم قال لهم النبي عليه السلام: هل بقي منكم من أحد؟ فقالوا: غلام خلفناه على رحلنا وهو أحدثنا سنا. فقال: أرسلوه إلينا. فأقبل الغلام، وقال: يارسول الله، إنى من الرهط الذين أتوك آنفا فقضيت حوائجهم، فاقض حاجتى. فقال: وما حاجتك؟ فقال: والله ما أخرجنى إلا أن تسأل الله أن يغفر لى، ويرحمنى، ويجعل غناى فى قلبي. فقال الرسول: اللهم، اغفر له وارحمه، واجعل غناه فى قلبه. ثم أمر له بمثل ما أمر لرجل من أصحابه.

٨ — وفد بنى سعد هُذَيم من قضاعة

قدم وفد بنى سعد هذيم، ونزلوا ناحية من المدينة، ثم خرجوا يؤمون المسجد حتى انتهوا إلى بابه، فوجدوا الرسول يصلى على جنازة فى المسجد، فلم يدخلوا مع الناس فى صلاتهم، وقالوا: ننتظر حتى يصلى رسول الله، ونبايعه. ثم انصرف رسول الله، ونظر إليهم. فدعاهم، فقال: أمسلمون أنتم؟ قالوا: نعم، فقال: هلا صليتم على أخيكم؟ فقالوا: يارسول الله، ظننا أن ذلك لا يجوز لنا حتى نبايعك، فقال: أينما أسلمتم فأنتم مسلمون

فأسلموا وبايعوه على الإسلام.



(صورة كتاب من رسول الله صلى الله عليه وسلم الى حاكم مصر يدعوه الى الاسلام)

ثم انصرفوا إلى رحالهم ، وكانوا قد خلفوا فيها أصغرهم ، فبعث الرسول فى طلبهم ، فجاؤا ومعهم صاحبهم ، فتقدم فبايع الرسول على الإسلام ، فقالوا : إنه أصغرنا ، فقال : أصغر القوم خادمهم . بارك الله عليه . فكان خيرهم وأقرأهم للقرآن . ثم أمره رسول الله عليهم ، فكان يؤمهم .

ولما أرادوا الانصراف أمر بلالا ، فأجازهم بأوان من فضة لكل رجل منهم . ثم رجعوا إلى قومهم فأسلموا .

(ج) مراسلته للملوك

لم يكتف صلى الله عليه وسلم بهذا كله ، بل جاء رحمة عامة ، بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، فأخذ يراسل الملوك ويدعوهم إلى دين الإسلام كقيصر ملك الروم ، وكسرى ملك الفرس . وقد مزق ثانيهما الكتاب استكبارا ، فمزق الله دولته ، وملكها المسلمون فيما لا يزيد على أربع سنوات كما ملكوا دولة الرومان على عظمتها ، واتساعها ، وكثرة جيوشها . وراسل بقية الملوك والأفراد : فأسلم النجاشى ملك الحبشة ، والمنذر بن ساوى ، وأكرم المقوقس رسوله ، ورد قيصر ردا جميلا . ومما جاء فى كتاب الرسول إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلمْ تَسلم يؤتك الله أجرك مرتين . فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين : ﴿ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

كان هذا فى حين أن وفود العرب كانت تفد طوعا، زَرافات ووُحدانا، مشاة وركبانا للدخول فى الإسلام، فأسلم كثير من القبائل عن طيب نفس؛ إذعانا لله، وخضوعا لدينه، وصرع الحق الباطل — إن الباطل كان زهوقا — وأباد جحافل الأعداء، ومزقها تمزيقا، ولم يبق إلا قبائل الشام والعراق.

ثم حج صلى الله عليه وسلم حجته المشهورة بحجة الوداع، وقد بين فيها أهم أصول الدين وفروعه. وفى هذا اليوم نزل قوله تعالى ممتنا على المؤمنين: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. ثم رجع صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع، وجهز جيشا لغزو قبائل الشام التابعة للروم. وقبل سيره اشتد عليه مرضه صلى الله عليه وسلم فجعل يرفع يديه إلى السماء، ثم يضعهما على رأس أسامة، فودعه أسامة ورجع إلى المعسكر، وأمر الناس بالرحيل. وإذا بالرسول يقول: توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

مما تقدم يتبين أنه صلى الله عليه وسلم لقى من الأذى ضروبا كثيرة؛ وكافح صعابا جمة؛ فلم تهن عزيمته، ولم تفتر همته، بل ثبت فى نشر دعوته ومناجزة عدوه؛ ثبات الصادق فى أمره، المستيقن من نفسه، فتم له أعظم نجاح لم يحصل عليه أحد قبله ولا بعده، وترك دينا خالدا أحيا به الأمم، وأزال به الغمم، وجعله نورا يستضىء به بنو الإنسان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

(د) نجاحه فى حروبه

قد أبنا فيما تقدم مالاقاه المصطفى صلى الله عليه وسلم من ضروب الأذى؛

والتضييق الكبير ، والأهوال العظيمة : فطالما أزاح عقبة كأداء ، وخاض بحرا هائجا ، وسلك مفاوز مهلكة ، فثبت غير حافل بهول ، ولا عابئ بمشقة ، بل احتمل هذه الملمات ، وصمد لتلك المصاعب ، يريد نشر دعوته ، فنشرها ، وأحرز فيها النصر الإلهي العظيم ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾

فلما تم له الفوز فى سياسته ، أذن الله له بالهجرة — بَيْدَ أن أهل مكة لما رأوا وثيق اتصاله بأهل المدينة ، وسرعة انتشار الاسلام فيها ، وخشوا أن ذلك قد يفضى إلى تحريض أهلها عليهم ، دبروا حيلة لقتله وإبطال دعوته . ولكن خاب فألهم ، وضل سعيهم ، إذ خرج مهاجراً إلى المدينة يصحبه صديقه الحميم ، وكانت هذه الهجرة هى السبب الأعظم لظهور دين الإسلام ونشره بعد أن قضى عليه الصلاة والسلام ثلاث عشرة سنة ، وهو مضيَّق عليه فى نشر دينه القويم . فلما علم المشركون بفساد مكرهم ، ضاع رشدهم وهاجوا ، وجعلوا لمن يأتى به أو يدل عليه مائة ناقة . فأعمى الله أبصارهم عن رؤيتهما ، وبعد ثلاث ليال جاءهما الدليل بالراحلتين فى غار حراء ، فسارا قاصدين المدينة ، ثم نزل صلى الله عليه وسلم بقباء ومكث بها أربع عشرة ليلة ، كما رواه أنس بن مالك . وكان نزوله فى بنى عمرو بن عوف ، وبنى فيها مسجده الذى أسس على التقوى من أول يوم ، وكان ذلك عند دخول الشمس فى برج الميزان — وهو أول الاعتدال الخريفى فى الزمان — فكان ذلك رمزاً لما فى شريعته من الاعتدال . وكونها آخر الشرائع الإلهية التى يبلغ بها الدين غاية الكمال .

ولما استقر عليه الصلاة والسلام فى المدينة ، أرسل فى طلب من تخلف من أهله . فمنع مشركو مكة بعض المستضعفين ؛ وعذبوهم وحبسوهم ، ولم يمض

غير قليل حتى انتشر الإسلام فيها ، فهاج ذلك اليهودَ ، وغاظهم رسوخ قدم الإسلام ، فتمكنت العداوة فى نفوسهم ، وتحزبوا على المسلمين ، مع أنهم كانوا يستفتحون على المشركين بنبيّ يبعث ، وقد قرب زمانه — غير أن حب الرياسة أعماهم ، فاستعظموا الأمر ، وساعدهم على هذا جماعة من عرب المدينة المنافقين . ثم عقد الرسول مع اليهود عقدا على أن يتركوا أذاه ويترك محاربتهم.

مشروعية القتـــــال

لم يكن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سيف يضرب به أعناق الناس ليدخلوا فى دين الله أفواجا ، بل كان الأمر مقصوراً على الدعوى إلى الدين الحنيف . وتحمل صلوات الله عليه فى سبيل ذلك أذى كثيرا ، ومعارضة شديدة ، وبغيا وحسدا ، ومع ذلك كان ومن معه صابرين على الأذى والضيم ، مستيقنين بأن لهم الفوز فى النهاية ، إلى أن فرج الله عنهم بالهجرة ، وأباح لهم مكافحة أعدائهم الذين جاهروهم بالعدوان ، فأذن له صلى الله عليه وسلم بالقتال : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾

أخذ ينشر دين الله بين القبائل بالدعوة ، ويدفع كل اعتداء ينشأ بالقوة ، دفاعا عن نفسه وعن المسلمين ، وحماية للدعوة من معارضيها ، ولم يقاتل إلا من قاتله أو اعتدى على المسلمين . ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ . فنجم عن ذلك إرسال الجيوش : سَرِيَّة [1] إثر سرِيَّة ،

(١) السرية : قطعة من الجيش سميت بذلك لأنها تسرى فى خفية ، وتطلق على كل غزاة لم يكن فيها رسول الله ، والتى كان فيها تسمى غزوة .

وغزوة تتبعها غزوة ، حتى مكن الله له فى الأرض ، وتكفل بحفظ دينه من العبث : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ .

طلع عليهم طلوع البدر التمام ، وسفر لهم سفور الشمس ليس دونها غمام ، ومحا بنور الإسلام والإيمان ظلمات الأوثان والأصنام ، وأزال بالقرآن والبرهان جميع الشكوك والأوهام . ومن لم يقنع بفصيح القول وبديع البيان أقنعه بفصيح السيف وحدّ الحسام . واستمر صلى الله عليه وسلم يجاهد فى الله حق جهاده ، وينشر دينه فى بلاده وعباده ، مدّة عشر سنين لم يسترح فيها غمضة عين ، ليقينه أنه على الحق . ومن كان على الحق فعليه أن ينشره باللسان أو السيف ، أو أى أداة أخرى ، حتى طهرت الأرض من عبادة الأوثان ، وسطعت أنوار الإيمان ، وامتلأت الدنيا بعبادة الرحمن ، وخذل أهل الكفر والعدوان ، مع اجتهادهم وتحزبهم فى كل زمان ومكان على محو دينه . وإطفاء نوره : ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ـ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ . فدخل الناس فى الدين أفواجا ، وكثرت سراياه حتى قاربت الستين ، وبلغت مغازيه سبعا وعشرين : قاتل فى تسع منها بنفسه ، فأظهر فيها ما يفخر به أعظم قواد هذا الزمان ، من إحكام الخطط ، وحسن التدبير ، وإتقان النظام . ودل أصحابه فيها على صدق فى محبته ، وإخلاص فى الولاء له .

تامل غزوة بدر الكبرى ، وما يليها من الغزوات :

غزوة بدر الكبرى

تدبر هذه الغزوة وما تم فيها من النصر المبين، وإعزاز الإسلام وأهله مع قلتهم، وإذلال المشركين على كثرتهم، وما كانوا فيه من سوابغ الحديد، والعدة الكاملة، والخيول المسوّمة [1]، والخيلاء الزائدة. وعدّتهم فى ذلك ألف محارب، ومائة فرس، وسبعمائة بعير. وعدد المسلمين لا يبلغ إلا أربعمائة وثلاثة أفراس، وسبعين بعيرا. ولم يمنعهم من ملاقاتهم قلتهم، بل قام المقْداد ابن عمرو وقال: يارسول الله، امض لما أمرك الله فنحن معك. والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَٰهُنَا قَاعِدُونَ﴾ بل: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فوالذى بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى بَرْك الغماد (يعنى مدينة الحبش) لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه. فدعا له النبى صلى الله عليه وسلم بخير. ثم قال سعد ابن معاذ: «قد آمنا بك، وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة. فامض يارسول الله، لما أردت، فوالذى بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك. ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن نلقى عدوّنا. وإنا لصُبُر عند الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء. ولعل الله يريك منا ما تقرّبه عينك. فسر بنا على بركة الله تعالى» فسر النبى عليه الصلاة والسلام بقول سعد، ونشطه على ذلك، ثم قال: «سيروا على بركة الله، وأبشروا، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين. والله لكأنى أنظر الآن إلى مصارع القوم» وعيّن

(١) المسومة: المرعية.


ما بين الحرمين الشريفين
لبيان شيء من غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم
ورسم الشيخ محمد فخر الدين مدرس الجغرافيا والتاريخ بدار العلوم
ذنب نقمى ومجمع الأسيال
جبل أحد
جبل سلع
المدينة
قبا
تبوك
تيماء
الحجر او مدائن صالح
خيبر
فدك
جبل أحد
المدينة المنورة
ذو حسى
ذو القصة
ينبع البحر
بدر
الجار
الابواء
رابغ
الجحفة
مستورة
خليص
عسفان
ذات عرق
مكة المكرمة
الحديبية
التنعيم
الجعرانة
الطائف
قرن المنازل

مصارعهم فما تعدَّوها . فالتقى الفريقان ببدر — وكان يوما من أشد الأيام هولا — ودارت الدائرة على قريش ، وانهزموا انهزاما كبيرا ، وقتل فى هذه الغزوة أبو جهل وصناديد قريش ، وأيد الله المسلمين : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ . بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ الآيات . وأعز الإسلام وأهله ، فرجعوا إلى المدينة فرحين مسرورين بهذه النصرة العظيمة . وقد امتن الله عليهم بالآيات المتقدمة .

وليست بقية الغزوات دونها فى خذلان الأعداء ، ورفع كلمة الإسلام ، وإعزاز جيشه ، بل كانت كلها آيات بينات : فهناك غزوة الخندق ، وما أحرزه فيها المسلمون من التأييد العظيم ، والفوز الكبير ، مع أن عددهم لم يتجاوز ثلاثة آلاف ، فى حين أن جيش الأحزاب عشرة آلاف رجل ؛ جاءوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وظنّ المسلمون بالله الظنون . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بضرب الخندق على المسلمين ، وأرسل من جيشه خمسمائة مقاتل لحراسة المدينة ؛ خوفا على النساء والأولاد ، وهجم الأعداء من كل صوب وناحية ، فسلط الله عليهم ريحا شديدة ليلا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ . فانهزموا ، وجعلوا يرتحلون هربا ، ولم تقو الأحزاب مع كثرتهم على محاربة

المسلمين المستضعفين . وظهر عند ضرب الخندق آيات من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم بل انظر غزوة الفتح .

غزوة الفتح

تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتائب الإسلام ؛ وجنود الرحمٰن وقال : « هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ، ويوم تكسى فيه الكعبة » . وبعث إلى من حوله من قبائل العرب ، وأمر خالد بن الوليد ومن معه أن يدخل مكة من أسفلها ، وألا يقاتل إلا من قاتله . ودخل صلى الله عليه وآله وسلم من أعلاها ، فاندفع خالد فصدته قريش ، فقاتلهم وهزمهم ، وانتهى بهم القتال إلى باب المسجد ، فارتفعت طائفة منهم إلى أعلى المسجد ودخلوا الدور . ثم قال صلى الله عليه وسلم لخالد : لِمَ قاتلت وقد نهيتك عن القتال ؟ فقال : هم بدءونا بالقتال ، وقد كففت يدى مااستطعت ، فقال : « قضاء الله خير» . ثم وضع رأسه صلى الله عليه وسلم تواضعا لله ، لما رأى ماأكرمه الله تعالى به من الفتح المبين ، حتى إن رأسه لتكاد تمس رحله ؛ شكرا وخضوعا لعظمته جل وعلا ؛ إذ أحل له بلده ، ولم يحله لأحد قبله ولا بعده .

ثم أمن الرسول أهل مكة ، وأمر أباسفيان بعد إسلامه أن ينطلق إلى قريش فيعلن أن من دخل المسجد فهو آمن ؛ ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن — إلا أشخاصا أهدر دمهم لمساويهم : منهم من قتل ، ومنهم من أسلم بعدُ . ثم دخل الكعبة وحولها ستون وثلثمائة نُصُب ، فجعل يشير إليها ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل » « جاء الحق ومايبدئ الباطل وما يعيد » ثم أمر بالآلهة فأخرجت . وطهر الله الكعبة البيت الحرام .

من هذه المعبودات الباطلة؛ واستبدل بها عبادة الله الواحد القهار، وخرج صلى الله عليه وسلم إلى مقام إبراهيم، وصلى فيه وشرب من ماء زمزم، ثم جلس بالمسجد — والأبصار شاخصة إليه؛ لترى ماهو فاعل بمشركى مكة ألد أعدائه؛ الذين آذوه وأخرجوه من بلاده، وهموا بقتله مرارا وقاتلوه — فقال: «يامعشر قريش، ماترون أنى فاعل بكم؟» قالوا: «خيرا: أخ كريم، وابن أخ كريم» فقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» — (الذين أُطلقوا فلم يُستَرَقّوا ولم يؤسَروا) — فعند ذلك أخذ الناس يبايعونه على الإسلام رجالا ونساء، وأسلم جميع أهل مكة.

ثم أرسل صلى الله عليه وسلم السّرايا لهدم أصنام القبائل، فهدمت صوامع وبيَع، ولم يقف عند هذا الحد، بل أرسل جيشا إلى اليمن، وعلى رأسه على ابن أبى طالب وقال له: «سر حتى منزل باحتهم، فادعهم إلى قول لا إله إلا الله: فإن قالوا: نعم. فمرهم بالصلاة. ولا تبغ منهم غير ذلك. ولأَنْ يهدى الله بك رجلا واحدا، خير لك مما طلعت عليه الشمس. ولا تقاتلهم حتى يقاتلوك». وقال أيضا: «إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر». وبعد ذلك أرسل من يعلمهم: فأرسل مُعاذ بن جبل، وأباموسى الأشعرىّ، وقال لهما: «يسرا ولا تُعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا».

تأمل كل هذا، وراجع باقى غزواته غزوة غزوة، تجد مايذهشك من النصر المؤيد، والفوز العظيم، بنظام محكم، وتدبير سديد: كغزوة خيبر وفيها أعظم المهيجين للأحزاب، وغزوة الخندق وبها جمهرة اليهود. وكانت ذات حصون ومزارع. فقاتلهم النبى، وقاتلوه أشد القتال، وفتحها حصنا حصنا. وهكذا

بقية الغزوات .

فأى نجاح أعظم من تأسيس ملة حكيمة ، وأمة عظيمة ، ودولة عادلة رحيمة ، قال فى حقها «غوستاف لوبون الفَرَنسى» : «ماعرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب» ؟

وأى فوز أسنى من تبليغ دين يظل عزيزا ماأقام أهله الحق ، واعتصموا بالعدل ؟ فجزاه الله عنا أفضل ماجزى به نبيا عن قومه ، ورسولا عن أمته . وصلى الله وبارك عليه وعلى أهل بيته الطاهرين ، وأكثر فى أمته من الناسجين على منواله إلى يوم الدين .

الباب الثامن

محمد صلى الله عليه وسلم أوفى الأنبياء دينا

تمهيد

اقتضت حكمة الله تعالى أن يخلق الناس مفطورين على طبائع حسنة ؛ تعينهم على انتظام أحوالهم ؛ وعلى طبائع تخالفها. ليتسابقوا فى عمران هذا الكون الذى قدر وجودهم فيه إلى أجل مسمًى . وإن الطبائع السيئة لا تقف عند حدّ المسابقة والمنافسة ، بل تأتى من ضروب الطغيان بما يجعل ضررها أكبر من نفعها ، ولذلك اقتضت حكمته تهذيبها ، ووقفها عند حدّها النافع . فبعث الرسل لكسر سَوْرتها ، حتى تصطبغ بصبغة يظهر بها نفعها ، ويزول عنها ضرها ، وحينئذ تتخلّق أخلاقا حساناً .

والرسل عليهم السلام يصلون إلى ذلك من طريقين : الترغيب ، والترهيب وخير مُعين لهم على إدراك ذلك ، ماطبعهم الله عليه من الصفات الكاملة : كالصدق ، والأمانة ، والنزاهة ، والتزام الحق فى جميع أحوالهم ، مع البرّ والإحسان ، والنصيحة لكل إنسان ، وتجافيهم عما لا يليق بمنصب رسالتهم ، ومقام نبوتهم من الوقوع فى المعاصى ، والتعلق بسَفْسَاف الأمور . وما وقع منهم من صور المعصية ، فحكمته الإشارة إلى انفراد الله تعالى وتوحده بالكمال المطلق . وذلك لا ينافى أبدا أنهم أكمل الخلق ، وصفوة الناس .

لا شك فى أن العالم لم يخلُ من دين منذ الخليقة ، وكان التنزيل فى كل عصر مسايراً لما وصل إليه الإنسان ، من الرقى العقلى والخلقى . فلما بُعث محمد صلى

الله عليه وسلم بالذكر الحكيم ، أماط اللثام عن أغراض أسمى ، ومقاصد أنبل وأرقى ، إذ بيَّن أن مقاصد الدين إنهاض الإنسان ، وتنمية ملكاته ، وتثمير غرائزه ، جسما ، وعقلا ، وخلقا ، ليبلغ ماأعده الله له من التقدم والرقى ..

ذلك بأنّ مَثل الإنسان عند الله ، كَمثل سائر السنن الكونية : فيه ضروب من الاستعداد والمقدرة والملكات الكامنة ، والحق جلّ جلاله أراد إخراجها إلى عالم الوجود ، لاستبطان مافى الكون من آى وعبر وبدائع ، ينتفع بها الخلائق فى معاشهم ومعادهم — بيد أنّ الإنسان ركبت فيه ميول ، هى فى أصلها أشبه بالميول الحيوانية ، وجرت سنة الله فى السنن الكونيّة ، أن يخرج الوسيم من الذميم ، والمليح من القبيح . وكذلك جعل هذه الميول الحيوانية بذورا تثمر أشجارها الحضارة والمدنية ، فأرسل النبي العربى الأمى ، صلى الله عليه وسلم ، ليكشف عن الأسرار التى انطوى عليها الإنسان ، وليبين كيف يرقى من رتبة الحيوانية إلى مرتبة الملائكة الأطهار .

ولم يسلك محمد صلى الله عليه وسلم فى استكناه هذه الأسرار ، مسلك من سبقوه من المصلحين ، فى الاقتصار على النصح السديد ، والموعظة الحسنة وتأدية فرائض الصوم والصلاة ، والأدعية والقرابين ، بل جمع إلى ذلك مسلك المعلم الماهر فى التشريع :

فصّل مااستكنّ فى العقل الإنسانى صغيره وكبيره ، ووضع للغرائز الحيوانية نظاما يكفل الهيمنة عليها ، وتوجيهها لمنفعة بنى الإنسان ، واتخاذها أساسا لعلو الهمة ، والمدافعة عن النفس والوطن ، والاحتفاظ بالمال والشرف ، وما إلى ذلك من الكمالات الإنسانية .

لاجرم أنّ الغريزة ينشأ عنها قوتان : القوة الغضبية ، والقوة الشهوية .

ولهاتين القوتين مسالك متنوعة : فمنها الجيد ، ومنها الردىء ، ومنها المحمود ومنها المذموم : فإن كانت القوة الغضبية فى صورتها المذمومة ، نشأ عنها الحقد ، والعداوة ، والهوى ، وحدة الخلق ، والاستبداد ، والغيبة ، والقذف والجبن ، والنفاق . وإن كانت فى صورتها المحمودة ، نشأت عنها الشجاعة ، والإقدام ، وعلو النفس ، والصبر ، والمثابرة ، والتسامح ، والوداعة ، والحلم والتواضع ، والصفح . وإن كانت القوة الشهوية فى صورتها المحمودة ، نشأ عنها الحب ، والوفاء ، والرحمة ، والكرم ، والرضا ، والإيثار ، والثقة ، والاعتماد على الله . وإن كانت فى صورتها المذمومة ، نشأ عنها ضعة النفس والشح ، والشره ، والعجب ، والحسد ، والخيانة ، وما إلى ذلك .

وهنالك القوة العاقلة ، فإذا ثقفت أخذت بناصية القوتين الأخريين ، وصرفتهما التصريف الحسن .

وقد انفرد الذكر الحكيم باشتماله على استكناه العقل الإنسانى ، وبيان ملكاته وصفاته . وظاهر أن كل شىء فى الكون صائر إلى كماله ، بسيره فى سبيل ممهدة له لبلوغ ذلك الكمال . ومن ذلك ما فى الإنسان من الملكات الجسمية ، والعقلية ، والخلقية . ووسيلة ذلك الدين الصحيح القائم على الفهم والتفكير ، فقد خرج الإنسان من طور الاكتفاء بالقضايا البراقة ؛ التى لا يدعمها دليل ولا برهان ، وأصبح غير سائغ فى شريعة العقل ، أن يتحول الخسيس رفيعا بسحر زائف ، بل لابد فى طريق الكمال من جهاد دائم ، وعمل متواصل ، وهداية العلى الأعلى الذى انفرد بإدراك أسرار النفس الإنسانية .

من أجل ذلك ، جاء محمد صلى الله عليه وسلم ، بشريعة رفع بها الإنسان من حيوانيته إلى ملكيته ، وهدى الناس إلى استخراج الفضائل مما فيهم من

القوتين الغضبية والشهوية ، وأوضح جميع ضروب الخير وضروب الشر ، وبين المأمور به ، والمنهىّ عنه ، وهدى الناس للصراط المستقيم ، يزنون به ميولهم ، وأعمالهم ونزعاتهم ، ويرقّون به أحوالهم وملكاتهم ، وهو التخلق بأخلاق الله تعالى ، فقد ورد فى الحديث الشريف : « تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللهِ » .

لا ريب أن التخلق بأخلاق الله يستدعى المجاهدة العظيمة للنفس ، وحملها على الأشقّ فالأشقّ لمحاولة الاتصاف بصفاته جلّ شأنه ، من حلم ، وكرم وسخاء ، ورحمة ، وقوة ، وعدل . ويستدعى أيضا العلم بالله ، بما يستطيع الحادث أن يعلم من القديم ، لأنه لا يمكن التخلق بأخلاقه : إلا إذا حصل العلم بصفاته جلّ شأنه ، من العظمة ، والرفعة ، والقدرة ، ولهذا تضمن القرآن الكريم طائفة من أسمائه الحسنى ؛ تقريبا لأذهان الناس ، وتمكينا لهم من أن يتأسوها . وليست هى كل مالله جلّ شأنه من أخلاق وصفات ، بل إنها هى التى يستطيع الإنسان أن يجاهد فى سبيلها حق جهاده ، ليكون عسيًّا أن يتصف بها .

ومن هذا يتجلّى أن محمدا عليه الصلاة والسلام ؛ جاء للعالم بما قرب لهم فهم الألوهية ، وأوضح لهم أن الله هو رب العالمين ، الرّحمٰن الرحيم ، مالك يوم الدين ، الذى فطر الخلائق ، وأودعها أسرارها وأعراقها ، وكفل لها أقواتها وأرزاقها ، ووسائل نموّها ، بما يجعلها تبلغ كمالها ، بعد أن تجتاز أطوارا لامحيص منها فى سبيل التدرّج والارتقاء ، كما جرت سنته فى جميع الكائنات .

هو الرحمٰن الذى أحسن كل شىء خلقه ، وجعل لكل شىء مزية تُرتجى منه فى كل طور من أطوار نموّه ، وكل ماأودعه إياها من المنافع والمزايا لم يكن

بكسب منها، بل بمحض فيضه وحكمته وإرادته.

وهو الرحيم الذى يجزى خلقه بما يفعلون من الخير والحسنات أضعافا مضاعفة، رحمة بهم، ومحبة لهم. ومعظم هذا الخير يجعله الله فى ملكاتنا ومواهبنا المكنونة. وإذا سلك عباده مسلكا خطأ فى سيرهم نحو الارتقاء، فليس حتما من الحتم عليه أن يعاقبهم، لأنه سيد قوانينه، وهو المتصرف المطلق فيها: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾.

وهو مالك يوم الدين، ورحمته سبقت غضبه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾.

غير أنه إذا اقتضت حكمته — تعالى شأنه — أنْ لا اصلاح للمذنب الأثيم إلا بالعقوبة: عاقبه بما يصلحه، ويجعله عبرة لغيره.

إذا تأملت هذه النعوت الإلهية انكشف لك مظهرها، فى كل ذرّة من ذرّات الكون، فى خلقها، ونموّها، وتدرجها.

أليس فى هذا البرهان الكافى والشاهد المقنع على وجوب التأسّى بالله تعالى فى هذه النعوت الحسنى؟ بلى: لو فقه ولاة الأمور فى الناس هذا الدين الحنيف، وسلكوا فى عباد الله مايشعر بتخلقهم بأخلاق رب العالمين، الرحمٰن الرحيم، مالك يوم الدين — لتحققت المملكة التى تمنّاها عيسى عليه السلام، والتى استقرّت على وجه الأرض فى عهد محمد صلى الله عليه وسلم.

ولهذا الدين الحنيف مقاصد نجملها فيما يلى:

مقاصد الإسلام

تمهيد

من الأمور التى يؤيدها الواقع وإن تجاهلها المكابرون أن رابطة الدين أقوى من روابط الأجناس واللغات، ودين الله منذ الخليقة واحد، أصوله واحدة، وعقائده واحدة، ولذلك لا يكون المسلم كامل الإسلام إلا إذا اعترف بجميع الأديان التى جاءت من عند الله وآمن بالمصدر الإلهى لكل دين، وهذا سبيل الاتحاد والوفاق وهو معنى السلم الذى يدل عليه الاسلام

إن الله — جلت حكمته — أوجد الناس جميعا من أصل واحد، وسوى بينهم فى المزايا الجسمية، فعدله يقتضى التسوية بينهم فى المزايا الروحية. ولذلك أراد أن يمتحوا من معين واحد، تأمل قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ، فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تجد كما سبق فى ثالث أبواب هذا الكتاب أن الآية صريحة فى أن ما جاء به الرسل السابقون قد تفرق واختلف إلى حد عظيم، وإذا كان دين الله قد مسه التحريف بالزيادة أو النقص، وانحرفت الانسانية عن أصلها، وحادت عن الطريق السوى، فرحمة الله تقضى بدعوة الذين اختلفوا فى دينهم إلى غاية واحدة: اقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

تلك دعوة مضى عليها ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن ، وقد لباها عدد عظيم من الشرق ، فأصبحوا بنعمة الله أفراداً فى جماعة الأخوة الإسلامية الشاملة ولا يزال الغرب مصما آذانه عن سماعها . والأمل وطيد أن يجىء الوقت الذى لامناص له من إجابتها ، لينجو من شر المشاكل المستعر لظاها ، والتى إن لم تتدارك التهمت اليابس والأخضر

حقا إن عيسى عليه السلام جاء بالإنجيل وعلّم الناس العقيدة الصحيحة عن الله عز وجل ، وعرفهم الفرق بينه تعالى وبين البشر ، وكان يخاطب مولاه بقوله « لتكن إرادتك لا إرادتى » ويؤيد هذا بالخضوع العملى ، فوضح أن أساس دينه الأمر من جانب الله ، والطاعة من جانبه ، وأنه عليه السلام ماجاء ليهدم بل ليكمل : تأمل قوله « ما جئت لأنقض بل لأكمل » ولذلك كان يحيل حوارييه على كتاب اليهود لزيادة العلم والمعرفة والاطمئنان

كان عيسى عليه السلام خلوا من الأثرة ، يفيض محبة وحنانا ، ويرجو من ربه المعونة على تأسيس مملكة فى الأرض قوامها الحق وسياجها العطف ، وأن يمكنه من رد خراف بنى إسرائيل الضالة إلى حظيرة الغنم . وماجاء « ليلقى اللؤلؤ تحت أرجل الخنازير ، أو ليبيح للكلاب أن تأكل خبز البنين »

وكان عيسى عليه السلام فى شغل شاغل يقضى نهاره فى مصالح الخلق ، ويسهر ليله فى الخلوة بربه ، وكل همه أن يترجم بأحواله وأقواله وأعماله قانون ربه

جاء عيسى عليه السلام على صورة الله فى الأخلاق ، فتخلق بأخلاق الله الذى منحه قانونا إلهيا يدل الإنسان على طريق الكمال ، والإنسان هو العالم كله مصغَّرا ، فلا يليق به أن يظل جاهلا بالمعنى الحقيقى لهذا القانون . ومن الذى يستطيع أن يستكنه هذا القانون ؟ الرسل هم فرسان ذلك الميدان ، فقد

جاءوا واحدا بعد آخر ليعلنوه ويبينوه ويعيدوا إليه سيرته الأولى . وظلوا كذلك حتى جاء محمد عليه الصلاة والسلام فأعلن أن دين الاسلام هو دين الخضوع للقوانين الالهية التى تشمل الأمر والنهى والتحليل والتحريم ، وهو المظهر الأوفى لكلمة الله وأمره ، وهو الدين الذى جاء به أنبياء العالم من قبل . اقرأ قوله تعالى : ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

أليست هذه الآية دليلا واضحا على أن القرآن مصدق لما سبقه من الكتب ، وقد جاء ليخلصها من كل تزييف بشرى مسها؟ بلى! ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾

وجلىّ أن من يسلم بأن الوحى الإلهى حاجة من حاجات البشر ، ومن يؤمن بأن التنزيل فى الكتب السالفة جاء من عندالله ، يسلم بداهة بأن القرآن آخر وحى من عندالله ، وأن محمدا آخر طائفة الأنبياء ، عليه وعليهم صلوات الله وتسليمه .

حقا إن كل أمة فى العالم تعتقد أن دينها من عندالله ، وأن الكتب التى بأيديهم صحيحة لامرية فيها ، وأن ما سبقها من الكتب قد امتدت إليه يد الانسان بالتشويه والتحريف ، وأن سنة الله جرت بإرجاع وحيه نقيا خاليا من الشوائب ، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم إذ يقول : ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

ولا أدل على صحة ذلك من أن عيسى عليه السلام قد بعث بعد أن ضل العالم ضلالا مبينا ، ثم أدّى رسالته على الوجه الأكمل ، ولما انحرف العالم بعده عن الطريق السوىّ وأظلمت الحقائق : جاء القرآن الكريم لإنقاذ البشر ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وقد أقفل باب الوحى بعده لأنه باعتراف الأصدقاء والخصوم باق كما جاء به محمد لم يمسسه تغيير أو تبديل ، ولا عجب فقد تكفل الله بحفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

جاء هذا الدين بالمحبة : انظر قوله عليه الصلاة والسلام : « إن كنت تحب ربك فأحب مخلوقاته » وقوله : « أحبَّ لأخيك ماتحب لنفسك » دون فرق بين الأجناس والألوان ، ولم يقصد بالحب القول باللسان ، بل الاستعداد لإطاعة أوامر الله ، وأن يكون حبه فوق كل حب آخر ، قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾

جعل هذا الدين قانونه « لا إله إلا الله » وهو يترجم عن حب الإنسان لله فى أكمل صورة ، ومابقى من الدين فهو وسيلة لجعل « لا إله إلا الله » حقيقة عملية.

خصائص الإسلام

لا يتسع المقام لاستيعاب خصائص الإسلام ، فنكتفى بطرف منها :

(١) الإسلام لا يكلف النفوس البشرية ماليس فى وسعها فلا يعرض عليها من العقائد مالا طاقة لها بفهمه ، ولا يحملها ماليس فى قدرتها العلمية أن تقيله ، تأمل قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا

فى أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أى لو أصغينا إلى أولى الألباب بآذان واعية ، أو لو استرشدنا بعقولنا واختبرنا الدين من طريق العقل والفهم ؛ ما كنا اليوم فى أصحاب السعير

وفى الآية إشارة إلى أن الإنسان يحصّل علم اليقين من طريق السماع فكثير ، من الناس لم يروا مكة ، وإنما سمعوا الحجاج يحدّثون عنها ، كذلك الكتب السماوية يحصُل علم اليقين بها من طريق السماع المتواتر ، مالم تكن اختلفت رواياتها وأسانيدها

(٢) ليس من بين جميع ماعرضه من العقائد والأصول شيء فيه إرهاق أو عنت ، بل إن جميع مبادئه مركوزة فى جبلة الإنسان ، لذلك سماها الله ذكرا فى قوله تعالى : ﴿هَـٰذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ﴾ ومعناه أنه كتاب مبارك لم يأت بأمر محدث ، وإنما يذكر الانسان بكل ماأ ودع فطرته

(٣) لا يكلف الاسلام أحدا أن يتقبل شيئا منه على كره ، بل يبين مع كل أمر من أوامره أدلته وبرهانه

(٤) ينزع الاسلام من النفوس أسقامها ، ويذهب ظلمتها بما فيه من البراهين المعقولة فى الذروة العليا ، وبما فيه من النور الساطع ﴿شِفَاءٌ لِمَا فِى الصُّدُورِ﴾ .

(٥) جعل الهداية إلى وجود الله سبحانه وتعالى من طريق النظر فى بواعث الظواهر الكونية ، كاختلاف الليل والنهار فى القصر والطول . تأمل قوله تعالى ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِى الأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى

جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ: رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ، فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

هؤلاء الحكماء وأرباب العقول حين يفكرون فى تكوين الأرض والأفلاك السماوية يهتدون إلى وجود الله سبحانه وتعالى، وينشطون لمزيد الاستطلاع والكشف ويستعينون بأدبه، ويذكرونه قياما وقعودا وعلى جنوبهم، حتى إذا ازدادت عقولهم وضوحا وجلاء وفكروا بها فى نظام الأفلاك والأرض الذى بلغ حد الكمال والإحكام؛ لم يسعهم إلا أن يقولوا: «ماهذا النظام الذى فاق حد الوصف فى الاتقان والابداع؟ هيهات، ليس هذا بالباطل أو العبث وإنما هو أثر من آثار الخالق الحق، فاندفعت نفوسهم إلى مناجاته: «سبحانك وحاشاك أن ينكر ذاتك أحد أو يصفها بما لا يليق بشأنك ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾»

(٦) متى خالط الاسلام النفوس أكسبها روحا جديدة تنفى عنها الميول النازلة؛ وتقضى فيها على محبة الأغيار الباطلة. وتملكتها جاذبية الحياة المقدسة، فأصبحت بالله تبصر، وبه تسمع وتنطق وتبطش وتمشى، تأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللّٰهَ يَدُ اللّٰهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلٰكِنَّ اللّٰهَ رَمَى﴾

وهذا جلىّ فى أن الإسلام يجرى فى نفوس أهله مشيئة الله ومرضاته؛ ويجعل أخلاقهم أقوى من الجبال الراسيات، ويلطف العقل والإدراك غاية اللطافة، وحسبك قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾

وإذا أيد الله عباده تدفقت من جوانحهم سيول المحبة لدينه ولكلمته، وهان عليهم أن يتحملوا في سبيله ضروب العذاب والأذى والهوان، فإذا رأوا غمرات الموت خاضوها بحبور وابتهاج، وأحسوا أن يدا خفية تسير بهم إلى إشادة الحق وهدم الباطل، ورأوا أنهم قريبون من ربهم ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ويصبحون ومثلهم كمثل شجرة أينعت ثمرتها فلا تلبث أن تسقط الثمرة وحدها، فتعود على العالم بالفائدة العظمى

غير أن الاسلام أوضح في جلاء أن الوصول إلى هذه المرتبة وقف على الجهاد الأكبر والتفدية العظمى، فما القيل بمجد شيئا، ولا القال بمغن فتيلا بل لابد من السعي الحثيث مع الجد والحماس

قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي، فَإِنِّي قَرِيبٌ. أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾

(٧) أوضح الاسلام مقاصد الحياة البشرية. فقد اختلف الناس قديما وحديثا في تعيين مقاصد هذه الحياة البشرية تبعا لاختلاف طبائعهم، وكلها لا تخرج عن الأغراض الدنيوية والأماني العاجلة. فجاء الإسلام مبينا هذه الغاية أجلى بيان: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ. إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

وإليك البرهان :

جاء الإنسان إلى هذا العالم بقدرة الله وإرادته ، ويتركه بمشيئته ومرضاته ، فلا اختيار له فى المجيء والذهوب ؛ وإذ ثبت أنه مخلوق كسائر الكائنات ، وأن الله اختصه بأفضل الملكات ، فقد قدر لحياته غاية معينة ، هى عبادته ومعرفته ، والفناء فى ذاته .

هذا الدين هو دين الفطرة ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ وهذا جلىّ فى أن الاسلام قد أودع فطرة الانسان ، وأن الله أنشأ الانسان على نشأة الاسلام ، وخلقه من أجل الاسلام . وأنه لذلك وهب له من الملكات جميع ما يناسب مقتضى الاسلام . وجعله ـ مهما أوتى من حظوظ الدنيا سواء أكانت من باب المال أم الجاه ـ تام العلم بأنه لا يجد من دون الله السلوان الحق ، وأودعه ضميراً يؤنبه ويؤلمه إذا انغمس فى ميادين المكر والحيل وغيرها من السيئات . ومن الخلائق التى منحها الانسان أنه متطلع إلى ربه ، تائق إلى أن ينمحى فى محبته ، ويصبح كله لله . ألا ترى أن الحيوان وهو أدنى من الإنسان قد بذه فى الاستمتاع بالأكل والشرب بل فى الصنعة البديعة ، فالنحل يصنع من ورق الزهر عسلا نقيا يعجز الإنسان عن صنع مثله .

ومن ذلك أن البغية المثلى للإنسان أن تكون له بالله صلة وارتباط ولهذه الصلة وسائل :

الأولى : العرفان الصحيح والإيمان الخالص . وكان من حكمة الله ورحمته بهذا الإنسان المكرم أنه كلما ضل الطريق السوىّ وأخطأ جادة الحق التجأ إلى ربه لينقذه من براثن ما نزل به

وفى ذلك جاء قوله تعالى ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ، وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ومعنى هذا أن الإله العلى القدير هو الأحق بالعبادة والدعاء عند حصول الملمات. وأما غيره مما يعبد الناس، فلا ينفعون ولا يضرون، ومثل من يدعوهم مثل من يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه.

الوسيلة الثانية: استجلاء ما اتصف الله تعالى به من ضروب الحسن الأكمل. والحسن قوة تأخذ بالألباب، وتمتلك النفوس، وحسن الله وحدانيته وعظمته وجلاله، انظر قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ تجد أن الله تفرد فى ذاته وصفاته وجلاله وأنه لا شريك له. وأن جميع الخلق كَلٌّ عليه، وكل ذرة من ذرات الكون تستمد حياتها منه، وأنه مبدئ ولا مبدأ له ولا نهاية، لا مولود عن والد، ولا والد لمولود؛ لذلك تنزه عن الشبيه والنظير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾

الوسيلة الثالثة: تَعَرُّف إحسان الله تعالى، ذلك بأن داعى الحب أحد أمرين: إما الحسن، وإما الإحسان. وقد سبق القول فى الحسن، أما الإحسان فيتجلى فى قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ. مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ لأن الله خلق عباده، ثم شملهم بربوبيته، وتعهدهم فى جميع شئونهم، ثم أفاض عليهم رحمته على اختلاف مظاهرها، حتى قال لهم: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾

الوسيلة الرابعة : الدعاء ، وحكمته أن الله رغب الإنسان فى الدعاء بالتكرار المستمر ، لينال منه قوة فوق كل قوة

الوسيلة الخامسة : المجاهدة : ذلك بأن الله جعل من وسائل الفوز بالنجاح الأعظم أن يطلب القرب من الله بإنفاق الأموال فى سبيله ، وما فى النفس من ملكات وقوى ، وما كسبته من علم وفهم وبراعة ، ألم تر أن الله جل شأنه يقول ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ ﴿جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

الوسيلة السادسة : المثابرة والثبات والاستقامة ، وهى أن يجد الإنسان أن البلاء قد أحدق به من جميع جهاته ، وأن نفسه أصبحت بين براثن الخطر ، وسدت وجوه الفرج فى وجهها ، ثم لا يعروه جبن ولا هلع ولا تلين قناته ، ولا ينقص صدقه ووفاؤه ، بل يفيض فرحا بالهوان ، ويرضى بالموت ، ولا يتوقع من صديق مؤازرة أو تثبيتا ، بل لا تتطلع نفسه إلى البشرى بذلك ، ولا يبدى قلقا أو جزعا من القدر المحتوم ، إلى أن يستوفى الابتلاء حقه ، ويبلغ مداه

هذه هى الاستقامة التى يلقى الانسان بها ربه ، وهذه هى العبقرية التى لا يزال عبيرها يفوح من تربة الرسل والأنبياء والصديقين والشهداء . والبها يشير الله تعالى فى كتابه الكريم إذ يقول : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وإذ يقول : ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ حقا إن المؤمنين حقا هم الذين ينزل الله نورا فى قلوبهم حين يشتد الكرب وتتوالى الأزمات والمحن ، فيقاومون به بتؤدة واطمئنان كل تصاريف الدهر وتقلباته ،

وأحسن من هذا أنهم يقبلون السلاسل والأغلال، لأنها فى نظرهم رمز المحبة والقربى، أولئك يرون أن المؤمن الصادق كلما ألمت به البلوى مضى قدماً واستخف بنفسه وأمواله، وجعل ذاته رهينة لمرضاة مولاه الحق لا يبتغى إلا وجهه: هذا المؤمن هو الذى عناه الله بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ هؤلاء الذين شروا أنفسهم يصبحون مورد الرحمة الربانية جزاء بيعهم أنفسهم فى سبيل الله، وتلبيتهم روح الاستقامة.

الوسيلة السابعة: التأسى بالأسى الصالحة لأن الانسان بفطرته محتاج اليها، فهى تزيد فى شوقه وتضاعف همته، ومن لم يثابر على احتذاء الأمثلة النافعة تبلد عقله، وضعف ذهنه، وأظلمت بصيرته، وخرج من زمرة الصادقين. ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾

من المسلم حقا؟

المسلم حقا من عرف لكل من الناس حقه ومرتبته، فاستعمل صفات العدل والاحسان والرحمة، كلا فى محلها ثم أشرك الناس أجمعين فيما رزقه الله من العلم والعرفان، ورغد العيش، كلا على قدر منزلته ومكانته، فمثله مثل الشمس يعم نورها، فترى سبيل الهدى من سبل الضلال واضحا، أو كالليل يسترعيوب الضعفاء، ويستريح فيه المتعب والمنهوك، أو كالسماء تفيض بالغيث العميم، أو كالأرض تصلح مهادا لراحة البشر، وتؤتيهم أكلها كل حين بإذن ربها.

المسلم حقا هو: الذى تنحل بفضله أعقد المسائل، وتنكشف بهمته أدق المشكلات.

المقصد الأول

إعداد الفرد فى ذاته

وسبيل ذلك ما يأتى :

(ا) غرس العقيدة الصحيحة فيه

لا ريب فى أن الدين الإسلامى، بل سائر الأديان ، قد جاءت لبيان مايرشد الخلق إلى معرفة الله تعالى : باعتقاد وجوده ، واتصافه بصفات الكمال وتنزهه عن صفات النقصان . فجميع الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام من لدن آدم ، إلى سيدنا محمد خاتم النبيين — قد اتفقوا على مقصد واحد : هو توحيد الله تعالى ، واعتقاد اتصافه بجميع صفات الكمال ، وتنزهه عن صفات النقصان ، وانفراده بأن يعبد وحده لا شريك له . ومدار القرآن المجيد كله فى العقائد ، إنما هو على هذا القطب . قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ . ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ﴾ . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ .

حقا لقد كان التوحيد شائعا فى بلاد العرب قبل الإسلام ، من عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام — غير أنهم على تمادى الدهور ، دخلت عليهم الأحداث وعبادة الأصنام ، فكانوا كما وصفهم الله فى كتابه الكريم : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ . فجاء الإسلام ماحياً لما كانوا عليه مجدّداً للتوحيد على أكمل الوجوه وأشرف المقاصد ، ناسخا ما تقدمه من

الأحداث والتغييرات التي شابت الدين الخالص بعد الرسل.

فالإسلام هو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها. قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾. ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾.

فتوحيد الله هو روح الدين وأعظم أركانه، وأساس بنيانه، لأنه سبيل الإخبات[1] لرب العالمين، وهو أجل الصفات المكسبة للسعادة. وقد نبه الكتاب العزيز والنبي الكريم على عظم أمره، وكونه من أنواع البر والخير بمنزلة القلب: إذا صلح صلح كل شيء، وإذا فسد فسد كل شيء. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾. وقال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ».

ومظاهر هذا التوحيد أربعة:

الأول — قصر وجوب الوجود عليه تعالى: فلا يكون غيره واجبا.

الثاني — اختصاصه بخلق السموات والأرض وما بينهما.

الثالث — أن ذاته واحدة لا تعدد فيها مطلقا.

الرابع — أنه منفرد بتدبير الملك والملكوت والتصرف فيهما.

وسائل تكوين العقيدة الصحيحة

دعا الله عباده في كتابه الكريم إلى التفكر في خلق الأرض والسماوات، وتعرف الحكمة في خلق الموجودات، ليعرفوا ماله من صفات الوجود والوحدانية، وصفات الكمال، ونعوت الجلال: من عموم قدرته وعلمه، وتمام حكمته ورحمته، وإحسانه وبره، ولطفه وعدله، ورضاه وغضبه،

(١) الإخبات: الخضوع

وثوابه وعقابه، فيزدادون لوحدانيته إدراكا.

فمن ذلك خلق الإنسان وتأمل سنن الكائنات: وقد ندب الله سبحانه إلى النظر فى ذلك، فى غير موضع من الذكر الحكيم. قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾. ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

اشتمل القرآن الكريم على كثير من أشباه هذه الآيات، التى وجه فيها نظر الإنسان إلى التفكر فى مبدأ خلقه، ووسطه، وآخره، فهذا الخلق من أعظم الدلائل على قدرة خالقه وفاطره. وأقرب شىء إلى الإنسان نفسه، وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله، ماتنقضى الأعمار فى الوقوف على بعضه:

ألم تر ما اشتمل عليه جسم الإنسان: من الأعصاب، والعظام، والعروق

والأوتار ؟ وكيف ربطت يد القدرة بعضها ببعض أقوى رباط وأشده وأبعده عن الانحلال؟ وكيف كسيت العظام لحما جُعِلَ وعاء لها وغشاء وحافظا ؟

ثم انظر إلى الحكمة البالغة فى تركيب العظام قواما للبدن ، وعماذا له ، وكيف قدرها ربها وخالقها بمقادير مختلفة ، وأشكال منوّعة ؟ فمنها الدقيق والصغير والكبير ، والطويل والوسط والقصير ، والمحنيّ والمستدير ، والعريض ، والمصمت والمجوف .

ثم تأمل خلق الرأس وما فيه من العظام الكثيرة ، وكيف ركبه سبحانه وتعالى على البدن ، وجعله عاليا علو الراكب على ما يركب ، وكيف جعل فيه حواس السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ، واللمس؟ وجعل حاسة البصر فى مقدمه ، ليكون كالطليعة والحرس والكاشف للبدن . وركب كل عين من سبع طبقات : لكل طبقة وصف مخصوص ، ومقدار مخصوص ، ونفع مخصوص . ولو زالت طبقة من تلك الطبقات السبع ، أو اختلت هيئتها ، لتعطلت العين عن الإبصار . وركّز المبدع جل وعلا داخل تلك الطبقات السبع ؛ إنسان العين بقدر العدسة ، يبصر به ما بين المشرق والمغرب ، والأرض والسماء ، وجعله من العين بمنزلة القلب من الأعضاء : فهو ملكها ، وتلك الطبقات والأجفان والأهداب خدام له ، وحجاب وحراس : ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ .

ثم تأمل صنع الله فى ملكوت السموات وعلوها ، وسعتها واستدارتها ، وعظم خلقها ، وحسن بنائها ، وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها ، ومقاديرها

وأشكالها ، وتفاوت مشارقها ومغاربها : فلا ذرة فيها تخلو من حكمة وعبرة .

والقرآن الكريم مفعم بذكر السموات والأرض وما بينهما ؛ ومن تتبع حكمة ترداد ذكرها وجدها : إما إخبارا عن عظمتها وسعتها ، وإما إقساما بها إعظاما لها ، وإما دعاء إلى النظر فيها ، وإما إرشادا إلى العباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها ، وإما استدلالا منه بربوبيته لها على وحدانيته ، وأنه الله الذى لا إله إلا هو ، وإما استدلالا منه بحسنها واستوائها ، والتئام أجزائها ، وعدم الفطور فيها ، على تمام حكمته وقدرته ، وكذلك ما فيها من الكواكب والشمس والقمر ، والعجائب الفلكية التى تتقاصر عقول البشر عن قليلها : فكم من قسم فى القرآن بها ، كقوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ . ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ . ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ . ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ . ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ . ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ .

وهو سبحانه يقسم بمخلوقاته الدالة على ربوبيته ووحدانيته ، ليتعرف بها إلى عباده ، وليدركوا قدرة من أمسك السموات مع عظمها وعظم مافيها ؛ وثبتها من غير علاقة من فوقها ، ولا عمد من تحتها : ﴿اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ . ﴿وَأَلْقَى فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ . ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ . ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ . ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ .

وكذلك : ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

دعا القرآن الكريم إلى الاعتبار بخلق هذا العالم وتناسق أوضاعه؛ وتأليف أجزائه وربطها بعضها ببعض ونظمها على أحسن نظام، وأدلَّه على كمال قدرة خالقها، وكمال علمه، وكمال حكمته، وكمال لطفه، وجعله كالبيت المبنى المعَدّ فيه جميع مرافقه ومصالحه، وكلّ شىء يحتاج إليه:

فالسماء سقفه المرفوع عليه. والأرض مهاد وبساط وفراش ومستقَرّ للساكن. والشمس والقمر سراجان يُزْهران فيه. والنجوم مصابيح له تزينه، وأدلة للمتنقل فى طرق هذه الدار. والجواهر والمعادن مخزونة فيه، كالذخائر والحواصل المهيأة، كل شىء فيه لشأنه الذى يصلح له، ولوقته الذى يحتاج فيه إليه. وضروب النبات مهيأة لمآربه، وصنوف الحيوان مصروفة فى مصالحه: فمنها الرّكوب، ومنها الحَلوب، ومنها الغذاء، ومنها الكساء والأمتعة. وجعل الإنسان كالملك المخوَّل ذلك، المحكَّم فيه، والمتصرف بفعله وأمره.

كل أولئك أدلة قاطعة، على أن العالم مخلوق، خلقه الخالق الحكيم القدير العليم، وقدّره أحسن تقدير، ونظمه أدق نظام.

جلت حكمة الله فى صنعه: ألبس الإنسان خِلَع الكرامة كلّها من العقل والعلم، والبيان، والنطق، والشكل، والصورة الحسنة، والهيئة الشريفة، والقدّ المعتدل، واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر، واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة، من البر والطاعة، والانقياد، وجعل العالم قرية له وهو رئيسها: كل منها مشغول به. ساع فى مصالحه، وكل منها قد أقيم فى خدمته وحاجاته. والأفلاك سُخِّرت منقادةً دائرةً بما فيه مصالحه. والشمس والقمر والنجوم مسخَّرات جاريات بحساب أزمنته وأوقاته، وإصلاح رواتب

أقواته . والعالم الجوّى مسخّر له ، برياحه ، وهوائه ، وسحابه وطيره . والعالم الأرضى كله مسخر له ، مخلوق لمصالحه : أرضه وجباله ، وبحاره وأنهاره ، وأشجاره وثماره ، ونباته وحيوانه : ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ . ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ . ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾

بهذه الآيات وأشباهها : بيّن القرآن الكريم أنّ السائر فى معرفة آلاء الله ، المتأمل لحكمته وبديع صفاته ، أطول باعا ، وأملأ صُواعا ، من اللصيق بمكانه ، المقيم فى بلده راضيا بعيش بنى جنسه ، لا يرضى لنفسه إلا أن يكون واحداً منهم يقول : لى أسوة بهم : (وهل أنا إلا من ربيعة أو مُضَر ؟) وجهل أنّ نفائس البضائع ليست إلا لمن امتطى غارب الاغتراب ، وطوف فى الآفاق ، فاستلان ما استوعره المتعطلون ، وأنس بما استوحش منه الجاهلون ، فقوى إيمانه ، وصحّت عقيدته . وأقرّ إقرارا صحيحا بتوحيد الله ، وصفات كماله ، ونعوت جلاله ، وحكمته فى خلقه وأمره ، المقتضية إثبات رسالة رسله ، ومجازاة المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، وبان له أنّ كل ذلك مركوز فى

الفطرة ، وأنها لو خُلِّيَت على ماخلقت عليه ، لم يعرض لها مايفسدها ، أو يحولها عن فطرتها ، ولأقرت بوحدانية الله ووجوب شكره وطاعته ، وبصفاته وحكمته فى أفعاله وثوابه وعقابه ، وأنها لما فسدت وانحرفت عن المنهج الذى خلقت عليه ؛ أنكرت ماأنكرت ، وجحدت ماجحدت ، فبعث الله رسله مذكرين لأصحاب الفطر الصحيحة السليمة : ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ فانقادوا طوعا واختياراً ؛ ومحبة وإذعانا ، بما جبل من شواهد ذلك فى قلوبهم ، حتى إن منهم من لم يسأل عن المعجزة والخارق ، بل علم صحة الدعوة من ذاتها ، وعلم أنها دعوة حق برهانها فيها . وهذا أعظم مايكون من الإيمان ، وهو الذى كتبه سبحانه فى قلوب أوليائه وخاصته ، فقال جلت حكمته : ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ .

وصفوة القول ، أنّ القرآن الكريم احتوى فى باب إصلاح العقيدة ، مالو اجتمعت عقول العالمين كلهم ، فكانوا على عقل أعقل رجل فيهم ماأمكنهم أن يقترحوا شيئا أحسن منه ، ولا أعدل ، ولا أصلح ، ولا أنفع للخليقة فى معاشها ومعادها . فهو أعظم آياته ، وأوضح بيناته ، وأظهر حججه على أنه الله الذى لاإله إلا هو ، وأنه المتصف بكل كمال ، المنزه عن كل نقصان .

دلت طريقة القرآن الكريم على أنّ الله أثبت فى الفطرة حسن العدل والإنصاف والصدق، والبر، والإحسان، والوفاء بالعهد، والنصيحة للخلق، ورحمة المسكين، ونصر المظلوم ، ومواساة أهل الحاجة والفاقة ، وأداء الأمانات ، ومقابلة الإحسان بالإحسان ، والإساءة بالعفو والصفح ، والصبر فى مواطن الصبر

والبذل فى مواطن البذل . والانتقام فى مواضع الانتقام ، والحلم فى موضع الحلم ، والسكينة والوقار ، والرأفة ، والرفق ، والتؤدة . وحسن الأخلاق ، وجميل المعاشرة مع الأقارب والأباعد ، وستر العورات ، وإقالة العثرات ، والإيثار عند الحاجات ، وإغاثة اللهفات . وتفريج الكربات ، والتعاون على أنواع الخير والبر ، والشجاعة ، والسماحة . والبصيرة ، والثبات ، والعزيمة والقوة فى الحق ، واللين لأهله ، والشدة على أهل الباطل ، والغلظة عليهم ، والإصلاح بين الناس ؛ والسعى فى إصلاح ذات البين ، وتعظيم من يستحق التعظيم ، وإهانة من يستحق الإهانة ، وإنزال الناس منازلهم ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، وأخذ ماسهل عليهم ، وطوعت به نفوسهم من الأعمال والأموال والأخلاق ، وإرشاد ضالهم ، وتعليم جاهلهم ، واحتمال حقوقهم ، واستواء قريبهم وبعيدهم فى الحق : فأقربهم إليه أولاهم بالحق وإن كان بعيدا، وأبعدهم عنه أبعدهم من الحق وإن كان قريبا حبيبا ، إلى غير ذلك من معرفة العدل الذى وضعه بينهم فى المعاملات ، وماأودع فطرهم من حسن شكره وعبادته ، وإن نعمه عليهم ، توجب بذل قدرتهم وطاقتهم فى شكره والتقرب إليه ، وإيثاره على ماسواه .

وأثبت فى الفطرة علمها بقبح أضداد ذلك ، ثم بعث رسله للأمر بما أثبت فى الفطر حسنه أو كماله ، وللنهى عما أثبت فيها قبحه ونقصانه، فطابقت الشريعةُ المنزَّلةُ ، الفطرةَ المكمَّلةَ ، مطابقة التفصيل لجملته ، وقامت شواهد دينه فى الفطرة تنادى للإيمان : (حيَّ على الفلاح) . وصدعت تلك الشواهد والآيات دياجى ظُلَم الجحود والنكران ، كما صدع الليلَ ضوءُ الصباح :

وقَبِل حاكم الشريعة شهادة العقل والفطرة : ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

حَسْبُ العقول الكاملة الفاضلة أن أدركت حسن القرآن، وشهدت بفضله ، وأنه ماجاء العالم دين أكمل . ولا أجلّ ، ولا أعظم منه : فهو نفسه الشاهد والمشهود له ، والحجة والمحتجّ له ، والدعوى والبرهان ، ولولم يأت المصطفى صلى الله عليه وسلم ببرهان عليه ، لكفى به برهانا وآية وشاهداً على أنه من عند الله ، فكله شاهد لله سبحانه بكمال العلم ، وكمال الحكمة . وسعة الرحمة ، والبر والإحسان ، والإحاطة بالغيب والشهادة ، والعلم بالمبادئ والعواقب فهو أعظم نعم الله التى أنعم بها على عباده : فما أنعم عليهم بنعمة أجلّ من أن هداهم له ، وجعلهم من أهله ، وارتضاه لهم وارتضاهم له : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ . ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ .

وجلىّ أن وصف الدين الذى اختاره الله للعالم بالكمال ، والنعمة التى أسبغها عليهم بالتمام — دليل على أن هذا الدين ، لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل ، وأنه هو الكامل فى حسنه وجلاله ، وأنه دائم متّصل ، ومن أجل ذلك كان بعض السلف الصالح يقول : (ياله من دين ! لو أنّ له رجالا) وذلك القول الحق .

الدين فى حاجة إلى أولى البصائر النافذة ، الذين شهدت بصائرهم هذا النور

المبين ، فكانوا منه على بينة ويقين ، ومشاهدة لحسنه وكماله ، بحيث لو عرض على عقولهم ضده لرأوه كالليل البهيم .

وهذا هو الفرقان بينهم وبين من وصفهم الإمام علي كرم الله وجهه ، بأتباع كل ناعق ، يميلون مع كل صائح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق .

وكذلك بينهم وبين من حرموا بصيرة الإيمان جملة ، فلا يرون من آيات الله إلا الظلمات والرعد والبرق ، ولا تجاوز أنظارهم ما وراء ذلك ، من الرحمة وأسباب الحياة الأبدية .

أما الرجال الذين يرفعون شأن الإسلام ويعلون كلمته ، فهم أولو البصيرة والعزيمة ، الذين أدركوا أن رب العالمين أحكم الحاكمين ، والعالم بكل شيء والغنيّ عن كل شيء ، والقادر على كل شيء ، وأن مَنْ كان هذا شأنه فحاشا أن تخرج أفعاله وأوامره أبدا عن الحكمة والرحمة والمصلحة ، وما يخفى على الناس من معانى حكمته فى صنعه وإبداعه ، وأمره وشرعه — يكفيهم فيه معرفته بالوجه العام أن فيه حكمة بالغة ، وإن لم يعرفوا تفصيلها ، وأن ذلك من علم الغيب استأثر الله به ، وحسبُهم فى ذلك الإسناد إلى الحكمة البالغة الغالبة الشاملة ، التى علموا ما خفى منها بما ظهر لهم .

شاهد أولو العلم والبصر سنة التبديل والتغيير والتحويل فى الموجودات ، فأدركوا إمكان المعاد وما جاء به الرسل فيه . وظهر لهم أن القرآن والسنة إنما دلّا على تغيير العالم وتحويله وتبديله ، لا جعله عدما محضا ، كما ذهب إليه الملاحدة من الفلاسفة .

لا جرم أنهما دلا على تبديل الأرض غير الأرض ، والسموات غير

السموات ، وعلى تشقق السماء وانفطارها ، وتكوير الشمس ، وانتثار الكواكب ، وسَجْر البحار ، وعلى أن القبور تبعثر ، والجبال تسيّر ، ثم تنسف وتصير كالعهن المنفوش ، والأرض تميد ، وتدنو الشمس من رءوس الناس . وكل هذه أمور لا مطمع للعلم فى الاعتراض عليها ، أو القدح فى حصولها .

أرأيت أن القرآن الكريم ، يخبر بأن الله سبحانه يحيي العظام بعد ما صارت رميما ، وأنه علم ما تنقُص الأرض من لحوم بنى آدم وعظامهم ، فيرد ذلك عند النشأة الثانية ، وأنه ينشئ تلك الاجسام بعينها بعد ما بَليت نشأةً أخرى ، ويردُّ إليها أرواحها بنفسها؟ وليس فى القرآن والسنة ما يفيد أن الله يُعدم الأرواح ، ثم يخلقها خلقا جديدا ، أو أنه يُفنى الأرض والسموات ، ويجعلها عدما صرفا ، ثم يجدد وجودهما ، وإنما تضافرت النصوص على تبديلهما وتغيرهما . والعلم لا يجرؤ على إنكار ذلك .

لكن واحسرتاه ! لم تُعطَ النصوص حقها ، نخفيت وفُهم منها خلاف مرادها ، وسُلِّطت عليها الآراء ، فتضاعف البلاء ، وعظم الجهل ، واشتدت المحنة ، وتفاقم الخطب . وسبب ذلك كله الجهل بما جاء به الرسول وبالمراد منه . فليس للعالم أنفع من الاستماع لما جاء به الرسول وعَقْل معناه : ففيه الخلاص والنجاة . وأما من لم يسمعه ولم يعقله ، فهم الذين قال الله فيهم جل شأنه : ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ .

(ب) تجميل ظاهره وتهذيب طبائعه بالعبادة

إن الله — جلت حكمته — ميز الإنسان باستعداده لقبول عبادة خالقه، بما منحه من العقل والنطق، وخصه بهما دون سائر الحيوان والجماد، فكلفه العبادة وحده. وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا . لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ .

وظاهر أن المراد بالأمانة (والله أعلم) احتمال عهد التكليف، وما ينجم عنه من الثواب والعقاب بالطاعة والمعصية: فالإنسان بطبيعته واستعداده وقابليته تلقى هذا التكليف. والسموات والأرض والجبال لعدم استعدادهن وقابليتهن بفطرتهن، لم يستطعن تحمله. وما أجمل قوله تعالى فى حق الإنسان ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ فإن الظلوم من لا يكون عادلا ومن شأنه أن يعدل، والجهول من لا يكون عالما ومن شأنه أن يعلم. وتلك حال الإنسان، أما غيره فصنفان: صنف عالم عادل لا يعتوره الظلم والجهل أبدا: وهؤلاء هم الملائكة. وصنف غير متصف بالعدل والعلم وليس من شأنه ذلك كله: كالبهائم والجمادات.

وإذ خص الله ـ سبحانه وتعالى ـ الإنسان دون غيره بنعمة التفكير، أطلق له النظر فى السموات والأرض وما فيهما: من الأفلاك، والكواكب، والحيوان، والنبات، والمعادن وغيرها، ليستخدمها فى إصلاح معيشته. تأمل

قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ . وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ .

ثم أوجب عليه الشكر باستدامة ذكره ، والخضوع لأوامره ، والوقوف عند أحكامه وحدوده ، وعلّمه أن العبادة له وحده دون سواه : تأمل ما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ: «يامعاذ ، (هَلْ تَدْرِى مَا حَقُّ ٱللَّهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ ، وَمَا حَقُّ ٱلْعِبَادِ عَلَى ٱللَّهِ ؟) قال معاذ : الله ورسوله أعلم . قال: (فَإِنَّ حَقَّ ٱللَّهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ؛ وَحَقَّ ٱلْعِبَادِ عَلَى ٱللَّهِ أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا) .

جلّت حكمة الله في هذا الدين الحكيم : فقد طلب إلى الناس أن يعبدوه ، وجعل عبادته وسيلة لتجميل ظواهرهم ، وتهذيب طبائعهم ، وتكوين عاداتهم ، وإصلاح سرائرهم . وإليك البيان :

أمر الإنسان بالوضوء قبل الصلاة لتجميل مواطن نظر الخلق : بإزالة ما أصاب أعضاء الوضوء من ملامسة الأشياء ، ومما يحمله الهواء من التراب وتخرجه المسام من العرق ، وتقذفه المنافذ من الأقذار . وبهذا يستجمله المصلون ، ويألفه المؤمنون . على أن في غسل أعضاء الوضوء محافظة على الصحة بدفع عوامل الأمراض والوقاية منها : فقد ثبت طبيا أنها تدخل في الجسم من المنافذ التي يعمها الوضوء . فإذا أزيل عنها ما عليها ، مما يمنع بروز

العرق وتصاعد الأبخرة ، كان ذلك أحفظ للصحة ، وأدعى للسلامة .

هذا إلى أنه ليس فى البدن مايتحرك للمخالفة أسرع من أعضاء الوضوء . فكان فى غسلها التنبيه على الاعتناء بطهارتها ، وكانت طهارته الظاهرة كالرمز والإشارة إلى الطهارة الباطنة : وهى التوبة من ذنوبها الكثيرة الوقوع . يشهد بذلك ترتيبها فى التطهير على حسب إسراعها للمخالفات ، وكثرة وقوعها فى الآثام .

ألا ترى أنه يقدم الوجه الذى لا يوجد أكثر منه فى الأعضاء مخالفة ؛ لاشتماله على الفم الذى آفاته أكثر من أن تحصى ، والأنف والعينين اللذين تقرب ذنوبهما من ذنوبه ؟ ثم تطهر بعده اليدان اللتان يكون البطش بهما بعد التكلم باللسان ؛ والنظر بالعينين غالبا ، ثم الرأس المجاور للوجه الذى هو كثير الذنوب ، واكتفى فيه بالمسح ؛ لأن مجاورة المذنب أخف من ارتكاب الذنب ، فضلا عما فى غسله من الحرج : تأمل قول ابن عباس رضى الله عنهما « شرع غسل الكفين للأكل من موائد الجنة ، والمضمضة لكلام رب العالمين . والاستنشاق لروائح الجنة ، وغسل الوجه للنظر إلى وجه الله الكريم ، وغسل اليدين إلى المرفقين للسوار ، ومسح الرأس للتاج والإكليل ، ومسح الأذنين لسماع رب العالمين ، وغسل الرجلين للمشى فى الجنة » وهذا التأويل غاية فى الحسن كما ترى .

وأمره بالطهارة العامة ؛ لإزالة الروائح الكريهة التى تضر صاحبها والمصلين . وتستوجب سخطهم عليه ، واستقذارهم إياه ، وميلهم إلى التباعد عنه ، والنفور من التقرب منه ، مع أنه منهى عن تجنبهم والإضرار بهم ، مأمور بالإحسان إليهم والاختلاط بهم ، ولا سيما فى مجالس الخير : كصلاة الجماعة التى أكدها

الشرع، وحث عليها العقل ومجامع الوعظ والإرشاد للتكمل، وغير ذلك

ومن أسرارها انشراح النفس ونشاطها، لأنّ لها بالبدن ارتباطا قويا لا يجحده، فكل تأثير في الجسم يظهر أثره في النفس: فإذا نَظُف الجسم انشرحت النفس، وذهب كسلها وفترتها، وجاء نشاطها وقوتها، وسهل عليها إحسان العبادة، والإتيان بها على الوجه الأكمل. ومن ظفر بذلك خفّت عليه عبادة ربه، وكان على القيام بها وبأعماله الدنيوية أقدر.

ومن أسرارها أن في تنظيف الظاهر بالماء، إشارة إلى تنظيف الباطن من الأخلاق الرديئة، والعقائد الفاسدة: فقد جاء في الخبر: «الطّهور شطر الإيمان» ولا يكون كذلك وهو مقصور على نظافة الظاهر، لهذا قصد الشارع الحكيم أن يغرس في الناس خلق نظافة الظاهر، ليطهّروا بواطنهم، فيتخلّوا عن الأخلاق الذميمة، ويتحلّوا بالسجايا الكريمة، ويتنزهوا عن العقائد الزائفة، ويتمسكوا بالمشروع منها، فإنه إذا استحكمت الموافقة، تعذرت المفارقة.

وأمَرَه بالصلاة لما يأتي:

(١) إن الصلاة إذا أدّيت على الوجه المطلوب من الخشوع والتعظيم والحياء؛ غيرت ماجبلت عليه نفس الإنسان: من الهلع الناجم عن الركون إلى حظوظ الدنيا، وإيثار العاجل على الآجل، لأن وقوف المصلي بين يدى ربه، يتضرع إليه، ويستحضر خشيته في قلبه، ويتذكر عظمته، ويخاف عقابه — يهون عليه حرصه على العاجل، ويقوّى رغبته في الآجل.

(٢) خلق الإنسان بفطرته غير ثابت في أحواله: إن رزقه الله خيرا بطر وطغى، ومنع حقه فيه، وإن رزقه الشر جزع وسخط: فإذا أدى الصلاة كل يوم خمس مرات في أوقاتها الراتبة، توطنت نفسه على الثبات وقوة الجأش،

وخضوعها لجميع مايجرى عليها من خير وشر ، لعلمها أن الخير والشر من عند الله الذى تقف بين يديه خمس مرات ، مقرة بربوبيته ، معترفة بوحدانيته

مما تقدم يتبين أن الصلاة وسيلة فعلية ثابتة إلى تغيير قبيح الأخلاق وأدناها ــ وهو شدة الحرص الذى هو أصل المفاسد والأخلاق الذميمة : من التحاسد والتباغض ، إلى أجمل الأخلاق وأعلاها : من اطّراح الحرص ومانيجم عنه ، وأنها تكسب صاحبها الثبات والمثابرة وقوة العزيمة ، وتوطن النفس على النظام والتؤدة والتروى فى الأمور . وإلى فضل الصلاة فى هذا المعنى يشير قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا . إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾

(٣) إن الصلاة تحول بين صاحبها وارتكاب المناكير عامة ، لأنها بما اشتملت عليه من الذكر والقراءة والركوع والسجود ، ومظاهر الخضوع لله سبحانه وتعالى ، تجعل المصلى خالى الفكر من الشواغل الدنيوية ، مستحضرا خشية الله بقلبه ، متضرعا إليه ، ممتثلا لإرادته ومشيئته . وبذلك ترتدع نفسه عن الشهوات ، وتعدل عما كانت تصر عليه من الآثام والمنكرات لأن الإقرار بعظمة الله قولا وفعلا يدل دلالة واضحة ، على أن المصلى لاينابز صاحب العظمة والكبرياء بالعصيان ، أو يجاهره بالمنكر . وإلى هذا السر العظيم يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾

(٤) إنّ توقيتَ الصلاة بأوقات راتبة ، وأزمان مترادفة . سبب لاستدامة الخضوع لله تعالى ، والابتهال إليه ، فلا تنقطع الرهبة منه ، ولا الرغبة فيه .

وإذا لم تنقطع الرغبة والرهبة استدام الخلق صلاحهم

(٥) إن أهل كل بلد محتاج بعضهم إلى بعض، كما جرت بذلك سنة المعيشة: فمنهم الغنى والفقير، والعالم والجاهل. والقوى والضعيف، فيجتمعون فى الصلاة، لتتّحد كلمتهم؛ وتتوثّق فيما بينهم مودّتهم، وتتم فى الله أخوّتهم، ويتعاونوا على مايجلب لهم الخير، ويدفع عنهم الضّير، لأن الجيران إذا اجتمعوا فى المسجد خمس مرات فى اليوم والليلة لعبادة ربهم، وإصلاح دينهم، تيسر لهم إصلاح أمر دنياهم، إذ حصول التعارف والمودة بينهم، يستدعى الرحمة والشفقة، وحُبَّ بعضهم بعضاً: فلا يجدون بينهم محتاجا إلا نفضوا عنه غبار الحاجة، ولا مضطرا لإعانة إلا مدّوا إليه يد المساعدة، ولا غائبا إلا بحثوا عن أسباب غيبته: فإن علموه مريضا عادوه، أو مشرفا على خطر أنقذوه، أو متقاعداً لكسل عاتبوه. وهذا ماكان يفعله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — ويأمر به. فقد روى أنه قال: «تفقّدوا إخوانكم فى الصلاة. فإن فقدتموهم، فإن كانوا مرضى فعودوهم، وإن كانوا أصحاء فعاتبوهم»

(٦) تعويد المؤمنين الحرية، وإشراب قلوبهم المساواة والإخاء، لأن الإنسان إذا اعتاد الوقوف فى صف يكون فيه السيد بجانب المسود، والمخدوم قريبا من الخادم — والكلّ ذليل بين يدى مولًى عزيز — لم يجد له فى هذا الموقف فضلا على غيره. بل ربما رأى غيره ممن هو أقل منه درجة فى الدنيا أفضل عبادة منه. فإذا انصرف من مكان الصلاة، استحيا أن يرى لنفسه حقا فى ادعاء السيادة، أو التفرّد بالحرّية

(٧) إن فى صلاة الجماعة، واتّباع المصلين لإمامهم فى جميع أعمال الصلاة —

تعويد النفوس الطاعة، والانقياد للرؤساء، كما نرى رؤساء الجند يأخذونهم بأعمال، يعلمون أنهم لا تمكنهم مراعاتها وقت الحرب. وإنما القصد منها ألفة نفوس الجند للطاعة، والانقياد لأمر الرئيس. وقد فطن لهذا السر (رستم) قائد جيش الفرس، حين رأى الصحابة خلف إمامهم، يتحركون لحركته، ويسكنون لسكونه

وأمره بالصوم لما يأتي:

(١) ليس القصد من الصوم مجرد الإمساك عن الأكل والشرب وعن كل مفطر، من الفجر إلى الغروب، بل المقصود أثر ذلك. وهو كف النفس عن المضي في ميولها، التي أمرنا بمجاهدتها بسلاح الصبر والتقوى. ولا يتحقق ذلك الأثر، إلا بكف اللسان عن الهذيان والفحش، والغيبة والنميمة، والكذب والمراء، وكف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه، ومنع البصر من النظر إلى جميع ماينافي خشية الله تعالى، لقوله صلى الله عليه وسلم: «النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ لَعَنَهُ اللهُ! فَمَنْ تَرَكَهَا خَوْفًا مِنَ اللهِ آتَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِيمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ». وإلى هذه الحكمة البالغة من الصوم، يشير الله تعالى في كتابه الكريم بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي تتخذون من الصوم وقاية تحول بينكم وبين الميول المرذولة، والمنكرات وسائر الموبقات. وجاء في الحديث الشريف مايبين مدلول الآية: إذ يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا الصَّوْمُ جُنَّةٌ. فَإِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ صَائِمًا فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَجْهَلْ، وَإِنِ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ» ومعنى هذا: أن الصوم

وقاية يتحصن بها الصائم من عدويه : (النفس والشيطان) فالنفس بكبحها عن مطاوعتها فى ميولها ، ومتابعتها فى غُلَوائها ، والشيطان بقهره بمدافعة تلك الميول التى هى وسائله . وإنما تقوى تلك الميول بالأكل والشرب : وفى هذا يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم : «إنَّ الشَّيطَانَ لَيَجرى مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجرَى الدَّمِ مِنَ العُرُوقِ،فَضَيِّقُوا مَجَارِيَهُ بِالْجُوعِ » .

(٢) إن سبب الأمراض فى الغالب الأكل والشرب ، وحصول فضلة الأخلاط فى المعدة . وحسبك ماينشأ عن الأمراض من تنغيص العيش ، ومقاساة الآلام الشديدة ، وعدم القدرة على أداء الواجبات الدينية والدنيوية ، وقد أشار إلى ذلك النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : «البِطْنَةَ أَصْلُ الدَّاءِ،وَالْحِمْيَةُ رَأْسُ الدَّوَاءِ» فصوم شهر فى السنة تطهير للمعدة بما تخلّف فيها من فضلات الطعام طول العام .

وقد قال لقمان لابنه وهو يعظه : (يابنىّ ، إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة ، وخَرِسَت الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة) . وقد وصف الحسن البصرى رحمه الله تعالى فى قصصه ؛ نقص الإنسان بالطعام وغيره فقال : (مسكين ابن آدم : محتوم الأجل ، مكتوم الأمل ، مستور العلل ، يتكلم بلحم ، وينظر بشحم ، ويسمع بعظم ، أسير جوعه ، صريع شبَعه ، تؤذيه البقّة ، وتنتنه العرْقة ، وتقتله الشرْقة . لايملك لنفسه ضراً ولا نفعا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا) .

(٣) إنّ من اعتاد قلة الأكل والشرب كفاه من المال قدر يسير ، ومَن تعوّد الشبع جعل بطنه غريما ملازما له ، آخذا بمخنّقه كل يوم ، يطالبه

بمطالبه المنوعة التي قد تدفعه إلى السرقة ، أو القمار ، أو إراقة ماء وجهه ، أو ارتكاب ضروب الذِّلة والدناءة وخسّة النفس .

(٤) إن منع النفس من مشتهياتها ، وكفها عن بعض رغباتها ، وسيلة إلى أن تسكن لربها ، وتخشع له ، ويتبين لها عجزها إذا ضاقت حيلها ، وأظلمت عليها الدنيا ؛ لشعورها بالحاجة الشديدة إلى يسير الطعام وقليل الشراب . والمحتاج إلى الشيء ذليل به . وفى هذا حث له على أن يخلع عن عاتقه رداء الكبر ، ويخضع لخالقه ورازقه ، ويعامل خلق الله بحسن الخلق ، ولين الجانب ، فتتم الرأفة ، والمودّة ، والمساعدة ، والمعاونة .

وقد أثبت الطبّ أن كثيرا من جراثيم الأمراض لا يقتلها سوى الصوم ، ولذلك يشير به الأطباء فى كثير من الأحايين على المرضى .

(٥) الصوم سبيل تعوّد الصبر والثبات على المكاره ؛ فإن الصائم يكلف نفسه البعد عن مشتهياتها : من الأكل والشرب وما إليهما ، ويذودها عن ذلك بعزم قوىّ وصبر جميل . فلو رغبته بأعظم الرغائب على أن يتناول من الطعام ذرّة ، أو من الشراب قطرة ، ما وسعه ذلك . ووجد لذلك فى نفسه ما يكدر خاطره ، وينغص عيشه . ومن اعتاد مقاومة نفسه عند نزوعها إلى ميولها ؛ أصبح لعقله السلطان على بقية قواه . ومن السعادة أن يملك الإنسان نفسه ، لا أن تملكه نفسه .

(٦) إنّ من يرعى الأمانة فى هذه العبادة فى سرّه وعلانيته ؛ جدير بأن يؤتمن على أنفس شيء وأعظمه . وفى ذلك من حسن السيرة ما به يكون صاحبه من أجلّ الناس قدراً ، وأشرفهم ذكراً ، وأعظمهم خطرا .

هذا إلى أن المحافظة على تأدية هذه العبادة فى أشدّ الأمكنة خفية ، وأبعدها

عن أعين الرائين — دليل على كمال المروءة، وعلو الهمة، ووفرة الحياء.

وما المروءة إلا المحافظة على الأحوال التى تكون بها النفس على أفضل حال وأكملها، وقد استوعبها صلى الله عليه وسلم فى قوله: «إنَّ مُرُوءَةَ الرَّجلِ مَمْشَاهُ، ومَدْخَلُهُ، ومَخْرَجُهُ، ومَجْلِسُهُ، وإلْفُهُ، وجَلِيسُهُ».

وما الحياء إلا ثلاثة أمور:

أحدها: امتثال أوامر الله عزّ وجلّ، والكفُّ عن زواجره، وحفظُ الرأس وما وعى، والبطنِ وما حوى، وترك زينة الحياة الدنيا، وذكر الموت والبلى.

وثانيها: كفّ الأذى عن الناس، واطّراح مجاهرتهم بالقبيح، واتقاؤهم. فلاخير فيمن لايستحي من الناس. وإلى ذلك يشير بشّار بن برد، إذ يقول:

ولقد أصرف الفؤادَ عن الشئْ * ءِ حياءً وحبُّـه فى السَّواد

امسكُ النفسَ بالعفاف وامسى * ذاكراً فى غد حديثَ الأعادى

وهذا النوع من الحياء من كمال المروءة وحب الثناء. وإليه يشير الحديث الشريف: «مَنْ أَلْقَى جِلْبَابَ الْحَيَاءِ فَلَاغِيبَةَ لَهُ». وذلك لقلة مروءته، وضعفه أمام ميوله.

وثالثها: حياء الإنسان من نفسه. بعفتها وصيانتها فى الخلوات، كما قال بعض الحكماء: «ليكن استحياؤك من نفسك، أكثر من استحيائك من غيرك».

وكما قال بعض الشعراء:

فسرِّى كإعلانى وتلك خَليقتى * وظلمةُ ليلى مثـلُ ضوءِ نهاريَا

وجلّ أن من استكمل هذه الأمور الثلاثة من الحياء، كملت فيه أسباب الخير، وانتفت عنه أسباب الشرّ، وصار بالفضل مشهورا، وبالجميل مذكورا

(٧) إن كفّ النفس عن مشتهياتها، ومنعها عن مبتغياتها، مجاهدة عظيمة لها، دالة على توافر الشجاعة الأدبية. والشجاعة الأدبية أساس الفضائل، وعنوان محاسن الشمائل، ولقد قال صلى الله عليه وسلم: «رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ»: وهو جهاد النفس، ومكافحةُ ميولها وأهوائها

(٨) إن الصائم يعانى خلال صومه من حرارة الجوع ولظى الظمأ، ما يدفعه إلى إعانة من رآه محتاجا إلى طعام أو شراب، لينقذه من مثل ماذاق ألمه، بخلاف من لم يَصُمْ، فإن من لم يقاس بلاءً، لم يدرك عناء. وقيل ليوسف عليه السلام: «لِمَ تجوع وأنت على خزائن الأرض؟». قال: «أخاف أن أشبع فأنسى الجائع!».

مما تقدم يتبين لماذا رغّبت الشريعة الإسلامية فى الصوم، وبالغت فى الحث عليه، وأكثرت من الوسائل التى توصل إليه: فقد جعلته فى كفارة القتل، وكفارة الأيمان، وكفارة الظِّهار. ولا عجب! فالصوم جُنَّة، كما تقدم فى الحديث.

المقصد الثانى

إعداد الفرد ليكون عضوا نافعا فى المجتمع

ولذلك طريقان :

الأولى : الزكاة

(١) الإنسان بطبيعته يحب المال حبا جما ، وحبه أحد أمراضها ، وعلاجه إزالة ما بها من علة البخل والشح ، وتدريبها فى السماحة المؤدية للفلاح : ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لأن الشح يدعو إلى المطل ، ويحول دون البذل ، والسماحة تصد عن العقوق ، وتحث على أداء الحقوق ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : «شَرُّ مَا أُعْطِيَ الْعَبْدُ شُحٌّ هَالِعٌ ، وَجُبْنٌ خَالِعٌ» . وما يصد عن أداء الحقوق فأخلقْ به ذما ، وما يبعث على أداء الحقوق فأجدرْ به حمدا !

(٢) إن الزكاة مواساة للفقراء ، ومعونة لذوى الحاجات ، تكفهم عن البغضاء ، وتمنعهم من التقاطع ، وتبعثهم على التواصل ، لأن الآمل وَصُول ، والراجى هائب . وإذا زال الأمل ، وانقطع الرجاء ، واشتدت الحاجة ، وقعت البغضاء ، وتزايد الحسد ، فحدث التقاطع بين أرباب الأموال والفقراء ووقعت العداوة بين ذوى الحاجات والأغنياء ، حتى تفضى إلى التغالب على الأموال ، والتغرير بالنفوس ، وهذه أمور تحمل على إيقاد نار العداوة والبغضاء ، فتلتهم المال والنفس والولد ، ويختل معها الأمن ، ويحل الذعر والخوف ، ويسوء من الأمة مصيرها . وبهذا نبتت أصول الاشتراكية فى الممالك الغربية ، وأثمرت أغصان الفوضوية ، فجنى المثرون منها كل رزية .

(٣) تحصين أموال الأغنياء وتنميتها ، لأن الفقراء إذا أيقنوا أن الغنيّ يصرف لهم شيئا من ماله ، وأن ذلك يزداد بازدياد ثروته ، أحبوه وتمنوا بقاء نعمته وزيادتها : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ .

(٤) إن إخراج الزكاة الباعثة الشفقة بالفقراء والضعفاء المعوزين، فيه سدّ عوزهم ، وتنفيس كربتهم ، وقضاء دينهم ، وإدخال السرور عليهم . وناهيك قوله صلى الله عليه وسلم عندما سئل : أى الناس أحب إليك ؟ قال : (أَنْفَعُ النَّاس للنَّاس) . قيل : يارسول الله ، أى الأعمال أفضل؟ قال : (إدْخَالُ السُّرور عَلَى الْمُؤْمن) قيل: وماسرور المؤمن؟ قال: (إشْبَاعُ جَوْعَته ، وَتَنْفيسُ كُرْبَته ، وَقَضَاءُ دَيْنه) .

(٥) إن إخراج الزكاة شكر لله من الغنيّ على أن صانه عن السؤال ، وأنعم عليه بوافر الأموال ، ولم يجعله من مستحق الصدقات ، وذوى الفقر والحاجات ، حتى استحق الحمد الأسمى ، والشكر الأوفى . ومن أدّى الزكاة شكرا على نعمة المال ، وطلباً للمزيد ، نال من الله ذلك : ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ .

(٦) إن الله جلت حكمته ، أراد أن يربط العالم الإسلامى أجمع ، ويربط قلوب المسلمين كلهم بعضها ببعض ، ويجعلهم أسرة واحدة رءوسها الأغنياء يحسنون على فقيرهم ، ويوسعون على المضيَّق عليه منهم ، حتى يكفوهم تكففّهم الناس ، ويمنعوهم من ذل السؤال ، ويقنوا عليهم حياءهم ، ويجملوا حياتهم ، وفى

هذا الارتباط والاتحاد والتعاون .

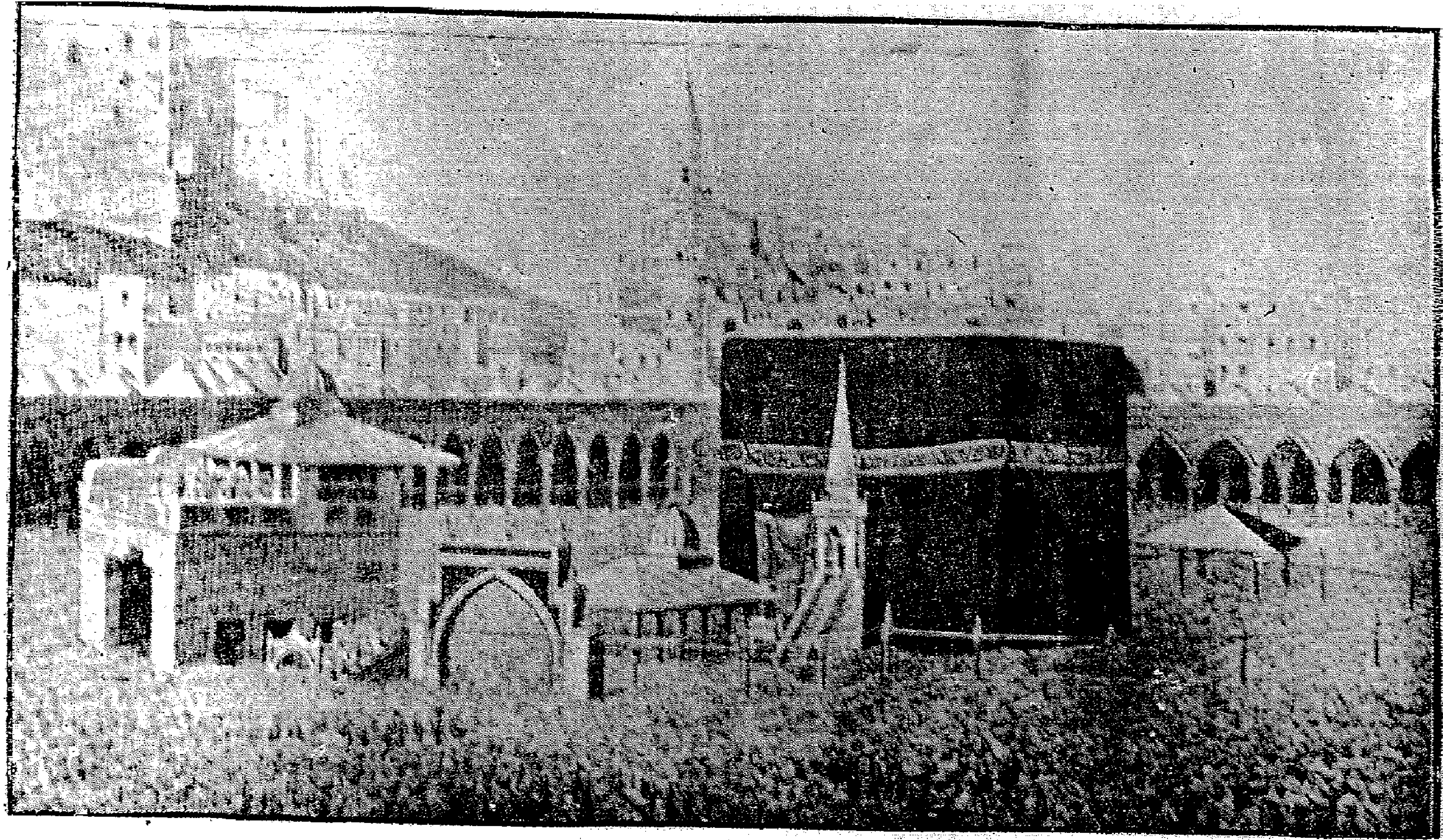
(٧) إن إخراج الزكاة تثبيت للإيمان ، وكمال فى اليقين ، لأن المال شقيق الروح ، وبذله أشق شيء على النفس من بين سائر العبادات . فإذا ارتاضت النفوس بإنفاق أحب الأشياء إليها ـ وهو المال ـ صارت خاضعة لصاحبها، وقل طمعها فى اتباعه لميولها ، وآثرت ما عند الله تعالى على ما عندها . وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ، فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ .

(٨) إن إخراج الزكاة صون للمال عما لا يليق به : من وضعه كله فى يد غير محتاجة إليه ، وإخلاء أصحاب الحاجة إليه منه . فضلا عن أن ما فضل عن الحاجة الأصلية من الأموال ، إذا أُمسك عن الصرف فى وجوه البر ، بقى معطّلا ممنوعا عمّن لأجله خلقت الأموال . وذلك منع من ظهور حكمة الله تعالى ، وتعطيل لها . وهو غير جائز : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ .

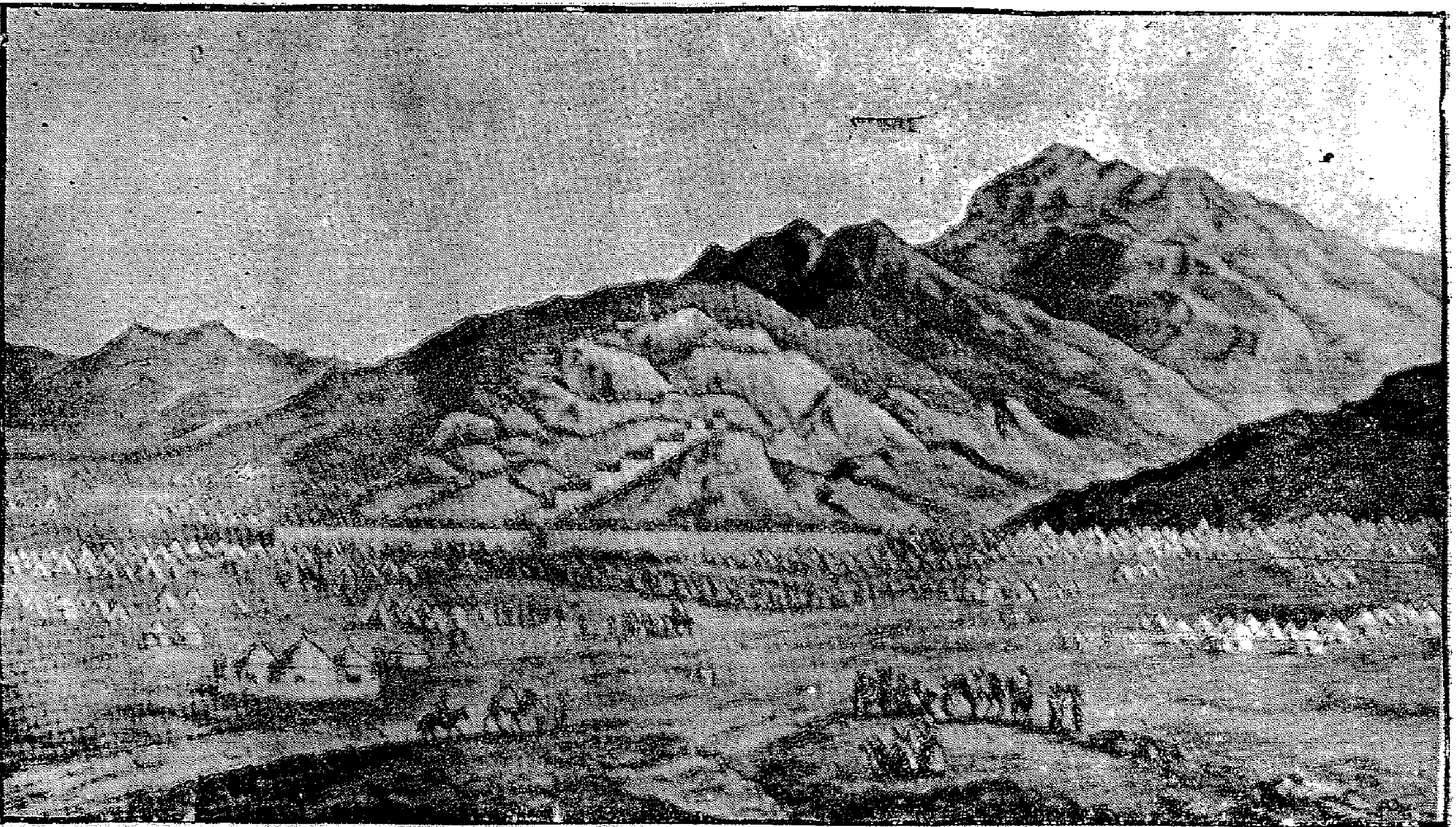
الثانية : الحج

تبارك الله سبحانه !

شرع لنا الدين فرائض وسننا، وأجنّ فى كل مافرض وماسنّ حكمة بالغة ، وصلاحا وجدوى ؛ فهى بجملتها مدارج إسعاد ، وموارد نُعمى ؛ بيدأن منها ما توضح لنا وجه الحكمة فيه ، ومنها ما استسرّ عنا كنهه ؛ فاستدللنا بما بان



الكعبة الشريفة



جبل عرفات

لنا على مالم يبن ، وآمنا بما قصرت عن دركه عقولنا لما أدركناه وعقلناه ، إذ قد أتم الله علينا نعمة اليقين بأن هذا الدين القيم هدى للناس ورحمة ، وأشربت قلوبنا الإيمان بأنه مامن مفروض أو مسنون إلا كان الخير ملء وطابه .

ذلك حج البيت الذى كتبه الله على من استطاع السبيل إليه ، قد حوى من وجوه المصلحة ، وصنوف الحكمة ، ماإن بيانه ليكبر أن يستقل به بيان !.

أجل ، فإن فيه حكما روحية شتى ، وحكما معاشية أخرى ، فهى فريضة واحدة ، ولكن يتخرج بها الإنسان فى كثير من الفضائل ، ويقضى بها كثيراً من الحاجات .

أما أول مايبدو من الحج ، فأنه سبيل إلى رابطة إنسانية عامة لا انفصام لها ، ووسيلة يتعارف بها الناس فى مشارق الأرض ومغاربها : فى هذا اليوم ، يوم الجمع الحاشد . بل يوم البعث الأصغر، يلتقى الناس أجناسا مختلفة ، وأمما متباينة ، وقبائل متباعدة ؛ فإذا هم قلوب متعارفة ، وآمال متواصلة ، وألسنة متفاهمة ، بل إذا هم قلب واحد نابض بتوحيد الله ، وأمنية واحدة متجهة إلى الله ، ولسان واحد يهتف : لبيك اللهم لبيك !

وإن علماء الأخلاق ليفقدون مظهرا تتمثل لهم فيه مطالبهم الحكيمة ، ومثلهم الإنسانية العليا ، إلا فى تلك اللحظة الرهيبة التى يجتمع فيه المسلمون على متن الصحراء فى بيت الله ، إذ تتجرد الصدور مما ملكها من غل ، وماملأها من إحنة ، وتخلص القلوب مما ران عليها من الأهواء والشهوات . فلا تبق إلا روح نقية لاتشعر بغير المعانى السامية ، وعين صافية تتجلى لها حقائق الحياة ، لازيف فيها ولا بهرج . وأذن واعية يحتجب عنها مايملأ جوانب

الدنيا من ضجيج وعجيج ، وما يزحمها من مشاغل ومشاكل !

ألا وإن من النفوس نفوسا أمارة بالسوء ، نزاعة إلى البغى ، أخذتها العزة بالإثم ، ونغلت أحناؤها بجراثيم الأثرة والاستطالة والتعالى . فأبى لها الجبروت إلا احتجازا وأنفة ، وزهاها التعاظم أن تنخرط فى سواد الناس . وليس كالحج طهور لتلك النفوس الموبوءة . فالناس فى مشاهد الحج صفوف متشابكة ، وأمشاج مختلطة ، لافرق بين رب الخورنق ورب الشُّوَيهة ، ولا فضل لسرىّ ذى حسب على مهمل ذى ضَعة ، فلقد لفهم جميعا زى ساذج يتراءى فيه من يتخطَّر فى الديباج ومن يتعثر فى المِزَق ، ويشتبه فيه من يجد الألوان بمن يفقد الكفاف ، فهم فى مشاهد الحج أخوة متقاربون ، ورفقة متماثلون ، وهم جميعا متطامنون متعاطفون ، طارت عنهم كبرياء الألقاب ، وعزة الأنساب ، ومَخيلة الأثواب ! . . . .

والحج بعد مجلى رائع تتجلى فيه عزة الحنيفية السمحة فى أرجاء المعمورة ، وآيات مفصلات تصف نفوذ دعوة محمد صلوات الله عليه فى شعاب الأرض ، فهذه الرحاب الفساح المقدسات تموج بالجمهرة الكبرى من خلق الله ، بينهم الهندى والصينى ، والعراقى واليمنى ، والشامى والمصرى ، وبينهم مما وراء البحار طوائف وطوائف تناهى إليها داعى الله ، فأجابت داعى الله !

والحق أن الحج مؤتمر شامل ، هو أروع ما نظمته الحضارة من أشتات المؤتمرات حتى اليوم ، فهذا مؤتمر يتباعث الناس فيه استجابةً لوحى العقيدة النازلة منهم منزل الشغاف . السارية فيهم مسرى الدماء ، لا يبتغون من وراء ذلك فضل مال ، أو وجاهة منصب ، أو بعد صيت وسمعة ، فما أنبل وما أشرف ، وما أجلّ وما أعظم !

والحج فوق ذلك معرض أى معرض لحضارة الدنيا ، وشئون الخلق ؛ ففى هذا المؤتمر الحافل تتزاحم أمم مختلفة ، وأناس أشتات ، بينهم العلماء فى كل علم ، والأطباء فى كل جانب ، والصناع فى كل صنعة ، والتجار فى كل سلعة ، ورجال الفن فى كل فن، وكل أولئك يحملون إلى الحجيج تجاربهم المبتدعة فى العلوم والفنون ، وأجلابهم الخاصة فى التجارات والصناعات ، فيتدارسون جميعا مادرسوا جميعا ، ويطلع بعضهم بعضا على شئون حضارتهم ، ووسائل رقيهم ، وأساليبهم الحسنى فى الأحوال والعادات والأخلاق . فترجع طوائف الحجيج إلى أممهم بُجَرِ الحقائب بما وقعت عليه الأعين ، حاملة إليهم من أسباب العيش ماينفع الناس ، ناقلة إليهم من الأخبار والسير ماتجمل به القدوة ، وتحسن فيه الأُسوة ؛ وبذلك يتدانى ما بين العالم من مراحل التدابر والتنافر والاختلاف ، فتأخذ الألفة سبيلها إلى الأمم . ويقرب التشابه بين الخلق ، فتتجمع الجبهة الإنسانية المتحدة التى هى أنبل أحلام الفلاسفة ، وأعلى درجة فى مراقى الإصلاح ! . . . .

ومعانى الحج آهلة بذكريات قدسية تطيب بها نفس الحاج المسلم ، وتروى قلبه من كوثر الإيمان ، وناهيك ببلاد هى منبعث عقيدته الشاملة التى تتأصل فى نفسه لتُصَرِّفها حيث تهوى ، فالرغبة حيث تأمر والرهبة حيث تنهى ، فليس بدعا أن تنحنى الأضالع لتلك البلاد على حب ، وتنطوى على تجلة . أجل ، فتلك بقاع مطهرة ، هى معاهد صبا الإسلام ، ومناجم جوهره ، وفى أرجائها نبتت الدعوة المحمدية واهتزت وربت ، ولاتزال أجواؤها تحفظ صوت محمد صلوات الله عليه وهو يقول : ربى الله ! فما أجدر أن يتمثل للحاج المسلم حين يطوف بالبيت العتيق كل ما أثره التاريخ فى انبعاث الإسلام عن هذه

التربة ، وبزوغ شمسه فى هذه الجزيرة ، ثم ماكان وراء ذلك من جهاد وجلاد ، وغزو وفتح . وإن فى تمثل تلك الذكريات له لما يملأ بالعبرة خاطره ، ويشغل بالتدبر فكره ، ويشب فيه عاطفة الهداية والتقاة !

ولو مضينا تتقصى معانى الحج ، ونفصل أسراره ، لما وسعنا الوقت ، بل لانفسح مجال القول ، وتشعبت مذاهب الكلام ، وانقطع بنا الجهد دون الغاية . فنحن نجتزئ بهذه الكلمة العجلى ، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق

على أننا إلى العمل أحوج منا إلى القول ، ومامنا إلا مؤمن بالحج وخطره، فالله المسؤول أن يوفقنا جميعا إلى النهوض بهذه الشعيرة السامية . إنه أكرم مسؤول .

المقصد الثالث

إصلاح المجتمع

سلك الشارع لإصلاح المجتمع : سبيلين .

السبيل الأول : إنصاف المرأة ورفع شأنها

إجمـــال

مكان المرأة عند الأمم القديمة :

إن الأثينيين — وهم أكثر الأمم القديمة مدنية – عاملوا المرأة معاملة سَقَط المتاع ، فكانت تباع وتشترى فى الأسواق كأنها سلعة ، بل سموها رجسا من عمل الشيطان ، وحرموها كل شيء سوى تنظيم البيت وتربية الأطفال ، وأباحوا التزوج بأى عددمن النساء يشاء الرجال . ، أمافى إسبرطة فعلى الرغم من أن الرجل كان ممنوعا من الزواج بأكثر من واحدة إلا فى أحوال قاهرة ، لقد أبيح للمرأة أن تتزوج بأكثر من رجل واحد ، وأقبل معظم النساء على ممارسة هذه العادة المرذولة ، وتلك غاية الانحطاط !

لم يكن تعدّد الزوجات مشروعا فى أوّل الدولة الرومانية ولا فى آخرها . ومع هذا كان شائعا فى بلادها . ولا أدل على ذلك من أن العاهل فالنتيان الثانى ، أصدر أمراً عاهلياً ، أباح فيه لجميع رعايا الدولة التزوج بأكثر من واحدة إذا رغبوا فى ذلك . ولم يرو التاريخ أن الأساقفة أورؤساء الكنائس استنكروا هذه الإباحة ، بل إن جميع الذين جاءوا بعده حذوا حذوه وقد ظل تعدّد الزوجات بهذا الوصف فاشيا حتى جاء جوستنيان ، ووضع قوانينه

التى تحظر تعدد الزوجات ، فلم تمنع الناس من الاستمرار على هذه العادة . وكل مادلت عليه قوانينه ، أنها كانت مظهراً من مظاهر التحول الفكرى ، لطائفة قليلة من المتعلمين . أما السواد الأعظم فلم يحفل بها ، ولم يجد فيها مايحول بينه وبين عادته . أضف إلى ذلك أنه لما تغلبت القبائل الهمجية على غربى أوربة ، واختلطت آراؤهم بآراء أهل البلاد التى احتلوها ؛ حاولوا منع تعدد الزوجات ، فلم يفلحوا ، لأن دأب رؤسائهم على ممارسة هذه العادة ، وتسامح رجال الدين فى إباحتها للناس ، بترخيص يعطيه الأسقف أو الرئيس الدينى ، كل ذلك حبب إلى الناس بقاءهم على ما اعتادوه . « وحُبِّب للإنسان ماقد تعودا » .

كان بعض طوائف اليهود يحتسبون البنت فى مرتبة الخادم ، وكان لأبيها الحق فى أن يبيعها وهى قاصر ، ولم تكن لترث شيئا إلا إذا لم يكن لأبيها ذرية من البنين . وقد بلغ من انحطاطها عند بعض عرب الجاهلية ، الذين تأثروا بمساوى عادات الدول المجاورة لهم ، أنهم اعتدوا المرأة جزءاً من ثروة أبيها أو زوجها ، وكانت الأرامل يصبحن إرثا لابن الرجل أو بنته ، وسرت هذه الرذيلة إلى قبائل اليمن التى كانت مزيجا من اليهود والصابئين .

وجملة القول : أن مقام المرأة قد انحط فى المجتمع الإنسانى أيام دولتى الفرس والبيزنطيين ، فحقرها المتعصبون من أهل الدين تحقيرا عظيما ، وجعلوها مثار الشر والويل ، وفاتهم أن الشر والويل الذى نسبوه إليها ، إنما جاءها من سقوط المجتمع يومئذ فى حمأة الرذائل ، إذ تعالت الأصوات من كل صوب بأن التجارب أثبتت فساد جميع النظم والشرائع القديمة . وظلت المرأة مغموطة الحق ، واهنة الشأن ، رازحة تحت أعباء ظالمة ، لم تلقها عن كاهلها إلا الشريعة :

إذ جاء منقذ المرأة النبي العربي صلى الله عليه وسلم ، بكتاب كريم يقول :
﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ .

وقد سار أتباع النبي الكريم على احترام المرأة وإحلالها المكان اللائق بها ، فسموا عائشة سيدة نساء أهل الجنة ، فدلوا بذلك على أنها كانت مثلا أعلى للمرأة : في الصلاح والعفاف ، والتقوى والعلم . وجاء بعدها كثير ممن نسجن على منوالها ، ودرجن في ظلالها ، وأخذن بحظ من كلامها ، وأحرزن في رحاب العلم والفضل المقام السامي .

أكثر أعداء الدين الحنيف من رميه بسلب المرأة حقها ، وجعلها في درجة أخس من درجتها اللائقة بها ، وحسبوا حجابها أمرا إدًّا[1] ، وخطبا جسيما ، ومعْولا هادما لبناء المجتمع الإنساني . ولو نظروا بعين الإنصاف في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ، وسيرة السلف الصالح ، لسارعوا إلى القول بأن الشريعة السمحة ، أنصفت المرأة وبوّأتها مكانا ساميا ، بعد أن كانت في الصين حبيسة ، وفي الفرس مجهولة القدر ، وفي مصر حقيرة ، وفي أوربة مملوكة ، وفي البلاد العربية متاعا يورث .

وحسبك أن الفرنسيين عقدوا سنة ٥٨٦ للميلاد اجتماعا في بعض ولاياتهم ثم أخذوا يبحثون : أتعدّ المرأة إنسانا أم غير إنسان ؟ وكان ختام البحث أن قرر المجتمع أنها إنسان ، ولكنها مخلوقة لخدمة الرجل !

وصفوة القول أن النبي صلى الله عليه وسلم ، بعث في وقت كان وأد البنات فيه عادة لبعض القبائل ، ولم يعرف في قطر آخر أي نظام يخوّل المرأة شيئا

(١) إدا : فظيعا .

من حقها ، سواء أكانت بنتا ، أم زوجة ، أم أما . فأتى بشريعة منحت المرأة حقوقا ، لم تعترف ببعضها البلاد الغربية إلا في القرن التاسع عشر ، بعد كفاح شديد ، وإليك البيان :

تفصيل

أولا — المرأة في نظر الإسلام بوصفها بنتا

(ا) كان العرب يئدون البنات ، فجاء الإسلام بتحريم وأدهن ، وبذلك أعطى المرأة حق الحياة ، قال تعالى : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وقال تعالى في معرض التنديد بوأد البنات : ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ . فلا عجب بعد هذا أن يحدثنا التاريخ ، بأن المرأة أصبحت من حزب محمد صلى الله عليه وسلم : تجاهد في نشر دينه ، وتسعى في إعلاء كلمته .

(ب) كانت العرب لا تورّث النساء ولا الصبيان من أبناء الميت ، وإنما يورّثون من يلاقي العدو ، ويقاتل في الحرب . فشرع الإسلام توريثه المرأة . وكان ذلك شديدا على نفوس العرب ، فقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لما نزلت الفرائض التي بيّن الله فيها أنصبة البنت والزوجة والولد والأبوين ، كرهها الناس وقالوا : تعطى المرأة

الربع أو الثمن ، وتعطى البنت النصف ، ويعطى الغلام الصغير . وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ، ولا يحوز الغنيمة !

ومن أجل هذا ، قررت الشريعة الإسلامية للبنت قبل زواجها ، مايكفل لها ألا تكون كَلًّا على إخوتها ، أوأعمامها ، أو غيرهم من الأقارب : فجعلت لها نصيبا فى الإرث لايحتمل الجدل . قال تعالى : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ .

وحكمة جعل نصيبها على النصف من الابن ، أن الابن من شأنه أن يتزوج ويدفع مهرا من نصيبه فى الميراث ، ويقوم بنفقة زوجته منه . أضف إلى ذلك أن مايحتاج إليه البيت من الفراش وسائر الأمتعة وغيرها ، مما تتطلبه المعيشة الزوجية ، لايجب شيء منه على المرأة شرعا ، بل هو واجب على الزوج وحده ، كما تجب عليه نفقتها .

أما البنت فشأنها أن تأخذ مهرا ونفقة من زوجها ، وتضم ذلك إلى نصيبها فى الميراث .

ومن هنا يتبين أن مال الابن مهدد بالنقص من نواحٍ شتى ، ومال البنت محفوظ لها ، ولولا مايقوم به الرجل من الكدح والنَّصَب فى طلب الرزق مااستطاع أن يستقل بأعباء المعيشة . فتفضيل الابن على البنت فى الميراث ، آت من قبل الواجبات المنوعة التى ألقتها الشريعة الغراء على عاتقه ؛ فلا ظلم على البنت ولا غبن .

(حـ) نفقة الابن الفقير تجب له على أبيه حتى يقدر على الكسب . أما البنت فلها النفقة على أبيها حتى تتزوج ، ثم يتحول الوجوب إلى زوجها . فإذا طلقت وعادت إلى بيت أبيها ، عادت نفقتها عليه بعد انتهاء مايجب لها من النفقة على مطلقها .

وليس للأب أن يلزمها طلب الرزق كالابن ، بل إذا اتفق أنها احترفت حرفة مشروعة من تلقاء نفسها ، وكان لها من الكسب مايسد حاجتها ، ارتفعت النفقة عن أبيها . وإذا لم يكفها كسبها وجبت عليه النفقة .

(د) جعلت الشريعة الإسلامية رضا البنت عند بلوغها سن الرشد ، شرطا لصحة العقد عليها ، وليس لمخلوق كائنا من كان أن يرغمها على الزواج بغير من تشاء . وهذا حق أُعطيته البنت المسلمة فى القرن السابع للميلاد ، وحُرِمته البنت فى أوربة حتى نهاية القرن السادس عشر .

ثانيا — المرأة بوصفها زوجة

(١) كان الجاهليون يرثون النساء كُرْها : بأن يجيء الوارث ويلقى ثوبه على زوج مورثه وإن لم يكن منها ، ثم يقول : ورثتها كما ورثت ماله فيكون أحق بها من نفسها ، إن شاء تزوجها بلا صداق ، أو زوجها واستوفى صداقها ، أو حرّم عليها الزواج ، ليرثها إذا ماتت . فمنعت الشريعة الإسلامية هذا الحق الباطل ، والإرث الظالم : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾

(ب) وكان العرب يعضُلون النساء بضروب من العضل[1] . فيمنع الوارث

(١) العضل : منع المرأة التزويج

امرأة مورثه التزوج ، إلى أن تعطى ما أخذت من الميراث ، ويحجب الرجل بنته حتى تتخلى له عما تملك ، والمطلق مطلقته إلى أن يأخذ مايريده منها ، ويمتنع الزوج إذا كره زوجته وأحب فراقها عن تسريحها ، ويسيء عشرتها حتى تفتدى بمهرها . فحظرت الشريعة الغراء ذلك كله بقوله تعالى : ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ .

(ح) وكانوا يسيئون معاشرتهن : فلا يعدلون بينهن فى مبيت ولا نفقة . فأمر الله بالإنصاف بينهن فى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وقوله تعالى ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ .

(د) وكانوا إذا رغب أحدهم فى التزوج بأخرى ، رمى زوجته بالفاحشة لتفتدى بما آتاها : فيسيء إليها فى عرضها ومالها ، ثم ينفق ماأخذه منها على التى رغب فيها . فحرم الإسلام عليهم البغى والعدوان بقوله تعالى : ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ . ثم وبخهم على هذا الأخذ المؤثم بقوله تعالى : ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ .

(هـ) وكانوا يعدون النساء من الأمتعة كأنهن سلع أو عروض ، فيتصرفون فيهن بما أرادوا وأراد ظلمهم . فكان الزوج ينزل عن زوجته لغيره إذا شاء ، بعوض أو بغير عوض ، رضيت أو لم ترض .

من أجل ذلك كله ، استنقذت الشريعة العادلة المرأة من هذه البلايا ؛

وجعلتها سيدة محترمة ، بل راعية مسيطرة . قال سيد الخلق عليه الصلاة والسلام : «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ : الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» . ومن تأمل هذا الحديث الشريف ، وجد مكانة المرأة ـ في الترتيب ـ بين الإمام والرجل ، لا الرجل والخادم ، تنويها بشرفها ، وتحقيقا لسيطرتها ، واعترافا بإنسانيتها .

ومن محاسن الشريعة الإسلامية ، أنها نظرت بعين الرأفة والرحمة إلى ضعف المرأة الطبعي ، وتميز الرجل عليها بالقُوَى والقدرة على العمل ، فقضت عليه بأشق الحقوق وأعظمها : وهو إيتاء النفقة ، والقيام بحاجات المرأة . ولم تكلفها عمل شيء حتى إرضاع ولدها ، وقضت عليه بحفظها من مواقع الآفات وألزمته صداقا يؤديه قبل البناء بها ، إلا إذا اتفقا على تأخيره . وفي ذلك يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم : «أَيُّمَا رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً عَلَى مَاقَلَّ مِنَ الْمَهْرِ أَوْ كَثُرَ لَيْسَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَيْهَا حَقَّهَا خَدَعَهَا فَمَاتَ وَلَمْ يُؤَدِّ إِلَيْهَا حَقَّهَا لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ زَانٍ» .

ومن تمام عطف الشريعة الإسلامية على المرأة ، أنها لم توجب عليها مقابل ذلك من الحقوق إلا شيئا يسيراً ، فقضت عليها بألا تأذن في بيت الرجل لمن لم يرضه ، ولا تخرجَ من المنزل بغير إذنه إلا لضرورة شرعية . فكل ما وجب عليها للزوج فهو ترك ليس فيه عناء ، بل فيه صون شرفها ورفعة منزلتها . وهذا المعنى يتحقق أتمّ التحقيق بالنظر في حال عصرنا هذا

الذي جرّ فيه اختلاط الجنسين : إلى ماترى من شيوع الفساد .

ومن فضل الشريعة الإسلامية على الزوجة ، أنه إذا ولد للزوجين أولاد فنفقتهم واجبة على أبيهم دون أمهم ؛ ولو كانت فائقة فى اليسار . وجلىّ أن النفقة على الأولاد واجب شاق ، وبخاصة فى مثل هذا الزمان الذى تضاعفت فيه النفقات المتنوعة .

ومن عناية الشريعة بالزوجة المسلمة ، أنها لا تفقد شخصيتها من جرّاء قرانها ، بل تظل متمتعة بجميع الحقوق التى يتمتع بها كل حر مستقل الإرادة : فهى صاحبة السلطان على ثروتها ، تتصرف فيها كما تشاء فى حدود القانون : فإن كانت تاجرة فربحها لنفسها ، من غير أن يكون لزوجها أقل نصيب فيه ، وإذا مات الزوج أخذت نصيبا فى تركته : ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ .

وكذلك أثبتت الشريعة السمحة للمرأة الحق المطلق ؛ فى القيام بحضانة أولادها خلال مدة معينة ، دون توقف على رأى القضاء ، وسوّغت لها حق النفقة وطلب الطلاق ، إذا كان زوجها مصابا بأمراض خبيثة ، أو غاب غيبة منقطعة ، وأن لها مهر المثل إذا لم يُقدَّر لها مهر عند عقد الزواج .

ثالثا — المرأة بوصفها أمّا

(١) قال صلى الله عليه وسلم : «الْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الأُمَّهَاتِ» . وروى أنس رضى الله عنه ، أنّ شابا كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يسمى علقمة . فمرض واشتدّ مرضه ، فقيل له : قل لا إله إلا الله . فلم ينطق لسانه ، فأخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل له

أبوان ؟ فقيل : مات أبوه ، وله أمّ كبيرة . فأرسل إليها الرسول ، فجاءت ، فسألها عن حال ابنها ، فقالت : كان يصلى كذا وكذا ، وكان يصوم كذا وكذا ، وكان يتصدق بجملة دراهم ماندرى ماوزنها ولا عددها ؟ قال : فما حالك وحاله ؟ قالت : أنا عليه ساخطة واجدة . قال لها : ولم ذلك ؟ قالت : كان يؤثر عليّ امرأته ، ويطيعها فى الأشياء ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : سُخْط أمّه حجب لسانه عن شهادة أن لا إله إلا الله ! ثم قال لبلال : انطلق واجمع حطبا كثيرا حتى أُحرقه بالنار . فقالت : يارسول الله ، ابنى وثمرة فؤادى تحرقه بالنار بين يدىّ ! وكيف يحتمل قلبى ذلك ؟ فقال الرسول : يسرك أن يغفر الله له، فارضَىْ عنه . فوالذى نفسى بيده ، لا ينتفع بصلاته ولا بصدقته ولا بصومه ، مادمت عليه ساخطة . فرفعت يدها وقالت : أشهد الله تعالى فى سمائه ، وأنت يارسول ، ومن حضر ، أنى قد رضيت عنه . فقال الرسول : انطلق يابلال ، فانظر : هل يستطيع علقمة أن يقول : لا إله إلا الله ؟ فلعلّ أمه تكلمت بما ليس فى قلبها حياء من رسول الله ! فانطلق بلال ، فلما انتهى إلى الباب سمع علقمة يقول : لا إله إلا الله . ومات من يومه .

وفى هذا تبجيل أىّ تبجيل للأم ، ورفع لمكانها بين أفراد الأسرة .

(ب) قررت لها الشريعة الإسلامية ، أنه إذا مات ولدها فلها نصيب معين من ميراثه ؛ لتأمن شر الحاجة فى شيخوختها ، إذا كانت تعتمد فى حياة ولدها على مساعدته إياها . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ

لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ .

رابعا — المرأة بوصفها عضوا فى المجتمع الإنسانى

(ا) نظر الإسلام إلى المرأة كالرجل ، فمنحها حقوقا ، وكلفها واجبات .

قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ . وقال تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ . وقال تعالى : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ .

(ب) ساوت الشريعة الإسلامية بين الرجل والمرأة فى المعاملات المالية والعقوبات ، وفى طلب العلم أو النَّدْب إليه ، وفى كل مافيه صلاح النفوس والعقول والأبدان ، وسلامة الدين . وأباحت لها طلب الرزق الحلال إذا لم يكن لها من يعولها ، دفعا لحاجتها ، وصونا لشرفها ، ولم تفرضه عليها عند وجود العائل . وصفوة القول أن الشريعة الإسلامية ، منحتها مامنحت غيرها من الأفراد : فأعطتها مطلق الحرية فى التصرف فى ثروتها ، كما يتصرف أخوها وزوجها وأبوها ، وجعلتها سيدة تملك وتعتق ، ولها حق التعاقد والتعاهد مع من تشاء ، دون تدخل زوجها أو أبيها ، وأن تكون وكيلة عن غيرها فى الخصومات

خامسا — موازنة بين الرجل والمرأة

مميزات الرجل عن المرأة :

(ا) جعلت الشريعة الإسلامية الإمامة العظمى من حق الرجل وحده لوفرة أعبائها ، بما فيها من وجوب النظر فى شئون الرعية ، وسنّ النظم السياسية والإدارية ، وسوق الجيوش الجرارة إلى ساحات الحروب . وإن قيل : إنّ بعض النساء قمن بأعباء الإمارة ، وإنّ منهنّ من كنّ أحسنَ من بعض الرجال رأيا وتدبيرا وحسن نظر ، فالجواب أنهنّ قليلات ، والمعوّل عليه فى التشريع الكثير الغالب .

(ب) وجعلت الشريعة الطلاق بيد الرجل دون المرأة ، لأنه هو الذى يُلزَم دفع المهر ، وما يصحبه من النفقات والهدايا . وليس من الإنصاف أن يكون عليه الغرم وليس له الغنم ، ولأن المرأة فى طبيعتها سريعة الانفعال والاستسلام للعاطفة ، وليس من الحكمة أن تعطى فى يدها عقدة الزوجية ، تحلها متى انفعلت أو تأثرت بأى مؤثر .

(حـ) وجعلت الشريعة المرأتين بمنزلة رجل واحد فى الشهادة ، لقول الله تعالى : ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ . وقد أثبت العلم معجزة للقرآن ومن نزل عليه ، أن المرأة كما وصفها القرآن . ومع هذا فقد قبل الإسلام عند الضرورة ، شهادة المرأة فيما لا يطلع عليه الرجال - كالولادة والبكارة ، وفيما يقع بين النساء فى مجتمعاتهن التى لا يحضرها الرجال .

حقا إن الشريعة الإسلامية لما نظرت فى الشهادة ؛ جعلت أهميتها فى الحياة الاجتماعية ، هى المقياس الذى يرجع إليه : فإن كان لها أثر ظاهر كالأموال

والحقوق ، حسبت شهادة الرجل بشهادة امرأتين ؛ لأن المرأة بطبيعتها ضعيفة الذاكرة ، ويغلب عليها النسيان : فاستكثر الله منهن حتى يجبر الضعف .

ولم تنفرد الشريعة الإسلامية بالحكم على ضعف المرأة ، ففى القوانين الوضعية ما يؤيده :

فمن ذلك ماجاء فى القانون الرومانى ، من أن المرأة ليست أهلا للتصرف مدة حياتها كالطفل ، ويجب أن يُوَكل أمرها لربّ الأسرة .

وجاء فى القانون الفَرَنسى ، أن المرأة ليست أهلا للتعاقد بدون رضا زوجها وإجازته .

ومن ذلك يتبين أن المرأة فى القوانين الوضعية ، لا تملك التصرف لنفسها والذى لا يملك التصرف لنفسه لا يملكه لغيره . ومعلوم أن الشهادة حجة يُبْنى عليها حكم وانتهاء خصومة ، فلا يصح عدلا أن تكون شهادة المرأة كالرجل سواء بسواء .

تأمل ما قاله العلامة بلينول فى حق المرأة :

المتوفَّى عنها زوجها لها حق تأديب أولادها ، تحت مراقبة قريبين من العصبة ، وإن للأب حق إقامة أجنبى وصيا على أولاده ، وحرمان الأم هذا الحق ، وإن السند التجارىّ الموقع من المرأة غير التاجرة لا يساوى إلا وعدا مجرّدا ، ولا ينتج ما يترتب عليه لو صدر من رجل .

سادسا ـــ ما اختصت به المرأة دون الرجل

(١) فرض الإسلام على الرجل الجهاد دون المرأة ، إلا إذا دهم العدو بلاد المسلمين ، فإن الدفاع يصبح مفروضا على المرأة ولو بغير إذن زوجها

(ب) لا جزية على المرأة إذا غلَب المسلمون على بلاد من بلاد أعدائهم، وفرضوا عليهم الجزية.

(حـ) لا ترى الشريعة الإسلامية قتل المرأة المرتدة، وإنما تقتل الرجل.

(د) ليس على المرأة شيء من الدية إذا وجبت على العاقلة (١) إلا إذا اشتركت المرأة فى القتل الموجب للدية.

(هـ) لا قَسَامة (٢) على المرأة إذا وجبت القَسَامة على أهل قتيل.

(و) لا تجب صلاة الجمعة والعيدين على المرأة، بل على الرجل فقط.

(ز) إذا كانت المرأة زوجة فنفقتها ومطالب معيشتها الزوجية على الزوج وحده، ولو كانت ميسورة، وإذا كانت أمّا ولها أولاد فقراء، فنفقتهم على أبيهم، ومن ذلك أجرة الرضاع والحضانة، وإذا كانت بنتا فنفقتها على أبيها وعلى غيره من أقاربها، مادامت خالية من الزوجية مهما تكن سنها، وليس لأحد أن يُجبرها على طلب المعيشة.

مما تقدم يتبين أن الشريعة الإسلامية تكفلت بالمرأة، بنتا وزوجا وأمّا، وحاطتها بكثير من العدل والعطف والرحمة.

إباحة تعدد الزوجات

خليق بخصوم الإسلام الجاهلين حكمه وأسراره، الذين نقموا منه إباحة تعدد الزوجات ورموه بالقسوة — أن يجيلوا نظرهم فى الأسباب الآتية التى تكاد تكون موجبة للتعدد، لا مجيزة له فقط، وفيما استوجبه نفى التعدد فى

(١) العاقلة: جمع عاقل وهو دافع الدية.

(٢) القسامة: الأيمان تقسم على أولياء القتيل إذا ادعوا الدم.

الأمم غير الإسلامية ، من الانغماس فى حمأة الرذائل .

أما الأسباب فهى ما يلى :

(أ) قد تصاب المرأة بمرض مزمن أو معد ، فيضطر الرجل إلى اقتراف ما ينافى الشرف .

(ب) عدد النساء يربى غالبا على الرجال ، لأن الرجال يعانون الأعمال الشديدة التى تستوجب نهك القوى ، وإضواء الأجسام ؛ بل إزهاق الأرواح ولا سيما الحروب الطاحنة . فإذا امتنع التعدد ، أربى عدد النساء على الرجال ولا يجد بعضهن أزواجا يُحصنونهن ، ويقومون بإصلاح شئونهن ، ولا غنًى لهن عن الرجال ، لضرورة الإحصان والتكفل بما لا بد منه للحياة ، وإن لم يتمّ لهن الاحصان كثر الفساد ، ولحق العار الأسر ، وتمكنت منها عوادى الدهر ، وغوائل الحياة .

(حـ) كثرة النسل ونمو العدد : وبهما تقوى شوكة الأمم الاسلامية ، وتعلو سطوتها ، وتنفذ كلمتها ، فترهبها الأعداء ، وتتقيها الأمم . ومنع التعدّد مفْض إلى تناقص عدد الأمة بقلة النسل . ومتى تناقص عددها لانت قناتها ، وطمع فيها أعداؤها ، وامتدت إليها الأيدى والألسنة بالسوء ، وسارت فى طريق الاضمحلال والاندثار . ولا أدل على ذلك من أن عقلاء بعض الأمم الغربية فى أسف شديد . وإشفاق عظيم من سوء المنقلب ، بما عراها من نقص النسل ، لمنع أبنائها من تعدّد الزوجات فى حدود المعقول ، وما انضم إليه من إعراض كثير منهم عن الزواج بتاتا ، والاجتراء بالسفاح ، فرارا من حقوق الأهل ، وأعباء الأولاد .

ألم تر أنّ الدول الغربية يسعون السعي الحثيث في ارتباط بعضهم ببعض بالمحالفات ، ويؤثرون رقّ الارتباط بالعهود والمواثيق على حرية العزلة والانفراد ، طلبا لنيل فائدة التكاثر ، وليحرزوا قَصَب السبْق في مضمار المجد والقوة ، وينالوا أوفر قسط من السيادة الدولية ؟

من ذلك يتبين أن الإسلام بإباحته تعدّد الزوجات ، سهّل للمسلمين سبل التكاثر ، ودلهم على أن القصد به إرشادهم إلى أن القوة طريق العز والسيادة ، ووقاية من الذل والعبودية .

(د) دل الإحصاء في غير الأقطار الإسلامية ، على أن حَظْر تعدّد الزوجات أدّى إلى وفرة الأولاد غير الشرعيين — مما حدا ببعض المفكرين إلى النظر في توريثهم — وإلى انتشار الأمراض الفتاكة ، التي أصابت الرجال والنساء والأطفال ، ولا قبل للطب بمكافحتها .

سابعا — أسباب تعدّد زوجاته صلى الله عليه وسلم

أسباب تعدّد أزواجه صلى الله عليه وسلم صنفان : عامة ، وخاصة .

الأسباب العامة

(ا) أن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل للرجال والنساء ، ومن الأحكام التي يبلغها ماهو مشترك بين الرجل والمرأة ، ومنها ماهو خاص بأحدهما وكل يتطلب لتلقينه عددا ليس بالقليل ، لتفرّق المرسَل إليهم وكثرتهم ولقصر زمن الرسول ، ووفرة الأحكام . وإلا لم يحصل التبليغ على الوجه الأتمّ . على أن من أحكام النساء ماتستحيي من الاستفهام عنه من

الرجل ، ويستحي الرجل من قوله المرأة ، فمن ذلك : « ماروى عن عائشة رضى الله عنها ، أن أسماء بنت يزيد الأنصارية ، قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : يارسول الله كيف أغتسل من الحيض ؟ قال : « خُذِى فِرْصَةً مُمَسَّكَةً (يعنى قطعة قطن) . فتوضئى – ثلاثا » أى قال ذلك ثلاثا ، وهو فى كل ذلك يقول : سبحان الله ! عند إعادتها السؤال ، ثم إن النبي استحيا ، فأعرض بوجهه . فأخذتها عائشة فجذبتها ، فأخبرتها بما يريد النبي صلى الله عليه وسلم .

من أجل ذلك وجب أن يتلقى أحكام النساء من الرسول عدد كبير منهن ، وهن يبلِّغن الأحكام إلى النساء ، ولا يصلح للتلقى عن الرسول إلا أزواجه ، لأن لهن خصائص تمكنهن من معرفة غرض المصطفى عليه السلام ، دون تأفف واستحياء : يشير إلى ذلك قول المصطفى عليه الصلاة والسلام : « خُذُوا نِصْفَ دِينِكُمْ عَنْ هٰذِهِ الْحُمَيْرَاءِ[1] » يريد الصديقية المبرأة .

(ب) أن المصطفى عليه الصلاة والسلام مرسل لاستجلاب الأفئدة ؛ واجتذاب القبائل والأمم ، ولا ريب أن المصاهرة أمتن سبب ، وأقوى داع للتآلف والمناصرة . ودعوة الدين فى أول أمرها ، كانت فى حاجة إلى الإكثار من العشائر ، ليكونوا أعضادا وأنصارا ، يؤازرون المصطفى صلى الله عليه وسلم فى تبليغ الرسالة ، ويذودون عنه عوادى المضلين ، ويفلون حدّ عنادهم ، ويكفون عنه أذاهم .

(1) الحميراء : البيضاء . وهذا الاسم دعاها به النبي صلى الله عليه وسلم . والعرب تقول : امرأة حمراء أى بيضاء .

تأمّل ما كان من عتق بنى المصطلق ، وإسلامهم بتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم من ابنة سيدهم على ما سيأتى بيانه ، وما روى من قوله عليه الصلاة والسلام فى حق ولده إبراهيم . « لَوْعَاشَ لَوَضَعْتُ الْجِزْيَةَ عَنْ كُلِّ قِبْطِيّ» ومعنى هذا : لأسلم أخواله فرحاً به ، ولإكرامه ، فوضعت الجزية عنهم . ومما يؤيد أن من أسباب تعدّد أزواج النبى الانتفاعَ بنتيجة المصاهرة - أن أكثر أزواجه كنّ من قريش سيدة العرب أضف إلى ذلك أن المؤمنين كانوا يرون أن أعظم شرف وأمتن قربة إلى الله تعالى ، انتسابهم لنبيه ، وتقرّبهم منه : فمن ظفر بالمصاهرة فقد أدرك غاية مايرجو وخير ما يأمل .

ألم تر أن عمر رضى الله عنه أسف جدّ الأسف ، حين فارق رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ابنته . وقال : لا يعبأ الله بعدها بعمر . ولم ينكشف عنه الهم حتى روجعت ، وأن عليا كرم الله وجهه - على اتصاله برسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق النسب ، وشرف اقترانه بالزهراء رضى الله عنها - رغب فى أن يزوج النبى أخته أمّ هانئ بنت أبى طالب ، ليتضاعف شرفه ، وينمو سؤدده . ولم يمنعها من ذلك إلا خوفها أن تقصر فى القيام بحقوق الرسول مع خدمة أبنائها ؟ . . .

الأسباب الخاصة

أمّا سبب زواجه صلى الله عليه وسلم ، بالسيدة جُوَيْرِيَةَ رضى الله عنها ، فهو أن أباها الحرث بن ضرار ، سيد بنى المصطلق بن خزاعة ، جمع قبل إسلامه لمحاربة الرسول جموعا كثيرة ، ولما التقى الجمعان عرض عليهم الإسلام فأبوه حتى هزموا ، ووقعت جويرية — وكانت تدعى بَرَّة — فى سهم ثابت

ابن قيس ، فكاتبها على سبع أواق من الذهب ، فلم تر معينا لها غير المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فجاءت إليه مبينة نسبها ، طالبة حريتها ، فتذكر النبي ما كان لأهلها من العز والسؤدُد والقوة ، وماصاروا إليه لسوء تدبيرهم وعنادهم فى الاستعباد ، فأحسن إليها وإلى قومها بأداء ماعليها ، ثم تزوجها . فقال المسلمون بعد أن اقتسموا بنى المُصْطَلَق : إن أصهار الرسول لا يُستَرَقُّون . وأعتقوا مَنْ بأيديهم مِنْ سبْيهم ، وعلى إثْر ذلك أسلم بنو المصطلق شكرا لله على الحرية ، بعد ذلّ الكفر والأسر .

وأمّا زواجه بالمُبرَّأة بنت الصدّيق رضى الله عنها ، فلأن أباها الصدّيق كان شديد التمسك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، مولعا بالتقرب منه . فكان هذا التزوج قرة عين لها ولأبويها ، وفخرا لأقاربها . وكان عبد الله بن الزبير — والمبرَّأة وهى خالته — يفاخر بها حتى بنى هاشم .

وأمّا زواجه من السيدة حفصة بنت الفاروق رضى الله عنها ، فإنّ زوجها توفى مجروحا فى موقعة بدر ، وكانت السيدة رقية بنت الرسول وزوج عثمان توفيت حينئذ ، فعرض عمر ابنته على عثمان ، فأعرض عنها رغبة فى أمّ كلثوم بَضْعة الرسول ، ليستديم له بذلك الشرف ، وليكون ذا النورين ، فعزّ هذا الإعراض على عمر لخفاء سببه ، وأنفت نفسه منه ، فشكاه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، فأراد الله أن يعطى عثمان خيرا من ابنة عمر وابنة عمر خيرا من عثمان .

وأمّا زواجه من السيدة صفيّة رضى الله عنها ، فلأنها كانت بنت حَيَي ابن أخطب ، سيد بنى النَّضير ، ووقعت ضمن عشيرتها فى السبى ، وأجاز الرسول لدَحْيَةَ الكلبي أن يأخذ من السبي جارية ، فوقع اختياره عليها ، فقيل

للرسول صلى الله عليه وسلم : إنها سيدة قومها ولا ينبغي أن تكون لسواك . وهو صلوات الله عليه عظيم الرأفة خصوصا بمن ذلّ بعد عزّة . فأمر دحية بأخذ سواها ، ثم تزوجها رأفة بها ، وتحقيقا لأمل راجيه من المؤمنين .

وأمّا زواجه من السيدة زينب بنت جحش الأسدية رضى الله عنها ، فلم يكن له سبب سوى التشريع والتأسى بأفعال المصطفى . وإليك البيان :

(١) قضت حكمة الله فى شريعته السمحة ، بأن يجعل لما يريد تغييره من عادات الجاهلية المتأصلة فى العرب ، الفاشية بينهم – توطئة وتمهيدا ؛ ليسهل عليهم تركها ؛ ويجعل للمسلمين من رسول الله صلى الله عليه وسلم وآل بيته الطاهرين أسوة حسنة ؛ فيحصل التأسى ، ويكون الاقتداء .

فمن ذلك أنّ الرسول عليه الصلاة والسلام ، بعد أن تمّ الكتاب بينه وبين كبار مكة فى غزوة الحديبية ؛ أمر المسلمين بالنحر والتحليق ثلاث مرات ، فلم يفعل ذلك أحد منهم ، فغضب المصطفى ، ودخل على زوجه أم سلمة وهو غاضب . فسألته فلم يجبها ، ثم قال : هلك المسلمون ، أمرتهم بالنحر والحلق فلم يفعلوا . فأشارت عليه بأن ينحر بُدُنَه ويحلق رأسه ، ففعل . فلما رأى المسلمون ذلك بادروا إلى النحر والحلق ، تأسيا واقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك ما كان فى وضع ربا الجاهلية ودمائها : فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى خطبة الوداع : وإنّ ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول ربا أضعه ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وإن أوّل دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .

كل ذلك ، لأن دلالة الفعل فى التشريع أقوى من دلالة القول .

(٢) ومن العادات التي كانت متأصلة في العرب: التبني، وتنزيل الدعي منزلة الابن الحقيق. وكانوا لذلك يرون تحريم زوج الدعي على من ادّعاه، فأراد الله إبطال هذا الاعتقاد، فجعل رسوله المصطفى أسوة حسنة في هذا الأمر، فسعى الرسول في تزويج زيد مولاه بعد أن أعتقه، ولم يكن - من حيث النَّعَرَة(١) العربيّة - كفئاً لعربية، بلهَ(٢) قرشية، كزينب الأسدية، ذات الحسب البارغ والمجد الأثيل، فتأففت هي وأخوها عبدالله، وأبت أن تكون زوجة لدعي غير كفء، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾. فرضيا بقضاء الله ورسوله، فرارا من العصيان والمخالفة - غير أنها ظلت في نفسها نافرة من هـذا الاقتران، مترفّعة عن زيد، ضائقة به ذرعا. ولما رأى زيد منها نفورها وترفعها، وعدم انقيادها لنصيحة رسول الله لها بالبقاء مع زوجها، آثر فراقها، فسأل الرسولَ الإذن به، فقال له: أمسك عليك زوجك واتق الله. وأخفى في نفسه ما الله مبديه من تزوجه منها بعد زيد، وخشي الله واتقى أن يقول الناس: تزوج محمد من زوجة ابنه. فأمر الله بالاقتصار على خشيته، إذ يقول له: ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾. ولما لم يبق لزيد فيها شيء من الرغبة طلقها، فتزوجها الرسول، حفظا لشرفها أن يضيع، بعد زواجها بمولى، ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا. وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بهذا التزويج ﴿مَفْعُولًا﴾ مقصودا.

(١) النعرة: الكبر والعزة. (٢) بله: دع. والمعنى: فضلا عن قرشية

هذا ماقضى به الرحمن ، ونطق به القرآن ، وليس بعد بيان الإله بيان .

مما تقدم يتبين بطلان ماتقوله غير المنصفين من أهل الغرب : من أن المصطفى عليه الصلاة والسلام ، قد خوّل نفسه دون أتباعه امتيازا لايسمح به الشرع ، فتزوج من أكثر من أربع ، وأنه بذلك قد اتصف (حاشاه) بما لا يليق بجلال النبوة . وهم فى ذلك يفترون الكذب وهم يعلمون . ولو أنصفوا أنفسهم ورجعوا إلى التاريخ ، لأدركوا الحقيقة ، ولعلموا الوجهة الإنسانية الاجتماعية التى حدت النبى الكريم إلى تعدد زوجاته .

إنهم يعلمون أنه صلى الله عليه وسلم تزوج من السيدة خديجة وهو فى مقتبل العمر ، وسنه إذ ذاك نحو خمس وعشرين سنة ، وكانت أكبر منه سنا ، وعاش معها خمسا وعشرين سنة ، عيشة هنية مرضية ، شعارها الإخلاص والوفاء . وكانت السيدة خديجة رضى الله عنها ، من أكبر أنصاره على الكفار الذين سخروا منه ، وألحقوا به ضروبا شتى من الأذى . قضى معها تلك المدة الطويلة وهو مثال الاستقامة والشرف ، كما أقر بذلك خصومه ، ولم يشأ التزوج من غيرها ، مع أن العرف عند قومه كان يُخوّله حق الزواج من غيرها إن شاء ، بل ظل وفيا لها حتى توفيت ، فحزن عليها حزنا شديدا ، وسمى عام وفاتها عام الحزن ، ولم ينقطع عن ذكراها طول حياته ، ثم تزوج بعدها من سَوْدَةَ بنت زَمَعَةَ أرملة السكران بن عمرو ؛ الذى أسلم واضطر إلى الهجرة إلى بلاد الحبشة ؛ هربا من اضطهاد الكفار . ولما مات صارت زوجته بلا معين ولا نصير ، وأصبح زواج هذه السيدة الوسيلة الفذة لحمايتها ومعونتها — وهى أرمل رجل مات فى سبيل الدفاع عن الحق — فتزوجها المصطفى صلى الله عليه وسلم — وهو المثل الأعلى للهمة والنجدة والمروءة — وفاء لرجل فقد حياته

بعد أن غادر الأهل والأوطان، احتفاظا بعقيدته، وشاركته هذه الزوجة فى أهوال النفى والتغريب، وتفاديا من سخطها على الإسلام الذى أفقدها زوجها، وحماية لها من أهلها أن يفتنوها، لأنهـا هاجرت مع زوجها على غير رغبتهم

ومما لا يقلّ عما تقدم فى بلاغة الدلالة على أن المصطفى كان يتزوج لا قضاءً لشهوة، ولا استجابة لنزوة، بل للتوصل إلى إعلاء شأن الدين القويم: أنه تزوج من ميمونة وعمرها زُهَاء خمسين عاما، فكان زواجه منها سببا إلى دخول خالد بن الوليد فى دين الله. وهو المجاهد الكبير، والغازى المظفر، والبطل العظيم، وهو الذى غلب الروم على أمرهم فيما بعد. وله فى الإسلام مواقف جديرة بالإعجاب

هذا إلى أنّ زواجها بالمصطفى يسَّر لذوى قرباها وسيلة للعيش: فطعموا من جوع، وأمنوا من خوف، وأثْرَوا من فاقة

يقول فريق من غير المنصفين: لم تكن هناك ضرورة توجب على المصطفى أن يجعل نفسه مثالا وأسوة فى تعدّد الزوجات، أو يسمح بإبقاء هذه العادة، بل كان عليه استئصالهـا بتاتا، لأن السيد المسيح عليه السلام أهملها كل الإهمال. ونسى هؤلاء المتعنتون أو تناسوا ما اتفقت عليه كلمة علماء الاجتماع قديما وحديثا: من أنّ عادات الأمم وأحوالها تتغير بتغير الأفكار، وعلى حسب مقتضيات الزمان والمكان، وأن ما كان يلائم زمن المسيح عليه السلام، فليس بحتم من الحتم أن يلائم زمن محمد عليه السلام، لتدرّج الإنسان وارتقائه.

ألم تر أن السيد المسيح عليه السلام، وجه العقول والأنظار إلى مملكة السماء، حيث لا أنساب ولا علاقات اجتماعية؟ فظهرت المسيحية فى أول

نشأتها بمقاومة الزواج؛ واعتداده أمراً غير مستحسن، حتى رسخ فى الأذهان أنّ ارتباط الرجل بالمرأة مهما يكن مقدسا أمر غير محمود، وأصبح الرجل الذى لم يتزوّج، أرقى بكثير ممن حط من قدر نفسه بالزواج !

ومما هو شبيه بهذا، ماذهب إليه علماء الهند الأقدمون ومشترعوهم، من أنّ الإنسان لايستطيع تحصيل العلوم والمعارف دون أن يترك جميع روابطه الأُسْريّة؛ لأنها تحول دون تحقيق غرض العزلة والتوحد. فانتقل هذا الرأى من أهل الأديان القديمة إلى من بعدهم. فدرجوا عليه دروج من يريد أن ينسلخ الإنسان عن إنسانيته بمقتضياتها. ويخرج من شرعة الاجتماع بنُظمها وارتباطاتها

والحق أنّ القول بأن الامتناع عن الزواج يجعل الرجل من عظماء المفكرين خطأ أصرح الخطأ، لأنه لو صح لكان المشعوذون ومن شاكلهم: من أهل الكمال، وكانت الحياة الكاملة معناها الانفصال التام من أسباب الحياة، والتنحى عن جميع الروابط والأواصر البشرية. وهذا رأى مناف للفطرة، ومُفض إلى فناء بنى الانسان.

فالحق أن لكل عصر من العادات مايلائمه، ومن الأخلاق مايوائمه، وما يصلح لزمن ليس لزاما أن يصلح لغيره، وليس من الإنصاف الحكم على الزمن الماضى بمقياس زمننا الحاضر، وأن العمل بمقتضى ضرورات الزمان والمكان، لايصلح أن يكون سببا للحط من عظمة الأفكار وجلالها. أليس من الخطل والضلال أن تقول: إن عيسى عليه السلام كان رجلا ذا أحلام لايمكن تحقيقها؟

أليس من فساد الرأى أن تقول: إن حياة موسى وعيسى عليهما السلام كانت شاذة، إذا قيست بما يستحسن اليوم ؟ بلى: إن حياة هؤلاء الرسل الكرام كانت ملأى بالعظات والعبر، وهى أسوة حسنة لأقوامهم. ومن أجل

ذلك يتبين صدق قولنا : إن محمدا صلى الله عليه وسلم مرسل إلى البشر طراً ، وإنه مثّل فى شخصه الكريم نمو الإنسانية ورقيها ، ولم يكن من الحكمة أن يغير الحالة الاجتماعية التى كانت وقت بعثته مرة واحدة ، وأن يقضى القضاء المبرم على العادات القومية ، والنظم السياسية والاجتماعية ؛ بل كانت سنته — وهى أحكم سنة — القضاء على الفاسد منها ، وتهذيب مايقضى النظام العمرانىّ ببقائه .

ومما هو جدير بالذكر ، أنّ الآية (١) الشريفة التى حظرت على المصطفى زيادة عدد الزوجات وطلاقهن ، نزلت بعد أن انتشر الإسلام ، وتم له ماأراد من حكمة الإكثار من الأزواج ، مع أنّ أصحابه رضى الله عنهم ظلوا أحرارا ، لايمنعهم شيء من ذلك فى حدود الشريعة السمحة .

ثامنا — إباحة الطلاق

(١) دلت التجارب على أنّ الطلاق فرصة للتخلص من ضرر أشدّ منه ، عنداستفحال أسباب الشقاق ، وتعذر الألفة والوئام ، وقام الدليل القاطع على أنّ ماجاءت به الشريعة الإسلامية فى شأن الطلاق ، أقرب إلى الإنسانية وأوفى بالعدالة ، مما جاء فى غيرها من الأديان والشرائع . . . : ذلك بأنّ الأمم القديمة حرّمت على المرأة أن تطلب الطلاق بحال من الأحوال ، وظل الحال كذلك إلى عهد الدولة الرومانية ، إذ ضعفت روابط الزواج وفشا الطلاق . ولقد جرت على ذلك القوانين العبرية القديمة والأثينيّة .

(٢) ومن العجب أنّ بعض قصار النظر من الباحثين يقولون : إنّ الدولة الرومانيّة فى أوّل أمرها لم تلجأ إلى الطلاق ، مع أنّ قانونها أباح ذلك ، وفى

(١) قال تعالى : (لايحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن) .

هذا دلالة على أنها كانت أرفع خلقا من غيرها من الأمم . وهذا قول باطل لأن الزوج فى عهد هذه الدولة ، كان له الحق فى قتل زوجته إذا أتت أمراً إدًّا : كشرب الخمر ، وما ماثله ؛ ولم يكن لها مع ذلك حق طلب الطلاق . فإذا حاولته عدّ عملها موجبا للقصاص . وبالرغم من هذا كله ، شاع الطلاق فى عهد الجمهورية الأخيرة شيوعا كبيراً ، فكان سببا فى انحطاط مستوى الأخلاق بسرعة عظيمة .

(٣) لم يكن العرب فى الجاهلية يرجعون إلى عدل أو رحمة فى معاملة زوجاتهم ، فجاءت الشريعة الإسلامية مستهجنة عاداتهم ، مقوضةً أركانها . قال تعالى : ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ، تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ . . . الآية .

أضف إلى ذلك أنّ الشريعة الإسلامية أعلنت بلسان الحديث الشريف أنّ أبغض الحلال إلى الله الطلاق .

وقد كان من حكمة الإسلام وتمام ملاءمته للسنن الاجتماعية ، ومسايرته لها فى كل عصر ، عدم تحريم الطلاق بتاتا ، لأنه ليس شراً على إطلاقه ، بل هناك ضرورات تقتضيه ، ولذلك أبيح الطلاق بشروط ، وفى أحوال معينة . تأمل قوله تعالى : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ تجد الحكمة فى جعل الطلاق مرتين إيجاد فرصة للصلح والتفاهم ، وتكوين أسباب الألفة والوئام ، والصلح خير . على أنّ الشريعة رأت إجراء التحكيم قبل الطلاق ، ليتروى كل من الزوجين قبل الإقدام عليه والبتّ فيه ، وذلك احتياط يدلّ باديَ نظرة على منتهى الحكمة .

وهل ترى إنصافا أكثر من أن الشارع الإسلامى ، يعلن أن أبغض الحلال إلى الله الطلاق ، وأن الطلاق مرتان ، وأن التحكيم يسبق إنفاذ الطلاق ، وأن للمرأة حق طلب الطلاق لأسباب شرعية ؟ كل ذلك ، لأن الإقدام عليه دون استيفاء شروطه مقوّض لسعادة الأسرة ، مزلزل لأس الاجتماع ، وله أثر سيء أبلغ الإساءة فى تربية الأبناء .

ومع أن بعض الفقهاء يرون أن إقدام الرجل على الطلاق تعسفا واقتدارا — عمل باطل ، إلا فى الضرورة القصوى ، فإن جمهرة من الحنفية والمالكية والشافعية — وهم الذين يعتدّ برأيهم — يرون إباحة الطلاق ؛ ويعدّون الطلاق الذى لا يستوفى الشروط الشرعية عملا بغيضا .

ومن العجب أنك ترى مع هذا ، أن خصوم الإسلام تجاهلوا القيود التى قيد الشارع الإسلامى بها هذه الرخصة ، تمشيا مع ضرورة الاجتماع ، وتغاضوا

عما قرر أولئك الفقهاء، الذين فاقوا فى أحكامهم السديدة فقهاء الأمم الغربية اتزانا وعدالة وإنسانية. فقد رأى فقهاء المسلمين فى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾. تحذيرا لكل من الزوجين من الطلاق، وتبيناً لسوء مَغَبَّته، ومنعاً من الإقدام عليه دون ترو وتأمل.

ومن الخطل: أن يستنكر (السير موير) فى كتابه (سيرة محمد عليه السلام) ذلك، وفاته أن اشتراط اتخاذ زوج آخر قبل الرجوع إلى الأول، أكبر مانع من إيقاع الطلاق عند قوم كالعرب، عرفوا بشدة الغيرة والحمية، وأقوى رادع لهم عن ممارسة هذه العادة، التى كانت شائعة عند اليهود وعرب الجاهلية والنصارى، فجاء القرآن بأكبر زجر لأمة من أقوى أمم الأرض شعورا؛ فمس منها مكان العزة والشرف...

ولا جرم أن الناس فى جملتهم متشابهون. فلا نعرف أحدا - إلا من فقد الغيرة الإنسانية - يرتاح إلى أن يتزوج غيره من امرأته بعد طلاقها بدافع الغيرة والأثرة.

ومن هذا الباب شدة تقبيح التحليل. قال عليه الصلاة والسلام: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالتَّيْسِ الْمُسْتَعَارِ؟) قالوا: ماهو يارسول الله؟. قال: (هُوَ الْمُحَلِّلُ. لَعَنَ اللهُ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ).

ومما هو جدير بالذكر القصة الآتية التى أوردتها صحيفة الضياء فى ٢٢ من ديسمبر سنة ١٩٣٠ م بعنوان (يبيع زوجته) وهى:

من أغرب القضايا التى نظرت فى محاكم لندن فى الشهر الماضى، قضية رجل يدعى (إلن واتهام) كان شديد التعس فى حياته الزوجية، فانتهى به الأمر إلى أن يبيع زوجته بمبلغ خمسمائة جنيه انجليزى، لتاجر يدعى (فيلبس).

وقد قرر المستر (إلن واتهام)، أن حياته الزوجية لم تكن تطاق؛ لأن أخلاق زوجته لم تكن تتفق هي وأخلاقه، مع حبها لهذا التاجر وموافقتها على البيع.

وقال المحامي عن المتهم: إنه لا وجه لإقامة الدعوى على موكله. وقد ذكر في دفاعه فقرة، يُستدلُّ منها على أن القانون الانجليزى قبل مائة سنة كان يبيح بيع الزوجات، وأنه في سنة ١٨٠١ م كان ثمن الزوجة محدودا بمبلغ (ستة بنسات)، (أي نحو ٢٤ مليما تقريبا)، بشرط أن يتم البيع بموافقة الزوجة ومحض اختيارها.

فردّت عليه المحكمة بأنّ هذه الفقرة صحيحة، وأن القانون الذى ذكره كان موجودا حقا — غير أن الحكومة أصدرت أمرا في سنة ١٨٠٥ م بإبطال بيع الزوجات، أو التنزل عنهن.

وبعد المداولة حكمت المحكمة على بائع زوجته بالسجن عشرة أشهر.

تاسعا — الحجاب

لما جاء الإسلام كانت المرأة في درك انحطاط الخلق؛ ولذا كان من الحكمة نهى النساء عن التبرج تبرجَ الجاهلية الأولى، وأمرُهن بالاستقرار في منازلهن، وليس في نص القرآن ولا في صحيح السنة، مايفيد تشديدا على المرأة في الحجاب، كما نراه اليوم في البلاد التي ليس للإسلام فيها نفوذ، والتي لم تصل إليها نظم الإصلاحات الغربية.

تأمل قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ

عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ .
وقوله تعالى : ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ...﴾ إلى ﴿تُفْلِحُونَ﴾.

يسهل فهم هذه الآيات ، وإدراك ما تنطوى عليه من مقاصد الإصلاح ، للذين درسوا الحالة الاجتماعية فى العصور القديمة ، وفوضى الأخلاق التى أراد الله بإرسال نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن ينقذ العالم من شرورها ، حتى تنتظم أحواله بإصلاح حال المرأة ، وترقيتها فى ملبسها وسلوكها ، فلا تصبح بعد ذلك مضغة فى أفواه السّفلة والرّعاع .

وقد قال أحد المنصفين من كتاب الغرب (هملتن) : إن أحكام الإسلام فى شأن المرأة ، صريحة فى وفرة العناية بوقايتها من كل ما يؤذيها ، ويمس سمعتها ، ويتناول كرامتها ، ولم يضيق الاسلام فى الحجاب كما يزعم بعض الكتاب ، بل إنه تمشى مع مقتضيات الغيرة والمروءة .

وقال أحد الرحالة الغربيين فى سفراته : إن العرب المقيمين فى جاوة لم يلتزموا عادة الحجاب مطلقاً ، وإن نساء جاوة متمتعات بالحرية التى لإخوانهن فى (هولاندة) .

وإن التاريخ يحدثنا أن نساء النبي بعد أمرهن بالاستقرار فى منازلهن ، ونهيهن عن التبرج . لم يكنّ معتكفات عن العالم ، كما يزعم بعض كتاب الغرب ، فان السيدة عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، اشتركت فى قتال علىّ كرم الله وجهه ، وقامت السيدة فاطمة الزهراء بنصيب وافر ، من الدعوة إلى إسناد الخلافة إلى علىّ ، وأنقذت السيدة زينب بنت الحسين ابن أخيها اليتيم الصغير من الأمويين ، بعد مذبحة (كَرْبَلَاء) .

وسير فضليات النساء مملوءة بما يدل على أثر الاسلام فيهن ، وإعداد هن للاشتراك فى الحياة العامة .

بلغ انحطاط الأخلاق كما قدمنا عند عرب الجاهلية واليهود والنصارى ، مبلغا استوجب إسعافه بالعلاج . وقد كان لأمر القرآن الكريم لنساء النبي صلى الله عليه وسلم بالاستقرار فى منازلهن ، واجتناب تبرج الجاهلية ، أثر حسن فى رفع المستوى الخلق ، لأنهن كنّ لنساء المسلمين خير أسوة ، وأعلى قدوة .

ومما هو جدير بالذكر ، ما قاله الأستاذ (فون همر) : الحجاب فى نظر الإسلام ، وتحريم اختلاط النساء بالأجنبي منهن ، ليس معناه انتزاع الثقة بهن ، وإنما هو وسيلة إلى الاحتفاظ بما يجب لهن من الاحترام وعدم التبذل ، فالحق أن مكانة المرأة فى الاسلام قَمِنة بأن تغبط عليها .

تأمل هذا ، ووازن بينه وبين ما يأتى :

(ا) قرر (ترتليان) فى كتابه (وصف المرأة) : أنها باب الشيطان لأنها أفسدت آدم — وهو مظهر من مظاهر قدرة الله — بحمله على الأكل من الشجرة .

(ب) قال (لوفى) : إن المرأة شر لابدّ منه ، ونكبة تنساق إليها النفوس ، وبلاء لامهرب منه ، وبرق خُلَّب ، ومرض عُضَال .

(ج) قضت أوامر الكنيسة الأرثوذكسية بحرمان المرأة حقها فى المجتمع ، فحظرت عليها حضور المآدب والحفلات ، وألزمت النساء الحجاب صامتات صابرات ، لاشأن لهن إلا طاعة أزواجهن ، والقيام بالغزل ، والنسج والطهى ، وإذا خرجن من دورهن سترن أجسامهن ، من

قمة الرأس إلى أخمص القدم

ومما يجب ذكره أن نصيب المرأة من الحرية فى الجاهلية عند العرب، كان أكثر منه عند اليونان. وفى ذلك يقول (بيرن): لم تكن النساء فى الجاهلية تعسات: فكن يرافقن المحاربين إلى ميدان القتال، ويثرن فيهم الحمية والبطولة، وكان الفرسان ينزلون ميدان الوغى، وهم يتغنون بذكر أخدانهم، وزوجاتهم ومحبوباتهم. وكان إعجاب محبوباتهم بهم خير مكافأة يطمعون فيها، وكان كرم الخلق والشجاعةُ من أسمى مكارم الرجل، كما كان العفاف أحسن حلية تتزين بها المرأة، وطالما اشتعلت نار الحروب بين القبائل فى أنحاء صحراء العرب، من جرّاء إهانة تصيب المرأة من غير قبيلتها.

كان العرب يجلون المرأة بما غلب على طباعهم من خلق الفروسية والشهامة، لسعة حيلتها، ونفاذ رأيها، وقوة تأثيرها فى اهتياج أشجانهم، وإثارة الحفيظة فى نفوسهم، إذا رأت منهم قراراً على الذل، وإغضاء على القذى، ونكوصا على الأعقاب.

وهؤلاء نساء قريش، خرجن مع الجيش فى غزوة أُحد يحملن الدفوف، ويبكين قتلى بدر، فيوقدن بذلك فى صدورهم نار الأخذ بالثأر. وما كان منهن حين انهزمت قريش فى صدر المعركة، وسقط لواؤها، فقد تقدّمت عَمْرَة بنت علقمة، ورفعته بيدها، فاندفعت قريش إليها، ودافعوا عن رايتهم، وقاتلوا المسلمين مستبسلين، حتى ظفروا بهم،

وقصة عُفَيْرَة وصيحتها فى قومها، بعد أن اطمأنوا إلى الذل، ورضوا بالخسيسة — مشهورة معروفة.

من أجل ذلك شجع الإسلام هذا الخلق العظيم، وأتى بأحكام ضاعفت

احترام المرأة وإعلاء منزلتها ، فنمت فى أبنائها المسلمين خليقة إنقاذ الضعيف ، ودفع الضيم عن المظلوم ، وتلبية نداء الإنسانية فى أى بقعة كانت : من مواساة البائسين ، وتفريج كروب المكروبين . وانتقل هذا الخلق بالقدوة وألوراثة من الخيام إلى القصور الشاهقة ، ومن الأسرة وهى وحدة المجتمع إلى المجتمع .

ألم تقرأ ما رواه المؤرخون : من أن عبدالملك بن مروان كان جالسا على المائدة ، فعلم أن فتاة عربية تشكو ذل الأسر عند الرومان ، وتقول : النجدة ياعبدالملك ! فأقسم ألا يقرب لذائذ الحياة حتى ينقذ الفتاة من أسرها ! وقد بر بيمينه .

يقول بعض المنصفين من كتاب الغرب : كان عنترة أبا الفروسية ، وكان على كرم الله وجهه شعارها . فهو مثال الإقدام ، والشجاعة ، والحزم ، ولين الجانب ، والعلم . وكان شديد البأس ، وافر الشفقة . وكان للعرب فى جملتهم الفضل فى انتشار الفروسية فى أوربة ، لأنها سرت من بلاد الأندلس إلى الأقطار المسيحية المجاورة لها ، فتعلم أبطال إيطاليا ، وفرنسا ، وألمانيا ، أناشيد الشرف والحب فى الحروب ، من أساتذتهم فى قُرْطُبَةَ ، وغَرْنَاطَةَ ، ومَالَقَةَ . ولم تكن آراء (بتراس) و (تاسو) و (شوسر) إلا ترديداً لصدى الفضائل الإسلامية ، وقبسا من نورها ، وهدى من دستورها ، ومع هذا فإن ما كان مركوزا من الغلظة والصلف فى طبائع القبائل الأوربية الهمجية — جعل فى بطولة أبطالها ضربا من الخشونة لا نظير له فى البطولة الإسلامية .

ظلت المرأة فى القرون الأولى فى الإسلام إلى أن سقطت دولة العرب فى الشرق ، رفيعة الدرجة ، سامية المكانة ، أرقى مما عليه المرأة اليوم فى الدول

الغربية . وإليك بعض البراهين :

(ا) شغلت زبيدة زوج هارون الرشيد مكانة عظيمة فى عصرها ، بفضل أعمالها الجليلة ، وفضائلها الكثيرة ، وأخلاقها السامية .

(ب) كانت السيدة سكينة بنت الحسين الدرّةَ اليتيمة بين أترابها . وفى شأنها يقول بيرن : كانت سيدة عصرها ، إذ كانت موفورة الجمال ، كاملة الخصال . ولا غرو ! فقد رغبت فى العلم والمتعلمين ، وجالست العلماء والأتقياء ، وشاركتهم فى كثير من العلوم والفنون . . . !

(حـ) كانت شهدة الملقبة بفخر النساء فى القرن الخامس للهجرة تلقى الدروس على الجمهور فى جامع بغداد ، فى الأدب والتاريخ ، وكان يحضر درسها عدد غفير من أهل الفضل والعرفان ، ولها فى تاريخ الإسلام ، ما لأعظم العلماء من سمو المنزلة والاحترام ، ولو ظهرت شهدة هذه فى أوربة قبل اقتباس المدنية الإسلامية لأحرقوها ، بحجة أنها ساحرة . . . !

أفبعد هذا كله يظل بعض المستشرقين يفترى على الدين الإسلامى الكذب والبهتان ، وعلى النبىّ العربىّ الكريم الذى يقول : « مَازَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالنِّسَاءِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُحَرِّمُ طَلَاقَهُنَّ » ؟ !

من المسلم به ، أن المرأة قد وصلت بعد تسعة عشر قرنا إلى مقام نالت فيه نصيبها من الاحترام ، ولكن هل حصلت على مكانة شرعية أعزّ من مكانة المرأة فى الاسلام ؟ كلّا : إن المرأة المسلمة أعطيت من الحقوق ، مالم تُعطَه أختها المفتونة بحضارة أمتها ومدنيتها .

حسب الإسلام أنه جعل البنت مادامت غير رشيدة فى كفالة والدها ، أو من يقوم مقامه ، وأنها متى بلغت سن الرشد خولها جميع الحقوق التى يحق لها التمتع بها

بوصفها شخصا مستقلا عن غيره . وجعل لها الحق فى تركة والديهـا ، وأن لايستطيع أحد أن يزوجها بغير رضاها متى كانت بالغا ؛ وإذا تزوجت لاتفقد شخصيتها ، بوصفها عضوا قائمـا بذاته فى المجتمع الإنسانى . وأوجب على الزوج القيام بتدبير شئون زوجته جميعها إذا أرادت . ولم تبح الشريعة للزوج التدخل فى أموالها ومكاسبها بغير إذنها . ومنحتها الحق فى أن تقاضى من تشاء ، دون الاضطرار إلى الاستعانة بزوجها أو والدها أوأخيها . وأنها بوصفها أمًا لهـا حقوق ثابتة لاتتوقف على قضاء .

ومما تقدم يتبين أن الشريعة الإسلامية أبلغت المرأة مكانة أسمى مما بلغته المرأة الغربية . وليس هناك من سبب لتأخر المرأة المسلمة عن المرأة الغربية . إلا قلة انتشار العلوم والمعارف بين الأمم الإسلامية ؛ وضعف التمسك بأنظمة شريعتهم الغراء .

وخليق بنا أن نورد المقال الآتى نقلا عن (جريدة) المساء المؤرخة ٢٦ من فبراير سنة ١٩٣١ م ، وهو بحروفه :

النساء فى الإســـــلام

من مقال قيم لجريدة الإسلام فى باريس

فى العاصمة الفَرَنْسية جريدة تصدر بلغة تلك البلاد اسمها الإسلام . أسسها أربعة من المسلمين : مصرى ، ومرَّاكُشى ، واثنان من الجزائريين . وقد اطلعنا فيها على فصل قيم فى النساء المسلمات رأينا أن ننقله لقارئاتنا فيما يأتى :

من الأمور المعروفة أن النساء لهن الحظ الوافر فى تطور الشعوب ، وتقدم الأمم ، لهذا عمد الرجال ، من تلقاء أنفسهم ، إلى التمشى رويدا رويدا ناحية المساواة

بين جنسهم وذلك الجنس اللطيف ، مسوقين على توالى القرون بحكم التطور الأدبى والمادى .

ولم يبد التطور الأدبى الخلقى على أشده إلا فى تاريخ الأمة العربية ، فالمعلوم أن العرب عندما بلغوا أوج عظمتهم ، وملكوا دولتى السيف والقلم ، كانت المرأة عندهم عدل الرجل سواء بسواء : فلها حرمة وكرامة ، ولكن حدث بعد ذلك أن ساءت العادات من جراء طغيان الحكام ، وتدخل الأجنبى ؛ فزالت تلك المرأة العربية الحرة الشريفة ، ذات العزة والاحترام . وحلت محلها السرية والحظية ، من الطبقات الدنيا الغريبة عن العنصر العربى : كسيسات البيزنطيات والفارسيات ، والجوارى من الروم والصقالبة (١) وبنى على هذا أن اختل حتى نظام الحياة والأسرة : فكانت عيشة الكسل ، واللذة والإسراف ، والتبذير فى النفقة والتبرج .

كان للمرأة العربية منزلة ذات شأن خطير : فهى فى المدينة الآمرة الناهية فى المنزل والأسرة ، بل الخائضة بعقل وحصافة فى القضاء والسياسة .

ومن منا لا يذكر امرأة الحارث بن عوف ، التى أصلحت ما بين القبيلتين بعد أن نذرت كل منهما لأختها الدماء والفناء ؟ ثم من منا لا يأسى ولا يأسف بعد ذلك على طى ذلك العهد ، وما خلفه من عهد التسرى الذى يشبه ما كان فى أثينا وإسبرطة ؟

وقد وضع النبى العربى الكريم من الأقوال والأحكام ، ما سوى به بين المرأة والرجل فى حرية التصرف والكرامة . فلبث العالم العربى ستة القرون الأولى ولا حجاب بين النساء والرجال . فكان بعض الفضليات العظيمات يعقدن مجالس العلم والأدب والمناظرة والمساجلة ، ويحكمن بين العلماء

(١) الصقالبة . أمة تسكن ما بين بلاد الخزر وقسطنطينية .

والأدباء ، فإذا ماشبت الحرب خرجن يشحذن من همم الرجال ، ويذكين من عزمهم ، ويوقدن من حماستهم ، ويواسين الجرحى ، ويثنين على الشجعان .

ولولا المرأة المسلمة ما تمشى الاسلام من فوز إلى فوز : فالسيدة خديجة كانت أول من شجع النبي صلى الله عليه وسلم بعد روعة الوحى ، وكانت أول من قاسمه جهوده ، وأعانه بالعطف والرأى والمال .

وإذا عظّم المسيحيون السيدة مريم ، فالمسلمون على بكرة أبيهم يعظمون فاطمة الزهراء ابنة المصطفى : فقد فَقَد أولاده الذكور – رضوان الله عليهم – فى حياته ، فمال بعطفه وحنانه جميعا إلى ابنته السيدة فاطمة : فأدبها فأحسن تأديبها ؛ فكانت آية فى الفضيلة والعرفان ، وتزوجت وهى فى السادسة عشرة من عمرها بعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فكان منها الحسن والحسين . وهما سيدا شباب أهل الجنة .

وعُرفت فاطمة – رضوان الله عليها – بأنها كانت لا تقصّر فى شئون بيتها ، فإذا مافرغت منه وأدت الفرائض ، جمعت الصحابة وأخذت تنثر فيهم الغوالى من الحكم والنصائح ، والحض على الفضائل . وجاءنا كثير من قولها فى المرأة ووجوب تعظيمها .

وهناك سكينة ابنة الحسين (رضى الله عنهما) وهى آية زمانها فى العلم والأدب ، وكانت دارها مثابة للعلماء والأدباء ، ولقد بلغ من تأثيرها حتى فى النساء ، أنهن كن يقلدنها فى الملبس ، والحركة ، والإشارة .

واشتهرت سكينة بالنقد الصائب فى الشعر ، وفى الكرم والفضل على الشعراء . وفى العربيات البارزات بعد ذلك الخيزُران ، امرأة المهدى الخليفة الثالث من بنى العباس . وكانت هى الآمرة الناهية فى البلاط وفى الدولة ،

وكانت من العجائب فى العقل والشجاعة والكياسة ، يقف ببابها الوزراء والعلماء والشعراء . وبفضل هذه السيدة البارّة ، ردّ المهدى إلى الأمويين مااستصفاه العباسيون من أملاكهم .

وهناك زبيدة زوجة الرشيد . وليس فى مسلمى الأرض كافة من يجهلها : فهى التى أمدت مكة بالماء الصالح للشرب ، من العين التى عرفت باسمها (عين زبيدة) ، وهى التى أمرت ببناء اسكندرونة بعدأن دمرها البيزنطيون ، وكانت تقرض الشعر الجيد ، وتشير بالآراء الصائبة فى السياسة والحروب .

وبُوران امرأة المأمون المشهور ، لم تقعد بها فارسيتها : فهى المسلمة التى جمعت بين الكياسة الفارسية ، والكرامة الإسلامية ، وعرفت بالذكاء ، وأقامت فى بغداد المدارس والمشافى .

ومن المشهورات فى الإسلام قطر الندى ، امرأة المعتضد بالله وأم المكتفى . وكانت من العليمات الخبيرات بالشرع والقضاء : فقامت بالوصاية على ابنها قبل بلوغ الرشد ، وأدارت الأحكام ، وقضت بنفسها بين الناس . وأحاط بها كثير وكثيرات من الشعراء والشواعر ، والأدباء والأديبات .

وشجرة الدر امرأة نجم الدين أيوب . وقد أدارت بنفسها رحى الحرب على ملك الفرنسيس سان لويس ، واعترف لها الناس بأنها مليكة مصر .

وإذا التفتنا إلى الأندلس ، وجدنا المرأة المسلمة بلغت هناك الأوج ، وحلت الذروة . قال فون كريمر المشهور فى تواليفه : «إنّ العرب كانوا مفطورين على احترام النساء فى قرطبة ، ومنها تعلم الأوربيون احترام السيدات » .

وأقام «عبد الرحمن» على باب قصره تمثال امرأته الزهراء ، وشيد قصرا لتخليد ذكرها ، وأقام كثيرا من دور البر والإحسان .

وكثر فى الأندلس عدد المسلمات المتعلمات ، وكن يصلين بجانب الرجال ، فى جوامع قُرْطُبَة ، وَغَرْنَاطَة ، وَإشْبِيلِيَة ، ومالقَة ، ومُرْسِيَة ، وغيرها .

ورقى الأمير سليم بعد وفاة والده السلطان محمد أحمد الأكبر عرش فارس ؛ فتزوج بالسيدة مهر النساء ، وكانت تتقن العربية والفارسية وآدابهما ، ولها علم واسع بالموسيقى ، وكان زوجها يدعوها (نور محل) (نور القصر) ، ودعاها الشعب (نور جهان) (نور الدنيا) ، وتعاطت الأحكام حكيمة موفّقة ، وكانت تعرض الجند ، وتستقبل الأمراء والحكام ، وكانت السكة فى الدولة باسم الشاه وباسمها ، وكانت تتعاطى حتى الصيد على ظهور الجياد ومعها الوصيفات !

وحدث مرة أن زوجها وقع أسيرا فى بعض الحروب ، فقامت على رأس الجنود فاستخلصته من قبضة الأعداء ، ولها فوق هذا فى البر آيات : فكانت تربى اليتامى واليتيمات وتزوجهن ، وكانت موئل المظلوم وملاذ المعدم ، وقلما خلت مدينة حتى فى الهند من مكان باسمها .

ويتدبر المؤرخون جميعا حركة التقدم عند العرب ، فيجدونها مرتبطة برقىّ المرأة : ففى عهد انحطاطها وقف ذلك التقدم ، ورجعت القهقرى .

فإذا أراد المسلمون الآن استرداد ما كان لهم من تاريخ مجيد ، فما عليهم إلا أن يعملوا على إنهاض المرأة المسلمة ، إلى المستوى الذى كان لها فى صدر الإسلام » اهـ .

هذا هو المقال البديع الذى نشرته فى العاصمة الفرنسية جريدة الإسلام ، لأولئك الإخوان الأمجاد ، الذين تصدرهم مصرى لإصدار هذه الجريدة الرشيدة

السبيل الآخر لإصلاح المجتمع

الإكثار من وسائل إبطال الرق

تمهيـــد

ينبغى لنا قبل الخوض فى هذا الموضوع أن نوضح معنى الرق ، وأن نتكلم بإيجاز فى الاسترقاق عند الأمم المختلفة ومنشئه :

معنى الرق :

الرق فى اللغة : الضعف ، ومنه رقة القلب . وعند الفقهاء : عجز حُكْمِىّ يصيب بعض النـاس .

أما عند الفرنجة ، فهو حرمان الشخص حريته الطبيعية ، وصيرورته ملكا لغيره

منشأ الاسترقاق :

ظهر الاسترقاق منذ كان حجاب الجهالة مسدلا على المجتمع الإنسانى .

أســـبابه :

(١) لمـا كان العمل من أصعب الضرورات وأضناها للجسم ، بحث الإنسان عما يستنقذه من عنائه وشقائه ، فوجد طَلِبته بين يديه ، وسخّر القوى الضعيف فى القيام بأعماله ، ومن ذلك نشأ الاسترقاق .

(٢) ثم تولدت الأطماع ، وجاءت الحروب فنشرت الاسترقاق عند معظم الأمم ، وصار الناس لا يقتلون العدو إذا غلب ، بل يبقون عليه ، ليعمل لهم .

(٣) لطبيعة الأقاليم ـــ وهى من أقوى العوامل فى تكوين الجماعات البشرية ـــ أثر عظيم فى زيادة الاسترقاق واتساع نطاقه ، حتى بلغ عند الأمم

التى على الفطرة فى جميع بلاد المشرق مبلغا عظيما ، لأن ثمن الرقيق كان زهيدا ، واتخاذه مفيد فى الصناعة والتجارة .

غير أنه فى الشمال كان الاسترقاق أقل فشوا منه فى الجهات الجنوبية من المعمورة ، لأن تغذية الرقيق عندهم كانت تكلفهم نفقات جسيمة ، ولم يكن لعمله فائدة كبيرة .

وهذا يدل على أن الاسترقاق من الأمور الاقتصادية المترتبة على العمل والاشتغال .

الاسترقاق فى الأزمنة القديمة

الرق عند قدماء المصريين

كان الرقيق عند قدماء المصريين آلة مسخرة للعمل ، ومن مشاهد الزينة ومظاهر الأبهة : فكان الأرقاء فى قصور الملوك وبيوت الكهان والمقاتلين ، وكان الأسارى أرقاء للدولة ، يقومون بالأعمال التى تستدعيها حاجات القطر ، أو تتطلبها موجبات زخرفته ، وتحسين هيئته ، وفى غير الحالات التى تستدعيها المصلحة العامة ، كانت الأخلاق والعادات تقضى بمعاملة الرقيق بالشفقة والرحمة والدفاع عنه ، بل إن الشريعة تحميه من البغى والأذى ، فقد نصت على أن من قتل الرقيق يقتل به ، وكان يجوز رفع الامة إلى مقام الزوجية .

الاسترقاق عند الهنود

قد جعلت شريعة مانو [1] الناس طبقتين ممتازتين :

(١) هو مشرع هندى ينسب إليه الكتاب المسمى (مانا فاذا رما ساسترا) وهو كتاب واف فى علم الأخلاق والشريعة

(١) الدُّوِيْداس : وهم الذين تتألف منهم الطبقات العالية : البراهمة ، ومن إليهم .

(٢) السُّودْرا : وهم الطبقة الدنيا المستخدَمة .

ثم حددت درجتهم بالقياس إلى البراهمة وغيرهم ، وجعلتهم فى أحطّ منزلة ، ووضعت لهم القوانين الصارمة . ومن أمثلة ذلك ما يأتى :

(١) يجوز للبُرَهْمِى أن يُجبر السودرا على الخدمة . سواء اشتراه أم لم يشتره ، لأنه رقيق ، ولأنه ما خلق إلّا ليخدُم البراهمة .

(٢) بل إذا أطلق سيده سراحه لا تفارقه صفة الخدمة ، لأن هذه حالة طبعية مرتبطة بوجوده .

(٣) إذا مس السودرا أحد البراهمة بأذى ، فلا مندوحة عن قتله .

(٤) إذا وجه رجل من هذه الطبقة الدنيا سبا فاحشا إلى أحد الدويداس ، فجزاؤه سل لسانه .

(٥) وإذا ذكر أحدَهم باسمه وبطبقته على سبيل الازدراء ، فجزاؤه أن يوضع فى فمه خنجر طوله عشر أصابع ، بعد إحمائه بالنار إحماء شديدا .

(٦) إذا اجترأ على إسداء النصح والمواعظ للبراهمة فيما يتعلق بواجباتهم ، فعلى الملك أن يأمر بوضع الزيت المُغلَى فى فمه وفى أذنه .

(٧) إذا سرق البرهمى من السودرا عوقب بالغرامة ، وأما إذا سرق السودرا فجزاؤه الإحراق .

(٨) إذا تجاسر السودرا على ضرب أحد القضاة ، فليعلّق بسَفُّود ، وليُشْوَ حيًّا ، وإذا ارتكب البرهمى مثل هذه الجريمة كانت عقوبته الغرامة وحدها .

والمقرر فى الشرائع البرهمية ، تقسيم جميع الأشخاص الملزمين الخدمة إلى

قسمين : الخادمين ، والأرقاء. فالأعمال الطاهرة من خصائص الخادمين ، والأعمال النجسة على عواتق الأرقاء .

الاسترقاق عند الآشوريين والإيرانيين

يدل تاريخ مملكة آشور على أنها كانت أمة عريقة فى الاسترقاق ، وأن الزق كان متأصلا فيها ، فقد كانت القصور تغص بالنساء والأرقاء المخصصين للجمال والزينة .

أما مملكة الفرس التى امتد سلطانها إلى حدود آسيا القديمة ، فقد استجمعت جميع أنواع الاستخدام المعروفة عند كثير من الأمم المختلفة : فقد كان فيها الأرقاء الرعاة ، والأرقاء المختصون بحاجات الزينة والثروة .

وقد أجاز العرف والاصطلاح فى بعض البلاد أن يكون للأرقاء أوقات راحة ، كما اجتهد واضعو الشرائع فى إنصاف الموالى ، وتخفيف وطأة الظلم عنهم.

قال هيرودت : «لا يجوز لأى فارسى أن يعاقب عبده على ذنب واحد اقترفه ، بعقاب بالغ فى الشدة والصرامة . ولكن إذا عاد العبد إلى ارتكاب الذنب ، فلمولاه أن يفقده الحياة ، أو أن يعاقبه بجميع ما يعرف من أنواع العذاب » .

الاسترقاق عند الصينيين

كان الاستخدام للمنفعة العامة شائعا فى الصين قبل التاريخ المسيحى بأجيال ، يقوم به المحكوم عليهم والأُسَارَى . ثم نشأ الاسترقاق ، وكانوا يجلُبون الأرقاء من الخارج بالحروب ، أو يأخذونهم من الصين نفسها كما كانت تفعل الدولة ذاتها ، لأن الفقير كان يُضْطَرّ لبيع أولاده بسبب الفاقة والاحتياج ، وكانت هناك أسر مستعبدة بسبب الشدة ، وكان للمولى التصرف

المطلق فى الرقيق : يبيعه ويبيع أولاده .

إلا أنّ الاسترقاق فى بلاد الصين كان قليل الشدّة ؛ فإن الشرائع والعرف والأخلاق كانت تساعد على تهوين حاله :

فقد أصدر الإمبراطور كوانجون — وكان عائشا بعد المسيح عليه السلام بخمس وثلاثين سنة — أمرين اثنين بوقاية حياة الرقيق وشخصه ، ضمنهما عبارات تشف عن كمال المروءة ، فقد قيل فيهما :

« إن الإنسان هو أفضل المخلوقات التى فى السماء والأرض وأشرفها . فمن قتل رقيقه فليس له من سبيل إلا إخفاء جرمه . ومن تناهت به الجرأة فكوى رقيقه بالنار ، حوكم على ذلك بمقتضى الشريعة . ومن كواه سيده بالنار دخل فى عداد الوطنيين الأحرار » .

ولقد كان بعض الأرقاء يصادفه الحظ ، فترتفع به المناصب ، وينال ثقة مولاه ، ويجد فى بعض المكاسب طريقة ينال بها حرّيته ، ويتخلص من ربقة الرق ، ولهذا كان الاسترقاق قليلا عند أمّة الصين . التى امتازت بجودة الفكر ، وأصالة الرأى .

الاسترقاق عند العبرانيين

وكان الاسترقاق قديما فى هذه الأمّة ، وكان الأرقاء فى بنى إسرائيل من أصول الثروة وأسباب الغنى ، عند أولئك الرؤساء الذين كان دأبهم الحلّ والتّرحال ، إلا أنه كان للأرقاء عندهم بعض الحقوق : كاستراحة سبعة أسابيع فى السنة ، وعدم جواز ضربهم ضربا مبرّحا . ومن فعل ذلك أُوخذ بعقاب فيه بعض الشدّة ، وكذلك من بتر الرقيق أو كسر له عضوا أو سنا . ولهذا

يصح القول بأن العبرانيين كانوا يعاملون الأرقاء معاملتهم أنفسهم ، وكثيرا ما كان يتفق للمولى أن يميز إحدى إمائه ، فيتخذها حليلة ، بل أغرب من ذلك أن العبد كان يتاح له فى بعض الأحيان أن يتزوج من بنت مولاه ، إذا لم يكن للمولى أولاد ذكور . وكان العبرانيون يتسرّون غالبا جواريهم .

والخلاصة : أن الاسترقاق عند العبرانيين وعند غيرهم من سائر أمم الشرق عدا الهنود ، كان مقرونا باللطف والعطف ، اللذين لا يرى لهما مثيل فى اليونان والرومان ، وفضلا عن ذلك فقد ورد فى شريعة سيدنا موسى عليه السلام : أن العبد إذا استحق القصاص فلا يصدر الحكم عليه إلا من القاضى ، حماية له ورحمة به من قسوة الموالى وانتقامهم .

الاسترقاق عند الإغريق

كان الاسترقاق قديما متفشيا جميعَ بلاد اليونان ، وأثبت مشروعيته وصحته رأس فلاسفتهم أَرَسْطو ، الذى عرَّف الرقيق بأنه : (آلة ذات روح ، أو متاع قائمة به الحياة) .

ثم قسم الجنس البشرى قسمين ، وهما : «الأحرار ، والأرقاء بالطبع» .

وقد قسم اليونان الرقيق صنفين متباينين :

(١) سكان الأقطار المفتوحة المغلوبة على أمرها : وهؤلاء تابعون لأرضهم كجزء منها .

(٢) أرقاء البيع والشراء : وهؤلاء كان للموالى عليهم السيادة المطلقة ، وأغلب الأرقاء من الصنف الثانى .

وكان سبيل الاسترقاق التلصص فى البحار ، واختطاف سكان السواحل :

وكانت المستعمرات اليونانية ، وأثينا ، وقُبرُس ، وساموس ، وصاقص ، أسواقا عظيمة ومراكز لبيع الأرقاء ، ويعمل العبيد لمواليهم أو لأنفسهم ، بشرط أن يدفعوا لسادتهم قدرا معينا كل يوم ، وكثير من اليونان اشتروا العُبدان ، وخصصوهم للإجارة ، وكان هذا أفضل الوجوه فى تثمير المال ، ولم يخل بيت فى أثينا من عبد قائم بخدمته ، مهما يكن صاحبه فقيرا ، وكان المولى مطلق التصرف فى عبده ، وإن لم تبلغ الشدة فى معاملته عند اليونان مابلغته لدى الرومان .

وعقاب العبد الجلد بالسوط ، وبالطحن على الرحى، وكان يكوى الآبق(٢) أو الوارد من البلاد المتبربرة بالحديد المُحْمَى على جبهته . على أن حياة الرقيق وشخصه كانا مكفولين بالقانون . فما كان يُقْتَل إلا بعد صدور حكم القانون عليه .

وكان فى أثينا أناس من العَتْقَى ، مُلزَمُون الولاءَ لمواليهم مدى الحياة ، وعليهم واجبات مفروضة ، ولكنهم لم يكتسبوا الحقوق الوطنية ، بل مقامهم كالغرباء . كما كان هناك أرقاء تستخدمهم الدولة لحفظ المدن وحراستها ؛ والاستعانة بهم على استتباب الأمن ، وتوطيد دعائم الراحة فى الاجتماعات العامة

الرق عند الرومان

كان العمل بروما موكولا إلى العمال الأحرار؛ ولذلك انبثّت روح الشهامة والرجولة فى جميع سكان هذه المدينة التاريخية ، ولكن لما كثرت الحروب وتوسعت روما فى الفتوح ، وعم الترف ، اتكل الأغنياء على العبيد ، واستعملوهم فى حراثة الأرض ، وأسندت إليهم الصناعات والفنون .

---

(١) الآبق : الهارب .

وجوه الاسترقاق

كانت وجوه الاسترقاق برومة متعددة :

(١) الحروب ، وهى أعظم موارده .

(٢) العبيد بالولادة (المولودون من الأرقاء) .

(٣) أحرار قَضَى عليهم بعض نصوص القوانين بالوقوع تحت نير العبودية : كمدين لم يتيسر له وفاء دينه .

وكثيرا ما كان يرافق النخاسون الجيوش ، ويبيعون آلاف الأسرى بأثمان بخسة : كما كانوا يسرقون الأطفال للبيع ، والنساء لاتخاذهن فيما ينافى الآداب . .

وكانت العادة فى رومة بيعَ الرقيق بالمزايدة : يَمْثُل على حجر ، ليراه كل الناس . وكذلك كانت العادة أن المشترى يطلب رؤية الأرقاء عراة للوقوف على عيوبهم الخفية .

وكانت أثمان العبيد المتعلمين والمعَدّين لتمثيل الروايات ، والجوارى البارعات فى الجمال ، غالية جدا . ولما عم الفساد واختلت قواعد الآداب ، صار بيع الحسَان من أسباب الثروة والغنى .

أقسام الرقيق

كانت رومة شبيهة ببلاد اليونان فى تقسيم الأرقاء إلى :

(١) أرقاء يؤدون منفعة عامة ، وهم أحسن حالا من غيرهم : ويقومون بحفظ المبانى ومساعدة القضاة والكُهّان ، ويستخدَمون سجّانين وجلّادين .

(٢) أرقاء خصوصيين : وهؤلاء يقومون بخدمة مواليهم وقضاء مصالحهم

قيمة الرقيق

ولم يكن الرقيق فى نظر القانون شيئا : فليس له ملكية ، ولا أُسَرَة . ولاشخصية . وهو تابع لأمه حرية ورقا حين الوضع ، لاحين الحمل .

ولا حدّ لسلطان الموالى على أرقّائهم : فيعاقَب الرقيق على الهفوة بما يشبع شهوة الموالى : من مشاق الحراثة والزراعة مكبلا بالحديد ، إلى الجلد بالسياط الذى قد ينتهى بالهلاك ، إلى تعليقه من يديه ، وربط الأثقال برجليه ، إلى مقاتلة الوحوش والحيوانات الضارية

ثم نُظِرَ إليهم بعين الرأفة والرحمة ، وسُنّ لهم أوّل قانون : وهو قانون (بترونيا) . وفيه أنه يحرم على الموالى إلزام أرقائهم مقاتلة الوحوش . على أن هذا الجزاء قد يصح أن يقع بإذن من القاضى .

ثم جاء « أنطونان وكلوديوس » فنهيا عن سوء معاملة الأرقاء ، وشرعا أن السيد إذا قتل عبده عد مرتكبا لجناية القتل .

الاسترقاق فى القرون الوسطى

قوانين الأمم المتبربرة[1] تشبه قوانين الرومانيين ، فى كونها تجعل الرقيق كالحيوان : يتصرف سيده فيه كما يشاء ، ويجوز له قتله ، لأنه شيء من الأشياء التى يملكها . وهذه الأمم فروع :

(١) الفرع الأول : الغاليون[2] . كان الأرقاء مكلفين حراثة الأرض

(١) هي أمم أغارت على المملكة الرومانية غير مرة لأسباب متنوعة . وهى تتألف من ثلاثة أجناس كبيرة : الجنس الرومانى ، والصقلى ، والسيتى .

(٢) هم سكان تلك البلاد القديمة باسم غاليا وهي غاليا الحقيقية : (فرنسا) وغاليا التى أمام جبال الألب : (إيطاليا الشمالية) ثم أقاليم الغاليا : (الجزائر البريطانية وفرنسا وإسبانيا القديمة) .

والزرع والحصد ، لأن هذه الأعمال كانت فى عهد شيشرون[١] من موجبات الاحتقار والهوان ، ينبغى ألا يزاولها الأحرار .

(٢) الفرع الثانى : الجرمانيون[٢] ينحصر الاستعباد عند الجرمانيين فى أن يؤدِّىَ الأرقاء لمواليهم مقادير من القمح ، أو الماشية ، أو الملابس كمؤجرين ، ولكل رقيق مسكن يديره كيف يشاء ، لأن مواليهم كانوا مولعين بالقمار .

(٣) الفرع الثالث[٣] : الفرنج . وصل الاسترقاق عندهم إلى نهاية الشدّة ، فإن القانون السالى جعل سدّا منيعا بين الأحرار والعبيد ، حتى إنه إذا تزوج أحد من رقيقة أجنبية وقع فى الرق والاستعباد ، والمرأة الحرّة التى تتزوج برقيق تفقد حريتها .

(٤) الفرع الرابع : الويزيقوط[٤] . بلغت الشدّة غايتها فى معاملة الرقيق عند هذه الأمة ، حتى إنّ الحرّة إذا تزوجت برقيقها أحرقت معه ، وهما على قيد الحياة ، ويُجلَد كل منهما ، ويُفسَخُ العقد . إذا لم تكن تمتلك العبد .

(٥) الفرع الخامس : الاستروقوط[٥] واللمبرديون . وضعت أحكام

(١) شيشرون أفصح خطباء الرومان . ولد سنة ١٠٦ ق . م ، ثم درس البلاغة والفلسفة على أشهر أساتذة عصره .

(٢) هم سكان جرمانيا التى هى الآن ألمانيا .

(٣) الفرنج أمة حرة مؤلفة من جملة أسر جرمانية سكنت بطائح نهر الرين الأسفل ، وهى من أشهر الأمم التى ظهرت فى القرنين الثانى والثالث بعد المسيح عليه السلام ، وكانوا على جانب عظيم من المكر والدهاء والغدر ، لا يرتبون إلا ولا ذمة .

(٤) هم فرع من أمة القوط : وهي أمة قديمة بجرمانيا جاءت الأندلس .

(٥) الاستروقوط : فرع من الأمة المتقدمة ملك إيطاليا مدة من الزمن . واللمبرديون سكان لمبردية من القرن السادس إلى الثامن بعد المسيح

صارمة عند هاتين الأمتين ، حتى إنّ المرأة الحرّة التى تتزوج برقيق تعاقب بالقتـــل .

(٦) الفرع السادس : الإنجلوسكسون (١) . كانوا يقسمون الرقيق إلى قسمين عظيمين :

(ا) الأرقاء المشبّهون بالمتاع ، وهؤلاء يجوز بيعهم .

(ب) الأرقاء المشبّهون بالعقار ، وهؤلاء لا ينفكون عن الأرض : يقومون بحراثتها ، ويلزمون زراعتها . ثم يسمح لهم بجمع رأس مال يتمكنون به من نيل حريتهم .

الاسترقاق فى الأزمنة الحديثة

إن استرقاق الزنوج فى الأزمنة الحديثة ، يشبه استعباد الرومانيين من حيث الشخص المستخدَم ، ولكنْ يخالفه مخالفة جوهرية ، من حيث أن فتوح المستعمرات لم يأت بتملك الأراضى مع العامل الذى يحرثها ؛ بل إن كشف الأرض تبعه إبادة الأهالى ؛ فاحتيج إلى جلب الزنوج .

القانون الأسود

يطلق هذا الاسم فى جميع البُلدان ، على مجموع القواعد والأصول المدوّنة فى شأن الاسترقاق : فقد صدر فى ١٧ من مارس سنة ١٦٨٥ م مرسوم فى فرنسا . بتنظيم أحوال الأرقاء والعتق فى المستعمرات الفرنسية ، ولكن صادفته معارضات قوية عند التطبيق ، أضاعت خيره ، وأبقت شره ، وقضى

---

(٤) هو اسم جنس أطلق على الأمم الجرمانية التى أغارت على بريطانيا العظمى فى القرن الخامس للميلاد ومنهـــم تناسل الانجليز .

على الرقيق بأنه لا نفس له ، ولا روح ، ولا إرادة . وهذه بعض مصائبه :

(١) إذا اعتدى الزنوج بأقل إكراه على ساداتهم ، أو على الأحرار ، أو ارتكبوا أخف السرقات ، فالجزاء القتل .

(٢) وعقاب الإباق فى المرة الأولى والثانية : صَلْم الآذان، والكّى بالحديد المُحَمى ، وفى المرة الثالثة : القتل .

(٣) إذا ارتكب المالك أو الرئيس أية جناية على الرقيق ولو القتل ، يكون للقضاة الحق فى الحكم بالبراءة .

(٤) حرمان غير البيض الحضورَ إلى فرنسا ، للتغذى بلبان العلوم والمعارف هذا فى فرنسا .

وفى أمريكا أشدّ وأقسى

(١) فالمولى حق مطلق فى بيع العبد ، وكرائه ، ورهنه ، والمقامرة عليه . وعلى العبد الطاعة .

(٢) ليس للعبد حق فى الذهاب والمجىء . وما كان له أن يخرج من الزرع إلا بإذن السيد .

(٣) إذا اجتمع فى الطريق العام أكثر من سبعة ، يعدون مخالفين .

(٤) لا يجوز أن يشهدوا فى قضية إلا على الأرقاء أمثالهم ، ولا ينبغى تحليفهم اليمين صونا للقسم . أما فيما يتعلق بالواجبات المفروضة عليهم ، فهم يعدون أحرارا ، متى كانت الحرية وسيلة إلى الجلد أو الإعدام .

(٥) ومن اجترأ على دفع الأبيض عن نفسه ، وقَتَل المعتدى عليه ، عُدّ مرتكبا لجريمة القتل .

(٦) تحريم السفر عليه ، وحظر إعطائه الجواز .

(٧) وكل من أشار على أحد الأرقاء، أو على جماعة منهم بخلع الطاعة، أو نَشَرَ كراسة أو رسالة فى تحريض الأرقّاء على عدم الامتثال، أو أدخل بقلمه فى أرض الحكومة صحفا، أو كراسات، أو كتبا مؤلفة فى الطعن على الاسترقاق — يجازى أشدّ جزاء.

هذه أخص الأحكام المدونة فى القانون الأسود، قبل أن تثور الحرب المدنية التى خربت الولايات المتحدة، وانتهت بفوز الزنوج بحريتهم.

الاسترقاق فى الديانة المسيحية

لا تجد فى الديانة المسيحية نصا صريحا ضد الاسترقاق، ولم يأت به الحواريّون[١]، ولا قالت طائفة من الطوائف النصرانية فى الكنائس المختلفة بتحريم الاسترقاق، إلا ما جاء فى الإنجيل: من أن الناس كلهم يعتبرون إخوانا، وأنه يجب عليهم أن يحبّ بعضهم بعضا.

بل أوصى بولس[٢] الأرقاء فى رسالته التى بعث بها إلى الأفسسيّين[٣]، أن يطيعوا مواليهم مع الخوف والرعب، كما يطيعون المسيح عليه السلام، كما أوصاهم الحوارىّ بطرس[٤] أيضا بأن يكونوا خاضعين لمواليهم وأن يخشوهم.

وعلى أثرهما سار آباء الكنيسة، فأباحوا الاسترقاق وأقروه: أفتى بذلك

(١) الحواريون: أصحاب سيدنا عيسى عليه السلام.

(٢) القديس بولس: ولد فى السنة الثانية للميلاد من أبوين يهوديين فى مدينة طرسوس.

(٣) هم سكان مدينة أفسس القديمة فى آسيا الصغرى، وهي شهيرة بهيكل ديانا الذى يعد من عجائب الدنيا السبع.

(٤) أحد الحواريين الاثنى عشر ولد فى بيت صيدا.

(سيبريانوس[١]) و (توماس[٢]) الذى يقول : « إن الطبيعة خصصت بعض الناس ؛ ليكونوا أرقاء » . وقال بابى بصحة الاسترقاق ، معتمدا على ماورد فى الإصحاح الحادى عشر من سفر الخروج ، وفى الإصحاح الخامس عشر من سفر الأحبار .

وأقر بوفيه اسقف ألمان — عاصمة مقاطعة السار فى فرنسا — الاسترقاق واعتبر النخاسة تجارة محللة . وأثبت الأب فوردينيه — رئيس دير الروح القدس — أن الاسترقاق من جملة النظام المسيحى .

وقال باتريس لاروك فى كتابه (الاسترقاق عند الأمم النصرانية) :

إن الديانة المسيحية لاتحرم الاسترقاق نصا ، ولم تلغه عملا .

ثم قال پيير لاروس (من كبار الأدباء فى فرنسا) : « لا يعجب الإنسان من بقاء الاسترقاق واستمراره بين المسيحيين إلى اليوم ؛ فإن نواب الديانة الرسميين يقرون صحته ، ويسلمون بمشروعيته » .

والخلاصة : أن الديانة المسيحية ارتضت الاسترقاق ارتضاء تاما إلى يومنا هذا ، ويتعذر على الإنسان إثبات أنها سعت فى إبطاله . ولقد ظل الأمر كذلك حتى جاءت الثورة الفرنسية ، التى نادت بأن جميع الناس متساوون أمام القانون .

الرق فى الإســـلام

ممـا تقدم يتبين أن الإسـلام جاء والاسترقاق منتشر فى العالم جميعه ، مع تشعب سبل الاسترقاق ، وفقد طرق التحرير ، ووجود التشديد القانونى على الأرقاء ، والانفصال التام بينهم وبين مواليهم ، فلم يكن من الحكمة مفاجأة

(١) ولد بقرطاجنة من أبوين وثنيين فى أول القرن الثالث للميلاد ثم تنصر .

(٢) من مشهورى اللاهوتيين .

العالم بإبطاله جملة واحدة ، لأنه أمر تأصل فى العالم ، بتقرير الشرائع السماوية والأرضية السابقة ، وتمسك الناس به أحقابا وقرونا ، واتخذوه أصلا من أصول مدنياتهم . ولو فاجأهم الشرع الإسلامى بذلك لأحرج صدورهم ، وألجأهم إلى الاحتجاج بقواعد الشرائع الإلهية والوضعية ، ووقوفهم موقف المدافع المعاند .

بيد أنّ الإسلام ضَيّق من سُبُل الرق ، وحصرها فى سبيل واحد ، وهو المحاربة الشرعية المنظَّمة لقوم كافرين ، بعد عرض الإسلام أوّلا ، ثم الجزية . فإن أجاب الأعداء إلى أحدهما عصموا أنفسهم وأموالهم ؛ وصار لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . وإن أبوا ودارت عليهم الدائرة ، صاروا أرقاء للغالبين بعد إذن من الإمام .

على أنّ ذلك لا يحرمهم نعمة الرجوع إلى الحرّية إذا افتدوا أنفسهم بمال ؛ كما أنّ للحاكم أن يطلق سراحهم لوجه الله تعالى . قال تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ .

سبل التحرير

أمّا سبل التحرير فكثيرة ، أهمها ما يلى :

(١) تحرير النفس وسيلة لغفران الذنوب العامّة : تأمّل قوله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه أعرابى فقال : يارسول الله ، دلنى على عمل يدخلنى الجنة ، فقال : (عتْقُ النَّسَمَة ، وَفَكُّ الرَّقَبَة) . قال الأعرابى : يارسول الله ، أو ليسا واحدا ؟ قال : لا ، عتق النسمة أن تنفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين فى ثمنها .

(٢) قررت الشريعة أن يتبع غير الحر من الأجزاء الحر منها : فمن أعتق بعض عبده سرى العتق إلى باقيه ، وكذا لو أعتق بعض الشركاء نصيبه في رقيق فإن العتق يسرى إلى الكل ، ويقوم على المعتق نصيب شركائه إن كان له مال ، وإلا سعى العبد لأداء نصيبهم ، فيخلص من الرق .

(٣) جعلت الشريعة العتق كفارة للقتل الخطأ : ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾ .

وسر ذلك أن القتل إعدام للحياة الجسمية ، والتحرير بالكفارة إيجاد للحياة المعنوية .

(٤) التحرير أفضل سبيل لغفران الحنث في الحلف بالله أو بصفة من صفاته

(٥) إذا ظاهر[1] الرجل من زوجه ، ثم عاد لما قال وأمسكها في عصمته ، وجب عليه أن يسلك سبيل التحرير وحده متى كان مستطاعا ، فيحرر رقبة من قبل أن يتماسا .

(٦) من علم في مولاه[2] الخير ، فكاتبه[3] على قدر معين يؤديه في نجمين[4] أو أكثر ، لزمه العقد ، وندب الحط من مال الكتابة ، ويصبح المولى حرا بأداء النجوم أو الإبراء أو الاعتياض . وتسرى الكتابة إلى ولد المكاتبة بعد الكتابة ، فيعتق بعتقها .

(٧) من نذر تحرير رقبة إن نال مايرجوه ، أو سلم مما يخشاه ، لزمه

---

(١) ظاهر الرجل من امرأته ، إذا قال لها : أنت على كظهر أمي . يريد أنها حرام عليه كحرمة أمه . وكان الظهار طلاقا في الجاهلية ، فنهوا عن الطلاق بلفظ الجاهلية وأوجب عليهم الكفارة تغليظا في النهي .

(٢) المولى : العبد . (٣) كاتبه : عاقده (٤) قسطين

الوفاء بما نذره متى تم له مراده .

(٨) أباحت الشريعة زواج الأحرار بالإماء. قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ ثم جعلت أولاد الحرائر من الأرقاء أحرارا يرثون آباءهم. على حين كان المتبع عند الوزيقوط (فرع من القوط .وهى أمة قديمة بجرمانيا) إحراق الحرة مع زوجها إذا تزوجت برقيق .

مميزات الرقيق

نظر الشرع الإسلامى نظرة عطف ورحمة إلى المستضعفين بالرق ، الذين لم تتم نعمة الله عليهم بالحرية الكاملة : فلم يجعل جرائمهم المشابهة لجرائم الأحرار متماثلة فى القبح والاستنكار ، بل جعل جريمة الرقيق لضعفه ونقص نعمة الحرية عنده ، أقل من جريمة الحر لقوته وتمام نعمته ، وذلك بأن صير عقوبة الرقيق نصف عقوبة الحر إن لم يمنع من ذلك مانع : فعليه نصف ما على المحصن الحر من الجلد بالقذف مثلا . ولتعذر التنصيف فى عقوبة قطع اليد فى السرقة أبقيت كاملة ، ولا سيما أن فيها حفظا للأموال ، وردعا للنفس الشريرة .

مزايا الإعتاق الاجتماعية

(١) وصلت الشريعة الإسلامية المولى بسيده بعد فصله عنه بالإعتاق فاوجدت بينهما ولاء جُل فوائده للمولى لا للسيد ، لأن هذا الولاء يصونه عن ضعف العزلة ويؤنسه فى الانفراد ، ويجنبه ما يحدثه فقد العصبية من الخذلان

والإذلال : فالرقيق يؤتى به عادة إلى بلاد قاصية ، فلا يكون له عضد سوى مولاه . فإذا انفصل عن سيده انفصالا تاما آلمه انقطاعه عن جميع الناس فى شخص سيده ، ولحقه ضرر كثير .

(٢) هذا الولاء يوجب على السيد القيام بحاجة المولى إذا عجز عن تحصيلها ، تأمل قصة زنباع مع غلامه : ذلك أن غلامه اقترف إثما ، فجدع زنباع أنفه فجاء الغلام إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم يشكو زنباعا . فقال الرسول لزنباع : ماحملك على هذا ؟ قال : كان أمره كذا وكذا ، فقال الرسول للغلام : اذهب فأنت حر ؛ فقال : يارسول الله ، فمولى من أنا ؟ فقال : مولى الله ورسوله . ولما قبض صلى الله عليه وسلم جاء هذا الغلام إلى أبى بكر ، فقال: وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال: نعم : تجرى النفقه عليك وعلى عيالك، ثم قال مثل ذلك لعمر بن الخطاب حين خلافته . فقال : نعم : أين تريد ؟ قال: مصر ، فكتب إلى عامله بها أن يعطيه أرضا يأكل من ثمرها .

(٣) هذا الولاء يكسب المُعتَقة الرغبة فيها ، فإن من الناس من يأبى الاقتران بمن لا ولىّ لها من الأهل ، أو من يكونون بمنزلتهم . أضف إلى ذلك أنّ الولى قد يعرف الصالح لها دونها .

معاملة الرقيق

ماجعل الإسلام الاسترقاق موجبا للهوان ، ولا مسقطا للكرامة ، ولم يكن عند المسلمين ذلك الفرق الجسيم الذى تتصوره الآن بين الرقيق وسيده ، بل عاملوا الموالي على أنهم أفراد الأسرة ، وخلطوهم بأنفسهم ؛ وأوجبت الشريعة معاملتهم بالرفق واللين ، قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ

شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لايحب من كان مختالاً فخوراً﴾ وروى علىّ كرم الله وجهه، عن النبى عليه الصلاة والسلام : (اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم) وروى ابن عمر عنه صلى الله عليه وسلم : (اتقوا الله فى الضعيفين: المملوك والمرأة) . وروى أنه قال : (إخوانكم خولكم(١) فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس) . وقال ابن عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه) . وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تحقير العبد، وتذكيره ماهو فيه من الاستعباد، فقد جاء عن أبى هريرة أنه قال : قال عليه الصلاة والسلام : (لايقل أحدكم : عبدى. أمتى. وليقل : فتاى، وفتاتى، وغلامى) .

هذا إلى أن الإسلام حث على تعليم الرقيق وتهذيبه . فقد قال عليه الصلاة والسلام : (من كانت له جارية فعلمها وأحسن إليها وتزوجها، كان له أجران فى الحياة والأخرى : أجر بالنكاح والتعليم، وأجر بالعتق) .

وفى التاريخ مثل سامية لما وصل إليه الموالى من المنزلة التى قد تسمو إلى أعلى مرتبة، فقد أمّر صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد، على جيش فيه سيدنا أبو بكر وعمر رضى الله عنهما .

اتضح من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأقوال الأئمة وشواهد

(١) الخول : الخدم .

التاريخ ، أنّ الدين الإسلامى ضيق حدود الاسترقاق ، وبيّن وسائل الخلاص لمن وقع فى أشراكه ، وبسط له جناح رعايته ولواء حمايته ، وأوصى بالرفق به ومعاملته بالحسنى ، وتأديبه وتهذيبه وعدم احتقاره ، وأن يُزوَّج الأرقاء تعجيلا لتخليصهم من ربقة الاستعباد .

ولا يضير الإسلام ما كان يشاهد فى كثير من بلاد المسلمين : من خطف الزنوج ، وبيعهم ، واسترقاقهم : فما كان عمل الجاهلين حجة على الأديان فى أى عصر من العصور .

المقصد الرابع

مقت البطالة ووجوب العمل

لكسب المال من الوجوه المشروعة

خلق الله تعالى هذا العالم الأرضى ، وجعل أعيانه كلها مسخرة للإنسان الذى زانه بالعقل . وحلاه بالفكر ، وسخره بالإرادة ؛ ليعمر الأرض تعميرا يوافق السَّنَن الإلهى المطلوب فى تنظيم العالم ، وتنسيق أشيائه ، واستخراج مواد معاشه على الوجه الأكمل . ولقد نطق الكتاب الكريم بذلك فى كثير من المواضع : منه ماهو على سبيل الاستنارة ، ومنه ماهو على سبيل الحث على تجويد الأعمال .

قال تعالى فى خطاب بنى إسرائيل : ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ . وقال فى خطاب المسلمين : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ﴾ . وجاء فى تذليل الأرض وتسخيرها لبنى آدم : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِى الارض وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَاتَشْكُرُونَ﴾ . وقال تعالى فى السعى وطلب الرزق : ﴿فَانْتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ . وقال فى تقسيم الأعمال والمساعى : ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إلى غير ذلك من

الآيات البينات ، والحجج القاطعات ، مُورَدَةً في معرض الأمثال تارة ، والحث على السعي في طلب الرزق أخرى ، حتى يتم استعمار هذا العالم ، وصلاح هذه الدار التي هي مزرعة الآخرة . قال عليه الصلاة والسلام : (أُحْرِثْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا وَاُحْرِثْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا) .

فالدنيا نعمة ، واستصلاحها واجب ، والشكر عليها واجب . قال عليه الصلاة والسلام في معرض الحث على العمل ، والسعي على الرزق : (إِنَّ مِنَ الذُّنُوبِ ذُنُوبًا لَا يُكَفِّرُهَا إِلَّا الْهَمُّ فِي طَلَبِ الْمَعِيشَةِ) . وقال صلى الله عليه وسلم : (مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلَالًا وَتَعَفُّفًا عَنِ الْمَسْأَلَةِ وَسَعْيًا عَلَى عِيَالِهِ وَتَعَطُّفًا عَلَى جَارِهِ لَقِيَ اللَّهَ وَوَجْهُهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ) . وقال عليه الصلاة والسلام : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ يَتَّخِذُ الْمِهْنَةَ لِيَسْتَغْنِيَ بِهَا عَنِ النَّاسِ) . وقال «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنَ الْمُحْتَرِفَ» .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الحث على العمل : «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللهم ارزقني ، فقد علمتم أن السماء لا تُمطر ذهبا ولا فضة» . والآثار والأقوال في باب فضل العمل والسعي واكتساب المال الحلال ؛ يضيق عنها الحصر .

ولاحتياج الناس بعضهم إلى بعض ، يسر الله كل واحد منهم لصناعة يتعاطاها ، ينشرح بها صدره ، ويؤثرها على غيرها من الحرف . ولولا التيسير الإلهي لاختار الناس بأجمعهم صناعة واحدة ، فتبطل الأقوات والمعاشات . فحكمة الله تعالى هي التي صرفت الناس في سبل الأعمال المتنوعة : فمن الناس من هو راض بصنعته لا يريد عنها حولا ، ولا يبغي بها بدلا : كالحائك الذي

يرضى بصنعته ويعيب الحجام، والحجام الذى يرضى بصناعته ويعيب الحائك؛ ومنهم من هو كاره لها يكابدها على الكراهية، كأنه لا يجد منها بدلا، وعلى هذا دلّ قوله عليه السلام: (كُلٌّ ميسرٌ لِمَا خُلِقَ له). وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾. وقال عليه السلام: (لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا تَبَايَنُوا فَإِنْ تَسَاوَوْا هَلَكُوا). والتفرقة والاختلاف فى نحو هذا الموضوع، سبب الالتئام والاجتماع والاتفاق؛ كاختلاف صور الكتابة وتباينها وتفرقها، فلولاها ماحصل لها نظام. ولا استقام بها فهم وإفهام.

ومن ذلك يتبين أنّ الانقطاع عن العمل والتفرغ للعبادة جملة، ليس من المبادئ الإسلامية البتة: فالإسلام يكره الكسل، ويحرم البطالة، ويمقت صاحبها، ويفضل رجل العمل: وعظ لقمان الحكيم ابنه فقال: (يا بنى، استغن بالكسب الحلال عن الفقر، فإنه ماافتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال: رقة فى دينه، وضعف فى عقله، وذهاب مروءته. وأعظم من هذه الثلاث استخفاف الناس به). فالعمل والسعى واجبان إنسانيان، والاسلام يحث عليهما، ومن تعطّل أو تبطّل فى غير عجز، فقد انسلخ عن الإنسانية وصار فى حكم الموتى.

ولقد كان للسلف الإسلامى عناية بالصناعات التى اشتغلوا بها، واعتمدوا فى رقيهم عليها، بقدر ماوسعه تقدمهم، وتحروا فيها الكمال والإتقان، الذى ندب إليه الشارع الحكيم عليه السلام: (إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الصانعَ الحَاذِقَ).

ولا معنى لهـــذا وأشباهه سوى حث الهمم على تحرى الاستجادة،

وإتقان الأعمال ، لنيل المزيد فى الربح والرواج ، فضلا عن بلوغها الكمال العمرانى ، الذى هو أسمى مايطلب من الانسان ، بمقتضى فطرته ووظيفتـه فى الأرض .

والصناعات البشرية التى يعتمد عليها أكثر النـاس فى تحصيل العيش والكسب كثيرة ، لكثرة فروع الأعمال المتـداولة بين البشر ، على حسب بيئات بلدانهم وأقطارهم المختلفة فى أشيائها ومنتجاتها ، وأحوال ارتقائها . فلكسب العيش وتحصيل الأرزاق ، ولنيـل العز والسعادة والغبطة فى هذا العالم ، لابدّ للمرء فى شريعة الاسـلام من عمل يعمل فيـه ، وحرفة يحترفها ، وصناعة يمـارسها .

وخلاصـة القول : أنّ العملَ واكتسابَ المـال على أنواعه من وجوهه المشروعة ، مع أداء الحقوق المفروضة على المرء فيه ، والاعتدالَ فى الإنفاق ، وادخارَ المـال للأيام وكبار الأعمال — هو القطب الذى تدور عليه رحى هذه الدنيا فى عمارتها ، والغاية التى يقصد إليها الاسلام فى آدابه العالية ، وتعاليمه السامية .

المقصد الخامس

حسن المعاملة

قالت الحكماء: «الإنسان مدنيّ بالطبع». فلابد له من الاجتماع ببنى جنسه، ليأنس بهم ويأنسوا به، متكافلين فى الأعمال، متضافرين فى المساعى. وقد يشارك كثير من أنواع الحيوان الإنسان، على نوع مّا فى فضيلة العيش جماعات – غير أنها تختلف فى الكيفيات والترتيبات، المبنية على قوة الفكر والعلم، والعمل المحكم: كالقردة، والفيلة، وبقر الوحش، والقطا، والنمل، والنحل.

ولقد نبه القرآن الكريم على هذا الاجتماع الإنسانى وآدابه فى كثير من المواضع. قال تعالى فى تفاضل الشعوب: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾. وقال تعالى فى التعاون الصحيح: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾. وبيّن كذلك حال العشرة القريبة فى النسب والمصاهرات والقرابة.

وقال عليه السلام فى أدب الاجتماع، وحقيقة مبدئه فى التكافل والتعاون بين أبناء المجتمع الواحد: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً». وقال جل شأنه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾. وقال عليه الصلاة والسلام: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِى تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى

عضو منه تداعى له سائره بالحمى والسهر».

وأول رباط فى العشرة الزواج. وقد جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم من سنته. فقال: «النكاح من سنتى، ومن يرغب عن سنتى فقد رغب عنى».

والزواج أفضل مايحفظ قوام المجتمع. فقد جاء فى الحديث: «من تزوج فقد أحرز شطر دينه فليتق الله فى الشطر الثانى».

وفوائد الزواج فى المجتمع خمس:

(١) إيجاد الولد بقاء للنسل وحفظا للجنس: وهو الأصل فى حكمة الزواج، حتى لايخلو العالم من جنس الإنس. قال عليه السلام: «تناكحوا تناسلوا». وقال تعالى: ﴿وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾.

ولمراعاة هذا السنن الإلهى، والواجب الطبعى، لم يرد فى أحوال المسلمين ولا فى شريعتهم أمر الرهبانية، ولا العزوبة الدائمة، إلا للعذر الشرعى.

(٢) الحاجة الطبعية: حتى تكسر الشهوات، وتحصن النفوس من النزغات، وتلزم العفة المطلوبة شرعا: فى الزواج قهر غائلة النفوس، وصيانتها من الوقوع فى فساد الأخلاق والموبقات المفسدة لحال الاجتماع.

(٣) إدخال الراحة على النفس، والهناءة، والسعادة، وترويح القلب: حتى لاتنصرف حواسه عن غير حلاله، وحتى ينشط للعبادة، ويتفرغ لعمله المعاشى فى نهاره، والقيام بتكاليف الحياة المطلوبة. جاء فى الخبر. «لا يكون العاقل طامعا إلا فى ثلاث: تزود لمعاد، وحرفة لمعاش، ولذة فى غير محرم».

وقال الإمام علىّ كرم الله وجهه : « روّحوا القلوب ساعة ؛ فإنها إذا أكرهت عميت» .

(٤) تدبير المنزل : من الطبخ ، واللباس ، والفرش ، والكنس ، وتنظيف الأوانى ، وتهيئة كل مطالب البيت ، ولذلك يجب تربية الفتيات تربية منزلية صحيحة ، تعلمهن القيام بواجباتهن المنزلية عند مايصرن نساء لرجال الأمة . قال عليه السلام : «مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ فَأَنفَقَ عَلَيْهِنَّ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ حَتَّى يُغْنِيَهُنَّ اللَّهُ عَنْهُ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ الْجَنَّةَ الْبَتَّةَ الْبَتَّةَ» . ورأس الإحسان إليهن حسن تربيتهن .

(٥) مجاهدة النفس وحثها على زيادة التنشط فى السعى على الأرزاق، والكسب الحلال . وفى الحديث : «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» .

والآداب المطلوبة من الزوجين كثيرة ، فمنها :

(١) تحسين الخلق بين الزوجين ، لتصفو لهما المودّة ، وتحسن بينهما العشرة ، قال الله تعالى : ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ . وقال عليه السلام : «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَأَلْطَفُهُمْ بِأَهْلِهِ» .

(٢) الاعتدال فى الإنفاق : هو مطلوب فى كل شىء من الرجل والمرأة .

(٣) الغيرة : وهى ألا يتغافل عن بوادر الأمور التى تخشى غوائلها ، مع عدم المبالغة فى إساءة الظن : ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ .

(٤) تعليم الزوجة المعارف الضرورية الدينية والدنيوية .

(٥) تأديب الأولاد وتربيتهم تربية أُسْرِيّة كريمة .

(٦) إصلاح ذات البين فيما ربما يشجر بين الزوجين أو يستحكم من

الخلاف ، بتحكم الأهل فى ذلك . قال تعالى : ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ ، وإصلاح ذات البين بين الناس عموما ، وبين الأزواج خصوصا ، من أعظم ماحثّ عليه الشارع الحكيم، وندب إليه .

(٧) العدل بين الزوجات إذا كان للمرء أكثر من زوجة إلى أربع ، كما ورد به الجواز بشروطه — غير أنّ مسألة العدل بين الزوجات من أصعب الأمور وأشقها على النفس ، ولذلك كان الاقتصار على الزوجة الواحدة من أحكم مايأتى امرؤ فى حياته الاجتماعيه ، إلا إذا ألجأته الضرورة الشرعية إلى التعدد .

أما حسن معاملة الوالدين والإخوة وسائر القرابة ، فما حث عليه الشارع وأوجبه ، وجاء به أدب الإسلام الشرعى ، إذ قد جاءت الآيات القرآنيـة حاثة على ذلك ، آمرة به ، وكذلك الأحاديث النبوية الكثيرة الواردة فى برّ الوالدين ، وحسن القيام بحقوقهما، والأدب معهما، وصلة الأرحام، والتحبب إليها ، تودّدا وتعطفا . قال عليه السلام فى حديث فضل صلة الأرحام : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِى أَثَرِهِ وَيُوَسَّعَ عَلَيْهِ فِى رِزْقِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ » .

أما عقوق الوالدين ، وجفاء ذوى القرابة ، فمن أمقت الخصال، وشر الرذائل والسخائم[1] التى ورد النهى الشديد عنها .

أما معاشرة الإخوان خاصة وبنى الإنسان عامّة ، فلها حقوق وآداب جمّة ، يجدر بكل إنسان أن يتحلىٰ بها : « فالمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه » . وأعظم مؤثر فى الألفة الاجتماعية على الإطلاق حسن الخلق ، وقد حثّ عليه الدين

(١) السخائم : الأحقاد واحدها سخيمة .

كثيرا ، لأنه موجب للتحابّ والتآلف والتوافق . ولقد مدح الله نبيه بحسن الخلق فقال : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ . وفى الحديث الشريف : « أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ » .

وجاء فى الحديث : « أَحْسَنُ الْحَسَنِ الْخُلُقُ الْحَسَنُ » .

فحسن الخلق من التقوى النفسيّة الملابسة للنفس ، الممتزجة بالأذواق الكريمة التى تحصل بالاتصاف بأجمل الأحوال التعامليّة : إما من طريق الدين ، وإما من طريق الآداب الاجتماعية . قال تعالى : ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ ، وقال عليه السلام فى مدح أصحاب الأخلاق الفاضلة : « أَقْرَبُكُمْ مِنِّى مَجْلِسًا أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا الْمُوَطَّئُونَ أَكْنَافًا الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ . وقال أيضا : « الْمُؤْمِنُ إِلْفٌ مَأْلُوفٌ ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ » .

هذا هو الشأن فى الإخاء القومى ، والمعاشرة الاجتماعية بالمعنى الأعم .

أما الصداقة بالمعنى الأخصّ ، فى المجتمع الإنسانى ، فقد تكون أدقّ وأمتن ما يكون فى هذا الباب ، من حيث اتحاد المشارب والأذواق ، تبعا لتلك الخاصيّة أو الجاذبيّة فى النفوس ، المعبّر عنها بالمناسبة والمشاكلة ؛ لأن الناس أشكال وأمثال : « وشبه الشىء منجذب إليه » .

وللصحبة حقوق وآداب ، يجب الوفاء بها ، وأداؤها على أكمل وجه ، ويمكن حصرها فيما يلى :

(١) الحق فى المال : قال عليه السلام : « مَثَلُ الْأَخَوَيْنِ مَثَلُ الْيَدَيْنِ

تَغْسِلُ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى » . يريد المعاونة فى الشؤون المالية بالإقراض ، ومدّ يد المساعدة حين الحاجة إليها ،

قال الشاعر :

إذا أنا أعطيت الكريم مودّتى فليس لمالى بعد ذلك مانع

ولو وصلت الحال إلى الإيثار على النفس كما بلغت إليه حال المروءة الإسلامية فى عهد النبي عليه السلام . قال الله تعالى ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ .

(٢) الإعانة بالنفس فى قضاء حاجات الإخوان .

(٣) السكوت باللسان عن القدح فى الأصحاب ، فيما يعدّ تنقّصا لشأنهم ، وحطا من كرامتهم ، أو اغتيابهم بما يكرهون فى نفس ، أو عرض ، أو مال ، قال تعالى : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً﴾ . وقال عليه السلام : «وَلَا تَجَسَّسُوا [1] وَلَا تَحَسَّسُوا [2] وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا » .

(٤) النطق بحلو الكلام ، وتعوّد محاضرة الإخوان بما يُذيع المحامد والمحاسن ، وينشر بين الأصدقاء لطائف الحديث . والسّمر بأدب وحشمة مع ترك هُجْر القول، وبذاء اللسان .

(٥) الإغضاء عن الهفوات ، واغتفار الزلّات : مما لا يخلو منه إنسان ،

(١) التجسس : تفحص الأخبار وتتبعها لمعرفة السيء منها

(٢) التحسس : الاستماع لحديث الناس

ولا يوجب قطيعة، ولا يقتضى هَجْرا:

ولستَ بمستبقٍ أخًا لا تلُمّه على شعَث، أىُّ الرجالِ المهذبُ؟

(٦) الإخلاص والوفاء: وهما من أقوى العوامل فى استدامة الصحبة. وتوثيق الألفة، ومن الإخلاص ألا تُصْرَم حبال المودة وإن بعدت الشُّقَّة، ومن الوفاء الثّبات على الحب حال الحياة وبعد الممات. قال عليه السلام «قَليلُ الْوَفَاءِ بَعْدَ الْمَمَاتِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِه حَالَ الْحَيَاة».

(٧) التخفيف وتركُ التكليف من أجمل الآداب وأعظم الأصول. قال بعض الحكماء: من جعل نفسه عند الإخوان فوق قدره فقد أثم وأثموا، ومن جعل نفسه فى قدره تعب وأتعبهم. ومن جعلها دون قدره سلم وسلموا. ولن يتمّ التخفيف إلا باطّراح التكليف.

ومما يزيد الألفة بين الناس إفشاءُ السلام، ولينُ الكلام، وتجنبُ الأذى باللسان والأفعال، مصداقا للحديث الشريف: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِه وَيَدِه». والتجاوزُ عن بعض السقطات، وتوقيرُ ذوى المقامات والأسنان والبرُّ، والشفقةُ بالضعفاء والمساكين، وإغاثةُ الملهوفين، وإصلاحُ ذات البين [1]، وإزالةُ المنكر.

أما المعاملات فى مطلق الشئون التعاملية، فيجب فيها الصدق، والأمانة، والعدل فى الأخذ والعطاء، والوفاء بالعهود والوعود، والانصاف من النفس، وأن يصحَب المرء الناس بما يحب أن يصحبوه به، قال عليه السلام لأبى الدرداء: «يَا أَبَا الدَّرْدَاء، أَحْسِنْ مُجَامَلَةَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُوَافِقاً وَأَحِبَّ

(١) ذات البين: العداوة. وإصلاحها تسكينها وعدم إثارتها.

للنَّاس مَاتُحبُّ لنَفسكَ تَكُنْ مُسلماً»

أما حقوق الجوار فهى من أشرف الحقوق ، وأجلّ الآداب الإسلامية وفى الحديث الشريف : «مَنْ كَانَ يُؤْمن بالله وَالْيَوْمِ الآخر فَلْيكْرمْ جَارَهُ» ولقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا بالجار حتى كاد يورّثه . كما أنشأ أصل الشفعة فى الشريعة مراعاة لراحته عند بعض الأئمة . وقال عليه السلام فى حقوق الجار : «أَتَدْرُونَ مَاحَقُّ الْجَار ؟ إذَا اسْتَعَانَ بكَ أَعنته ، وَإنْ اسْتَنصركَ نَصرتَه ، وَإن اسْتَقرضَكَ أَقرضتَه ، وَإنْ مَرضَ عدتَه ، وَإنْ مَاتَ شيعتَ جنازَتَهُ ، وَإنْ أَصَابَه خَير هنأته ، وَإنْ أَصابته مصيبة عزيته ، وَلَا تَستَطلْ عَلَيْه بالْبنَاء فتحجب عنهُ الريحَ إلَّا بإذْنه ، وَلَا تُؤْذه ، وَإذَا اشتَريتَ فَاكهةً فَأَهد لَهُ ، وَإن لَمْ تفعلْ فأَدخلْهَا سراً، وَلَا يخرجْ بهَا وَلَدكَ ليَغيظَ بهَا وَلَده، وَلَا تُؤْذه بقُتَار [1] قدْرِكَ إلَّا أَنْ تَغرفَ لَهُ منْهَا».

ثم قال «أتَدرُونَ مَاحَقُّ الْجَار؟ وَالَّذى نَفسى بيَده لَا يَبلُغ حَقَّ الْجَار إلَّا مَنْ رَحمه اللهُ».

(١) رائحة الطعام .

المقصد السادس

إقامة العدل ومحق الظلم والحكم فى الناس بما يصون حقوقهم

كل ما فى هذا الكون المحكم بعوالمه يقوم على نظام محكم وترتيب عجيب: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾. فيجدر بالإنسان أن تكون كل أحواله وأعماله العامة جارية أيضا على نظام يدبر شئونه، ويسوس أموره. ومن أجل ذلك اقتضت إرادة الله سبحانه وتعالى إيجاد السلطان الوازع، والشرع النافذ فى خلقه منذ القدم، وفى كل الشعوب والأمم: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾. ولهذا قيل: "السلطان ظل الله فى الأرض".

بالعدل والنظام قامت السموات والأرض. ومبدأ القرآن فيما يتعلق بالنظام الاجتماعى دائر على محور إقامة العدل، وحسن تدبير الشئون فى سياسة الخلق. فسياسةُ المصالح وتدبيرُ الأمور على حسب المقتضيات مادة وأدبا، مطلوب من الراعى لرعيته. وتقريرُ النظام، وبسطُ رواق الأمن، وتمهيدُ سبل استغلال الثروة فى المجتمع، ونصبُ ميزان القضاء العادل بالشرع والقانون، والذودُ عن حياض المملكة والدفاعُ عنها، وتشجيعُ العلم والعلماء، وتسهيلُ نشر المعارف، والأمرُ بالمعروف بين الرعية — حقوق واجبة على الحكومة فى نظر الإسلام، حث عليها الشارع، ونزل بها الكتاب، وجرى بها العرف الصحيح.

فتوطيد دعائم الأمن، وتأسيس المنافع، وتسهيل سبل المرافق، من

أجلّ ماحثّ عليه الشرع الإسلامى ، وأوجبته المبادئ الإسلامية فى آداب الحكومة .

وبالعدل تنتظم أحوال الرعية . ولقد نص الله تعالى فى أكثر من آية من كتابه العزيز ، على إقامة قسطاس العدل فى الشئون المختلفة ، وفيما يشجرُ بين الناس من الخصام فى الحقوق وسائر المعاملات .

ولذلك وجب فى نظام المجتمع الاسلامى وآدابه السامية ، اختيار القضاة والولاة والنواب وسائر العمال : من أهل العلم ، والتقوى ، والنزاهة . ولقد ورد فى الحديث الشريف : « إنَّ اللهَ يُحبُّ الْبَصَرَ النَّاقِدَ عِنْدَ وُرُودِ الشُّبهَاتِ ، وَيُحبُّ الْعَقْلَ الْكَامِلَ عِنْدَ حُلُولِ الشَّهَوَاتِ » .

والرشوة وما فى حكمها هى : السحت [1] ، والربا المحرم ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وهى إذا أخذت لإحقاق باطل ، كانت من أشأم الظلم والجور الذى لا يفلت صاحبه من عقاب الله ، وإذا تنوولت لتيسير مصلحة بحق ، كانت من أعظم أكل أموال الناس بالباطل .

ومن الكذب على الله ، والافتراء على الناس ، مايقدمه المحكوم للحاكم باسم الهدية ، وهى الرشوة بعينها :

جاء فى صحيح البخارى ومسلم ، عن أبى حميد الساعدى قال : „ استعمل النبى صلى الله عليه وآله وسلم رجلا من الأزد اسمه ابن اللُّتْبِيَّة على الصدقة ، فلما قدم قال : « هذا لكم ، وهذا أهدى إلىّ » فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « مَا بَالُ الرَّجُلِ نَسْتَعْمِلُهُ عَلَى عَمَلٍ مِمَّا وَلَّانَا اللهُ ، فَيَقُولَ : هٰذَا لَكُمْ وَهٰذَا أُهْدِىَ

(١) السحت : الحرام .

إلى ؟ فهلّا جلس فى بيت أبيه أو بيت أمه فنظر أيهدى إليه أم لا ؟ والذى نفسى بيده لا يأخذ منه شيئاً إلّا جاء يوم القيامة يحمله على رقبته : إن كان بعيرا له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر[1] » . ثم رفع يدته حتى رأينا عفر[2] إبطه ، وقال : «اللهم ، هل بلّغت ؟» .

فتمادى عمال السوء فى أخذ الرشوة ، وخيانة الدولة ، من أعظم ما يفسد المصالح القضائية والإدارية فى المملكة . فاختيار العمال واجب ، وتقييدهم بالنظام لازم ، وانتقاؤهم من ذوى الاستقامة المشهورين بالصدق والإخلاص والعفة والحزم ضربة لازب .

ومن أصول دعائم قيام المملكة تنظيم الجند للحراسة ، والذود عن حياض الدولة والأمة داخلا وخارجا . وهذا أمر مطلوب ومرغوب فيه ، وداخل فى حكم الآية الشريفة : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ . فيجدر بالأمم الإسلامية أخذ الحذر ، والسهر والمداومة على انتقاء أحسن التدابير العسكرية الفنية والعملية ، مما له أصل فى الترغيب فى القرآن الكريم : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ . وكل ذلك يقتضى إغداق الأرزاق على الجنود ، واختيار أجود العدد والسلاح واللباس ، والمرانة على أساليب الحرب

قال الإمام الطُّرطوشى فى كتابه سراج الملوك فى فضل الجندية ، والحث على القيام بشأنها : «الجند عُدَدُ المُلك وحصونه ، ومعاقله وأوتاده ، وهم حماة البسيطة ، والذابّون عن الحرمة ، والدافعون عن العورة ، وهم جنن[3] الثغور وحراس الأبواب ، والعُدّة للحوادث »

(١) تصيح . (٢) أصل . (٣) حماة الثغور .

المقصد السابع

تعميم الوحدة الأخوية بين جميع أهل هذا الدين الحنيف

ذلك أنّ الله جلّ شأنه ، علم أن النفوس لاتتم ولا تعتز جامعتها ، إلا إذا كانت القلوب مطمئنة بعضها إلى بعض ، مرتبطة برابط حقيقى محكم ، وليس أشرف من رابطة الاسلام وصلته : تلك هى الأخوة المقدسة . ولا يوجد أحكم من نسجها ، ولا أقوى توثقا من عروتها : فهى أقوى من البنوة الصلبية ، لأنها لاتصل الانسان إلا إذا كانت مشفوعة بالبنوة الشرعية وهى تنقطع بالكفر . فإذا كفر الولد انقطع عن أبويه ، وإذا كفر الوالدان انقطع عنهما الولد : فلا يرثانه ولا يرثهما — مع ثبوت البنوة الصلبية فى كلتا الحالتين .

ومن هذا وجب أن نجزم بأنّ مرتبة الرابطة بالحكم الإلهى ، فوق مراتب ذوى القربى والأخوة ، ثم إن الله تعالى أوجد الأخوة الشرعية بين عموم المسلمين على اختلاف أجناسهم ، وتباين مواطنهم ، وتغاير قبائلهم . فقال : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ . وقد عبّر بلفظ الأخوة الذى لا يقال إلا لأخوة النسب ، دون (الإخوان) الذى يشمل إخوة الصحبة والصداقة .

وقد أحكم الله بين المؤمنين هذه الوُصلة الأخوية بما لامزيد من الأحكام عليه . ووثق هذه الرابطة توثيقا لايرقى الوهن إليه ، فقال : ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ . فهذا نسب مشروع بحكم إلهى ، لاتنقطع وُصلته ، ولا تنفصم عروته ، ولا تهن مرّته ، فقد حكم ببنوّة المؤمنين لأزواجه الطاهرات أمّهات المؤمنين . وكان حقا على المؤمنين أن

يعتقدوا ذلك ، ومنكره جاحد . وقد أيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : «إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ أُعَلِّمُكُمْ» . وقوله : «أَنَا جَدُّ كُلِّ تَقِيٍّ» . وقد أيد ذلك مافعله النبي من إيجاب المؤاخاة حين الهجرة : فإنه آخى بين كل اثنين من المهاجرين : بين كل غنى وفقير منهم ، حتى يتعاونا على السراء والضراء ، وكذلك أمر بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار .

ولما كان التعالى والفخر بالنسب إلى القبائل والعشائر من أكبر موانع التآخى ، لأن النفس أياً كان صاحبها ، تطمح إلى المعالى ، وتأنف التسفل ، أمر الله جل شأنه بترك المنابزة بالألقاب ، والتفاخر بالأنساب ، فقال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ . فاللام للتعليل ، أى جعلهم كذلك ليتعارفوا ، لا ليتعالى بعضهم على بعض ؛ فإن الكل ينتهى إلى أصل واحد ، وهم أفراد أسرة واحدة ، نحا كل قسم منها منحًى بحكم الحاجة والعمران ، ثم قصر الله وجهة الفخر والكرامة على التقوى لاغير . فقال : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ . فلا يكرم الله إلا الأتقياء . وهذا مايصح أن يُفخر به ، وأماغيره فممقوت مهان : ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَالَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ . وقد أيد الله ذلك فى الآخرة ، فقال : ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ . وقال : ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

وقد ورد فى هذا المعنى من الأحاديث النبوية كثير . فقال صلى الله عليه

وسلم : «إِنَّ اللّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عبيَّةَ (١) الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ . مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ. أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ». «لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللّهِ مِنَ الْجِعْلَانِ (٢) الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتَنَ». وقوله : «لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ» .

ومن ذلك ما حدَّث به حُصَين بن عبد الرحمن بن عُقْبة عن أبيه ، وهو مولًى فارسى حضر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة أُحُد المشهورة ، وضرب رجلا من المشركين ، وقال : خذها وأنا الغلام الفارسى ! يريد أن يعتزّ بقومه، فالتفت إليه النبى صلى الله عليه وسلم وقال : «فهلّا قلت : خذها منى وأنا الغلام الأنصارى؟» . يشير بذلك إلى الوحدة الجامعة الدينية ، وينهاه عن الاعتزاز بالعصبية والجنسية . ويصدِّق هذه الرواية ما روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خطبته المعلومة فى حَجَّة الوَداع أنه قال . «وَلَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ إِلَّا بِالتَّقْوَى» ، وذلك لأن جمهور السامعين كانوا من العرب ، فنبههم ، واكتفى عن التصريح بعدم فضلهم على غيرهم إلا بالتقوى .

وحسبك أنه عليه الصلاة والسلام قدوفد عليه وفد بنى عامر، فقال أحدهم: أنت سيدنا . فقال صلى الله عليه وسلم : « السَّيِّدُ اللّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى» . فقالوا : أفضلُنا

(١) عبية الجاهلية : نخوتها.
(٢) الجعلان : جمع جعل، وهو أبو جعران . والعامة تسميه (جعران)

وأعظمناطَوْلا. فقال «قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم[١] الشيطان»

ولقد نهى حتى عن التعبير عن العبد والأمة بلفظ العبد، ونهى الموالى عن القول: ربّى وربّتى. فقال: «لا يقولن أحدكم: عبدى وأمتى. ولا يقولن المملوك: ربّى وربّتى. وليقل المالك: فتاى وفتاتى. وليقل المملوك: سيدى وسيدتى، فإنكم المملوكون والرب الله». وأنه عليه الصلاة والسلام شدّ عرا الأخوة حتى بين الموالى والعبيد، فقال: «إخوانكم خولكم[٢] جعلهم الله تحت أيديكم».

وشدد كل التشديد على كل من يحاول تحقير أخيه المسلم، فقال: «كل المسلم على المسلم حرام: ماله وعرضه ودمه. حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم». وقال: «ما من امرئ يخذل امرأ مسلماً فى موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله فى موطن يحب فيه نصرته. وما من مسلم ينصر مسلماً فى موضع ينتقص فيه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله فى موطن يحب فيه نصرته». وقال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه[٣] من كان فى حاجة أخيه فإن الله فى حاجته. ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» قال تعالى: ﴿أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً﴾ الآية. ولقد أوضح

(١) لا يستجرينكم الشيطان: لا تكونوا له أتباعا. (٢) خولكم: حشمكم وخدمكم.
(٣) يسلمه: يتركه للحوادث من غير مساعدة.

النبي صلى الله عليه وسلم معنى الغيبة ، فقال : « ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ». قيلَ وإن كان فى أخى ماأقول؟ . قال : «إنْ كَانَ فيهماَ تقولُ فقَداغْتبْتَه،وإنْ لَمْ يكُنْ فيه ماَتقُولُ فقَدْ بهتَّه(١) » . وزاد فى التشديدوالوعيد فى هذا الأمر، حتى قال عليه الصلاة والسلام : «إنَّ الرَّجلَ ليزْنى فيتوبُ فيتوبُ اللهُ عليه ، وإنَّ صَاحِبَ الْغيبةِ لَايغفرُ لهُ حتَّى يَغفرَ لهُ صَاحبُه» . وقال : «لَا يؤمنُ أحدكُم حتَّى يُحبَّ لأَخيه مَايُحبُّ لنَفسه» وفى حديث آخر يقول : « ولَا يَحلُّ لمُسْلمٍ أَنْ يهجرَ أخاهُ فوقَ ثَلَاث» الخ .

فثبت بنص الكتاب العزيز والسنة السمحة ؛ أن الإخاء فى الإسلام هو أسُّ الوحدةومساكها ، وهو مادّتها وملاكها

(١) بهته : نسبت اليه مالم يفعله .

المقصد الثامن

وحدة الرياسة الإسلامية

وهى الانضواء تحت لواء رئيس واحد انضواء حقيقيًّا ، ولسانا ونية بحسب الاستطاعة ، والاعتصام به وحبه وطاعته وخدمته بما يقوى شوكته ، ويوقر سلطانه ، لقوله تعالى : ﴿وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ وقوله : ﴿أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ ومعنى هذا أن الدين الإسلامى ليس دين عبادة فحسب ، بل هو دين نظام دنيوى وأخروى . فكان من الواجب أن تقوم بأعبائه الكبرى الأئمة العظام . يتقلدون الوكالة العليا عن سيد الكونين ، وإمام الثقلين ، الذى أوجب على الأمة وحدة الوجهة ، فى كل زمان وعلى أى حال ، فى كثير من العبادات : كالجمعة ، والزكاة ، والحج ، والجهاد ، وأمثالها . وفى الأمور الدنيوية : مثل إعداد الجيوش ، ومقاتلة الأعداء ، والسعى فى ترقى الصولة ، ودوام ارتقاء عز الدولة ، وإعلاء كلمة الله ، وحسم كل خلاف يقع بين مؤمن ومؤمن ، وطائفة وطائفة ، وقبيل وقبيل ، من المؤمنين ؛ لأن كل ذلك يحتاج إلى إمام قوى عزيز ، جليل الشأن ، مطاع الأمر ، مسموع الكلمة

ومن يتدبر المقاصد الإسلامية الحقيقية ، يصل إلى إدراك خطر الحكمة الإلهية فى توحيد الرياسة الدينية العظمى ، ويفهم ضرورة ارتباط الأمة المحمدية ، وبخاصة إذا كان الأعداء محدقين بها من كل جانب ، ينتظرون لها الزلة ، ويرتقبون الغرة ، فلا يقيلون لها عثرة ، ولا يغفرون لها هفوة ، بل يتلمسون لها الباطل من الحق ، والضلال من الهدى .

المقصد التاسع

طلب الخير العام لجميع الناس على اختلاف المذاهب والأديان

الدين الإسلامى دين سمح سهل وهو يسر كله، فما هو إلا الشهادة وهى كلمة، والصلاة وهى عصمة، والزكاة وهى رحمة، والصوم وهو حكمة، والحج وهو نعمة، لا يأمر إلا بخفض الجناح، ولين الجانب، والخير المحض، وسائر المحاب. فهو يحتم على المؤمنين أن يحبوا لغيرهم مايحبون لأنفسهم، وأن يدعوا الناس إليه على شرط التزام العدالة وتجنب الشطط، ويبلغوا الحق بأوضح بيان وأسهل طريق، لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها، ولا يأمر بما فوق استطاعتها. ولا يستطيع الإنسان أن يعتقد أو يعمل بما جهل حتى يعلم. ولا يلزمه الجزم بمجرد الخبر حتى يطمئن إليه، ويزول الشك فيه. وعليهم أن يلتزموا خطة النبي فى ذلك، فانه كان يدعو إلى الله بالبينات والذكر الحكيم، ويلاطف ويباحث الذين يعرض عليهم الدين: فيتألفهم إذا نفروا، ويمهلهم إذا عجلوا، ولا تأخذه بهم حدة إذا شددوا، ولا يغضبه تهورهم قبل أن يتحققوا، ولا يرهقهم حتى تزول شكوكهم بالبراهين التى تناسب عقولهم، وتقبلها أذهانهم.

هذا مايجب عن أهل الدين أن يتبعوه، ولا يضمروا لأحد سوءا، فان النبي صلى الله عليه وسلم كان يعذر من جهل وشك وارتاب، ويزيل ريبه وشكوكه بالبيان الشافى، والدليل الواضح. وكذلك يجب أن يكون الشأن فينا معشر المسلمين فلندع الناس إلى ديننا بالتى هى أحسن، فإن وجدنا منهم شكا عذرناهم، ورأفنا بهم، وأحسنا النصح لهم، ولا نزال نوضح لهم ما أشكل، ونبين لهم،

ماأبهم ، حتى يظهر الحق جليا ويغمرهم نوره : فإن رفضوه علواً واستكبارا، جارينا أفكارهم وآراءهم، لا ذواتهم وأشخاصهم ، وثابرنا على رجعهم إلى طريق الصواب ، دون تعد وانتقام

ألم تر أن المشركين لما استشهد سيد الشهداء حمزة رضى الله عنه فى غزوة أحد ، مثلوا به تمثيلا فظيعا ، فلما أراد المسلمون أن يمثلوا كذلك بقتلى المشركين منعهم النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك ؟ إذ ليس المقصود من الجهاد عداوة لذوات الأشخاص المحاربين ، وإنما كان لإزالة تلك الغشاوة التى كانت تعمى أبصارهم عن رؤية النور الساطع ، وتحول بينهم وبين الحق الأبلج ، والخير العميم ، ولم يقع القتل إلا لأن هؤلاء الأشخاص كانوا مظهر العداوة للحق ، وبعداوتهم له استوجبوا القتل

وأدل من هذا ، أن وَحْشياً الحبشيَّ الذى قتل حمزة رضى الله عنه ، لما آمن لم يؤاخذه النبي ، بل صار من أصحابه الكرام رضوان الله عليهم

وما وقع من هند التى فعلت بجسد حمزة مالا حاجة لذكره ، من التمثيل الفظيع ، حتى أخرجت كبده ولاكتها ، تريد أكلها حقدا وعداوة ، فأهدر النبي دمها يوم غزوة الفتح ، فلما ضاقت عليها الأرض بما رحبت ، تنكرت وأتت النبي فبايعته على الإسلام ، فلما أسلمت كشفت عن وجهها فعرفها ، فلم يجدْ (١) عليها ، ولا عاتبها على مافعلت بعمه . وتلك لعمرى غاية فى الصفح الجميل تتقاصر عنها الغايات !

كل هذا كاف فى الدلالة على أن الدين لا يؤاخذ أحدا إلا بعد أن يتضح له الحق بأجلى بيان .

(١) يجد : يغضب

ومن ذلك يتبين أن مقاصد الإسلام طلب الخير لكل الأنام ، ودفع الشر عنهم بكل ما تصل إليه يد الإمكان ، مع إطلاق حرية الضمير ، بشرط الإذعان للحق إن ظهر وعدم العناد . ولا يصح ترك المسترشد ، فإنه كالمريض دواؤه الإرشاد والبيان ، وإهماله ضرر عليه يسأل عنه المهمل ، ويجب على العالم ألا يتخلى عن تعليم الجاهل ، الذى يتردى بجهالته فيما يضره ، ولا يصح للمدنى الحقيق ، أن يحرم أحدا مشاركته فى نعمة تلك المدنية ، بل الواجب أن يشارك الناس بعضهم بعضا فى منافعها ومزاياها .

المقصد العاشر

التنويه بمكارم الأخلاق

لما كان من مقاصد دين الإسلام تعميمُ الخير ، ودفع الشر ، والهداية إلى الحق ، وذلك بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — كان حقا على من تصبو نفوسهم لهذا الأمر الشاق المحفوف بالمخاطر ، أن يتجافوا عن الدنايا ، وينأوا عن مهاوى الشرور ، ولا يتدنوا إلى حضيض الفجور ، وأن يتصفوا بالأخلاق الفاضلة ، حتى تصفو نفوسهم بلزوم العدل المحض ، والاعتدال البحت (١) فإذا صلحت الأنفس وتعودت المبادئ الحقة القيمة ، وصارت لها ملكة ، كان أصحابها قدوة لمن يسمع قولهم ، ويطيع أمرهم .

وقد كان الأنبياء فى مقدمة المتصفين بها ؛ وقد حث القرآن على ذلك فى آيات كثيرة تتجاوز المئات وصرح النبى صلى الله عليه وسلم بذلك فى قوله : « بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ » . وقوله : « إِنَّ المُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ » . وقوله : « إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا » . وقوله : « أَكْمَلُ المُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا » وقوله : « مَكَارِمُ الأَخْلَاقِ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الجَنَّةِ » . وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم إذا نظر فى المرآة : « اللَّهُمَّ كَمَا حَسَّنْتَ خَلْقِى فَحَسِّنْ خُلُقِى » ، وكان يستعيذ من سوء الأخلاق ، فيقول : « اللَّهُمَّ ، إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشِّقَاقِ وَالنِّفَاقِ ، وَسُوءِ الأَخْلَاقِ » .

---

(١) البحت : الخالص من كل شىء .

هـذا إلى أنه إذا حسنت الأخلاق ، طهرت الأذواق ، وكملت آداب الأنس والمعاشرة ، ولاق بالمرشد أن يوصل دعوته الدينيـة ، إلى من أراد الله به خيرا من أفراد المجتمع ، فإن نأى عن هذه الفضائل نفر الناس منه ، ولم يجد إلا صدا وردا . قال الله تعـالى لنبيه : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ .

فواجب المؤمن الداعى أن يكون هينا لينا ، حليما كريمـا :

فهناكَ يُسمعُ مَا يقُولُ ، وَيُشتَفَى ه بالقول منـــه ، وينفعُ التعليمُ

المقصد الحادي عشر

إقرار أن الناس طبقات ومنازل

قال تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ولكن جعلهم مراتب ، ولكلّ مرتبةٌ خاصة ، ومنزلةٌ وُضع فيها . وقد كان النبي — وهو الإمام الذى يقتدى بفعله — لايخاطب أميراً أو سيداً أو ذا وجاهة فى قومه بما يخاطب به مَن دونه ولا مَن فوقه : فلم يضع أحداً عما يستحقه من الكرامة ، ولا رفعه عن استحقاقه ، وإن كان جميعهم فى الأوامر الإلهية والنواهى والحدود سواءً : مؤمنهم وكافرهم . وضيعهم ورفيعهم ، ولم يكن — صلى الله عليه وسلم — فحّاشاً ولا لعّانا ، ولا محقّرا منتهكا للحرمات . فعلينا أن نحذو حذوه . ونستنّ سنته : فالعالَم عندنا سواء فى المعاملة : لكلّ حق لا نُحرِمه ، وحق لا يتعدّاه ، وعليه واجب لا يهمله ، والتفاضل فيما بينهم بالتقوى .

والله جل جلاله لم يسقط المزايا الخاصة بما أوجب الوُصلة الإخائية ، فقال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ و ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ . وقال فى تفضيل الرجال على النساء : ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ . وقال فى تفضيل الرسل الكرام بعضهم على بعض : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ الآية . وقال فى الاصطفاء : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ و﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ

اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ . وفى تفضيل نسائه صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ . وفى تفضيل الأمة المحمدية : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ الآية . وقال فى أهل الكتاب : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ الآية . وقال : ﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ . وفى تمييز الطيب من الخبيث : ﴿ مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ . وقال : ﴿ لَا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ . وفى منع تمنى مافضل الله به بعض الأمة على بعض : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ . وقال فى تفضيل المجاهدين : ﴿ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى ﴾ الآية . وقال : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ . وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ ﴾ الآية . وقال فى تفضيل المؤمنين على غيرهم : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى ﴾ الآية . والقرآن الكريم مشحون بمثل هذه الآيات .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ » . وقال : « إِذَا

أتاكم كريم قوم فأكرموه» . وقال : « الناس معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » . وقال : « ارحموا عزيز قوم ذل وغنى قوم افتقر » ، وقال فى الحض على تخير الأنساب : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » ، وقال فى ذلك أيضا : « إياكم وخضراء الدمن » قيل : من خضراء الدمن يارسول الله ؟ قال : « المرأة الحسناء فى المنبت السوء » . وقال فى حفظ المقادير : « من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا» وقال فى توقير العلماء : « وقروا علماء أمتى فإنهم نجوم الأرض» . وقال فى إكرام الشيوخ : « من إجلال الله إكرام ذى الشيبة المسلم » . وقال فى تفضيل الصحابة : « لا تسبوا أصحابى فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه[1] من سب أصحابى فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفا[2] ولا عدلا[3] » . وقال : « إن من أشراط الساعة أن يلتمس العلم عند الأصاغر » .

ومما يؤيد ذلك من أفعاله صلى الله عليه وسلم ، أنه بسط رداءه لوفد نجران حين زاروه ، وهم نصارى ، وأكرم عامر بن الطفيل وهو كافر ؛ لأن الوافدين النجرانيين كانوا أعزاء قومهم ، وعامرا كان سيد قومه .

(١) نصيفه . نصفه . والمعنى مابلغتم منزلة أحدهم ولا نصف منزلته .
(٢) صرفا : توبة .
(٣) عدلا : فدية .

ومما تقدم تعلم أن الناس سواء أمام القانون الإلهى ، والتفاضل فيما بينهم بالتقوى ، ولكن تختلف مراتبهم من حيث الصفات الخاصة . فهم بذلك ينقسمون قسمين عظيمين : مسلمين ، وغير مسلمين .

أما المسلمون فقد ربطت بينهم الأُخُوة ، المشفوعة بالأبوة العامة والبنوة الممتدة إلى ما شاء الله أن تمتد : وينقسمون إلى أسر خاصة ، ومن أخص الأسر ذريته صلى الله عليه وسلم : وهى أولاد السبطين رضى الله عنهما ، فإن لها بنوة خاصة مع تلك البنوة العامة . والمسلمون مهما اختلفوا فى المنزلة وتباينوا فى المرتبة ، أمام الأوامر السماوية سواء : فالتفاوت لا يضع عن أحد واجباً دينياً ، ولا يُسقط حدًّا من حدود الله ، فإن النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقول : « لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا »

أما القسم الثانى ، وهو غير المسلمين ، فإنهم ينقسمون إلى خمسة أقسام :

الأول ــ أهل الذمة : وهم الذين يخضعون للسلطة الإسلامية ، ولا يدينون بدينها : فإن لهم الذمة ، ولهم ما للمسلمين من العدل والحقوق ، وعدم التعدى على أموالهم وأعراضهم وأنفسهم . ومن يفعل ذلك يجاز كما لو كان المتعدى عليه مسلماً .

الثانى ــ المُعَاهَد : وهو الذى يكون بين الإمامة الكبرى[1] وقومه عهد وميثاق مبرم ، فهو عند عهده وأحكام ميثاقه : له من الحقوق وعليه من الواجبات والحدود ماهو مدون فى العهد ، ولا يزال كذلك حتى ينقض العهد : فإن كان النقض عمداً انسلخ عن الأحكام المذكورة ، وبقى محفوظ

(١) الامامة الكبرى : الخلافة العظمى .

النفس والعرض والمال ، حتى يتعدى إلى مضرة غيره ، وهنالك يُحكَم عليه كما لو كان مسلما .

الثالث ــ المهادَن : وهو الذى بين جماعة المسلمين وقومه هدنة ، فهو عند شروطها .

الرابع ــ المؤمّن الذى لا عهد له ، ولا هدنة ، ولا حرب ، ولا ذمة بين قومه والإمامة الكبرى : فإن جاء بلاد المسلمين لحاجة ، فله حق المؤمّن على نفسه وعرضه وماله ودينه ، لا يُضارّ فى شىء من ذلك ، ويُكلَّف عدم التعرّض لمُضَارّة المجتمع ، ويخضع لأحكام المسلمين مادام بينهم .

الخامس ــ المحارَب : فإنّ أحكامه تختلف باختلاف الحروب وأسبابها : فهو تابع بمقتضى الحال حتى تضع الحرب أوزارها . وإذ ذاك يكون من أحد الأقسام الأربعة المتقدمة ، وإن أصبح أسيرا فعليه حكم الأسر بشروطه المقرّرة فى مواضعها .

كل ذلك يرينا بأجلى بيان أنّ من أسمى مقاصد الدين الإسلامى تعميمَ الأمن والسلم ، وقصد الخير لجميع الطبقات ، وأنه يوجب على أهله جلب كل خير للمجتمع الإنسانى ، ودفع كل شر عنه .

والجهاد الذى فرض على المسلمين ، ورغبهم الله فيه بقوله : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ إنما كان لأمرين :

أحدهما ــ الدفاع عن الجماعة المحمدية التى تحمل هذه الدعوة المباركة : دعوة تعميم الخير والوحدة فى الأرض .

والآخر ــ إزالة العوائق التى تقف فى سبيل نشر هذه الدعوة .

والإسلام لم يدخل فى حرب إلا بعد أن أعيته الحيل ، فلم يجد مفرّاً منها .

والمسالمة ديدن المسلمين فى كل شيء، منقادين إليها بقوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. وقد روى عن عائشة رضى الله عنها: (ماخُيِّرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس عنه). وقال صلى الله عليه وسلم: «يسِّروا ولا تعسِّروا». وقد أوضح الله سبحانه وتعالى ذلك فى قوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾.

مما تقدم يتبين أن مقاصد الدين الإسلامى اعتقادُ الحق، وإقامةُ البرهان على المعتقَد، حتى لايحوم حول الحقيقة شك ولا رَيْب، وتعميمُ المعاملات والإخاء، وتخويلُ عموم الأفراد حرية محضة محدودة بحدود الحكمة، بحيث تكفل حفظ الحياة الاجتماعية مادام فى الوجود موجود، وهى مانعة من الإفراط والتفريط، وهما الطرفان المذمومان. وهذه هى أقصى درجات المدنية. ثم أوجب حفظ المراتب والدرجات من الناس ورعايتَها، ورفع بعضهم فوق بعض درجات بقدر ما يؤدّونه من جليل الأعمال، وأباح لهم اشتراك غيرهم معهم فى هذه المدنية العظمى، والمنهج القويم: فقد كان سيد الخلق يعامل يهوديا، وتُوفِّى ودرعه مرهونة عند يهودى، فاستخلصها منه سيدنا أبو بكر رضى الله عنه. فهل يتخيل متخيل حسن معاملة أجلَّ وأعظم من هذه المعاملة؟

وما كان أغناه عن معاملة ذلك اليهودى! وقد كان أصحابه يفدونه بالمهج بَلْهَ[1] الأموال. فما عامل اليهودى، ولا خص اليهودى بذلك، إلا لأن هذه المعاملة تحوطها الأمانة، وتحرسها التسوية فى المعاملة التى هى من شعائر

(١) بله: دع.

الدين الحنيف. فما أسماه! وما أحكم مقاعده!

ولم تقتصر تعاليمه على الأمر بالعبادة، بل أردف ذلك بالاهتمام بأمر الزراعة: «اُطْلُبُوا الرِّزْقَ مِنْ خَبَايَا الْأَرْضِ». وفي هذا: الأمر ضمنا بالبحث عن المعادن في الأرض، وكنوز المناجم المطمورة في باطنها. وكذلك الصناعة: فإنه أمر بتعلمها، وبتعلم العلوم أينما وجدت. وقد رأى نفع بعض أعمال كفار الفرس فعمل مثلها: كعمل الخندق بإشارة سلمان الفارسي رضي الله عنه، وإنارة المسجد الشريف من قِبَل تميم الداريّ، حين أوقد قنديلا وأحضره معه، وقد كان يضاء قليلا بإحراق الخشب، وقد أمر أيضا بنشر العلوم والمعارف، وحسن الإخاء، وتقدير الرجال، وترتيب الجنود، وتنظيم القوى الدفاعية. وقرر وجوب حفظ الأبدان، وأنواع الحكمة الطبعية، وتتميم مكارم الأخلاق. وأوجب علم التاريخ، والجغرافية، والسباحة. ولم يدع شيئا حتى علم النجم، والحساب، والقصص، وآداب المحاضرات والمسامرات، ووظائف الأعمال الإدارية، والاقتصاد الإداري والمالي، وكل ما يمكن أن يكون في الأمم المتمدينة.

أما التجارة، فقد زاولها هو بذاته الشريفة.

هذا في الأمور الداخلية. أما الأمور الخارجية فقد دعا بالبلاغ المبين، وقرر أصول الحقوق الدولية والحقوق المِلِّيَّة، وفرق بين طبقات العالَم وحدد واجباتها، وأوجب أصول الحروب، والهدنة، والمسالمة، والمعاداة، والمراسلة والمكاتبة، ورعاية الموازنة السياسية، والحقوق المتبادلة، وحقوق الجوار، والمعاهدات على اختلاف ضروبها، ومعاملات رعايا الأجانب وأهل الذمة، وتخويل كل فرقة حقا محدودا بالحكمة، محوطا بالصواب. ولم يفرط

فى شىء ولم يُغفل أمرا من الأمور ، بل رغب فيه إذا كان نافعا ، ونهى عنه إن كان ضارا .

لاجرم أن الدين الإسلامى دين برهانى ، كفيل بإصلاح المعاش والمعاد ، ولذلك أوجب الله فيه لزوم الحكمة والحرية المشروعة ، ولم يجعل القهر والغلبة والاستعباد منه فى شىء ، ومنع سلطة الحكام واستعبادهم لعباده ، وربط معاملات الجميع بأحكامه الإلهية : فبين الحدود والحقوق والواجبات ، وقرر أصول الحرية والمساواة والأخوة المشروعة بين المسلمين ، وقام فيهم النبى صلى الله عليه وسلم بالرسالة والأبوة الشاملة . ولما كان لابد لتنفيذ الأحكام الربانية من قوة قاهرة ، مقتدرة على إجراء العدل الإلهى ، أوجب الدين نصب إمام عام يقوم بتنفيذ الأحكام ، وينوب عنه عليه السلام فى الأبوة العامة .

وعلى هذا الأساس قام الخلفاء العظام فى المسلمين : فكل واحد منهم ولىُّ مَنْ لا ولىَّ له ، وقيِّم من لا قيِّم عليه ، ووارثُ مَنْ لا وارث له ، وألقيت إليهم مقاليد الأحكام طبق الأوامر الإلهية .

لهذا وجبت معرفتهم وطاعتهم طاعة قلبية وعملية ، بحيث تطيعهم القلوب قبل الأبدان ، والإخلاصُ لهم فى النصح لمعاونتهم على المصالح ، لأنهم أكثر الناس شغلا ، وأثقلهم أعباء .

وحبذا لو تمسك المسلمون بأهداب شريعتهم ، وعملوا بما أمرتهم به ، وانتهوا عما نهتهم عنه ، وتوادوا وتحابوا ، واطَّرحوا من قلوبهم الحقد والبغضاء والحسد ، وطهروا سرائرهم ، وأخذ كل منهم بيد أخيه ، ونبذوا التواكل والتدابر ، وأحلوا محله الحب الخالص من قلوب مملوءة بالإيمان : لو فعلوا ذلك ، لعزّوا بعد الذل ، واجتمع شملهم بعد أن تفرق ، وهابهم غيرهم ، ودانت لهم الرقاب .

المقصد الثانى عشر

إصلاح المجتمع إصلاحا شاملا

قرر الإسلام أن المجتمع الإنسانى لا يصلح إلا إذا اجتمعت فيه أمور ستة :

الأوّل — دين متّبع

لأن الدين هو الذى يصون النفوس عن ميولها ، ويصرفها عن إرادتها السيئة ، ويحتجزها عن نزعاتها الخبيثة ، ويقهر السرائر ، ويزجر الضمائر ؛ وهو الرقيب على النفوس فى خلواتها ، والناصح لها فى ملماتها . قال بعض الحكماء : « الأدب أدبان : أدب شريعة ، وأدب سياسة : فأدب الشريعة ما أدّى الفرض ، وأدب السياسة ما عمر الأرض ، وكلاهما يرجع إلى العدل الذى به سلامة السلطان ، وعمارة البلدان ، لأنّ من ترك الفرض فقد ظلم نفسه ، ومن خرب الأرض فقد ظلم نفسه وغيره » .

قال سعيد بن حميد : (ما صحةُ أبداننا بنافعة ، حتى يصحّ الدين والخُلق) .

الثانى — حكومة رشيدة

ذلك بأنّ الحكومة برهبتها تتألف الأهواء المختلفة ، وبهيبتها تجتمع القلوب المتفرّقة ، ومن خوفها تنقمع النفوسُ المتعادية ، لأنّ فى طباع الناس من حب المغالبة على ما آثروه ، والقهر لمن عاندوه ، ما لا ينكفُّون عنه إلا بمانع قوىّ ، ورادع تنفيذى ، وأنواع الرادع أربعة :

العقل الزاجر ، والدين الحاجر ، والحاكم الرادع ، والعجز الصادّ :

ورهبة الحاكم أبلغ هذه الروادع وأشدها زجراً ، وأقواها ردعا ، فقد جاء في الحديث الشريف : « إِنَّ اللهَ لَيَزَعُ بِالسُّلْطَانِ أَكْثَرَ مِمَّا يَزَعُ بِالْقُرآن » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ للهِ حُرَّاسًا فِي السَّمَاءِ ، وَحُرَّاسًا فِي الأَرْضِ ، فَحُرَّاسُهُ فِي السَّمَاءِ الْمَلاَئِكَةُ ، وَحُرَّاسُهُ فِي الأَرْضِ الَّذِينَ يَقْبِضُونَ أَرْزَاقَهُم وَيَذُبُّونَ عَنِ النَّاسِ » . وقال صلى الله عليه وسلم : « الإِمَامُ الجَائِرُ خَيْرٌ مِنَ الْفِتْنَةِ ، وَكُلٌّ لاَ خَيْرَ فِيهِ ، وَفِي بَعْضِ الشَّرِّ خِيَارٌ » .

وقال بعض البلغاء وأبدع : « الحاكم في نفسه إمام متبوع ، وفي سيرته دين مشروع ؛ فإن ظلم لم يعدل أحد في حكم ، وإن عدل لم يجسر أحد على ظلم » .

الحاكم : هو الذي يحرس الدين ، ويحث على العمل به من غير إهمال له ، ويدفع الأهواء عنه ، ويحفظه من التبديل فيه ، والتأويل له ، ويزجر من شذ عنه بارتداد ، أو بغى عليه بعناد ، أو سعى فيه بفساد .

وهو الذي يذب عن الأمة عدوا في دينها ، أو معتديا على أموالها وأرضها وأنفسها . وهو الذي يعمر البلدان باعتماد مصالحها ، وتهذيب سبلها ومسالكها ، وهو الذي يُجرى في أموالها جباية وإنفاقا على سَنَن الشريعة العادلة . وهو الذي ينظر في مظالم أهلها ، ويسوى في الحكومة بينهم . ويعتمد النَصَفَة في فصل أحكامهم .

وهو الذي يقيم الحدود على مستحقيها ، من غير تجاوز فيها ، ولا تقصير عنها ، وهو الذي يختار أعوانه ورجاله من أهل الكفاية فيها ، والأمانة عليها .

ومن استقل بهذه الشؤون حقا من الحكام ، فهو مُستوجِبٌ لطاعة رعيته ومناصحتهم ، مستحقٌّ لصدق ميلهم ومحبتهم . ومن قصَّر عنها ولم يقم بحقها

وواجبها ، كان بها مؤاخَذا ، وعليها معاقَبا ، ثم هو من الرعية على استبطان معصية ومقت ، يتربصون الفرص لإظهارها ، ويتوقعون الدوائر لإعلانها :

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خير أَئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم . وشر أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم » وهذا صحيح ، لأنّ الإمام أو الحاكم إذا كان ذا خير أحب رعيته وأحبوه ، وإذا كان ذا شر أبغض رعيته وأبغضوه .

وقد كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه : « إن الله تعالى إذا أحب عبدا حببه إلى خلقه . فاعرف منزلتك من الله تعالى بمنزلتك من الناس » .

وسبب هذا أن خشية الله تبعث على طاعته فى خلقه ، وطاعته فى خلقه تبعث على محبته ، فلذلك كانت محبتهم دليلا على خيره وخشيته ، وبغضهم دليلا على شره وقلة مراقبته .

ومن الأمثلة العالية فى رشد الحاكم ماروى أن عمر بن الخطاب قال لأبى مريم السَّلُولى — وهو الذى قتل أخاه زيدَ بن الخطاب : — « والله إنى لاأحبك حتى تحبَّ الأرض الدم » . قال : « أفيمنعنى ذلك حقا ؟ » قال : « لا » . قال : « فلا ضير : إنمــا يأسَى على الحب النساء » !

الثالث — عدل شامل

عنى الإسلام بإقامة العدل عناية عظيمة ، لأنه أُس الملك وقوامُه ، وعدّته ونظامه ، فقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ . وقال تعالى :

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ (١) قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ . ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ . ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ .

وسر ذلك أن العدل الشامل يدعو إلى الطاعة ، ويبعث على الألفة ، ويستوجب المودة ، وتعمر به البلاد ، وتنمى به الأموال . وليس شيء أسرع فى خراب الأرض ، ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور ، لأنه لا يقف عند حد ، ولا ينتهى إلى غاية ، ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل . تأمل قوله صلى الله عليه وسلم : «ثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ وَثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ : فَأَمَّا الْمُنْجِيَاتُ : فَالْعَدْلُ فِى الْغَضَبِ وَالرِّضَا . وَخَشْيَةُ اللهِ فِى السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَالْقَصْدُ فِى الْغِنَى وَالْفَقْرِ . وَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ : فَشُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ» .

وانظر قول الإسكندر لحكماء الهند ـ وقد رأى قلة الشرائع بها ـ : « لِمَ صارت سُنَن بلادكم قليلة ؟ » . قالوا : « لإعطائنا الحق من أنفسنا ، ولعدل ملوكنا فينا » . فقال لهم : « أيُّما أفضل : العدل أم الشجاعة ؟ » . قالوا : « إذا اُستعمل العدل ، أغنى عن الشجاعة » .

وتدبر قول بعض البلغاء : « إنّ العدل ميزان الله الذى وضعه للخلق ، ونصبه للحق : فلا تخالفه فى ميزانه ، ولا تعارضه فى سلطانه ، واستعن على العدل بخلّتين : قلة الطمع ، وكثرة الورع » .

(١) الشنآن : البغض . والمعنى : لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم

ضروب العـــدل

للعدل ضروب شتى :

منها : عدل الإنسان فى نفسه ، وذلك بحملها على المصالح ، وكفها عن الفضائح ، ثم بالوقوف فى أحوالها على أعدل الأمرين من تجاوز أو تقصير ، فإن التجاوز فيها جور ، والتقصير فيها ظلم . ومن ظلم نفسه فهو لغيره أظلم ، ومن جار عليها فهو على غيره أبلغ جورا

انظر إلى قول بعض الحكماء : « من توانى فى نفسه ضاع » .

ومنها : عدل الإنسان فيمن دونه . كالحاكم فى رعيته ، والرئيس مع مرءوسيه . وعدله فيهم يتحقق بأمور أربعة : اتباع الميسور ، وحذف المعسور ، وترك التسلط بالقوة ، وابتغاء الحق فى السيرة ، لأن اتباع الميسور أدوم ، وحذف المعسور أسلم ، وترك التسلط أوجب للمحبة ، وابتغاء الحق أبعث على النصرة . ومن لم تجتمع له هذه الأمور من الحكام أو الرؤساء ، كان الفساد بنظره أكثر ، والاختلاف بتدبيره أظهر .

تأمل قوله صلى الله عليه وسلم : «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، مَنْ أَشْرَكَهُ اللهُ فى سُلْطَانِهِ ، فَجَارَ فى حُكْمِهِ» . وتأمل قول بعض الحكماء : « أقرب الأشياء صَرْعَةُ الظَّلُوم ، وأنفذ السهام دعوة المظلوم » . وقول أَزْدَشير بن بابَك : « إذا رغب الملك عن العدل ، رغبت الرعية عن طاعته » . وقول أنوشروان لما عوتب على ترك عقاب المذنبين : « هم المرضى ونحن الأطباء ، فإذا لم نداوهم بالعفو عنهم ، فمن لهم ؟ » .

ومنها : عدل الإنسان مع من فوقه : كعدل المحكومين مع الحكام ،

والمرءوسين مع الرؤساء : وقوام ذلك إخلاص الطاعة ، وبذل النصرة ، وصدق الولاء : فإن إخلاص الطاعة أجمع للشمل ، وبذل النصرة أدفع للوهن ، وصدق الولاء أنفى لسوء الظن . ومن لم تتم له هذه الأمور من المرءوسين . تسلط عليه من كان يدافع عنه ، واضطُرّ إلى اتقاء من كان يقيه . وفى هذا يقول البحترى :

متى أحرجْتَ ذا كرم ، تَخَطّى إليك ببعض أخلاق اللئام

وما أبدع قول بعض الحكماء : « إن الله لا يرضى عن خلقه إلا بتأدية حقه ، وحقه شكر النعمة ، ونصح الأمة ، وحسن الصنيعة ، ولزوم الشريعة » ومنها : عدل الإنسان مع إخوانه ونظرائه : وآية ذلك ترك الاستطالة[١] ، واجتناب الإدلال[٢] وكف الأذى : فترك الاستطالة أدعى إلى الألفة ، ومجانبة الإدلال أبقى للعطف والرحمة ، وكف الأذى مروءة ونصَفة .

تأمل بديع قوله صلى الله عليه وسلم : الا أُنَبِّئُكُمْ بِشِرَارِ النَّاسِ ؟ » قَالُوا : بَلَى . يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : « مَنْ نَزَلَ وَحْدَهُ ، وَمَنَعَ رِفْدَهُ[٣] وَجَلَدَ عَبْدَهُ » . ثم قال : « أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ ؟ » قالوا : بلى . يا رسول الله ، قال : « مَنْ لَا يُرْجَى خَيْرُهُ ، وَلَا يُؤْمَنُ شَرُّهُ » . ثم قال : « أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ ؟ » . قالوا : بلى . يارسول الله ، قال : « مَنْ يُبْغِضُ النَّاسَ وَيُبْغِضُونَهُ » .

وانظر إلى قول بعض الحكماء فى بيان قبح الظلم فى صوره المختلفة ، ومعانيه المتغايرة : « الحاكم السوء يخيف البرىء ، ويصنع الذنب . و البلد السوء

(١) الاستطالة : التطول والامتنان . (٢) الادلال : مجاوزة الحد فى التجنى .
(٣) رفده : معونته .

يجمع السِّفَل ، ويورث العلل . والولد السوء يَشين السلف ، ويهدم الشرف .
والجار السوء يُفشى السر ، ويَهتك الستر . فما أنفع العدل ! وما أضرَّ الجور !

الرابع — الأمن العام

فى ظل الأمن العام تطمئن النفوس ، وإليه تهشُّ السرائر ، وتطمئنُّ الخواطر ،
وتنبعث الهمم ، ويسكن البرىء ، ويأنس الضعيف : فلا راحة للخائف ،
ولا طمأنينة للوجل ، لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحهم ، ويحجُزهم
عن تصرفهم ، ويحول بينهم وبين المواد التى بها قوام أودهم ، وانتظام حالهم

والخوف ضروب ، فمنه : الخوف على النفس . ومنه : الخوف على الأهل ،
ومنه : الخوف على المال . وقد يستوعب جميع الأحوال . ولكلٍّ من ضروبه
حظ من الوهن ، ونصيب من الحزن

الخامس ـ توفير أسباب اليسر

فبه تتَّسع النفوس فى مختلف أحوالها . ويشترك ذو الإكثار والإقلال ،
فيقل فى الناس التغابن ، وينتفى عنهم تباغض الفقر ، وتجنح النفوس إلى التوسع ،
وتكثر المؤاساة والتواصل ، ويطَّرد نموُّ التعامُل ، فتفشو الأمانة ، ويكثر
السخاء ، ويستفيض الخير فى الناس

تأمل ما كتبه عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى ،
إذ يقول : « لا تستقضيَنَّ إلا ذا حسب أو مال ؛ فإن ذا الحسب يخاف العواقب ،
وذا المال لا يرغب فى مال غيره »

من أجل ذلك لا يتسنى لمصلح أن يتم إصلاحه فى أمة ، إلا إذا وفر له

أسباب الثراء، ودرأ عنها دواعي الضيق والفقر، لأن ثراء الأمة من قواعد صلاحها، ودواعي استقامتها وفلاحها. وفوزهافيها تحاول، واطراد نجاحها فيما تقصد.

السادس ـ غرس الآمال فى نفوس الناس

إن الأمل الفسيح يبعث على اقتناء ما يقصر العمر عن استيعابه[1]، ويدعو إلى اقتناء ما ليس يُؤَمَّل فى دركه بحياة أربابه. ولولا أن الخَلَف ينتفع بما أنشأ السلف، حتى يصير به مستغنياً، لافتقر أهل كل عصر إلى إنشاء مايحتاجون إليه: من منازل السكنى، وأرض الحرث، ومرافق الحياة، وفى ذلك من الإعواز[2] والتعطيل، وتعذر الإمكان مالا خفاء فيه.

الأمل الفسيح هو الذى حدا الخلق إلى عمارة الدنيا وإتمام إصلاحها، فأصبحت تنتقل بعمرانها إلى قرن بعد قرن[3]، فيُتم الثانى ما أبدأه الأول من عمارتها، ويرُم الثالث ما تركه الثانى من شعَثها[4]، لتكون أحوالها على كر العصور ملتئمة، وأمورها على مرّ الدهور منتظمة. ولو قصُرت الآمال ماتجاوز الواحد حاجة يومه، ولاتعدّى ضرورة وقته، ولكانت تنتقل إلى مَن بعده خرابا لا يدرك منها حاجة، ثم تنتقل إلى مَنْ بعدُ بأسوأ من ذلك حالا، حتى لايُنَمَّى بها نبت، ولا يمكن فيها لبث: تأمل قوله صلى الله عليه وسلم: «الْأَمَلُ رَحْمَةٌ مِنَ اللهِ لأُمَّتِى». وتأمل قول الشاعر:

وللنفوس ـ وإنْ كانت على وجل   من المنيــة ـ آمالٌ تقويها
فالصبرُ يبسطُها، والدهرُ يقبضُها   والنفسُ تنشُرها، والموتُ يَطويها

(١) استيعاب الشيء: الاتيان عليه كله، وعدم ترك شيء منه.

(٢) الاعواز: الفقر. (٣) القرن: أهل زمان واحد. (٤) الشعث: الخلل

هذه هي الأمور الستة التي تصلح بها أحوال الأمم ، و تنتظم جملة أمورها ، وبحسب ما اختل من قواعدها يكون اختلالها وفسادها .

ولا غرو : فقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم بشريعة أحاطت بجميع ما يكفل خير البشر . فما كان منه أمس حاجة وأشد لزوما ، فصّلته وشرحته على أكمل بيان ، وما كان أقل في الاحتياج إليه وليس من الضروريات المعيشية أو التهذيبية ، رمزت إليه ، وأشارت إلى طرق تعلمه من أهله ، وسهلت السبيل إليه . ولهذا ظلت شريعته وستظل محفوظة الموارد ، مطردة القواعد : لا تختل منها قاعدة ، ولا يبطل منها حكم . ولو كانت من وضع البشر لاختلت ، وفسد نظامها ، كما تختل نُظُم البشر على اختلاف العصور وتعاقُب الأجيال .

دين ظهر للمنصفين من المؤرخين والباحثين ، أنه لم ينتشر بالسيف كما يُرجف المرجفون . لأن محمداً عليه الصلاة والسلام ، لما قام بدعوى الرسالة كان واحداً وحدة الحق الذي يدعو إليه ، فريدا لا عون له من الناس ، ولم يكن صاحب سلطان ، ولا متمكنا بعصبية عشيرة قادرة ، بل إنه عند قيامه بتلك الدعوى بين جماهير الأمم ، كان من عشيرته أوّلُ من كذبه في دعواه ، وعاداه أشد المعاداة ، وسلط عليه أشرارها بالأذى وتسفيه الرأى . ومع ذلك ظل عليه الصلاة والسلام صابراً على أذى من آذاه : يدعو الخلق إلى الحق ، ويقيم لهم الأدلة ، ويظهر لهم محاسن دينه . ويوضح لهم معايب ما هم عليه ، حتى وضح الحق لمن أراد الله تعالى هدايته . فأخذت العقول السليمة تقبل دينه ، وتستحسن شريعته ، وهو حينئذ لم يَسُلَّ سيفاً ولم يأمر بإراقة قطرة من دم أحد ، بل كان يقول بلسان القرآن : ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي

الدين قد تبين الرشد من الغى﴾ . ﴿يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ . ﴿من كفر فعليه كفره﴾ ، ..

أنبأنا التاريخ على لسان المنصفين ، أن دين محمد عليه السلام شاع قبل هجرته من مكة إلى المدينة ، وقبل مشروعية الجهاد فيها ؛ وقبلته العقول السليمة ، واستحسنته الطبائع الكريمة ؛ بلا خوف ولا رهبة .

وكذلك أنبأنا أن الناس دخلوا فى دينه أفواجا بعد مشروعية الجهاد ، وهم على خوف من أذى أعداء الدين .

وأنبأنا كذلك ، أنه لما لم تفلح الموعظة والبراهين فى إقناع المخالفين المعاندين ، الذين أرادوا صد الدعوة واستئصالها ، وزادتهم معاملة الرفق واللين طغيانا واجتراء على الدعوة وصاحبها ـ شرع الله الجهاد ، وحاطه بقيود تدرأ القسوة والتنكيل .

دين أحاط بكل حكمة باهرة ، واحتوى كل خصلة حميدة ، وكفل انتظام حال البشر ، وصلاح أحوالهم ، وطهارة نفوسهم ، وعمارة ديارهم ، وكف أشرارهم ، وجاءهم بعقائد ـ فضلا عن سلامتها من كل خرافة ودنية ـ تحث الآخذين بها على التكمل ،

دين يأمر باتقاء كل مضر للإنسان فى دينه ودنياه ، والإخلاص فى العمل لله تعالى ، والبر بالناس والإحسان فى العمل ، والنصيحة لخلق الله تعالى ، والصبر على الشدائد ومقاومة الأهوال والآلام ، والرضا بما يرضى الله تعالى ، وكظم الغيظ عند الغضب ، وترك المجازاة للمذنب مع القدرة عليها ، مالم تكن حدا من حدود الله تعالى ؛ ويأمر كذلك بالاغتباط بعمل الخير ، وبالسخاء ، والكرم ،

والشجاعة والمحافظة على الحُرَم والدين، وبالثبات عند المخاوف، وبالرغبة الصادقة في الأناة بقدر ما يمكن، وبالتؤدة في التوجه نحو المطالب، وبالتأني في الخصومات والحروب، وبحسن الانقياد بما يؤدى إلى الجميل، وبمحبة ما يكمل النفس؛ وبالحكمة، والشكر، والخوف من الله تعالى، والرجاء فيه، وباتفاق الآراء في المعاونة على تدبير المعاش، وبالوفاء، والرحمة بخلق الله تعالى، وبالإصلاح بين عباده، وبالأمانة، وإنجاز الوعد، والوفاء بالعهد، والحب في الله، والبغض في الله، وبحسن الظن، وبالمبادرة إلى عمل الخير، وبالصلابة في أمر الدين، وبالأنس في الله والشوق إليه، وبملازمة الأعمال الجميلة، والحرص على مايوجب الذكر الجميل، وبالتحرج عن أى أذى يلحق الغير مطلقا، وباكتساب المال من غير مهانة ولا ظلم، وإنفاقه في المصارف الجيدة، وتحرير النفس من ربقة الشهوات، رمحاسبتها ومعاتبتها على ما تقع فيه من الموبقات .... إلى ماشئت من المكارم والمراحم.

دين ينهى عن الشرك بالله، والإضرار بالناس، والفسق، وعصيانه تعالى في أوامره ونواهيه؛ وعن اتباع الهوى، والرياء؛ وعن الكبر، والحقد، والعجب والحسد، والشماتة، والتهور؛ وعن الطِّيَرَة[1] والتشاؤم الذى لا سند له من الشرع؛ وعن البخل، والشح، والإشراف؛ وعن الكسل، والبطالة والعجلة في الأمور؛ وعن الفظاظة، وغلظة القلب، والوقاحة، وقلة الحياء؛ وعن الجزع وكفران النعم؛ وعن السخط والغضب؛ وعن الضعف في أمور الدين؛ وعن الطيش والخفة، وعن العناد والمكابرة في الحق، وعن الشره والطمع، وعن الحميَّة لغير دين الله تعالى، وعن القنوط من رحمة الله، وعن

(١) الطيرة : مايتشاءم به .

محبة الظَلَمة والفَسَقة ؛ وعن النميمة ، وإفشاء السر ، والسخرية ، والاستهزاء بالناس ، واستصغارهم ، وعن اللعن ، والسب ، والتنابز ، (١) واللمز (٢) والتعيير ، والمراء ؛ وعن الخوض فى الباطل ، والمسألة لغير مضطر ، وعن الشفاعة السيئة ، والأمر بالمنكر ، والنهى عن المعروف ، وعن البحث فى عيوب الناس ، والدعاء للظالم بالبقاء ، وعن كتمان الشهادة ، وشهادة الزور ، وقذف المحصنات الغافلات ، وتعمد الكذب على الله تعالى وعلى رسوله ، وعن المنّ بالصدقة ، وكفران نعمة الخلق المؤدى إلى كفران نعمة الخالق ، والاستطالة فى الأعراض ، وذكر الناس بما يكرهون فى أنفسهم أو فيمن ينتسب إليهم ؛ وعن نقض العهد ، وخلف الوعد ، والخيانة ، والمكر والخديعة والفتنة ؛ وعن شرب المسكرات التى تذهب بالعقل ، وعن إنفاق السلعة بالحلف الكاذب ، وبخس الكيل ، أو الوزن أو الذرع ، وعن النجْش ، (٣) وإنفاق المال فى المحرمات ، وإيذاء الجار ولو كان مخالفاً فى الدين ، وعن السرقة ، والغصب ، والربا ، وعن التدابر ، والتشاحن ، وعن أخذ الرشوة من محق أو مبطل ، ولو كانت فى صورة هدية ، وعن خذلان المظلوم مع القدرة على نصرته . . . . إلى غير ذلك مما يضر بالمجتمع ، أو النفس ، أو المال ، أو العقل .

دين سنّ أحكام الزوجية على أكمل نظام : وأحفظه لحقوق كل من الزوجين عند الاجتماع ، وعند إرادة الافتراق ؛ وأباح لهما الفرقة ، تفاديا مما عساه أن يحصل لو احدمنهما أو لهما إن منعامنه ، وجعل سلطة الفراق بيد الرجل ؛

(١) التنابز : التعاير بالألقاب . (٢) اللمز : عيب الناس فى وجوههم .
(٣) النجش : أن تزيد فى الثمن لتوقع غيرك .

لأنه هو المكلف الإنفاق عليها ، فلا يرضى بفرقتها وضياع ماأنفق إلا إذا اضطرّ غاية الاضطرار . وفرض على الرجل النفقة ، لأنه أقدر بطبيعته على الكسب من المرأة ، وعلى احتمال المشاقّ وركوب متن الأهوال . واستحسن للمرأة القيام بمصالح البيت الداخلية ، وتربية الأولاد ، ولذلك أمرها بالحجاب صونا لها ، ومحافظة عليها : كما يحافظ على الشيء النفيس الذى يُضَنّ به على الأنظار . ومتى ألفت المرأة الحجاب وجدته محبوبا ، لا حبس فيه ولا تضييق ، ولا يمنعها من زيارة أرحامها ، وغشيان أماكن العلم ، لتتعلم ماتحتاج إليه من أمور دينها ودنياها .

دين جاء والرق منتشر بين الأمم ، والرقيق يعانى أنواع الظلم والقسوة ، فنهى أشدّ النهى عن إيذائه ، وتوعد من يؤذيه بالعقاب الأخروى ، ورغّب فى تحريره بحصول الثواب الجزيل ، وشرع وسائل كثيرة تكفل تحريره ، وتقصير مدّة الاسترقاق ، وكفل مساواة معيشته بمعيشة سيده .

وقصارى القول : أن الباحثين مهما يطل استقصاؤهم محاسن هذا الدين ، وفضله على بنى الإنسان فى معاشهم ، لايجدون إلى ذلك سبيلا ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا : ﴿مَافَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ﴾

الباب التاسع

محمد صلى الله عليه وسلم أشرف الخلق

خص الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بخصائص وفيرة، ومحامد كثيرة؛ جعلته أفضل الخلق على الاطلاق، وأرفع الناس درجة، وأقربهم زلفى، وأكرمهم منزلة عند من يعلم السر وأخفى. وفضله على خاصته وأحبابه، وأعلى فى الدارين مقامه حتى قرن اسمه باسمه، وذلك لعمرى تشريف ليس فوقه زيادة لمستزيد

وحسبك شاهداً على ذلك ما يلى :

(١) آتاه الله الكمال فى الخَلق والخُلق، والأقوال والأعمال : فجمّله بالسكينة الباعثة على الهيبة والتعظيم، وكساه حسن القبول فاستمال القلوب، وانقادت النفوس لموافقته، وثبتت على محبته ومناصرته، وأمده برجاحة العقل، وصدق الفراسة، ومنحه زهداً فى الدنيا وإعراضاً عنها، واكتفاء بالبلاغ منها، وتواضعا للناس وهم له أتباع، وخفض الجناح لهم وهو فيهم مطاع، ووهبه الحلم والوقار، فما هزه طيش، ولا استفزه خُرق، وأفاض عليه العلوم الجمة الباهرة، والحكم البالغة، وجعله أفصح الناس لسانا، وأوضحهم بيانا، وأوجزهم كلاما، وأجزلهم ألفاظاً.

(٢) خصّه الله جل شأنه بخمس لم يعطهن أحداً من خلقه — تأمل ما رواه جابر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :

(أُعْطِيتُ خَمساً لَمْ يُعطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي : كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً

وبعثت إلى كل أحمر وأسود[١] ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا ؛ فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل حيث كان، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة) رواه البخارى

وفى رواية الإمام أحمد : (وأعطيت الشفاعة ، فأخترتها لأمتى : فهى لمن لا يشرك بالله شيئًا) .

وفى حديث مسلم : « أعطيت ستًا » بزيادة : أعطيت جوامع الكلم[٢] وختم بى النبيون » .

(٣) تصرمت معجزة كل نبى وانقضت ، ومعجزة سيد الأولين والآخرين — وهى القرآن الكريم — باقية إلى يوم الدين .

(٤) أخذ الله تعالى الميثاق على النبيين : آدم فمن بعده ، أن يؤمنوا به وينصروه ، قال تعالى : ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى[٣] ، قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ . ففى هذه الآية من التنويه بمحمد صلى الله عليه وسلم والتعظيم لقدره ، ماليس وراءه مطمع

(١) كل أحمر وأسود : جميع الناس ، عربهم وعجمهم .

(٢) أى قلة اللفظ وكثرة المعنى . (٣) الاصر : العهد .

وإلى شيء من ذلك يشير الشيخ الأكبر محيي الدين فى قوله : إن محمداً صلى الله عليه وسلم ، هو الذى أعطى جميع الأنبياء والرسل مقاماتهم فى عالم الأرواح ، حتى ظهر بجسمه صلى الله عليه وسلم .

(٥) أثنى الله تعالى على خُلُقه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ وهذا غاية الثناء .

(٦) أخبر الله جل شأنه أنه وملائكته يصلون على النبى ، وأمر المؤمنين بالصلاة والتسليم عليه ، وليس هناك شرف ورفعة فوق هذا : العناية الأزلية القديمة أفاضت عليه الرحمة ، والملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم يلهجون بالاستغفار له ، والمؤمنون يضرعون به إلى العلى الكبير .

(٧) حوت الكتب القديمة السالفة ، حوت من البشائر بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم مالا سبيل إلى إنكاره .

(٨) انقطع الكهنة عند مبعثه ، كما انقطع استراق السمع . وفى هذا قضاء على الدجْل والشعوذة ، وإماتة الشرك الخفى .

(٩) أوتى صلوات الله عليه الكتاب العزيز وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب ، ولا اشتغل بمدارسة ، ولا تخرج فى كلية ، ولا انتظم فى جامعة ، وحفظ الله كتابه المنزل عليه من التبديل والتحريف ، فقال جل شأنه : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ . فلم يستطع أحد تغيير حرف منه ، مع تضافر طوائف الملاحدة ومن نحا نحوهم على إبطاله أو إفساده ، فلم يجدوا إلى

ذلك سبيلا .

أضف إلى ذلك أن الله تعالى يسّر حفظه لمتعليه . قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ وماعرف ذلك لكتاب غيره . وأنه مشتمل على جميع ما اشتملت عليه التوراة والإنجيل والزبور ، وفضّل بالمفصّل[1] والمثانى والسبع الطُّوَل . أما المفصّل فآخره : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ . وأوّله — على ما رجح النواوى — سورة الحجرات . والمثانى هى سورة الفاتحة[2] ، كما جاء فى البخارى من حديث أبى هريرة . وأما السبع الطول : فأوّلها البقرة ، وآخرها الأنفال وبراءة جميعا، لأنهما كسورة واحدة ، ولذلك لم يفصل بينهما بالبسملة . أوهى من البقرة إلى الأعراف ، والسابعة سورة يونس .

(١٠) أقسم الله بحياته صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ . والإقسام بحياته يدل على شرف حياته وعزته عند الله العزيز الحكيم .

(١١) شريعته صلى الله عليه وسلم أكمل من جميع شرائع الأمم المتقدمة ، وأتمها إحاطة بمصالح الدنيا والدين .

فقد كانت شريعة موسى عليه السلام شريعة شدة وقهر : أمروا بقتل أنفسهم ، وحرمت عليهم الشحوم وذوات الظفر وغيرها من الطيبات ، وحرمت

(١) سمى بالمفصل لكثرة فصوله أى سوره (٢) سميت الفاتحة بالمثانى لأنها تثنى فى الصلاة أى تكرر أو لاشتمالها على ماهو ثناء على الله

عليهم الغنائم ، وعُجِّل لهم من العقوبات ماعُجِّل ، وحُمِّلوا من الآصار (١) والأغلال مالم يحمله غيرهم ، وكان موسى عليه السلام من أعظم خلق الله تعالى هيبة ووقاراً ، وأشدّهم بأساً وغضباً لله تعالى ، وبطشاً بأعداء الله ، وكان لا يستطاع النظر إليه .

أما عيسى عليه السلام فكان فى مظهر الجمال ، وكانت شريعته شريعة فضل وإحسان ، لا يقاتل ولا يحارب : تأمل قول الإنجيل : (من لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ، ومن نازعك ثوبك فأعطه رداءك) .

وأما محمد صلى الله عليه وسلم فكان مظهر الكمال الجامع للقوة والعدل ، والشدة فى الله ، واللين ، والرأفة ، والرحمة . فشريعته أكمل الشرائع ، وأمته أكمل الأمم ، وأحوالهم ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات ، ولذلك أتت شريعته بالعدل فرضاً ، وبالفضل ندبا ، وبالشدة فى موضع الشدة ، وباللين فى موضع اللين ؛ فتذكر الظلم وتحرمه ، والعدلَ وتأمر به ، والفضلَ وتندُب إليه : تأمل قوله تعالى : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ . فهذا عدل . وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ . فهذا فضل . وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ . وهذا تقبيح للظلم وأهله . وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ . وفى هذا إيجاب للعدل ، وتحريم للظلم . وقوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ وهذا ندب إلى الفضل .

حرمت الشريعة السمحة كل خبيث وضار ، وأحلت كل طيب ونافع

---

(١) الذنوب .

فالتحريم على أمة محمد رحمة ، وعلى من كان قبلهم لم يخل من عقوبة ، تمشيا مع كل حال بما يناسبها ، سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

هذه أمة محمد ، جعلها الله خير أمة أخرجت للناس ، فكمّل لهم من المحاسن مافرّقه فى الأمم ، كما كمل لنبيهم الكريم من المحاسن مافرقه فى الأنبياء قبله ، وكما كمل فى كتابهم من المحاسن مافرقه فى الكتب قبله . فأتباع محمد هم المُجتبَوْن.

قال (تعالى) : ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾

(١٢) لا تكاد تخلو سورة من القرآن الكريم من ذكره صلوات الله عليه بتنويه أو تفضيل :

إن الله سبحانه وتعالى أرسل محمداً رحمة للعالمين ، وبعثه داعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيراً ، وأنزل عليه الفرقان فيه تبيان كل شىء ترغيباً وتحذيرا ، وشرح له صدره ، ورفع له ذكره ، وبذلك فضله على الأنبياء والمرسلين تفضيلا وشرفه عليهم تشريفاً .

وحسبه شرفاً أنه لا تكاد تخلو سورة من سور القرآن من ذكره ـ كما قلنا ـ بضرب من ضروب الفضل والإنعام .

ولا يتسع المقام لاستقراء الآيات الدالة على مناقبه ومفاخره ؛ فقد أفرد لذلك بعض المؤلفين المقدمين كتباً استوعبت جميع ماورد فى القرآن من هذه الآيات ، وحسبنا أن نجتزئ بما يلى :

١ ـ ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة : ٢٨٥)

٢ - ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ۝ ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران : ٣١ ، ٣٢)

٣ - ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران : ١٥٩)

٤ - ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران : ١٦٤)

٥ - ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾. (النساء : ٤١)

٦ - ﴿وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (النساء : ١١٣)

٧ - ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ، قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ (المائدة : ١٥ ، ١٦)

٨ - ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾

(الأعراف : ١٩٩)

٩ - ﴿يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنكم إليه تحشرون﴾

(الأنفال : ٢٤)

١٠ - ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ (الأنفال : ٣٣)

١١ - ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾ (التوبة : ٢٣)

١٢ - ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم﴾ (التوبة : ٣٩)

١٣ — ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ، وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: ٦٠ و ٦١)

١٤ — ﴿لَـكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

(التوبة: ٨٧ و٨٨)

١٥ — ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة: ١٢٨ و ١٢٩)

١٦ — ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر: ٩٤ — ٩٩)

١٧ — ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ

الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾

(الإسراء: ١)

١٨ — ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا﴾ (الإسراء: ٧٩)

١٩ — ﴿فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا﴾

(مريم: ٩٧)

٢٠ — ﴿طه ۝ ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ (طه: ١ و٢)

٢١ — ﴿وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم﴾ (الحج: ٦٧)

٢٢ — ﴿وتوكل على العزيز الرحيم ۝ الذى يراك حين تقوم ۝ وتقلبك

فى الساجدين ۝ إنه هو السميع العليم﴾ (الشعراء: ٢١٧ — ٢٢٠)

٢٣ — ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا

لارتاب المبطلون﴾ (العنكبوت: ٤٨)

٢٤ — ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها

لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾

(الروم: ٣٠)

٢٥ — ﴿النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم﴾

(الأحزاب: ٦)

٢٦ — ﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله

وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب: ٢١)

٢٧ - ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً﴾ (الأحزاب: ٣٦)

٢٨ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾ (الاحزاب: ٤٥ - ٤٧)

٢٩ - ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (الأحزاب: ٥٦)

٣٠ - ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (يس: ١ — ٤)

٣١ - ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (ص: ٨٦ - ٨٨)

٣٢ - ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الزمر: ٣٣ و ٣٤)

٣٣ - ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ

قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأحقاف: ٢٩ — ٣١)

٣٤ — ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ (الفتح: ١ — ٣)

٣٥ — ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: ١٠)

٣٦ — ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الحجرات: ١ — ٥)

٣٧ - ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ (الطور: ٤٨ و ٤٩)

٣٨ — ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾

(النجم: ١ — ١٨)

٣٩ — ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المجادلة: ١٢)

٤٠ — ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الصف: ٦)

٤١ – ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (الصف: ٨ و٩)

٤٢ – ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ۝ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الحاقة: ٣٨ – ٤٣)

٤٣ – ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ (المزمل: ١ – ٤)

٤٤ – ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ (المدثر: ١ – ٣)

٤٥ – ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ ۝ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ (الأعلى: ٦)

٤٦ – ﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى: ١ – ١١)

٤٧ — ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ • وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ • الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ • وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا • إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا • فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ • وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (الانشراح : ١ — ٨)

٤٨ — ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ • فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ • إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (الكوثر : ١ — ٣)

الباب العاشر

محمد صلى الله عليه وسلم أجدر الناس بالإيمان به ومحبته واتباعه وطاعته

أبنا في القول السابق أن محمداً صلى الله عليه وسلم تردُّ إليه الفضائل جميعها ، وأن الله جمع له المعارف الوافرة ، والعلوم التي لم تزل عن وجوه الهداية سافرة ، وخصه بورود عين اليقين ، وأطلعه على جميع مصالح الدنيا والدين ، ولقّنه مُحاجّة كل أمة من الكفرة ، ومعارضة أهل الكتاب بما في كتبهم المسطرة ، فأعلمهم بمخبآتها وأسرارها ، والمكتوم والمغير من أسفارها ، والخفيّ المكنون من أخبارها .

وجوب الإيمان به

من أجل ذلك كان الإيمان به واجباً . والإيمان به : هو الشهادة له بالرسالة ، وتصديقه في جميع ما جاء به ، إيماناً يجمع بين التصديق بالقلب والشهادة باللسان ، لأن الإيمان محتاج إلى العَقْد بالجَنَان ، كما أن الإسلام يقتضي النطق باللسان .

وجوب طاعته

وكذلك تجب طاعته ؛ لأنها لطاعة الله مصاحبة . فمن أطاعه هُدي إلى سواء السبيل ، ومن امتثل أمره أوتي جزيل الثواب ، ومن خالفه استوجب شديد العقاب .

وطاعته التزام دينه . والتسليم بما جاء به ، ورفع كلمته ، واتباع سنته السنية

واقتفاء سيرته الزكية. ومحاكاته فى الأخلاق والأفعال والانقياد لأوامره فى جميع الأحوال، والتأسى به فى حربه وسلمه، والأخذ بقوله، والرضا بحكمه، والسعى فى نشر شريعته، وبث روحها فى نفوس الخلق، حتى يفقهوا أن من انتصر بها فهو منصور، ومن سار عليها وفّق فى سائر الأمور، ومن اعتصم بها نجا من النار، ومن حافظ على برها حشر مع الأبرار، ومن تمسك بها فى زمن الفساد فله أجر مائة شهيد، ومن آثرها على نفسه نال غاية الأمل، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ماتولى، وأصلاه نار الكافرين.

تأمل قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾. وقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾. وقوله جل شأنه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. وقوله جلت حكمته: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾. وقوله تعالت حكمته: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وجوب محبته

أما محبته صلى الله عليه وسلم، فلأنه قد جاء بالرأفة والرحمة، وعلم الكتاب والحكمة، وبشّر وأنذر، ونهى عن التعسير ويسّر، وبالغ فى النصيحة، وسلك المحجة الصحيحة، وأتى بالهداية، وأنقذ من العماية، ودعا إلى الفلاح

ومهّد سبيله ، وبين سبيل النجاح ، وأقام دليله .

فأى كرم أجزل من كرمه ؟ وأى نعم أكمل من نعمه ؟ وأى إفضال أعم من إفضاله ؟ وأى نوال أتم من نواله ؟ :

من أجل ذلك كانت محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم هى المنزلة التى يتنافس فيها المتنافسون ؛ وإليها يشخص العاملون : فهى قوت القلوب ، وغذاء الأرواح ، وقرة العيون . وهى الحياة : فمن حُرمها فهو فى عداد الأموات . وهى النور : فمن فقدها ضرب فى تيه من الظلمات . وهى شفاء : فمن عدمه حلّت بقلبه ضروب السّقام .

ولا عجب فقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها ! فإذا كان الإنسان يحب من منحه من دنياه مرة أو مرتين معروفا فانيا منقطعاً ، أو أنقذه من هلكة أو مضرّة لاتدوم ، فما بالك بمن منحه منحاً لا تبيد ولا تزول ، ووقاه العذاب الأليم ، ودله على النعيم المقيم ؟ .

وإذا كان المرء يحب غيره لما فيه من أخلاق جميلة ، وسيرة حميدة ، فكيف بهذا النبي الكريم ، والرسول العظيم ، الجامع لمحاسن الأخلاق ، المانح الخلق جوامع المكارم والفضل العميم ، والذى أخرجهم من نار الجهل إلى جنات العرفان والإيقان ، وهو الوسيلة إلى البقاء الأبدى فى النعيم السرمدى ، وليس لأحد بعد الله ، منة على خلقه سواه .

من أجل ذلك استحق أن يكون حظه من محبتنا له . أوفى وأزكى من محبتنا لأنفسنا ، وأولادنا ، وأهلنا ، وأموالنا ، والناس أجمعين . بل لو كان فى منبت كل شعرة منا محبة تامة له ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لكان ذلك بعض ما يستحقه .

انظر قوله عليه الصلاة والسلام : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ » . وفى رواية أخرى : « حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ » .

درجات الناس فى محبته

الناس متفاوتون فى محبته : فمنهم من أخذ منها بالحظ الأدنى ، ومنهم من إذا ذكر النبى صلى الله عليه وسلم اشتاق إلى رؤيته ، بحيث يؤثرها على أهله وماله وولده ، ويبذل نفسه فى الأمور الخطيرة ، ويجد رجحان ذلك من نفسه وجْدانا لا تردّد فيه :

وسبب تفاوت المحبين فى محبته صلى الله عليه وسلم ، هو استحضار ما وصل إليهم من جهته : من النفع الشامل لخير الدارين ، والغفلةُ عن ذلك ، ولا شك أن حظ الصحابة رضوان الله عليهم فى هذا المعنى أتم ؛ لأن هذا ثمرة المعرفة وهى فيهم تامة غير منقوصة . تأمل ما يلى :

(١) كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مولى يسمى ثَوْبان، وكان شديد الحب له نافد الصبر عنه ، فأتاه يوما وقد تغير وجهه ، ونَحَل جسمه ، وظهر الحزن فى وجهه ، فسأله الرسول صلى الله عليه وسلم عن حاله ، فقال : يارسول الله ، مابى من وجع ـ غير أنى إذا لم أرك اشتقتك واستوحشت وحشة عظيمة ، فذكرت الآخرة حيث لا أراك هناك ؛ لأنى إن دخلت الجنة ، فأنت تكون فى درجات النبيين فلا أراك . فنزل قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ

وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ . وليس المراد أن يكون الكل فى درجة واحدة ؛ لأن الله لا يسوى بين الفاضل والمفضول ، وإنما المراد أنهم فى الجنة مع التمكن من الرؤية والمشاهدة ؛ لأن الحجاب إذا زال شاهد بعضهم بعضاً .

(٢) روى ابن إسحاق أن امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد ، فأخبروها بذلك ، فقالت : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا : بحمد الله هو كما تحبين . قالت : أرونيه حتى أنظره ، فلما رأته قالت : كل مصيبة بعدك صغيرة .

(٣) لما أخرج أهل مكة زيد بن الدَّثِنَة من الحرم ليقتلوه ، قال له أبو سفيان ابن حرب : أَنْشُدُكَ الله[1] أيا زيد ، تحب أن محمداً الآن مكانك تُضْرَب عنقه وأنك فى أهلك ؟ فقال زيد : والله ما أحب أن محمدا مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة وإنى لجالس فى أهلى فقال أبو سفيان : ما رأيت أحداً من الناس يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً .

(٤) أن بلالا رضى الله عنه لما حضرته الوفاة ، كان أهله يقولون : واكرباه! وهو يقول : واطَرَباه! غدا ألقى الأحبة : محمدا وصحبه . فمزج مرارة الموت بحلاوة اللقاء ، وهى حلاوة الإيمان التى جاءت الإشارة إليها فى قوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ لَا يُحِبَّ الْمَرْءَ مَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِى الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِى النَّارِ﴾ .

(١) أنشدك الله : سألتك به مقسما عليك

من أجل ذلك كان عمرو بن العاص رضي الله عنه يقول : « ما كان أحد أحب إليّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وكان عليّ كرم الله وجهه يقول : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أحب إلينا من أموالنا ، وأولادنا وآبائنا ، وأمهاتنا ، ومن الماء البارد على الظمأ » .

تأمل قول ابن عطاء الله : « إن القلوب السليمة من أمراض الغفلة والهوى تتنعم بملذوذات المعالى ، كما تتنعم النفوس بملذوذات الأطعمة » .

أولئك هم الذين قرت أعينهم بمحبة محمد صلى الله عليه وسلم وسكنت نفوسهم إليه ، واطمأنت به قلوبهم ، فجعلوه إمامهم ومعلمهم ، وتأدبوا بآدابه ، وتخلقوا بأخلاقه .

أمارات محبته صلى الله عليه وسلم

لمحبة الرسول صلى الله عليه وسلم دلائل جمة ، أهمها ما يلى :

(١) نصر دينه بالقول والفعل ، والدفاع عن شريعته ، والتخلق بأخلاقه فى الجود ، والإيثار ، والحلم ، والصبر ، والتواضع ، وغيرها . فمن جاهد نفسه على ذلك وجد حلاوة الإيمان ، ومن وجدها استلذ الطاعات ، وتحمل المشاق فى الدين ، وآثر ذلك على أعراض الدنيا الزائلة .

(٢) العطف على أمته ، والبر بهم ، والنصح لهم ، والسعى فى مصالحهم ، وبذل الجهد فى نشر دينه ونصرته ، والتأدب بآدابه وأحكامه ، وإيثار شرعه على الهوى ، وعدم مبالاة سخط الناس فى رضا الله ورضاه ، والتخلق بخلقه ، والتطبع بطبعه ، واجتناب كل أمر يخالف شرعه والوقوف عند حدوده ، ورفض أقوال شانئه وحسوده ، وبذل النفس والمال دونه ، والميل إلى من أحبه .

(٣) تعظيمه صلى الله عليه وسلم وتوقيره: فقد كان أصحابه الأبرار لفرط محبتهم له يعظمونه كثيراً، ولا يكادون يملئون عيونهم منه إجلالا وتوقيراً، يستمعون لكل لفظ ينبس به، ولا يتعجلون بقضاء أمر قبل قضائه فيه، ولا يرفعون صوتهم فوق صوته، وينادونه بأشرف مايحب من أسمائه، وقد سمحوا فى الدفاع عنه وعن دينه بأموالهم وأنفسهم، وجاء السلف الصالح من بعدهم، فعظموا حديثه الحسن الصحيح، وتلقوا ما وصل إليهم من سنته الشريفة بكل صدر فسيح، وأنصتوا إلى سماع أقواله، وتأدبوا بصفاته وأفعاله. فمنهم من ارتدى بالخضوع والخشوع، ومنهم من جرت من عينيه شآبيب[1] الدموع، ومنهم من لم يكتب الحديث إلا وهو طاهر، ومنهم من امتنع أن يقرأ حديثه وهو مضطجع أو سادر[2]. وكان حالهم فى توقيره والاستجابة إليه، كما لو كانوا وهو حى وهم بين يديه؛ لأنهم عرفوه حق قدره، فاستوت لديهم حياته ومماته.

(٤) محبة آله الأطهار، وعترته الأبرار، وذريته الأخيار، وسائر المهاجرين والأنصار، وإكرام أمهات المؤمنين أزواجه، وإجلال من سلف من أصحابه، ومن لازمه منهم فى ذهابه وإيابه، والاقتداء بأفعالهم الصالحة، والاقتباس من أنوار معارفهم الواضحة.

(٥) الاستغفار لأصحابه صلى الله عليه وسلم فى كل الأحوال، والإمساك عما شجر بينهم من الأقوال والأفعال. وإظهار سيرتهم الحميدة، وتبيان فضائلهم الوفيرة، والاهتداء بهديهم، ونبذ من عاداهم من ضُلَّال المبتدعة

---

(١) شآبيب الدموع: الدموع المتدافقة.
(٢) السادر: المتحير والذى غير منتبه.

تأمل قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، وقوله جل شأنه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾. وقوله وهو أصدق القائلين: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾. وقول المصطفى عليه الصلاة والسلام - وهو مما يتشنف به السمع وتتشرف به الصحيفة -: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مدّ احدهم ولا نصيفه».

من أجل ذلك كان مَنْ أحسَنَ الثناء عليهم بريئاً من النفاق، ومن أحبهم نال في ميدان الإيمان جائزة السباق، ومن حفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم حفظه الله في الدنيا والآخرة؛ لأن الله فضّلهم بصحبة سيد المحسنين، واختارهم على العالمين - سوى الأنبياء والمرسلين.

(٦) الإكثار من ذكره صلى الله عليه وسلم، لأن علامة المحبين كثرة الذكر للمحبوب على طريق الدوام: لا ينقطعون، ولا يملون، ولا يفترُون.

(٧) إظهار الخشوع والخضوع عند ذكره: كما كان كثير من الصحابة رضى الله عنهم إذا ذكروه خشعوا، واقشعرت جلودهم، وكما فعل كثير من التابعين ومَن بعدهم.

تأمل ماروى من أن جعفر بن محمد رضى الله عنه، كان كثير المزاح والدعابة فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم أخذته بهتةٌ واصفرّ لونه، وأن عبدالرحمن ابن القاسم، ابن محمد بن أبي بكر الصدّيق رضى الله عنه، كان إذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم، جفّ لسانه فى فمه هيبة للرسول. وتغير لونه كأنه نُزف منه الدم، وأن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما، كان إذا ذكر عنده النبي

صلى الله عليه وسلم بكى حتى لا يبقى فى عينه دموع .

وغير هؤلاء كثير ممن كانوا إذا ذكر عندهم المصطفى صلى الله عليه وسلم خضعوا ، وخشعوا ، وسكنت حركتهم ، وتمشت فى قلوبهم الهيبة والإجلال كما لو كانوا بين يديه .

(٨) حُبُّ القرآن الكريم الذى أتى به وتخلق به ، فإذا أردت أن تعرف ما عندك وعند غيرك ، من محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فانظر محبة القرآن من قلبك ، إذ من المعلوم أن من أحب محبوباً ، كان ما يجىء به من الحديث أحب شىء إليه ، وأعزه عليه .

انظر قول عثمان بن عفان رضى الله عنه : « لو طَهُرت قلوبنا ما شبعت من كلام الله (تعالى) . وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه ، وهو غاية مطلوبه ؟»

وتأمل قول النبى صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن مسعود رضى الله عنه : (اقرأ علىّ . قال : أقرأ عليك وعليك أنزل ! قال : فإنى أحب أن أسمعه من غيرى . فاستفتح وقرأ سورة النساء ، حتى بلغ : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ، قال : حسبك . فرفع رأسه ، فإذا عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تذرفان الدمع) .

وتأمل قول الله تعالى فى حق القسيسين والرهبان : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾

وسر ذلك أن السماع تارة يثير حزناً ، والحزن حار ، وتارة يثير شوقاً ، والشوق حار ، وتارة يثير ندماً والندم حار ؛ فإذا أثار السماع هذه الصفات من صاحب قلب مملوء ببرد اليقين ، خشع قلبه ، فبكى ، ودمعت عيناه .

الباب الحادى عشر

محمد ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾

أوفى مظهر للقرآن الكريم

قال سعد بن هشام : دخلت على عائشة (رضى الله عنها وعن أبيها) فسألتها عن أخلاق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالت : أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قالت : كان خلق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) القرآن .

ولا غرو فقد أدبه القرآن بمثل قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ وقوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ وقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ وقوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وقوله: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وقوله : ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ وقوله : ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وقوله: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾

ومن ذلك أنه لما كسرت رباعيته ، وشج يوم أحد ، فجعل الدم يسيل عن وجهه

يمسح الدم ويقول : « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم ، وهو يدعوهم إلى ربهم ؟» أنزل الله تعالى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ تأديبا له (صلى الله عليه وسلم) . وأمثال هذه التأديبات فى القرآن كثيرة ، لأنه (عليه الصلاة والسلام) المقصود الأول بالتأديب والتهذيب ، ثم منه يشرق النور على كافة الخلق ، فهو أُدب بالقرآن ، وأَدب الخلق به . ولذلك قال (صلى الله عليه وسلم) : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . وقال : «إن الله يحب مكارم الأخلاق، ويبغض سفسافها » وفى ذلك قال على (رضى الله عنه) : «ياعجبا لرجل مسلم ، يجيئه أخوه المسلم فى حاجة ، فلا يرى نفسه للخير أهلا ، فلو كان لا يرجو ثوابا ولا يخشى عقابا ، لقد كان ينبغى له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق ، فإنها مما تدل على سبيل النجاة » فقال له رجل : أسمعته من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؟ فقال : نعم ، وما هو خير منه . ذلك أنه لما أُتى بسبايا طيء وقعت جارية فى السبى، فقالت : «يا محمد ، إن رأيت أن تخلى عنى ، ولا تشمت بى أحياء العرب ، فإنى بنت سيد قومى ، وإن أبى كان يحمى الذمار ، ويفك العانى ، ويشبع الجائع ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط : أنا ابنة حاتم الطائى » ! فقال (صلى الله عليه وسلم) : « ياجارية ، هذه صفة المؤمنين حقا ، لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه ، خَلُّوا عنها ، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق . وإن الله يحب مكارم الأخلاق » فقام أبو بردة بن نيار ، فقال يارسول الله : « آلله يحب مكارم الأخلاق ؟ » فقال : « والذى نفسى بيده ، لا يدخل الجنة إلا حسن الأخلاق » . وعن معاذ بن جبل عن النبى (صلى الله عليه وسلم) قال : « إن الله حف الإسلام بمكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال » . ومن أظهرها ماتخلق به المصطفى (صلى الله

عليه وسلم) من حسن المعاشرة ، وكرم الصنيعة : ولين الجانب ، وبذل المعروف ، وإطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، وعيادة المريض ، وحسن الجوار ، وإجابة الطعام ، والدعاء عليه ، والإصلاح بين الناس ، والجود ، والكرم ، والسماحة ، والابتداء بالسلام ، وكظم الغيظ ، والعفو عن الناس ، واجتناب ماحرم الإسلام : من اللهو ، والباطل ، والغيبة ، والكذب ، والبخل ، والشح ، والجفاء ، والمكر ، والخديعة ، والنميمة ، وسوء ذات البين ، وقطيعة الأرحام ، وسوء الخُلُق ، والتكبر ، والفخر ، والاختيال ، والاستطالة ، والبذخ ، والفحش ، والتفحش ، والحقد ، والحسد ، والطيرة ، والبغي ، والعدوان ، والظلم . وفي ذلك يقول أنس (رضى الله عنه) : « لم يَدَعِ النبي الكريم نصيحة جميلة إلا وقد دعانا إليها ، وأمرنا بها ، ولم يدع غشا ، أو قال : عيباً ، أو قال : شيئاً ، إلا حذرناه ونهانا عنه » . وكل ذلك مظهر قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ﴾ الآية تأمل قول معاذ : أوصانى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : « يامعاذ ! أوصيك باتقاء الله ، وصدق الحديث ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، وحفظ الجار ، ورحمة اليتيم ، ولين الكلام ، وبذل السلام ، وحسن العمل ، وقصر الأمل ، ولزوم الإيمان ، والتفقه في القرآن ، وحب الآخرة ، والجزع من الحساب ، وخفض الجناح . وأنهاك أن تسب حكيما ، أو تكذب صادقاً ، أو تطيع آثماً ، أو تعصى إماماً عادلا ، أو تفسد أرضا . وأوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر وصدر ، وأن تحدث لكل ذنب توبة : السر بالسر ، والعلانية بالعلانية . » وهكذا أثمر تأديب القرآن لمحمد (صلى الله عليه وسلم) أخلاقا وأفعالا لم تجتمع لبشرى قط قبله ، ولا تجتمع

البشرى بعده : إذ أننا كما أسلفنا فى الباب الأول ، لم نسمع لأحد قط صبرا كصبره ، ولا حلما كحلمه ، ولا وفاء كوفائه ، ولا زهداً كزهده ، ولا جوداً كجوده ، ولا نجدة كنجدته ، ولا صدق لهجة ، كلهجته ، ولا تواضعاً ، ولا علماً ، ولا ثباتاً ، ولا عفواً ، كتواضعه ، وعلمه ، وثباته ، وعفوه .

وكذلك تجلى أدب القرآن فى كلامه :

تأمل ما نحن موردوه من الآيات والأحاديث ، يتبين لك أن أقوال الرسول (صلى الله عليه وسلم) أصدق ترجمان لهذه الآيات ، وخير دستور كفيل بإصلاح الأفراد والأمم . وهى على أربعة أضرب :

الضرب الأول ـ فضائل ذاتية :

الأولى : وجوب التماس رضا الله ، وإن سخط الناس .

تأمل قوله (تعالى) :

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ١٣ التوبة ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ : ٤٤ المائدة .

﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ : ٣٧ الأحزاب

ثم تدبر قوله (صلى الله عليه وسلم) :

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « من أرضى سلطاناً بما يسخط به ربه ، خرج من دين الله » رواه الحاكم .

وعن ابن عباس (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) « من أسخط الله فى رضا الناس ، سخط الله عليه ، وأسخط

عليه من أرضاه فى سخطه . ومن أرضى الله فى سخط الناس، رضى الله عنه ، وأرضى عنه من أسخطه فى رضاه ، حتى يزينه ويزين قوله وعمله فى عينه » رواه الطبرانى بإسناد جيد قوى .

الثانية : قول الحق ، واجتناب الزور

اقرأ قوله (تعالى) :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ : ٨ المائدة ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ، وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ ٣٠ ﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ ٣١ الحج .

﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ، وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ ٢٨٣ البقرة .

وتفهم قول النبى (صلى الله عليه وسلم) :

عن أبى بكر (رضى الله عنه) قال : « كنا عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر (ثلاثا) قلنا : بلى ، يارسول الله ! قال : «الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين » وكان متكئاً فجلس ، فقال : « ألا وقول الزور وشهادة الزور » فما زال يكررها حتى قلنا : « ليته سكت » رواه البخارى ومسلم .

الثالثة : الأمر بإقامة العدل وتوعد أهل الظلم

قال (تعالى) : ـ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ : (٩٠) النحل

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ : (١٥٢) الأنعام

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ . (١٥) الشورى

فانظر قول الرسول (عليه الصلاة والسلام)

عن أبي هريرة (رضى الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ماتنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه» رواه البخارى ومسلم

وعن ابن عمر (رضى الله عنه) قال : كنا عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : «كيف أنتم إذا وقعت فيكم خمس ، وأعوذ بالله أن تكون فيكم أو تدركوهن ، ماظهرت الفاحشة فى قوم يُعمل بها فيهم علانية ، إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم . ومامنع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا . ومابخس قوم المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان . ولاحكم أمراؤهم بغير ماأنزل الله إلا سلط عليهم عدوهم ، فاستنفدوا بعض مافى أيديهم . وماعطلوا كتاب الله وسنة نبيه إلا جعل الله بأسهم بينهم» رواه البيهقى والحاكم بنحوه من حديث

(بريدة) وقال : صحيح على شرط مسلم

الرابعة : الثناء على الصدق ، وذم الكذب

قال (تعالى) : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ : (٧١) الأحزاب ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ. وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ : (٢٣) الأحزاب

وجاء فى الحديث الشريف :

عن ابن مسعود (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، والبر يهدى إلى الجنة ، ومايزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » رواه البخارى ومسلم

وعن عبد الله بن عمر (رضى الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم قال : (أربع إذا كن فيك ، فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة فى طعمة » رواه أحمد والطبرانى بأسانيد حسنة .

الخامسة : الإشادة بذكر أنصار الدين

قال (تعالى) : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ : ٢٨ الكهف .

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ : (٦٤) يونس.

﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ : (٣٤) الأنفال.

وجاء فى الحديث :فى رواية للبخارى قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : «إن الله (تعالى) قال : «من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب الىَّ عبدى بشىء أحب الىَّ من أداء ماافترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب الىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به . وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » .

السادسة : الأمر بتناول الكسب الحلال

قال (تعالى) :﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ : (١٦٨) البقرة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ : (١٧٢) البقرة .

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (٣٢) الأعراف

وورد فى الحديث الشريف عن عبد الله بن مسعود (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « إن الله قسم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين

إلا من يحب ، فمن أعطاه الله الدينَ فقد أحبه . والذى نفسى بيده لا يُسلِم أولا يَسلمُ عبد، حتى يُسلِم أو يَسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمنُ حتى يَأْمنَ جاره بوائقه - قالوا : ومابوائقه ؟ - قال : غشه وظلمه ، ولا يكسب عبد مالا حراما فيتصدق به فيقبل منه ، ولا ينفق فيبارك له فيه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده الى النار ، إن الله (تعالى) لا يمحو السيئ بالسيئ ، ولكن يمحو السيئ بالحسن . إن الخبيث لا يمحو الخبيث» رواه أحمد من طريق حسن .

السابعة : الحث على شكر النعم .

قال (تعالى) : ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (٧) إبراهيم .

﴿فَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ : (٤٠) النحل .

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ : (١٥٢) البقرة.

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ : (٦٠) الرحمن

وجاء فى الحديث : عن عبد الله بن عمر (رضى الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : «من استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن سألكم بالله فأعطوه، ومن استجار بالله فأجيروه ، ومن أتى إليكم معروفا فكافئوه ، فإن لم تجدوا فادعوا له ، حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه » . أخرجه أبو داود والنسائى وابن حبان فى صحيحه . وروى أحمد بسند رواته ثقات : «إن أَشْكَرَ الناس لله (تبارك وتعالى) أشكرهم للناس » وفى رواية « لا يشكر الله من لا يشكر الناس »

الثامنة : امتداح سلامة الصدر

الآيات : ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ : ٨٨ : الشعراء

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ٩ - ١٠ الحشر

وورد فى الحديث : عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أنهقال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » : رواه مسلم .

التاسعة : إعلاء مقام الصبر عند المصيبة ، والرضاء بالقضاء والقدر

جاء فى الذكر الحكيم : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ ١٥٥ - ١٥٧ البقرة .

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (١٧٧) البقرة .

﴿ وبشر المخبتين (٣٤) الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم ﴾ (٣٥) الحج

﴿ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما ﴾ (٧٥) الفرقان

وجاء فى الحديث : روى الطبرانى : « إن الله ليجرب أحدكم بالبلاء ، كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار ، فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز ، فذلك الذى حماه الله من الشبهات ، ومنهم من يخرج كالذهب الأسود ، فذلك الذى افتتن »(١)

الضرب الثانى — فضائل اجتماعية :

الأولى : الأمر ببر الولدين ، والنهى عن عقوقهما

تأمل قوله تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما (٢٣) واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا (٢٤) ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا ﴾ (٢٥) الإسراء

وانظر قوله (صلى الله عليه وسلم) عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : «لا يجزى ولد والده ، إلا أن يجده مملوكا فيشتريه ليعتقه» رواه مسلم وأبو داود

وفى رواية لمسلم قال : أقبل رجل إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

---

(١) أصله من الفتن ، وهو إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته .

فقال «أبايعك على الهجرة والجهاد، أبتغى الأجر من الله . قال: فهل من والديك أحد حى ؟ . قال : نعم قال : «فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما»

وعن ثوبان (رضى الله عنه) عن النبى (صلى الله عليه وسلم) قال: ثلاث لا ينفع معهن عمل: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف» رواه الطبرانى فى الكبير

الثانية : إيجاب صلة الرحم وتحريم قطيعته

ففى الذكر الحكيم : ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ . (٢٦) الإسراء

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (٢١) النساء

وفى الحديث الشريف : عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» رواه البخارى ومسلم .

وعن أنس (رضى الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : «من أحب أن يُبسط له فى رزقه ، ويُنسأ له فى أثره ، فليصل رحمه» رواه مسلم والبخارى.

الثالثة : إيجاب طاعة أولى الأمر

فقد جاء فى الكتاب الكريم : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾

وورد فى الحديث : عن ابن عمر (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : «على المرء المسلم السمعُ والطاعة فيما أحب وكره ،

إلا أن يُؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة. أخرجه الخمسة.

وعن عمر (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «ألا أخبركم بخيار أمرائكم وشرارهم؟ خيارهم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتدعون لهم ويدعون لكم، وشرار أمرائكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم» أخرجه الترمذى

الرابعة: إيجاب إكرام الجار، والنهى عن إيذائه.

فى الذكر الحكيم: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا.﴾: ٣٦ النساء

وفى الحديث الشريف: عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت». رواه البخارى ومسلم

وعن أبى شريح الكلبي (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قيل: يا رسول الله لقد خاب وخسر، من هذا؟ قال: «من لا يُؤمَنُ جارُه بوائقَه» قالوا: وما بوائقه؟ قال: «شره». رواه البخارى.

وعن أنس بن مالك (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المؤمن من أمنه الناس، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده،

والمهاجر من هجر السوء، والذى نفسى بيده، لايدخل الجنة عبد لا يؤمن جاره بوائقه». رواه أحمد وأبو يَعْلَى والبزار.

وعن ابن عمر (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «مازال جبريل (عليه السلام) يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه». رواه البخارى ومسلم.

الخامسة: الأمر بالاتحاد والنهى عن التفرق

فى القرآن الكريم: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٠٣) آل عمران.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٤٦) الأنفال

وفى الحديث الشريف: عن أبى هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا[1]، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا». رواه مسلم.

السادسة: الحث على الإصلاح بين الناس

جاء فى القرآن الكريم: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا

(١) التحسس بالحاء: الاستماع لحديث الناس: والتجسس بالجيم البحث عن عيوبهم

بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

(١٠) الحجرات

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ، أَوْ مَعْرُوفٍ، أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

(١١٤) النساء

وجاء فى الحديث الشريف : عن أبى الدرداء (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا : بلى . قال : إصلاح ذات البين ؛ فإن فساد ذات البين من الحالقة» . رواه أبو داود والترمذى ، وقال : حديث صحيح . قال : وروى عن النبى (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : «هى الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين» .

السابعة : الأمر بالدفاع عن بيضة الدين

جاء فى القرآن الكريم : ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ

والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا (٧٥) الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾ (٧٦) النساء

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لاتظلمون (٦٠) وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾ (٦١) الأنفال

وجاء فى الحديث : عن أنس بن مالك (رضى الله عنه) عن النبى (صلى الله عليه وسلم) قال : «لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها» . رواه البخارى .

وعن أبى هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : «والذى نفسى بيده لايكلم أحد فى سبيل الله (والله أعلم بمن يكلم فى سبيله) إلا جاء يوم القيامة واللون لون دم ، والريح ريح مسك» . رواه البخارى ومسلم

وعن أبى موسى (رضى الله عنه) قال جاء رجل الى النبى (صلى الله عليه وسلم) فقال : «الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟» قال : «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، فهو فى سبيل الله» . رواه البخارى

الثامنة : الإنذار بالويل لمن ضعف فى الدفاع عن الحق

فى الذكر الحكيم : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١٦) : الأنفال

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٤٦) : الأنفال

وفى الحديث الشريف : عن أبى هريرة (رضى الله عنه) عن النبى (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا : يارسول الله ، وماهن؟ قال : «الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف» أخرجه الشيخان

وروى أحمد بسند مختلف فيه : «من لقى الله عز وجل لايشرك به شيئا ، وأدى زكاة ماله طيبة بها نفسه محتسبا ، وسمع ، وأطاع ، فله الجنة . (أودخل الجنة) . وخمس ليس لهن كفارة : الشرك بالله ، وقتل النفس بغير حق ، وبهت مؤمن ، والفرار من الزحف ، ويمين [1] صابرة يقتطع بها مالا بغير حق»

التاسعة : الدعوة إلى إنفاق الأموال فى إعلاء كلمة الحق

جاء فى القرآن الحكيم : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ

(١) يمين الصبر التى تلزم ويجبر عليها حالفها

حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ . (٢٦١) البقرة ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾ (٢٤٥) البقرة.

وورد فى الحديث : عن ابن مسعود (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟ قالوا : يارسول الله ، مامنا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه . قال : فإن ماله ماقدم ، ومال وارثه ماأخر» رواه مسلم والبخارى

وعن ابن مسعود (رضى الله عنه) عن النبى (صلى الله عليه وسلم) قال : «لاحسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها» . وفى رواية : «لاحسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار» رواه البخارى ومسلم

العاشرة : رفع مكانة التحاب فى الله ، والتباغض فى الله

ففى القرآن الكريم : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ (٧١) التوبة

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ : (٢٩) الفتح

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ : (١٣) الممتحنة

وجاء فى الحديث الشريف : عن أنس (رضى الله عنه) عن النبى (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) قال « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » رواه البخارى .

وفى رواية : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان وطعمه : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب فى الله ويبغض فى الله ، وأن توقد نار عظيمة فيقع فيها أحب إليه من أن يشرك بالله شيئاً » رواه البخارى ومسلم .

وعن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « إن الله (تعالى) يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى ؟ [1] اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى » رواه مسلم

وعن أبى أمامة (رضى الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله . ومنع لله — فقد استكمل الإيمان » رواه أبو داود

الحادية عشرة : الإفاضة فى الحث على الزكاة

ففى كتاب الله الكريم : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ (١٠٣) التوبة

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ (٤) المؤمنون

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧)﴾

---

(١) بجلالى : من أجلى

وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١) الليل

وجاء فى الحديث الشريف : عن أنس بن مالك قال : (أتى رجل من تميم رسول‌الله صلى‌الله عليه وسلم ، فقال : يارسول‌الله ، إنى ذو مال كثير ، وذو أهل ومال وحاضرة (١) ، فأخبرنى كيف أصنع ؟ وكيف أنفق ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تخرج الزكاة من مالك ، فإنها طهرة تطهرك ، وتصل أقرباءك ، وتعرف حق المسكين والجار والسائل .. . الحديث) رواه أحمد ورجاله رجال‌الصحيح

وعن أبى أيوب (رضى الله عنه) قال للنبى صلى الله عليه وسلم : أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ، قال : « تعبد الله ، ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصل الرحم» رواه البخارى ومسلم

الثانية عشرة : تبيين حق المسلم على المسلم

جاء فى القرآن الكريم : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ . إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٧١) التوبة

﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا . إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ (٨٦) النساء

---

(١) مدن

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ : (٦٠) الرحمن

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾: (٣٤) فصلت

وورد فى السنة : عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : « حق المسلم على المسلم خمس : رد السلام ، وعيادة المريض ، واتباع الجنازة ، وإجابة الدعوة ، وتشميت العاطس » رواه البخارى ومسلم

وروى مسلم : « حق المسلم على المسلم ست . قيل : وما هن يارسول الله ؟ قال : إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه » رواه الترمذى والنسائى

الثالثة عشرة : الأمر بأداء الأمانات ، والوفاء بالعهود

فنى آى الذكر الحكيم : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٩١) النحل

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ : (٣٤) الإسراء

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (١) المائدة

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ (٤٠) البقرة

وفى الحديث الشريف : عن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضى الله عنه) أن النبى (صلى الله عليه وسلم) قال : « أربع من كن فيه كان منافقاً .

خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » رواه البخارى ومسلم

وعن ابن عمر (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا صلاة لمن لا طهر له » : رواه الطبرانى

الرابعة عشرة : امتداح الإيثار

شاهد ذلك من الآيات قوله (تعالى) : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٩) الحشر

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾(٨) الإنسان

ومن الأحاديث : قوله (صلى الله عليه وسلم) عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال : «جاء رجل إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : إنى مجهود ، فأرسل الى بعض نسائه فقالت : لا والذى بعثك بالحق ماعندى إلا ماء . ثم أرسل الى أخرى فقالت مثل ذلك ، حتى قلن كلهن مثل ذلك : لا ، والذى بعثك بالحق ماعندى إلا ماء . فقال : من يضيف هذا الليلة رحمه الله . فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يارسول الله ، فانطلق به الى رحله ، فقال لامرأته : هل عندك شيء ؟ قالت : لا ، إلا قوت صبيانى . قال فعلّليهم بشيء ، فإذا أرادوا العشاء فنوميهم ، فإذا دخل ضيفنا فأطفئ السراج وأريه أنا نأكل » . (وفى رواية إذا هوى ليأكل فقومى إلى السراج حتى تطفئيه) قال : فقعدوا وأكل الضيف وباتا طاويين . فلما أصبح غدا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما » زاد فى رواية :(فنزلت هذه

الآية : «وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ» : رواه مسلم

الخامسة عشرة : الصدق فى المعاملة

دليل ذلك من الآيات الكريمة : ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣)﴾ الشعراء

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ : (٣٥) الإسراء

ودليل ذلك من الأحاديث الشريفة : عن ابن عمر (رضى الله عنه) قال : «أقبل علينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : يا معشر المهاجرين ، خمس خصال كيف أنتم إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا . ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما فى أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا [1] فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم» رواه ابن ماجه واللفظ له والبزار

وروى عن أنس (رضى الله عنه) أنه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «التاجر الصدوق تحت ظل العرش يوم القيامة» رواه الأصبهانى وغيره

(١) التخير : العمل بأقوى الأدلة وأخيرها

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : « الحلف منفقة للسلعة ، ممحقة للكسب » رواه مسلم والبخارى وأبوداود إلا أنه قال : « ممحقة للبركة »

وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربعة يبغضهم الله : البياع الحلاف ، والفقير المختال ، والشيخ الزانى ، والإمام الجائر » رواه النسائى وابن حبان فى صحيحه .

السادسة عشرة : الحث على إنظار المعسر ، وتفريج المكروب

ففى كتاب الله : ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)﴾ : البقرة .

وفى الحديث الشريف : روى مسلم وأبوداود والترمذى واللفظ له وحسنه والحاكم وصححه على شرطهما : « من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر فى الدنيا يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر على مسلم فى الدنيا ستر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه »

وروى مسلم وغيره : « من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه »

الضرب الثالث — زواجر ذاتية :

الأول : تقبيح الخيانة

شاهد ذلك من الآيات الكريمة : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (٣٠) : النساء

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٨) : الأنفال

ومن الأحاديث ماروى الدارقطني أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : « يد الله مع الشريكين مالم يخن أحدهما صاحبه ، فإذا خان أحدهما صاحبه رفعها عنهما »

وعن النعمان بن بشير (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : «من خان شريكا فيما ائتمنه عليه ، واسترعاه له ، فأنا برىء منه» رواه أبو يعلى والبيهقي

وفى الحديث المتفق عليه : «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا اؤتمن خان . وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر»

الثانى : النهى عن أكل الربا وإطعامه وكتابته

جاء فى الذكر الحكيم : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ، وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ، فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى ، فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِى الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٧) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (٢٧٨) : البقرة

وجاء فى الأحاديث الشريفة : عن سمرة بن جندب (رضى الله عنه) قال : قال النبى (صلى الله عليه وسلم) : «رأيت الليلة رجلين أتيانى فأخرجانى إلى أرض مقدسة . فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم ، وعلى شط النهر رجل بين يديه حجارة ، فأقبل الرجل الذى فى النهر ، فاذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر فى فيه فردّه حيث كان ، فجعل كلما جاء ليخرج رمى فى فيه بحجر فيرجع كما كان ، فقلت : ماهذا الذى رأيته فى النهر ؟ فقال : آكل الربا» رواه البخارى .

وعن جابر بن عبد الله (رضى الله عنه) قال: لعن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) آكل الربا، وموكله ، وكاتبه ، وشاهديه ، وقال : هم سواء» رواه مسلم وغيره

وعن عبد الله بن مسعود (رضى الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : «ما أحد أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قلة» رواه ابن ماجه والحاكم وقال: صحيح الإسناد

الثالث: تحريم الخمر والمقامرة

فى الذكر الحكيم : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (٩١) : المائدة

وفى الأحاديث الشريفة : روى أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لعن الله الخمر وشاربها ، وساقيها ومبتاعها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه» رواه ابن ماجه وزاد ، وآكل ثمنها

وروى الطبرانى : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يجلس على مائدة يشرب عليها الخمر»

وعن جابر (رضى الله عنه) أن رجلا قدم من جيشان (وجيشان من اليمن) فسأله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن شراب يشربونه بأرضهم من الذرة يقال له «المذر» فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : أومسكر هو ؟ قال : نعم . قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : كل مسكر حرام ، وإن عند الله عهداً لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال . قالوا : يارسول الله ، وماطينة الخبال؟ قال : عرق أهل النار ، أو عصارة أهل النار» رواه مسلم والنسائى

الرابع : تقبيح المماطلة .

ورد فى الحديث قوله (صلى الله عليه وسلم) :

عن عمرو بن الشريد (رضى الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال لى : « الواجد يحل عرضه وماله » رواه ابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد . وعن على (رضى الله عنه) قال : « سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : لا يحب الله الغنى الظلوم ، ولا الشيخ الجهول ، ولا الفقير المختال » .

وروى عن خولة بنت قيس امرأة حمزة بن عبد المطلب (رضى الله عنها) قالت : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) « ماقدس الله أمة لا يأخذ ضعيفها الحق من قويها غير متعتع ، ثم قال : من انصرف غريمه وهو عنه راض ، صلت عليه دواب الأرض ، ونون الماء ، ومن انصرف غريمه وهو ساخط كتب عليه فى كل يوم وليلة وجمعة وشهر ظلم » رواه الطبرانى فى الكبير .

الخامس : استهجان المن بالصدقة .

ورد فى القرآن الكريم : ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ، لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٦٢) البقرة .

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٦٤) البقرة .

وجاء فى الحديث الشريف : روى أحمد ومسلم وغيرهما : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : المسبل إزاره ، والمنان الذى لا يعطى شيئاً إلا منّه ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب »

السادس : النهى عن تتبع سيئات الناس وعيوبهم .

دليل ذلك من القرآن الكريم : ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ (١٢) الحجرات .

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ : (٣٦) الاسراء .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِى الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ . (١٩) النور .

ومن الأحاديث (قوله صلى الله عليه وسلم) : عن ابن عمر (رضى الله عنه) قال : « صعد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المنبر ونادى بصوت رفيع : يا معشر من آمن بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه ، لا تؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإن من تتبع عورة أخيه المسلم يتتبع الله عورته ، ومن يتتبع عورته يوشك أن يفضحه ، ولو فى جوف رحله » رواه الترمذى .

وعن معاوية (رضى الله عنه) قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : يقول : « إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم » رواه أبو داود وابن حبان فى صحيحه .

وعن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « من اطلع فى بيت قوم بغير إذنهم ، فقد حل لهم أن يفقئوا عينه :

أخرجه الشيخان .

السابع : ذم النفاق والتلون .

قال الله (تعالى) : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١٤٦) النساء.

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (١٥) البقرة .

وفى الحديث : عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « تجدون الناس معادن : خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا ، وتجدون خيار الناس فى هذا الشأن أشدهم له كراهية ، وتجدون شر الناس ذا الوجهين ، الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » أخرجه الشيخان .

وعن محمد بن زيد : « أن ناساً قالوا لجده عبدالله بن عمر (رضى الله عنه) : إنا لندخل على سلطاننا فنقول بخلاف ماتتكلم إذا خرجنا من عنده ، فقال : كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) » رواه البخارى.

الثامن : تقبيح الكبر والعجب والخيلاء .

قال (تعالى) فى كتابه الكريم ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ﴾ الإسراء

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحاً، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)﴾ : لقمان

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِىَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾(١٤٦)الأعراف

وفى الحديث الشريف : عن عبد الله بن مسعود (رضى الله عنه) عن النبى (صلى الله عليه وسلم) قال : «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر . فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا . قال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر [1] بطر الحق وغمط الناس » رواه مسلم والترمذى

الضرب الرابع ـ زواجر اجتماعية

الأول : النهى عن موالاة أهل الظلم .

جاء فى الذكر الحكيم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣)﴾ الممتحنة .

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (١١٣)﴾ هود

(١) بطر الحق : التكبر عنه وعدم قبوله

وجاء فى الحديث الشريف عن أنس (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك ، إن لم يصبك منه شيء أصابك من ريحه ، ومثل الجليس السوء كمثل صاحب الكير ، إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه» رواه أبو داود

الثانى : عدم معاونة المبطلين

وردفى القرآن الكريم : ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧)﴾ النساء

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٢٨) الكهف

وجاء فى الحديث الشريف : عن عبد الرحمن بن عبيد الله بن مسعود عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : «مثل الذى يعين قومه على غير الحق ؛ كمثل بعير تردّى فى بئر فهو ينزع منها بذنبه» رواه أبو داود وابن حبان فى صحيحه

قال الحافظ المنذرى : ومعنى الحديث أنه قد وقع فى الإثم وهلك ، كالبعير إذا تردى فى بئر فصار ينزع بذنبه ، ولا يقدر على الخلاص .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال لكعب بن عجرة : «أعاذك الله من إمارة السفهاء ، قال : وما إمارة السفهاء ؟ قال : أمراء يكونون بعدى لا يهتدون بهديى ، ولا يستنون بسنتى ، فمن صدقهم

بكذبهم وأعانهم على ظلمهم، فأولئك ليسوا منى ولست منهم ولا يردن على حوضى، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فأولئك منى وأنا منهم وسيردون على حوضى. يا كعب بن عجرة: الصيام جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة والصلاة قربان «أو قال: برهان» يا كعب بن عجرة: الناس غاديان فمبتاع نفسه فمعتقها، وبائع نفسه فموبقها» رواه أحمد واللفظ له والبزار ورواتهما محتج بهم فى الصحيح.

الثالث: تحريم قتل النفس

قال (تعالى): ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾ (٣٣) الإسراء

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ (٣٢) المائدة

وجاء فى الحديث الشريف: عن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قتل معاهدا لم يُرَح رائحة الجنة وإنَّ ريحها يُوجد من مسيرة أربعين عاما» رواه البخارى - واللفظ له - والنسائى، إلا أنه قال: من قتل قتيلا من أهل الذمة.

وعن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «من أعان على قتل مؤمن ولو بشطر كلمة لقى الله وهو مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله (تعالى)» رواه ابن ماجه.

وعنه أيضاً قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « من تردّى من جبل فقتل نفسه ، فهو فى نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً أبداً ، ومن تحسى سماً فقتل نفسه ، فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، » رواه البخارى ومسلم .

الرابع: توعّد من أكل أموال اليتيم ووعد من كفله ، وأخذ بيد الأرملة قال (تعالى) : ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ (٢) النساء .

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ (١٠) النساء .

وجاء فى الحديث الشريف : عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « الساعى على الأرملة والمسكين ، كالمجاهد فى سبيل الله تعالى ، وأحسبه قال : وكالقائم لا يفتر ، وكالصائم لا يفطر » رواه البخارى ومسلم . وعن أبى هريرة (رضى الله عنه) : « أن رجلا شكا إلى النبى (صلى الله عليه وسلم) قسوة قلبه ، فقال : « امسح رأس اليتيم ، وأطعم المسكين » رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

وعن ابن عباس (رضى الله عنه) أن النبى (صلى الله عليه وسلم) قال : « من قبض يتيما من بين مسلمين إلى طعامه وشرابه ، أدخله الله الجنة البتة ، إلا أن يعمل ذنباً لا يغفر » رواه الترمذى ، وقال : حسن صحيح .

وروى عن ابن عباس (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : «من عال ثلاثة من الأيتام كان كمن قام ليله ، وصام نهاره ، وغدا وراح شاهراً سيفه فى سبيل الله ، وكنت أنا وهو فى الجنة إخواناً ، كما أن هاتين أختان» وألصق إصبعيه السبابة والوسطى» رواه ابن ماجه . وفى حديث المعراج عن مسلم : «فإذا أنا برجال قدوكل بهم رجال يفكون لحاهم ، وآخرون يجيئون بالصخور من النار فيقذفونها فى أفواههم ، فتخرج من أدبارهم ، فقلت : ياجبريل ، من هؤلاء؟ قال : الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً» .

الخامس : النَّهْيُ عن الغصب

قال (تعالى) فى الذكر الحكيم : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ، وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٩١) النحل .

﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ (٨٧) المائدة

وعن يعلى بن مرة (رضى الله عنه) قال : سمعت النبى (صلى الله عليه وسلم) يقول : «أيما رجل ظلم شبرا من الأرض ، كلفه الله عز وجل أن يحفره حتى يبلغ سبع أرضين ، ثم يُطوقه يوم القيامة حتى يقضى بين الناس» رواه أحمد وابن حبّان فى صحيحه

السادس : النهى عن السرقة وقطع الطرق

قال (تعالى) : ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٣٨) المائدة

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا ، أَوْ يُصَلَّبُوا ، أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ ، أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ، ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٣٣) المائدة

وقال (صلى الله عليه وسلم) : «لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ، ويسرق الجمل فتقطع يده» رواه الشيخان والنسائى عن أبى هريرة

السابع : التنفير من الخصومة بالباطل

قال (تعالى) فى محكم كتابه : ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (٦) الأنفال

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (٢٠٦) البقرة

وقال (صلى الله عليه وسلم) : «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» رواه البخارى وأخرجه الترمذى وقال : غريب .

وعن ابن عباس (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : «كفى بك ألا تزال مخاصما»

الثامن . تقبيح الرشوة

قال (تعالى) : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ

لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٨٨) البقرة

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (٦٣) المائدة

وعن عبد الله بن عمر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: «الراشي والمرتشي في النار» رواه الطبراني ورواته ثقات معروفون

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: «لعن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الراشيَ والمرتَشيَ في الحكم» رواه الترمذي وحسَّنه، وابن حبَّان في صحيحه، والحاكم زاد: «والرَّائشَ (يعني الذي يسعى بينهما)

التاسع: تحريم الغش

قال (تعالى): ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (٥٨) الأحزاب

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «مر على صبرة طعام فأدخل فيها يده، فنالت أصابعُه بللا فقال: ماهذا، ياصاحب الطعام؟ قال: أصابته السماء يارسول الله. قال: أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس؟ من غشنا فليس منا!» رواه مسلم وابن ماجه.

وعن صفوان بن سليم أن أبا هريرة (رضي الله عنه) مر بناحية الحرة، فإذا إنسان يحمل لبنا يبيعه، فنظر اليه أبوهريرة فإذا هو قد خلطه بالماء، فقال له أبوهريرة: «كيف بك إذا قيل لك يوم القيامة خلِّص الماء من اللبن؟» رواه البيهقي والأصبهاني موقوفا لابأس به

وعن حذيفة بن اليمان (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، ومن لا يصبح ويمسى ناصحا لله، ولرسوله، ولكتابه، ولإمامه، ولعامة المسلمين، فليس منهم» رواه الطبرانى من رواية عبد الله بن أبى جعفر

العاشر: تحريم هجر المسلم بدون عذر شرعى

فى رواية لأبى داود، قال النبي (صلى الله عليه وسلم): «لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث، فإن مرت به ثلاث فليلقه فليسلم عليه، فإن رد عليه السلام فقد اشتركا فى الأجر، وإن لم يرد عليه فقد باء بالإثم وخرج المسلِّمُ من الهجرة»

وعن جابر (رضى الله عنه) قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: «إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب، ولكن فى التحريش بينهم» رواه مسلم

قال الحافظ المنذرى: قال أبو داود: «إذا كانت الهجرة لله، فليست من هذا بشىء فإن النبي (صلى الله عليه وسلم) هجر بعض نسائه أربعين يوما، وابن عمر هجر ابنا له إلى أن مات»

الحادى عشر: النهى عن السخرية بالخلق والتنابز بالألقاب والغيبة.

قال (تعالى): ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ، وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ، بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ. (١١) يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ

الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢) الحجرات

وجاء فى الحديث الشريف : عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : « إياكم والظن فإن الظن أكذبُ الحديث ، ولا تحسسوا ، ولا تجسسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم . المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره . التقوى ههنا (ويشير إلى صدره) بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله » . رواه البخارى ومسلم واللفظ له

وعن ابن مسعود (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر » رواه البخارى

وعن أبى الدرداء (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : إن العبد إذا لعن شيئا صعدت اللعنة إلى السماء ، فتغلق أبواب السماء دونها ، ثم تأخذ يمينا وشمالا ، فإن لم تجد مساغا رجعت إلى الذى لعن ، فإن كان أهلا ، وإلا رجعت إلى قائلها ، رواه أبو داود

الثانى عشر : النهى عن النميمة واللمز والاختلاق

قال (تعالى) : ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ (١١) القلم

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ

(٦) ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ (٨) فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ (٩) الهُمَزَة

وجاء فى الحديث الشريف: عن حذيفة (رضى الله عنه) قال: «سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: «لا يدخل الجنة قَتَّاتٌ»[1] رواه البخارى ومسلم. ورواه مسلم بلفظ نَمَّام

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «لا يبلغنى أحد من أصحابى عن أحد شيئاً فإنى أحب أن أخرج إليهم وأنا سليم الصدر» رواه أبو داود

(١) القتات: من يسعى بين الناس بالقطيعة والنميمة

الباب الثانى عشر

إدحاض مفتريات بعض المؤلفين

على المعصوم سيد المرسلين

لاشك أن بعض النقاد الأوربيين قد حادوا عن الصراط السوى ، وتنكبوا وَعْر السبل ، وانتهجوا طريقاً بعيداً عن الإنصاف حين تعرضوا للبحث فى سيرة سيد المرسلين ، فهم دائماً يتلمسون ماعساه أن يشين سمعته ، أو ينتقص كرامته ، ويحاولون أن يلصقوا به المعايب ، ويرموه بالمثالب ، ويلوح أن القاعدة عندهم قبول القدح والذم فيه من غير بحث أو تمحيص !

ومن أمثلة هذا المسلك فى النقد الجائر ماجاء فى كتاب « اتساع رقعة الإسلام » لمؤلفه مستر كاش الذى اختتمه بأربع صفحات جمع فيها شواهد عما أسماه « جرائم القتل » التى حرص عليها النبى ، فى زعمه ، ولقبه من أجلها بالمخادع القاسى القلب :

وقد اعتمد المؤلف فى قدحه هذا على كتاب « سير وليم » فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يبذل أقل جهد فى البحث والتمحيص . وكان أولى به وأجدر أن يتحرز ويشفق على نفسه وعلى قرائه قبل أن يَدين محمداً ، ويلصق به أشنع التهم ، وينسب إليه أفظع الجرائم ، على حين أن أربعمائة (مليون) من الناس يتخذونه بحق نموذجاً أعلى للفضيلة ، ومثالا أكمل للمروءة والكمال.

وحرى بنا قبل ذكر هذه المفتريات وتفنيدها ، أن نقدم بين يدى القارئ كلمة يتبين فيها كيف تحمل المسلمون الأذى فى سبيل الدعوة :

قام النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى دين الله ، وصبر على كفار قريش ومن على شاكلتهم صبر الكريم الحليم الذي يريد لأمته الهداية والصلاح ، والسعادة والنجاح ، والرقى والفلاح ، حتى لم يبق فى قوس الصبر منزع للصبر ، ولا للمداراة موضع ؛ فإنه بذل النصح فقوبل بالتعنيف ، وأرشد فاستهزئ به ، وأنذر فأوذى . وقال : اتقوا الله . فقالوا : مجنون . وقال : اعبدوا الله ، قالوا : أتجعل الآلهة إلها واحداً ؟ وأتى بالمعجزة فقالوا : ساحر . وقرأ عليهم القرآن فقالوا : شاعر. فصبر كما أمره الله تعالى بقوله : ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ ودعاهم إلى الدين القويم ونبذ الوثنية المرذولة ، فما كان منهم إلا القسوة والتألب عليه وعلى أصحابه وتبييت الشر لهم مدة إقامته بينهم ثلاث عشرة سنة ، حتى اضطروا الى الهجرة فراراً بدينهم ، وخوفاً على أنفسهم .

وأول ما يسترعى النظر فى هذه المفتريات أن خمساً منها خاصة باليهود ، وهم أهل كتاب آمن به المسلمون ، وجاء ذكره فى القرآن فى كثير من آياته لذلك كانوا أحق الناس بالتسمح ، وأجدرهم بالعطف . وإذا كان المسلمون لم يقترفوا هذه الجرائم ـ كما هو معروف فى السيرة ـ مع المشركين الذين عبدوا الأصنام من دون الله ، واضطهدوا النبي وأنصاره . وآذوهم أشد الإيذاء . وفرقوا جماعتهم . فهاجروا من أوطانهم. فكيف يتصور إقدام المسلمين على مثلها مع اليهود . وهم أهل كتاب ودين ؟ اللهم إن محمداً ما كان يطلب ملكا . أو يريد مالا . ولكنه النبي المصلح لا يبغى من وراء دعوته إلا إصلاح ما فسد من أمرهم ، وجمع ماتفرق من شملهم ، وهدايتهم إلى أقوم الطرق ، بعد أن فسدت عقائدهم ، وطمست معالم دينهم .

وقد قرر المؤلف — ومن حذا حذوه — أن جميع هؤلاء الذين وقعت هذه الجرائم عليهم قد قتلوا بغير حق ، سوى أنهم نظموا الأشعار فى هجو المسلمين ، ولعلهم نسوا أو تناسوا أن الشعر والهجو به لم يكن خاصاً باليهود ، بل هو من خصائص العرب جميعاً ، فقد كان ديوانهم ، وسلاحهم الذين يدفعون به عن أنفسهم ، وقد اتخذه كثير منهم أداة للتشهير والإزراء بالإسلام والمسلمين ، فنظم بعض الشعراء قصائد فى الهجاء ، ولجأ المسلمون إلى النبي يستأذنونه فى الدفاع عن أنفسهم والذود عن حياضهم ، فلم يزد على أن أذن لحسان فى الرد عليهم بشعر مثله .

إن القرآن الكريم قد أمر المرسلين بالصبر على احتمال الأذى ، واليك آية نزلت فى وقت كان المسلمون خلاله فى حرب خصومهم : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ هذه آية من سورة انطوت على إشارة إلى موقعة أحد التى كانت فى العام الثالث للهجرة ، فلابد أن يكون نزولها بعد ذلك ، ومن العجب أن يدعى المفترون فى ذلك الوقت وقوع مانسبوه إلى النبي صلى الله عليه وسلم زورا وبهتانا .

وبديهى أن النبي صلى الله عليه وسلم هو أول من يأتمر بأمر ربه ، ويلتزم نص كتابه المنزل عليه ، وهو القدوة لقومه ، والمثل الأعلى لتابعيه وأنصاره ، ولما كان القرآن لم يكتف بأمر المسلمين بتحمل الأذى والصبر عليه ، بل نهاهم عن مقابلة الشر بمثله — كان مما لا يعقل أن يجرؤ مسلم على قتل شخص لم

يقترف إثما ، أو يرتكب جرما إلا أنه هجا المسلمين ، وإذا كان بعض المؤرخين قد زل ونسب الى النبي بعض تلك الجرائم من غير سند صحيح، أو حجة واضحة، فلن نقيم لكلامه وزنا ، لأن كتاب الله - وهو الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - يأمر بغير ذلك ، ولا يتصور من الزعيم الدينى الذى كان القرآن الكريم دعواه وحجته أن يستفتح دعوته بمناقضة نفسه ، ومخالفة مايدعو إليه

ولنتناول الآن تلك المسائل ، ونعالج تمحيصها، لكى نصل من وراء البحث إلى الصواب :

(١) ذكر الناقد قتل عصماء بنت مروان، معتمدا على ماجاء فى بعض السير ولخصه فيما يلى :

كانت هذه اليهودية من بنى خطمة ، وكثيرا ما كانت تعيب الإسلام وأهله ، وتسب النبي صلى الله عليه وسلم، لاسيما بعد قتل أبى غفك اليهودى ، ومن شعرها :

أطعتم أتاوِى من غيركم * فلامن مراد ولا مذحَجِ
ترجون بعد قتل الرءوس * كما يرتجى مرق المنضَجِ

فرد عليها سيدنا حسان بقوله :

بنو وائل وبنو واقف * وخطمة دون بنى الخزرج
متى مادعت سفها ويحها * بعولتها والمنايا تجى
فهلا فتى ماجدا عرقه * كريم المداخل والمخرج
فضرجها من جميع الدما * ء بعيْد الهدو فلم يحرج

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه ذلك : ألا رجلا يكفينا هذه ؟ فقال عمير بن عدى (وكان من قومها) : « أنا أكفيكها يارسول الله » . وهم،

بقتلها ، فذهب إليها ووضع سيفه على صدرها حتى أنفذه من ظهرها ، ثم جاء النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقتلت ابنة مروان ؟ قال نعم : فهل على فى ذلك من شيء ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: لا ينتطح فيها عنزان ، فإنها أُهدر دمها ، ثم أثنى عليه وسماه البصير وكان كفيفا، ثم رجع عمير إلى قومه ، فوجد بنيها فى جماعة يدفنونها ، فقالوا : أقتلت عصماء؟ قال : نعم : أنا قتلتها فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون ، فوالذى نفسى بيده لو قلتم بأجمعكم ماقالت لضربتكم بسيفى هذا حتى أموت أو أقتلكم ! فلما رأى المستضعفون من قومها ـ الذين أخفوا إسلامهم اتقاء شرها ـ أن الاسلام عز بعد قتلها أظهروا إسلامهم

ثم علق الناقد على هذه القصة بأن هذه المرأة قتلت شر قتلة ، وأن الذى اقترف هذه الجريمة مسلم ، وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يكتف بالقتل جزاء على الهجاء ، بل أثنى على القاتل ، وما كنا بحاجة إلى الرد على مثل هذه الفرية بعد أن قدمنا أن القرآن ينهى عن مقابلة الشر بمثله ، فأولى ألا يبيح القتل . وهو أشد العقوبات وآلمها ـ لمثل هذا الذنب الصغير ، ولكننا سنورد عليك مايقوض أركان هذه الأراجيف ، فهاك البخارى ـ وهو الثقة الذى لا يشك فى روايته أو تنقض حجته ـ قد عقد بابا أسماه « كتاب الجهاد ـ قتل النساء فى الحروب » جاء فيه عن ابن عمر مايأتى : « أن امرأة وجدت قتيلا فى إحدى الغزوات التى حضرها النبي صلى الله عليه وسلم ، فنهى النبي عن قتل النساء والأطفال ، فهل بعد ذلك يقال : إن النبي أمر بقتل امرأة لأنها هجت المسلمين؟ أينهى النبي عن قتل امرأة خاضت غمار الحرب ، وصوبت سهامها إلى صدره، وسلت سيفها فى وجهه . ثم هو يجيز ـ بل يستحسن ـ أن تقتل امرأة لم تكن

جريرتها سوى السب ، أو نظم قصائد فى الهجاء ؟ قد يقال : إن بعض أصحابه فعل ذلك ، ولكن هذا أيضا افتراء ؛ فإنهم جميعا كانوا عارفين بأوامره منفذين لأحكامه ، فقد حدث أنه عند ما اعترضت زوجة سلام بن أبى الحقيق بين المسلمين وزوجها أغمد الصحابة سيوفهم المشرعة ، وتركوه فلم ينالوه بأذى لأن النبى ينهاهم عن قتل النساء ، إذاً لاجدال فى أن هذه الرواية مختلقة قد قصد بها الحط من سمعته ، والنيل من كرامته . على أن هذا الذى سقناه لك قد أخذ به بعض الأئمة ، وحرموا لذلك قتل النساء حتى فى الحروب ، فعند مالك والأوزاعى لايجوز قتل النساء والأطفال مطلقا ، فلا يصح أن تقتل امرأة فى حال ما ، حتى لو احتمى المقاتلون بجماعة من النساء والأطفال أو لجئوا إلى حصن أو سفينة بهما نساء وأطفال ، فلا يرمى هذا الحصن أو تحرق هذه السفينة . فيتضح من ذلك أن هذا الذى قالوه محض افتراء على النبى صلى الله عليه وسلم لا تقوم الحجة به ، وتنقضه نصوص القرآن ، وصحيح السنة

(٢) أما الحادثة الثانية التى يرويها «كاش» فهى اغتيال أبى غفك (الأحمق اليهودى) وقصته كما نقلها عن بعض السير مايلى :

كان أبو غفك مسنا بلغ مائة وعشرين سنة ، ولكنه كان يحرض على إيذاء النبى صلى الله عليه وسلم ويهجوه بشعره ، فقال صلى الله عليه وسلم يوما : من لى بهذا الخبيث ؟ فقال سالم بن عمير (رضى الله عنه) : على نذر أن أقتله أو أموت دونه . وظل ينتظر غرة منه حتى استراح بفناء منزله ، فذهب إليه ووضع سيفه على كبده ، ثم اعتمد عليه حتى نفذ إلى ظهره ، فصاح عدو الله ، فحضره قوم ممن كانوا على موافقته فى الكفر والتحريض ، فقبروه

هذه القصة أيضا واهية الأساس ، متصدعة الأركان ، فقد ثبت أن النبى

صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل الشيوخ كما نهى عن قتل النساء والصبيان: فقد أخرج الستة إلا النسائى عن ابن عمر رضى الله عنهما: «أَنَّ امْرَأَةً وُجِدَتْ فِى بَعْضِ مَغَازِى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقْتُولَةً، فَنَهَى عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ».

وأخرج أبو داود عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «انْطَلِقُوا بِاسْمِ اللَّهِ وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ لَا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا وَلَا طِفْلًا وَلَا صَغِيرًا وَلَا تَغُلُّوا (١) وَضُمُّوا غَنَائِمَكُمْ، وَأَصْلِحُوا وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ».

وهذا كاف فى أنه محرم على المسلمين أن ينالوا الشيوخ بأذى، فهل بعد ذلك ينسب إلى النبى قتل شيخ لم يمد اليه يده بأذى، بل كل ما فعل أنه فاه ببعض أبيات من الشعر لن يتجاوز صداها مربط ناقته؟

على أنى أسوق اليك حادثة أخرى قد تكون أوضح فى الدلالة، وأوكد فى البيان:

أرسل أبو بكر رضى الله عنه أول خلفاء النبى صلى الله عليه وسلم أسامة ابن زيد على رأس جيش إلى الشام وقد أوصاه بوصية لم تستطع الدول المتمدينة الآن مع حرصها على تخفيف بلاء الحروب ودعواها العريضة فى خدمة الإنسانية والانسان ومراعاة حقوق العمران ـ لم تستطع مع ذلك ـ أن تقيد جيوشها بقاعدة من قواعدها. واليك الوصية:

«لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا وتحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا للأكل. وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم

(١) غل غلولا: خان، كأغل، أو خاص بالفىء

فى الصوامع فدعوهم ومافرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم فحصوا أوساط رءوسهم ، وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا

(٣) الفرية الثالثة قتل ابن سنينه . وقصته كما رواها الطاعن عن بعض السير أن ابن سنينه كان تاجرا من تجار اليهود يلابسهم ويبايعهم ويعينهم بالمال الكثير للاستمرار فى مناوأة المسلمين ، وقد سمع الأصحاب من حضرة النبي صلى الله عليه وسلم قوله : «من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه » وكان ممن سمع هذا محيصة بن مسعود ، فلقى ابن سنينة فقتله ، وكان لمحيصة أخ أسن منه تأخر عنه فى إسلامه يسمى حويصة ، فلامه على قتله ابن سنينة وقال له : أما والله لرب شحم فى بطنك من ماله! فقال محيصة : والله لقد أمرنى بقتله من لو أمرنى بقتلك لضربت عنقك . فقال حويصة : أوالله لو أمرك محمد بقتلى لقتلتنى ؟ قال : نعم . فقال حويصة : والله إن دينا بلغ بك هذا العجب ! ثم أسلم حويصة

وليس لنا رد على هذا الافتراء إلا أن نورد عليك ماجاء فى الهداية من أن الشخص لا يقتل إلا إذا كان مقاتلا محاربا ، فقد جاء فيها: «لا يجوز لهم قتل امرأة أو طفل أو رجل مسن أو رجل لم يشترك فى القتال أو رجل أعمى لأنه لا يجعل قتل النفس مشروعا فى شريعتنا سوى الاشتراك فى القتال» فهذه قاعدة فقهية بنيت على قول ذلك النبي الكريم . فقد روى أبو داود عن رباح : « كنا مع النبي فى غزوة فرأى الناس يجتمعون فأرسل رجلا يستفسر عن سبب اجتماعهم فعاد الرسول وقال : هناك امرأة قتيل . فقال النبي الكريم : ولكنها لم تقاتل ! فقول النبي إنها لم تقاتل دليل لا يتطرق اليه الشك على أنه لا يجوز أن يقتل سوى الذين اشتركوا فى القتال والحرب ، فإما أن يعترف مختلقو هذه الأكاذيب بأن ابن سنينة كان بين صفوف المحاربين ، فقتل

دفعا لشره ودرءا لضرره ، وإما أنه لم يكن من المحاربين وأنه لم يقتل بأمر النبي صلى الله عليه وسلم . هذا هو منطق الإسلام وروحه

(٤) حادثة كعب بن الأشرف اليهودى

أما هذه الحادثة الخاصة بكعب ، فقد تحدث بها ثقات الرواة ، ووردت فى صحيح الأحاديث ، لذلك نورد تفصيلها ، ونذكر لك أساسها ، لتتبين كيف يسيئون إلى النبي ويرسمون صورته فى الأذهان بألوان قاتمة :

أصل كعب بن الأشرف عربى من بنى نبهان (بطن من طيء) وكان أبوه أصاب دما فى الجاهلية ، ولما نزح أبوه إلى المدينة أصبح حليفا ليهود بنى النضير . ولما صار ذا ثروة وجاه تمكن من أن يتزوج عقيلة بنت أبى الحقيق ، وهو زعيم يهودى ، فكان كعب هذا ثمرة هذا الزوج وصارت صلته وثيقة بالعرب واليهود لنسبه ونشأته

هاجر النبى إلى المدينة ، وعقد مع اليهود المواثيق ، وكان على المسلمين واليهود بمقتضاها أن يعيشوا أسرة واحدة ، لا يعتدى بعضهم على بعض ، ولا يحالف أحدهما عدواً للآخر ، أو يعين محارباً له ، وأن يظل كل فريق محتفظاً بدينه ، متمسكا بما يريد من مبادئه ، وأن يتعاونا إذا هوجمت المدينة ، ويدفعا عنها العدو ، بما يملكان من قوة ومال ، واتفقا أيضاً على أن يكون النبي حكما فيما يعرض من خلاف ، أو ينشأ من نزاع .

ولما زحف أهل مكة على المدينة فى العام الثانى للهجرة اضطر المسلمون لملاقاتهم على إنفراد ومع أنهم كانوا أقل منهم عَدداً وعُددا فقد أوقعوا بهم هزيمة منكرة فى «بدر» فزاد ذلك حقد اليهود ، وضغينتهم على المسلمين . وجلى أن كتاب الله لا يأمر بالعقاب على غل خفى أو حقد دفين . ولذلك لم يحرك

أحد من المسلمين ساكناً . فلم يعتدوا على أحد من اليهود . ولكن كعباً على ارتباطه بعهد مع المسلمين أطلق لملكته الشعرية العنان ، وأثار على المسلمين حرباً شعواء ، ولم يقف عندهذا الحد بل سار نحو مكة ، وعاهد أعداء المسلمين جهرة ، وحرض قريشاً على مهاجمة المدينة ، وأقسم فى الكعبة ليحاربن المسلمين ولينفضن عهودهم ، وليكونن عضداً للمشركين إذا نشطوا من عقالهم ، وخرجوا لمحاربة النبي فى المدينة .

وليته اكتفى بنقض العهود ، والانتقاض على المواثيق ، والجهر بذلك فى مكة . وإعلان استعداده لمقاتلة المسلمين ، بل بيّت الشر للنبى ، ودبر مكيدة لإزهاق روحه والاعتداء على حياته .

هذه حقائق غفل عنها سير وليم فى كتابه « حياة محمد » . ثم تناول أدق تفصيلات قتل كعب ، ولقد نم بهذا على دخيلة نفسه إذ يقول : إن انتشار الإسلام فى بدء الدعوة كان مما لا يحسد عليه إذا ووزن بتقدم المسيحية فى بدء أمرها ، فالذين دانوا بالمسيحية إنما دانوا بها لما شاهدوا من تجلد من تحملوا الموت بسبب تلك العقيدة ، ولكن الذين دخلوا فى الإسلام إنما دفعهم إليه ما هالهم من جنوح المسلمين إلى الفتك بمن لا يدخل فى دينهم ، ففى الحالة الأولى كان التحول يودى بحياة المتحول ، ويوقعه فى الخطر ، وفى الثانية كان التدين بالإسلام الوسيلة الوحيدة للنجاة من الهلاك .

بهذا الأسلوب يخفى « سير وليم موير » الحقائق التى يتبين منها أن كعباً قد تحول من حليف إلى محارب . فإن الحرب كانت قائمة بين المسلمين وغيرهم دون شك فى ذلك . فإذا كان كعب قد عقد أواصر الصداقة بينه وبين الأعداء وعزم على مناوأة المسلمين ، ونقض عهودهم . والتحلل من مواثيقهم ، فقتل

لذلك فهل يعتبر ذلك قسوة أو خيانة ؟ وإذا كان بيت للنبي وعزم على اغتياله غدراً فجوزى على عمله بالقتل ، فهل يسمى ذلك بغياً واعتداء؟ ذلك ما كان من كعب ، وهاك طرفاً مما يثبته :

« لقد توجه إلى قريش وبكى قتلاهم فى « بدر » . وحرضهم على حرب المسلمين (الزرقانى جزء ٢ صفحة ١٠) فقال النبي : إن كعباً قد أظهر عداوتنا جهرة وتكلم عنا بالسوء . وقد ذهب إلى المشركين الذين كانوا فى حرب المسلمين وجمع جموعهم لقتالنا (الزرقانى جزء ٢ صفحة ١١) » . « ويقول الكلبي : إنه قد تعاهد مع قريش أمام أستار الكعبة على أن يحارب المسلمين (الزرقانى جزء ٢ صفحة ١١) » .

« ولقد أعد وليمة وتآمر وبعض اليهود على أن يدعوا النبي حتى إذا حضر فتكوا به (الزرقانى جزء ٢ صفحة ١٢) . »

ويذكر صاحب فتح البارى شرحاً على حديث البخارى الذى ورد فيه قتل كعب ذهاب كعب إلى مكة ، وتحريضه قريشا وتعاهده أمام أستار الكعبة معهم على حرب المسلمين . ثم يذكر قول النبي إن كعبا أظهر العداوة له ، ودبر قتله بدعوته إلى وليمة ، ويعتبره محارباً .

وأبو داود يسرد لنا هذا الحادث، ويبين أن كعباً أبدى العداوة للمسلمين وناصر أعداءهم ، وقد علق الشارح على ذلك بقوله : « ولا يجوز ذلك فى حالة عدو منح الأمان ، أو عقد معه الصلح . . . ولكن يجوز فى حالة من ينقض العهد ، ويناصر الآخرين على قتل المسلمين » .

ويحدثنا أبو سعد بأنه عند ماشكا اليهود إلى النبي قتل قائدهم ذكرهم بأعماله وكيف أنه حرض قريشا ، وحثهم على قتاله . ثم يضيف إلى ذلك : « أن النبي

قدد عاهم لعقد اتفاق معه وأن هذا الاتفاق كان بعد ذلك فى حوزة على »

فهل بعد هذا يدعى المشوهون للحقائق أن قتل كعب كان بغياً وعدواناً ؟

لا جرم أنه نقض العهد وناصر أعداء النبي عليه ، فعد محاربا ، أما غيره من اليهود الذين سالموا النبي ، وحفظوا ما عاهدوه عليه فقد عاشوا بجواره آمنين ، مع أنهم لم يكونوا أقل من كعب نشاطاً فى التحدث عن النبي بالسوء ، وغاية ما ألزموه هو أنهم عاهدوه على ألا يساعدوا أعداء المسلمين ، ولا يحاربوا المسلمين .

لقد أنكر الطاعنون على المسلمين قتل كعب غيلة ، وأول ما نريد أن ننبه إليه هو أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يُشر بها . فهو من المؤاخذة عليها براء إن كان ثم مؤاخذة .

وماذا فعل المسلمون بكعب ؟ ! إنهم أرسلوا إليه سرية (فصيلة من الجيش) فاختار قائدها أيسر السبل للقضاء على عدوه ، فقد كان عليه أن يسلك إحدى سبيلين : فإما أن يقاتل القبيلة جميعها ويعمل فيها سيفه ويتركها بعد ذلك جثثاً هامدة وأشلاء متناثرة ، وإما أن يقتل غريمه ويثأر من عدوه ، ولا يأخذ الأبرياء بذنب المجرم ؛ فاختار الطريق الأخير حقناً للدماء وحفظاً للأرواح .

وبعد ، فهؤلاء الذين ينسبون إلى النبي هذه المفتريات يقضى قانونهم بقتل من يتجسس للأعداء ، وهم مع ذلك يأخذون على المسلمين قتل من نقض عهدهم ، وناصر أعداءهم ، وجاهر بعداوتهم ، وبيت الشر لنبيهم ، فهم يحرمون على الناس ما أوجبوه على أنفسهم !

(٥) قتل سلام بن الحقيق النضرى :

يقول « موير » تحت عنوان « اغتيال أبى الحقيق النضرى »

لقد أقامت جماعة من بنى النضير بعد نفيهم مع إخوانهم فى خيبر ، ثم اتصل أبو الحقيق زعيمهم بالقوى المتحالفة التى حاصرت المدينة وأخذ يشجع بعض القبائل من البدو على السلب والنهب ، فجردت حملة ـ بقيادة على ـ على يهود خيبر ، ثم صمم محمد صلى الله عليه وسلم على وقف عدوانهم ، فلم يجد بداً من أن يتخلص من محرضهم المزعوم زعيما لليهود . . . . . . ولكن قتل أبى الحقيق لم يبدد مخاوف محمد من يهود خيبر ، لأن أُسَيْر بن رزام الذى خلفه فى الزعامة أبقى علاقته مع غطفان ، وقيل إنه أخذ يرسم الخطة للزحف على المدينة .

ومن المعروف فى السير أن بنى النضير (وهم قبيلة يهودية) سكنوا المدينة وكانوا فى حلف مع المسلمين ، ولما سلكوا سبيلا شائنا باتصالهم بالقبائل المعادية ، وكان من أثر ذلك هجوم إحدى القبائل العربية المحالفة لهم وقتلهم كثيراً من المسلمين غدراً ـ طلب إليهم النبى أن يرعوا عهودهم . ويكفوا عن مناصرة أعداء المسلمين ، فلم يستجيبوا إلى طلبه ، فأخرجوا من المدينة ، فلجئوا إلى خيبر ، وهى حصن اليهود المنيع ، وأصبحوا بذلك مصدر فتنة ومبعث شر للمسلمين ، لأنهم دأبوا على تحريض القبائل المجاورة ، وبث روح العداوة والبغضاء للمسلمين ، ثم اشتركوا فى محاربتهم .

وكان أبو الحقيق هذا قائداً فى موقعة الأحزاب التى اجتمع فيها كثير من القبائل العربية واليهودية ليستأصلوا شأفة المسلمين ويناوئوا النبى ومن تابعه ، وأعدوا ما استطاعوا من قوة ، وجمعوا ما وصلت إليه أيديهم من عدد وعدد

ولكن الله نصر المسلمين وشدّ أزرهم ، وارتد الأحزاب مهزومين مخذولين .
ولكن أبا الحقيق لم يكف عن مناصرة القبائل العربية التى تعيش حول المدينة ولم يمتنع عن بث روح العداء على المسلمين

ومن ذلك يتجلى أن يهود خيبر عامة ويهود بنى النضير وزعيمهم خاصة أعداء للمسلمين يتربصون بهم الدوائر، فلا بد من تأديبهم ، وخضد شوكتهم ، والحد من سطوتهم ، فرأى المسلمون حقناً للدماء وحفظاً للأرواح أن يطفئوا جذوة الشر، فأرسلوا جماعة للقضاء على مصدر الفتنة ، وهو أبو الحقيق ، فقد ينقطع الشر ، ويصفو العيش للمسلمين .

فذهبت تلك الجماعة وقتلت هذا الزعيم المناوئ ، ولكن ذلك لم يؤد إلى الغرض المنشود ، فكان لا بد من إرسال جيش لفتح خيبر

هذا رجل قاتل المسلمين وحرض عليهم القبائل وناصر أعداءهم وتزعم محاربيهم ، فهل إذا بعث إليه المسلمون بمن يثأر منه لاموهم على مافعلوا ووصفوهم بالقسوة والغلظة ؟

أما أسير بن رزام فانه قام وحرض اليهود ، وسار إلى غطفان ، وجمعهم وهم أن يذهب بجمعه إلى المدينة ليغزو النبى صلى الله عليه وسلم فى عقر داره ويبلغ ما يريد ، فلما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم ماهو فيه ، استطلع الخبر ، فعلم بما أراد من تسيير الكتائب ، فأرسل له النبى صلى الله عليه وسلم عبدالله ابن رواحة ، فى سرية نحو الثلاثين من الأصحاب ، فقدموا عليه وقالوا : نحن آمنين حتى نعرض عليك ماجئنا له . فقال : نعم ، ولى منكم مثل ذلك . فقالوا : نعم . فقالوا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنا إليك لتخرج إليه يستعملك على خيبر ويكرمك . فشاور قومه فخالفوه ، فقال : إنا مللنا الحرب ، وخرج

مع المسلمين ومعه ثلاثون من اليهود مع كل واحد رديف من المسلمين ، وحمل عبد الله أسيراً معه ، حتى إذا كانوا بقرقرة ندم أسير على خروجه ، وهم ليفتك بعبد الله ففطن له وهو يريد السيف فدفع بعيره ، وقال : غدراً ياعدو الله ! غدراً ياعدو الله ! وضربه بالسيف ، فسقط عن بعيره ؛ ومال كل واحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى صاحبه من اليهود فقتله . وعلى الباغى تدور الدوائر ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه !

فبمثل هذا كان الغدر من المنافقين وأعداء الدين ، وكان الفتك والقتل من المسلمين انتصاراً لدين رب العالمين

(٦) فرية هتك النساء .

حاول مستركاش إلصاق تهمة شنيعة بالنبي صلى الله عليه وسلم وهى أنه أباح هتك نساء بنى المصطلق، وقد ادعى أن «جميع كتب الأثر» قد وردبها هذا الخبر، وهو افتراء جرىء ، وبهتان عظيم ، إذ لا يحوى كتاب واحد من كتب الحديث شيئا يصلح أو يمكن أن يصلح أساسا لهذه التهمة ، وكل ماعثرنا عليه فى هذه الكتب رواية لأبى سعيد ، أن بعض الرجال من جيش المسلمين أرادوا أن يعقدوا صلات زوجية مؤقتة مع بعض النساء من أسرى الحرب ، على أن يستعملوا طريقة لمنع النسل ، وليس هناك مايشعر بأن النبي قد أجاز لهم ذلك أو أنهم فعلوه ، مع أن الزواج المؤقت كان مباحا قبل الإسلام ، ثم حرمه الإسلام بعدُ جريا على سنته فى اتباع طريق التدرج فى الإصلاح ، وإذا كانوا قد تزوجوا من بعض الأسرى فأحكام القرآن صريحة فى إباحة التزويج منهم، والآية الآتية برهان واضح على ما نقول :

﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَامَلَكَتْ

أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ، فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ سورة النساء

أما فيما يتعلق بمعاملة نساء بنى المصطلق خاصة ، فكل المصادر التاريخية تحدثنا بأن النبي قد أعتق إحداهن وهى جويرية بنت الحارث ثم تزوجها ، فلما علم الناس بذلك قالوا : أصهار رسول الله ، فأعتقوا ما بأيديهم من السبى . قالت عائشة رضى الله عنها : قد أعتقوا مائة أهل بيت بتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها ، فلا أعلم امرأة أعظم بركة على أهلها منها .

فهل رأيت بهتانا أعظم وحديثا أكثر افتراء من تلك الأحاديث التى افتروها على النبى فى سيرته ، ذلك النبى الكريم الذى قاتل خزاعة فلم يلبث أن صاهرها ورفق بها وأصبح من أنصار أهلها ، بعد أن كان بالأمس من أعدائها؟ ! الحق أنه رحمة لا نقمة ، فما عرف عنه صلى الله عليه وسلم ولا عن أصحابه قسوة ولا مُثْلَة بل كان صلى الله عليه وسلم وأصحابه أعدل الناس وأشد الخلق رحمة وشفقة ، ولم يحملهم على قتل المشركين الذين كفروا بالله إلا أمر عظيم ، فكانوا أشد ما يكون إيذاء وتحريضا وهجواً لحضرة النبى صلى الله عليه وسلم ولأصحابه رضى الله عنهم . فهل تعد قسوة قتل سيدنا على لمثل غزوك اليهودى الذى كان يثخن فى الأرض ، ويأخذ المسلمين على غرة ، فيقتل من يصل إليه ، ويرمى بنبله

من بعد عنه ، وما فتىء يفعل ذلك ليل نهار حتى كمن له أبو تراب وشد عليه فقتله ، وفر من كان معه ، وكفى الله المسلمين شره . ولم لا يكون مثل هذا دفاعا ومنعا للأذى ؟ وما جزاء المنافق المؤذى الذى يحرض ويوقع الفتنة والضرر إلا القتل؟ وكيف ينسب اليهم القسوة ، والنبي صلى الله عليه وسلم يوصيهم دائما بتقوى الله وينهاهم عن قتل النساء والولدان والمسن من الرجال ، ويأمرهم بقتال من كفر بالله وألا يمثلوا ولا يغدروا ؟ فهاك أبا دجانة رضى الله عنه قد حمل بسيفه على رأس إنسان وجده يحمس الناس حمسا شديدا ، فصمد اليه فلما حمل عليه بالسيف ولول فتبين أنه امرأة فكف عن قتلها ، فليم فى ذلك ، فقال : أكرمت سيف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن أضرب به امرأة

وقيل إن هندا جاءت مع نسوة فى سفح الجبل وأخذن يغنين ويحرضن المشركين فحمل عليهن أبو دجانة بالسيف فنادت هند بالصخر ! فلم يجبها أحد فانصرف عنها وقال : أكرمت سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتل امرأة لاناصر لها . والشواهد على ذلك كثيرة جدا غاصة بها كتب المغازى والسير ومما يشهد لهم على حفظ كرامة المرأة ، ومنع الضرر والأذى عنها ، أن امرأة من قينقاع خرجت إلى السوق لتبيع شيئا وجلست عند صائغ يهودى فطلب منها كشف وجهها فأبت، فحاول الاساءة اليها فصاحت ،فوثب عليه رجل من المسلمين فقتله. فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود . وكان اليهود إذ ذاك أظهروا البغى والحسد ونبذوا العهد بعد غزوة بدر حتى نزل قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ وعلى هذا كان التعدى والبدء بالعداوة من المشركين مما يهيج غيظ الحليم

الباب الثالث عشر

موجز السـيرة النبوية

ليس الغرض من هذا الباب بسط القول فى السيرة النبوية ، فذلك له كتبه : وإنما القصد الإلمام بطرف من سيرته عليه الصلاة والسلام ، ليرجع إليه من يريد الحقائق التاريخية .

نسب النبي صلى الله عليه وسلم

(ا) نسبه من جهة أبيه

هو سيدنا أبو القاسم مُحمدُ بنُ عبدِ الله ، بنِ عبد المطلب ، بنِ هاشم ، ابنِ عبد مَناف ، بنِ قُصى ، بنِ حكيم ، بنِ مرةَ ، بنِ كعب ، بنِ لُؤَىّ ، بنِ غالب ابنِ فِهْر ، بنِ مالك ، بنِ النَّضر ، بنِ كنانةَ ، بنِ خُزيمة ، بنِ مُدركة ، بنِ إلياس ابنِ مُضَر ، بنِ نِزار ، بنِ مَعَدّ ، بنِ عدنان ؛ وينتهى نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

(ب) نسبه من جهة أمه

هو سيدنا مُحمدُ بن آمنةَ ، بنتِ وَهْب ، بنِ عبد مَناف ، بنِ زُهرة ، بنِ حكيم . فتجتمع معه عليه السلام فى جده حكيم .

أدوار حيـاة الرسول

لحياته عليه السلام ثلاثة أدوار :

(١) من ولادته إلى النبوّة . (٢) من النبوّة إلى الهجرة .

(٣) من الهجرة إلى وفاته .

(١) الدور الأول — من حمله إلى النبوة

تزوج أبو الرسول (عبد الله بن عبد المطلب) ـ فى الثامنة عشرة من عمره ـ آمنة بنت وهب ، فحملت منه برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوفى وهى حامل به أو بعد وضعه بشهرين ، وكانت ولادته ليلة الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول عام الفيل ، حين طلوع الفجر (وقت البركة) ، فى زمن الملك العادل كسرى أنوشْروان ملك فارس ، ولم يرث عن أبيه إلا خمسة جمال ، وبعض نعاج وجارية ، وأرضعته حليمة السعدية ، فدرّت البركات عليها وعلى أهل بيتها ، مدّة وجوده بينهم .

وفى السنة السادسة أخرجته أمه إلى أخواله بالمدينة ، فتوفيت بالأَبْواء (قرية قريبة من المدينة) ، فحضنته أم أيمن ، وكفله جده عبد المطلب مدة سنتين ، ثم توفى فكفله عمه أبو طالب .

وفى السنة التاسعة من عمره ، سافر إلى الشام أوّل مرة مع عمه هذا .

وفى السنة العشرين من عمره حضر حرب الفجار (حرب كانت بين قريش وحلفائها ، وقيس وحلفائها ، فى موضع يسمى « نخلة » بين مكة والطائف) .

وفى السنة الخامسة والعشرين من عمره ، سافر إلى الشام بتجارة لخديجة بنت خويلد لأمانته وصدقه ، مع غلامها ميسرة ، فباعا واشتريا ، وربحا أعظم ربح ، وبعد شهرين من رجوعه من الشام ، خطبته خديجة لنفسها ، فتزوج بها ولها من العمر حينئذ أربعون سنة .

وفى السنة الخامسة والثلاثين من عمره ، صدّع سيل جارف جدران الكعبة بعد توهين من حريق كان قد أصابها ، فشارك الرسول قريشاً فى بنائها . ولما

اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود حتى كادوا يقتتلون ، أدركهم الله بالرسول الفطن، فبسط رداءه وقال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب . ثم وضع الحجر فيه ، وأمرهم برفعه حتى انتهوا إلى موضعه ، فأخذه الرسول ووضعه فيه .

ولما بلغ الأربعين أكرمه الله بالرسالة .

معيشته قبل النبوة

نشأ عليه الصلاة والسلام مفطوراً على محاسن الأفعال ومحامد الأعمال ، وعى الغنم مع إخوته من الرضاع فى البادية ، ولما رجع إلى مكة كان يرعاها لأهلها بأجر ، ولو أراد ثراء المال كان له وَفْر ، ولاسيما بعد أن استأجرته خديجة ، واختارته زوجاً لها . لكنه لم تغره زخارف الدنيا . بل كلما تقدمت به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الناس ، ونما فيه حب العزلة والانقطاع إلى الفكر والمراقبة والتأمل . ولم يزل يناجي الله ، ويتوسل إليه ، حتى أكرمه بالنبوة .

(٢) الدور الثانى — من النبوة إلى الهجرة

ولما أحب الرسول الانقطاع عن الناس ، كان يتعبد فى غار حِرَاء (جبل بمكة) عشر ليال أو أكثر . وأول ما فُتح له من الدلالات الرؤيا الصالحة الصادقة . ولما بلغ عليه السلام أربعين سنة اختاره الله لرسالته . وأنزل عليه الروحَ الأمينَ وهو فى غار حراء . ليعلمه كيف يهدى قومه والناس أجمعين . وفى الثالثة والأربعين من حياته الشريفة ، بلّغ ما أنزل إليه من ربه . وكانت الدعوة سراً . فأجابها كثير من الأشراف والموالى .

فترة الوحى

انقطع الوحى مدة أربعين يوماً ، ليشتد شوقه عليه السلام إليه ، فيكون

باستعداده لتلقيه أكثر . ثم تتابع نزول الوحي عليه صلى الله عليه وسلم . وأول ماعلمه جبريل مَلَكُ الوحي من الآيات قوله تعالى : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ .

الدعوة سراً ثم جهراً

ابتدأت الدعوة سراً خوفاً من مفاجأة الناس بأمر غريب . ثم أمره الله بالجهر بقوله : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ . فلبى داعي الله ، وخاض غمرات الدعوة ، ودعا الناس إلى عبادة الله تعالى وحده ، وأن يتركوا ما كان عليه آباؤهم : من الشرك ، والكفر ، وعبادة الأوثان . ودعاء الأصنام . فمنهم من هُدى ، ومنهم من حقت عليه الضلالة .

وقد لاقى من أجل ذلك أذىً عظيما من قومه ، وكان يشتد أذاهم له إذا ذهب الى الصلاة عند البيت ، ولم يزل صابراً على أذاهم حتى صرع الحق الباطل .

السنة الخامسة من النبوة وما بعدها

فى هذه السنة أمر الرسول أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، فهاجر أناس منهم لم يكن لهم عشيرة تحميهم ، أو قبيلة ترد عنهم كيد أعدائهم ، فراراً بدينهم . وهى أول هجرة من مكة ، وعدة أصحابها عشرة رجال وخمس نسوة . ثم رجعوا بعد ثلاثة أشهر . وفى ذلك الوقت أسلم حمزة عم الرسول ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، وكان المسلمون إذ ذاك بضعة وأربعين رجلا ، وإحدى عشرة امرأة .

وفى السنة السابعة أمر الرسول أصحابه بالهجرة إلى الحبشة للمرة الثانية . وعدة أصحابها نحو ثلاثة وثمانين رجلا وثمانى عشرة امرأة . فلما رأت قريش

استقرار المهاجرين فى الحبشة ، أرسلوا إلى ملكها النجاشى رسولين بهدايا وتحف ، رجاء أن يرد من هاجر إلى بلاده من المسلمين ، فأبى وردهما خائبين ، ثم أسلم النجاشى لما دعاه النبي للإسلام ، بالكتاب الذى بعث به إليه مع عمرو بن أمية الضمرى ، كما تقدم . وكذلك أسلم من رحل مع عمرو من الحبشة إلى المدينة : من القسيسين والرهبان ، سنة سبع من الهجرة ، لما سمعوا من النبي سورة يس . ثم مات النجاشى مسلما ، وصلى عليه رسول الله لما أعلمه جبريل بوفاته . وهذه هى أصل صلاة الجنائز على الغائب

وفى السنة العاشرة من بدء الوحى وفد على النبي وفد من نصارى نجران ، فأسلموا .

وفى تلك السنة توفيت خديجة زوج الرسول ، وبعد وفاتها بنحو شهرين توفى عمه أبو طالب ، وكان يدرأ عنه الأعداء ويمنعه ممن يريد أذاه ، ولذلك نالت قريش من الرسول مالم تقدر على نيله فى حياة أبى طالب ، واشتد أذاهم له وتعصبهم عليه ، فلما رأى ذلك هاجر إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة ، فأقام بها شهراً يدعو بنى ثقيف إلى الله تعالى ، ليعينوه على قومه ، ويساعدوه حتى يتم أمر ربه ، فلم يجيبوا ، وآذوه إيذاء شديداً ، فرجع إلى مكة ، ودخلها فى جوار المُطْعِم بن عدى .

وفى السنة الحادية عشرة أكرمه الله بالإسراء والمعراج ، وفى المعراج فرضت الصلوات الخمس .

بدء انتشار الدين الإسلامى

لما حالت قريش بين الرسول وتأدية الرسالة ، خرج فى مواسم العرب ، وعرض نفسه على القبائل ، وممن كلمهم النبي نفر من عرب يثرب (المدينة

المنورة) من الأوس ، عرفوا وصفه الذى كانت تصفه به اليهود ، فآمن منهم ستة كانوا سبب انتشار الإسلام فى المدينة .

فلما كان العام القابل لقيه اثناعشر رجلا : عشرة من الأوس ، واثنان من الخزرج . وفيهم خمسة ممن قابلوه فى السنة الأولى ، فآمنوا عند العقبة — وهى العقبة الأولى — وبايعوه على ما أحب ، ثم انصرفوا إلى المدينة، فأظهر الله فيها الإسلام .

وفى العام التالى (الثالث عشر للنبوة) وفد على الرسول منهم سبعون رجلا وامرأتان ، فأسلموا وبايعوه عند العقبة — وهى العقبة الثانية — ثم نقّب عليهم الرسول اثنى عشر نقيباً منهم : لكل عشيرة نقيب .

ثم انصرفوا إلى المدينة فانتشر الإسلام فيها بين أهلها رضى الله عنهم .

(٣) الدور الثالث — من الهجرة إلى وفاته

الهجرة إلى المدينة

لما ازداد الأذى على المسلمين أمرهم الرسول بالهجرة إلى المدينة ، فصاروا يتسللون خوفاً من أن تمنعهم قريش ، ولم يبق فى مكة إلا القليل ، وإذ ذاك أجمع قريش أمرهم على قتل الرسول ، وجمعوا من كل قبيلة شاباً . حتى يتفرق دمه فى القبائل ، فأعلم الله نبيه بما دبره الأعداء من الكيد ، وأمره باللحاق بدار هجرته التى ينتشر فيها الإسلام ، فصدع بالأمر وسنه ثلاث وخمسون سنة ، وخرج من مكة فى الليلة التى فيها التف الشبان حول داره لاغتياله ، فألقى الله عليهم النوم فلم يره أحد ، وخلّف مكانه على بن أبى طالب ، ليؤدى ودائع للناس كانت عنده .

وقد صحبه فى هذه الهجرة أبو بكر ، فأسرعا فى السير حتى وصلا إلى غار

ثَوْر(١) . ولما علم المشركون بفساد مكرهم هاجوا لذلك ، وأرسلوا الطلاب إلى كل جهة ، وجعلوا لمن يأتى به أو يدل عليه مائة ناقة ، وقد وصلوا فى طلبهم إلى الغار ، فأعمى الله أبصارهم عنهما .

وبعد ثلاث ليال جاءهما الدليل براحلتين ، فساروا قاصدين إلى المدينة ، فوصلوا إلى قُبَاء(٢) يوم الاثنين لاثنتى عشرة خلت من شهر ربيع الأول . وكان التاريخ من ذلك . ثم رُدَّ إلى المحرم ، وهو أول تاريخ جديد لظهور الإسلام بعد أن مضى عليه ثلاث عشرة سنة ، وقد بنى رسول الله وهو فى قباء مسجدها الذى وصفه الله بأنه «مسجد أسس على التقوى من أول يوم» ، وقد صلى فيه الرسول بمن معه من المهاجرين والأنصار ، ثم برح الرسول قباء ، فأدركته الجمعة فى الطريق ، فصلاها بمن معه من المسلمين ، وكانوا مائة — وهذه أول جمعة صلاها — ثم توجه بعد الجمعة إلى المدينة والأنصار محيطون به وهم متقلدون سيوفهم ، فسُرّ أهل المدينة أيَّما سرور ، وقد خرج لملاقاته فيمن خرج النساء والصبيان والولائد يُنشدن :

أَشرق البـدر علينـا من ثَنِيَّات الوَداعْ(٣)
وجب الشكر علينا ما دعا لله داعْ
أيهـا المبعوث فينـا جئت بالأمر المُطَاعْ

السنة الأولى من الهجرة

فيها بنى مسجده الشريف ، وقد عمل فيه الرسول بنفسه ترغيبا للمسلمين فى العمل . وفيها شرع الأذان ، ليجتمع الناس متى حان وقت الصلاة .

(١) ثور : جبل بمكة . (٢) قباء : موضع بقرب المدينة على بعد ميلين جنوبيها .
(٣) ثنيات الوداع : بالمدينة . سميت بذلك لأن من سافر إلى مكة كان يودع هناك . والثنية العقبة .

ولما رأت اليهود أن قدم الإسلام قد رسخت فى المدينة ، هاجتهم العداوة والحسد ، فتحزبوا على المسلمين ، فعقد الرسول معهم عقداً على أن يتركوا أذاه ، ويترك محاربتهم .

مشروعية القتال

لم يقم الدين بالسيف وإنما قام بالدعوة والتبشير ، فعارض الرسولَ مَنْ عارضه ، وآذاه مَنْ آذاه بغيا وحسداً . وكان هو ومن آمنوا معه صابرين على الأذى ، حتى فرج الله عنهم بالهجرة ، وشد أزرهم ، وأباح لهم أن يأخذوا بثأرهم من أعدائهم قريش ، وغيرهم من العرب واليهود ، ثم صار الأمر بالجهاد عاما فيحارَب كلُّ من أراد المسلمين بسوء .

بدء القتال

لما أُذنَ للرسول أن يقاتل أعداءه ، أرسل سَرِيَّة (وهى كل غزاة لم يكن فيها رسول الله) برياسة عمه حمزة لاعتراض عيرهم (جمال تحمل الطعام وغيره) قادمة من الشام ، ولم يحصل حرب ، ثم أرسل سرية أخرى لاعتراض غيرهم ، وكان الرمى بالنبال إلى أن هرب المشركون .

السنة الثانية

فيها غزوة بدر الأولى(١) وتسمى غزوة سفوان(٢) خرج إليها الرسول فى طلب كرز ابن جابر الفهرى ، لأنه أغار على سَرْح(٣) المدينة وهرب ، ولم يكن قتال ؛ لفرار كرز

وفى هذه السنة أيضاً أرسل الرسول عليه السلام سرية برياسة عبد الله ابن جحش ، لاعتراض عير قريش القادمة من الشام ، فأصابوها ورجعوا . وهى أول غنيمة فى الإسلام .

---

(١) اسم بئر بين مكة والمدينة كانت الواقعة قريبة منها . (٢) واد من ناحية بدر .
(٣) السرح : المال ، كالغنم ونحوها .

وفى هذه السنة أيضاً تحولت القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة ، بعد أن مكث المسلمون يتوجهون إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً .

صوم رمضان وزكاة الفطر

فى شهر شعبان من هذه السنة فرض صوم رمضان ، وكان عليه السلام قبل ذلك يصوم ثلاثة أيام من كل شهر . وقد أوجب الشارع الحكيم عقب الصوم زكاة الفطر ، وجعل قبول الصوم معلقاً على بذلها لمستحقيها .

زكاة المال وحكمتها

وفى السنة الثانية أيضاً فرض الله على الأغنياء من الأمة الزكاة ، التى هى النظام الوحيد ، والسبب الأقوى ، لدفع غائلة الفقر عن الأمة ، إن هى صرفت لمستحقيها : فيأكل الفقراء والمساكين والعجزة واليتامى ، الذين ليس لهم من يقوم بحاجاتهم ، ولا ما يقيم أودهم من مال إخوانهم الأغنياء ، بلا ضرر ولا ضرار[1] .

غزوة بدر الكبرى — وهى الثانية

وفى هذه السنة خرج الرسول ومعه ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا ، وتعرضوا لإحدى قوافل قريش المارة بالمدينة ، وهى راجعة من الشام ، فعلمت قريش بذلك ، وخرجت إليه فى تسعمائة وخمسين رجلا ، وتقابل الفريقان على ماء بدر وانتصر المسلمون انتصاراً عظيما .

صلاة العيدين ، وزواج على بفاطمة ، وتزوج النبى عائشة

فى هذه السنة أيضاً سن الله صلاة العيدين : عيد الفطر ، وعيد الأضحى . وفيها تزوج على بفاطمة رضى الله عنهما ، وكان منها عقب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) ضرار : مضارة

وفيها تزوج النبي عائشة بنت أبي بكر الصديق رضى الله عنهما .

السنة الثالثة من الهجرة — غزوة أُحد(١)

فى هذه السنة سارت قريش فى ثلاثة آلاف محارب لحرب المسلمين ؛ أخذا بثأر من قتل من أشرافهم يوم بدر ، فجمع النبي تسعمائة رجل ، وتقابل الفريقان بجبل أحد ، وكاد ينتصر المسلمون ، لولا أن شُغل الرماة بالغنائم ، وتركوا أماكنهم ، فقُتل كثير من المسلمين ، وجرح النبي عليه السلام .

وفى هذه السنة تزوج عليه السلام حفصة بنت عمر بن الخطاب ، وزينب بنت خزيمة .

تحريم الخمر

وفى هذه السنة أيضاً حرم الله الخمر قطعاً ؛ لما فيها من الأضرار الجسيمة : فى العقل ، والمال ، والجسم

السنة الرابعة من الهجرة — غزوة ذات الرقاع(٢)

فيها خرج الرسول ومعه سبعمائة مقاتل ؛ لمحاربة بنى محارب ، وبنى ثعلبة المتهيئين لقتال المسلمين ، فهربوا وتركوا نساءهم . وفى هذه الغزوة نزل جبريل عليه السلام بصلاة الخوف ، ثم برخصة التيمم .

السنة الخامسة من الهجرة — غزوة الخندق وهى الأحزاب

فيها حرضت قريش القبائل على قتال النبي ، فاجتمع عدد منها وحاصروا المدينة ، ولكن المسلمين كانوا قد حفروا حولها خندقا ، فلم يستطع الكفار دخولها ، ولما طال مكثهم بدون فائدة اختلفوا فيما بينهم ، وهبت عليهم ريح عاصفة ، فتشتت شملهم ، وعادوا من حيث أتوا .

(١) جبل بالمدينة (٢) سميت بذلك : لأن المسلمين رقعوا راياتهم ، أو لفوا على أرجلهم فيها الخرق

فى هذه السنة أيضاً نزلت آية الحجاب . وفيها أيضاً فرض الحج على من استطاع إليه سبيلا ؛ ليجتمع المسلمون فى مكان واحد ، فيجددوا عهود الإخاء والولاء ، ويدعوا الله عز وجل أن يؤيدهم بنصره ، ويمكن قواعد الألفة بينهم . وفى ذلك من الفوائد السياسية والدينية ما لا يخفى على ذى بصيرة كما تقدم .

السنة السادسة من الهجرة — غزوة الحُدَيْبِيَة

فيها خرج الرسول معتمراً فى ألف وأربعمائة رجل ، سيوفهم فى أغمادها ، فجمعت قريش الجموع ، لتصدهم عن البيت الحرام . ولم تقع الحرب ، بل حصل صلح الحديبية بين الفريقين كما سبق بيانه .

السنة السابعة من الهجرة — غزوة خَيْبَر (١)

أراد النبي أن يؤدب اليهود ، لاشتراكهم مع أعدائه فى حصار المدينة . وكانوا قد تعهدوا بالتزام الحيدة ، فغزاهم فى بلادهم (خيبر) وفتحها ، وغنم المسلمون منها غنائم عظيمة .

السنة الثامنة من الهجرة — غزوة الفتح (٢)

غزا النبي المشركين فى معقلهم (مكة) وفتحها ، وهدم الأصنام فى الكعبة ، فخضعت له قريش واستسلمت ، فقابلها بالصفح ، وعفا عمن آذوه مع قدرته على الانتقام منهم ، فضرب لهم مثلا عاليا يزيدهم إيمانا بكريم خصاله . وأسلمت قريش جميعها يوم الفتح . وبذلك علت كلمة الإسلام .

نشر الإسلام خارج بلاد العرب

لما علت كلمة الإسلام ، وأمنت الطرق من قريش ، أنفذ النبي رسله إلى مختلف الأقطار ، وأرسل البعوث إلى ملوك الفرس ، والروم ، ومصر ،

(١) بلدة شمال المدينة ذات حصون ومزارع . (٢) فتح مكة .

والحبشة ، فأسلم بعضهم ، ورد البعض رداً حسناً . كالمقوقس عظيم القبط ، فانه أرسل إلى النبي جملة هدايا . ومنهم من أبى واستكبر ، وأهان الرسل ؛ فكانت عاقبته الخسران المبين .

السنة التاسعة من الهجرة

غزوة تَبُوك (١)

تعرف بغزوة العسرة ، لانها كانت فى زمن عسرة الناس ، وجدب الأرضين ، وشدة الحر

وسببها أن الروم جمعت الجموع بالشام مع هِرَقْل ، تريد غزو المسلمين فى بلادهم ، فعلم الرسول بذلك ، فسار بجيش عدده ثلاثون ألفاً ، من مكة والمدينة وقبائل العرب . وقد استقبل المسلمون فيها سفراً بعيدا ، ومفاوز مهلكة ، وعدوا كثيرا . حتى إنهم كانوا ينحرون البعير فيشربون مافى كَرِشه من الماء ، ولما وصلوا إلى تبوك ، لم يروا فيها جيشاً كما سمعوا ، فأقاموا بها عشرين ليلة من غير حرب ؛ ثم رجعوا

السنة العاشرة

بَعثات إلى اليمن

فى هذه السنة أرسل الرسول على بن أبى طالب فى ثلثمائة فارس إلى قبيلة بنى مذحِج من أهل اليمن ، وعقد لواءه بيمينه ، وعممه بيده ، وقال له : «سر حتى تنزل بساحتهم ، فادعهم إلى قول : لا إله إلا الله . فإن قالوا : نعم . فمرهم بالصلاة ، ولا تبغ منهم غير ذلك . ولأَنْ يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس . ولا تقاتلهم حتى يقاتلوك » وقال أيضا : « إذا

(١) مكان معروف فى منتصف الطريق بين المدينة ودمشق

جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر ». فسار علي حتى انتهى إليهم ، ولقي جموعهم فدعاهم إلى الإسلام، فأبوا. ثم أجابوا بعد قتالهم وهزيمتهم ، وبايعه رؤساؤهم ، وطلبوا منه أن يأخذ زكاة أموالهم ، وأن يكونوا على من وراءهم من قومهم .

ثم رجع علي - رضي الله عنه - بأصحابه فوافى الرسول بمكة ، وقد قدمها للحج في السنة العاشرة ، وقد كان الرسول أرسل إلى أهل اليمن من يعلّمهم شرائع الاسلام . وكانت اليمن كُورَتين (إقليمين) : فبعث مُعاذَ بن جبل إلى الكورة العليا من جهة عدن ، وبعث أبا موسى الأشعرى إلى الكورة السفلى : وقال لهما : « يسّرا ولا تعسّرا ، وبشّرا ولا تنفّرا » ثم انطلق كل منهما إلى عمله، فمكث معاذ باليمن حتى توفى رسول الله ، أما أبو موسى فقدم على النبي في حجة الوداع .

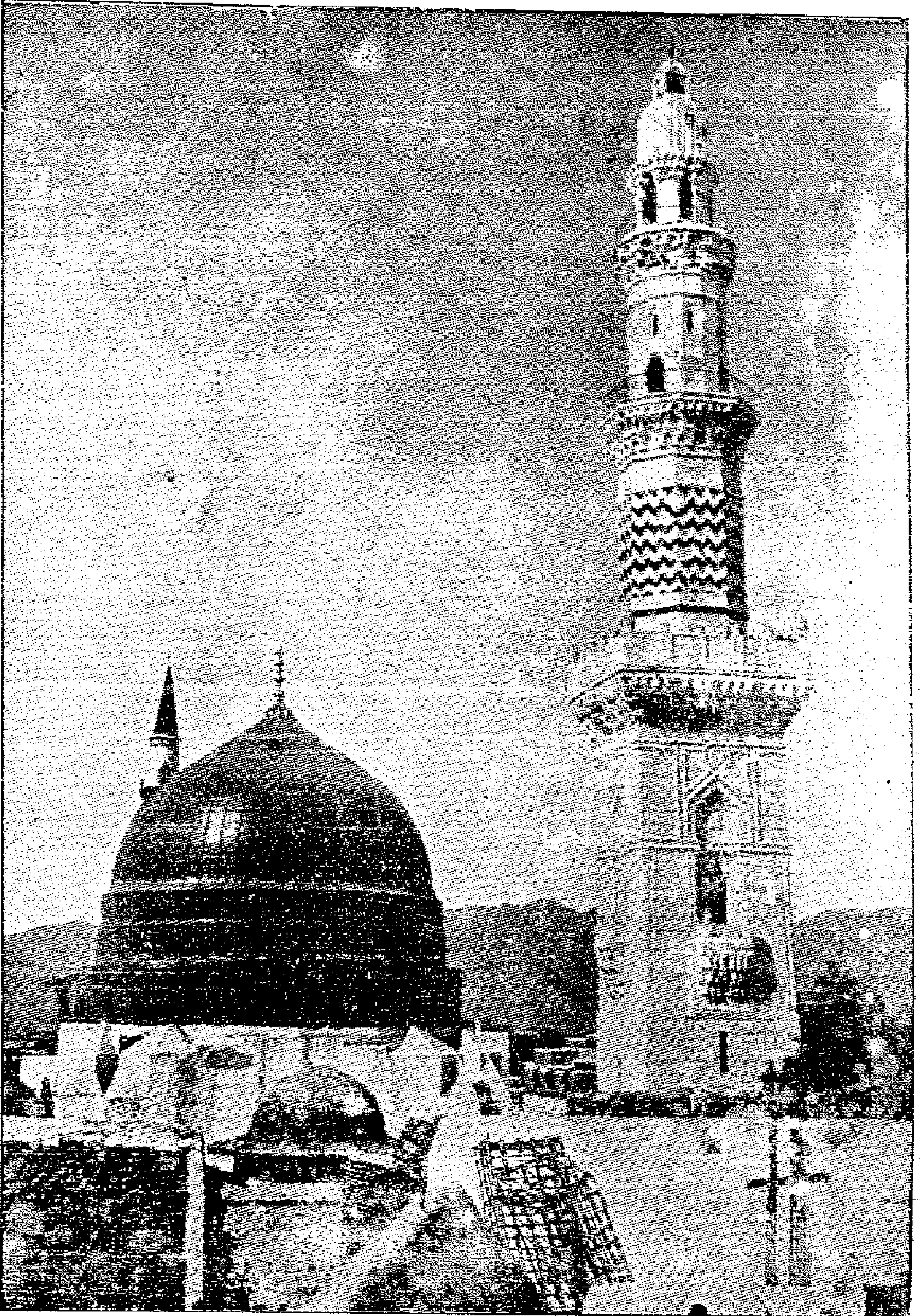
حَجَّة الوَداع

في السنة العاشرة من الهجرة حج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع وخطب في عرفة (في اليوم التاسع من ذى الحجة) خطبة الوداع ، بين فيها أهم أصول الدين وفروعه ، وقد تقدم ذكرها . وفي هذا اليوم نزل قوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

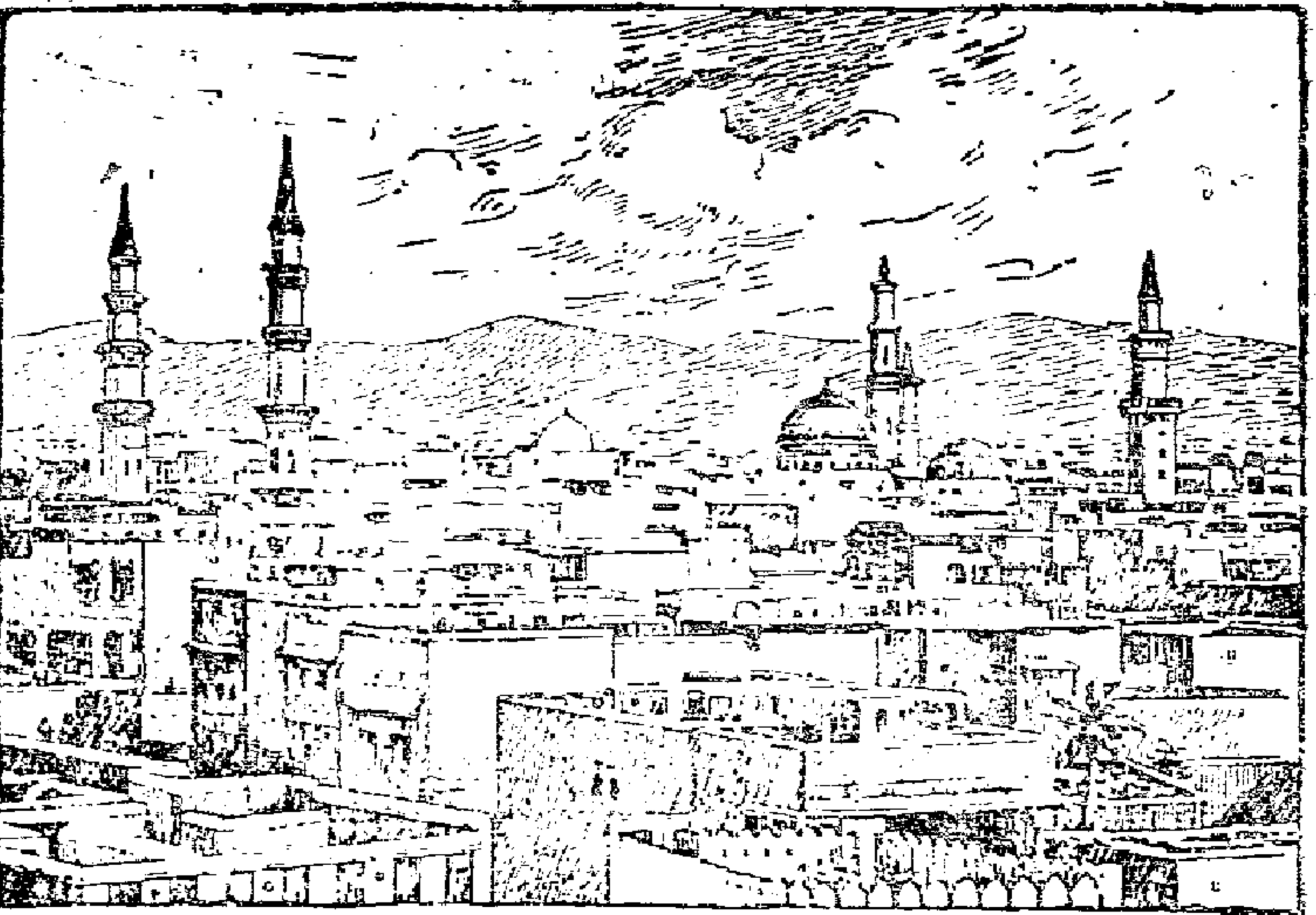
وبذلك أكمل الرسول شعائر الإسلام وأتم رسالته على أكمل وجه ، ثم عاد إلى المدينة .

مرض الرسول عليه السلام

بعد أن عاد الرسول من الحج إلى المدينة ، مرض ثلاثة أيام ، ولما اشتد عليه المرض ، استأذن نساءه أن يمرض في بيت إحداهن ، فأذنّ له ببيت عائشة ، ولما تعذر عليه الخروج إلى الصلاة . قال : « مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ»



قبة النبي صلى الله عليه وسلم



المدينة المنورة

ثم خرج متوكئا على عليّ والفضل، وتقدم العباس أمامهم، والنبي معصوب، يخط برجليه، حتى جلس فى أسفل مرْقاة المنبر، فثار إليه الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم. هل خُلِّد نبي قبلي فيمن بعث، فأُخَلَّد فيكم؟ ألا وإنى لاحق بربى، ألا وإنكم لاحقون بى. فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً، وأوصى المهاجرين فيما بينهم. فإن الله تعالى يقول: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾. وإن الأمور تجرى بإذن الله فلا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله. فإن الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد، ومن غالب الله غلبه، ومن خادع الله خدعه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾. وأوصيكم بالأنصار خيراً. فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم: أن تحسنوا إليهم. ألم يشاطروكم فى الثمار؟ ألم يوسعوا لكم فى الديار؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة؟ ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم، وليتجاوز عن مسيئهم. ألا ولا تستأثروا عليهم. ألا وإنى فَرَطٌ لكم[1]. وأنتم لاحقون بى. ألا وإن موعدكم الحوض. ألا فمن أحب أن يَرِدَهُ عليّ غدا فليكفف يده ولسانه إلا فيما ينبغى. يأيها الناس: إن الذنوب تغير النعم وتبدل القسم: فإذا برّ الناس برَّهم أئمتهم، وإذا فجروا عقُّوهم»

وفاة الرسول عليه السلام

اشتد وجع الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الأحد. ولما كان يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول الذى هو تتِمة عشر سنين للهجرة، فارق الرسول

(١) فرط لكم: متقدمكم. وأصل الفرط من يتقدم الوراد فى طلب الماء ليهيء لهم وسائل الورود من الدلاء وغيرها.

دنياه ، ولحق بمولاه ، واختار الرفيق الأعلى على زهرة الحياة ؛ بعد أن أدّى الأمانة حق أدائها ، وهدى الناس الصراط المستقيم ، ودعاهم إلى عبادة الله العظيم . فلقى من أجل ذلك مشقات جمة ، وأهوالا عظيمة . ثبت أمامها غير هياب ولا وجل ، حتى صرع الحق الباطل . وانتشرت أشعة الدين الحنيف . فأنارت البصائر والأبصار ، فنطقت الألسنة بالشكر له والثناء عليه .

وبوفاته حزنت النفوس حزنا شديداً على فراقه فاللهم آت سيدنا محمدا الوسيلة والفضيلة ، وابعثه الله المقام المحمود الذى وعدته ، إنك لا تخلف الميعاد

دفنه عليه السلام

بقى عليه السلام فى بيته حتى انتهى المسلمون من إقامة خليفة لهم ثم غسّل وكفن فى ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عمامة ، ووضع على سرير فى بيت عائشة وصلى عليه المسلمون جميعا بلا إمام : الرجال، ثم النساء، ثم الصبيان . وحُفر له لحد فى بيت عائشة ، حيث دفن ليلة الأربعاء فى جوف الليل ، تاركا للمسلمين شيئين لا يضرهم أحد ما تمسكوا بهما . وهما :

(١) كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

(٢) والأحاديث التى حفظها عنه الثقات ، وكانت تشريعا وتثبيتا للأحكام ، وتبييناً لمقاصد القرآن الكريم

وعاش عليه السلام ثلاثا وستين سنة : أربعين قبل النبوة . وثلاث عشرة سنة فى مكة بعدها ، وعشر سنين فى المدينة بعد الهجرة

نسأل الله القدير أن يتوفّانا على ملته ، ويقدرنا على العمل بشريعته ، ويثبتنا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

انتهى

